سارقة الكتب

ماركوس زوساك

مكتبة ٣٢١

(قاطفة الكلمات)

رواية

ترجمة: داليه مصري

مكتبة | 321

سارقة الكتب

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

The Book Thief

Markus Zusak

Illustrations by: Trudy Whilte

سارقة الكتب - رواية

تأليف: ماركوس زوساك

اللوحات الداخلية: ترودي وايت

ترجمتها عن الإنكليزية:داليه مصري

الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 1 - 53 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2018

مكتبة أحمد

٢٠١٨١٢١

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

Text copyright © Markus Zusak,2005
Illustrations copyright © Trudy White,2005

ماركوس زوساك

سارقة الكتب

مكتبة | 321

telegram @ktabpdf

ترجمتها عن الإنكليزية:

داليه مصري

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق.

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

سارقة الكتب

إلى إليزابيث وهيلموت زوساك،

مع كل الحب والتقدير...

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الشكر والتقدير

أود أن أبدأ بشكر آنا ماكفارلان (الإنسانة الودودة الواسعة المعرفة) وإرين كلارك (لنظرها الثاقب، ولطفها وتقديمها للنصيحة الصحيحة في الوقت المناسب دوماً). والشكر الموصول أيضاً إلى بري تونيكليف لِسِعة صدرها وصبرها عليّ.

كما أنني مدين لترودي وايت لجمال روحها وموهبتها. ويُشرفني أن تُشكّل أعمالها الفنية جزءاً من هذه الصفحات.

لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النور لولا جهود الأشخاص التالية أسماؤهم: كيت باترسون، نيكي كريستر، جو جراح، أنيز ليندوب، جين نوفاك، فيونا إنغليس، وكاثرين درايتون. الشكر لكم على تسخير وقتكم الثمين لهذه القصّة، ولي شخصياً. وأنا أقدّر ذلك بما يفوق قدرتي على التعبير.

الشكر الجزيل أيضاً للمتحف اليهودي في سيدني، والنصب التذكاري الأسترالي للحرب، والسيدة دوريس سيدر في المتحف اليهودي في ميونخ، والسيد أندريوس هيوسلر في أرشيف مدينة ميونخ، والسيدة ريبيكا بيهلر (للمعلومات القيّمة التي قدّمتها عن العادات الموسمية لأشجار التفاح).

سارقة الكتب

كما أنني ممتن لدومينيكا زوساك، وكينغا كوفاكس، وأندرو جانسون على سعة صدرهم خلال جميع تلك المحادثات والجدالات.

وأخيراً، أتوجّه بالشكر الخاص إلى ليزا وهلموت زوساك - على القصص التي لم يكن من السهل تصديقها، وعلى أوقات المرح والضحك، وعلى إظهارهم لي جانباً آخر.

ماركوس

تمهيد

سلسلة جبال من الأنقاض

حيث يُقدِّم الراوي:

نفسه - والألوان - وسارقة الكتب

سارقة الكتب

الموت والشوكولاته

أولاً الألوان.

ومن ثم البشر.

هذه هي عادتي في رؤية الأشياء.

أو على الأقل، هكذا أحاول أن أراها، وفق هذا الترتيب.

إليكم حقيقة صغيرة

سوف تموتون

بالمجمل، أحاول بكل صدق أن أكون مرحاً بشأن هذا الموضوع، على الرغم مِن أن معظم الناس لا يجدون سهولة في تصديقي، مهما حاولتُ أن أُثبت لهم عكس ذلك. أرجوكم أن تصدقوني. من المؤكّد أنه في إمكاني أن أكون مرحاً، وعذب المعشر، ومحبوباً، وغيرها الكثير من الصفات. ولكن لا تطلبوا مني أن أكون لطيفاً. فليس لي علاقة باللطف، لا من قريب ولا من بعيد.

سارقة الكتب

رد الفعل على الحقيقة الآنفة الذكر

هل تُقلقكم هذه الحقيقة؟

اسمحوا لي بأن أطلب منكم ألا تخافوا أو تقلقوا.

فأنا لستُ شيئاً إن لم أكن عادلاً.

لا بدّ من المقدمات، بالطبع.

لا بدّ من بداية.

أين هي دماثتي؟

يمكنني أن أعرّف عن نفسي بشكل لبق وملائم، ولكن لن يكون ذلك ضرورياً حقاً. فالحقيقة هي أنكم ستعرفونني حق المعرفة عمّا قريب، وهذا يتوقف على مجموعة متنوعة من المتغيرات. ويكفي أن أقول إنه في وقت ما، سوف أكون جاثماً فوقكم، محاولاً أن أكون ودوداً قدر الإمكان، حاملاً روحكم بين يديّ. حيث سيحُط لون على كتفي، وسأحملكم برقة نحو البعيد.

في تلك اللحظة، سوف تكونون مستلقين هناك (فنادراً ما أجد الناس واقفين)، غارقين في جسدكم. قد تكون هناك دهشة أو صرخة تتدفق عبر الهواء، ليكون الصوت الوحيد الذي أسمعه بعد ذلك هو صوت تنفّسي، ووقع خطواتي المبتعدة.

والسؤال هنا، ما هو اللون الذي سوف يطغى على كل شيء في تلك اللحظة عندما آتي إليكم؟ ماذا ستقول السماء؟

أنا شخصياً أُحبّ السماء بلون الشوكولاته. الشوكولاته الداكنة جداً. وفي الحقيقة، يقول الناس إن هذا اللون يناسبني تماماً. إلا أنني أحاول مع ذلك أن أستمتع بكل الألوان التي أراها – الطيف اللوني بمجمله. كما أن

سارقة الكتب

هناك ملياراً أو نحو ذلك من الألوان المختلفة التي لا يُشبه أي منها الآخر، وهناك سماء واسعة تكفي للاستمتاع بها على مهل. كلُ ذلك يدفع عني الإجهاد والتوتر، ويساعدني في الاسترخاء.

نظرية صغيرة

يُلاحظ الناس الألوان التي يصطبغ بها اليوم في بدايته ونهايته فحسب، ولكن من الواضح بالنسبة إليَّ أن اليوم يندمج بالعديد من الظلال والتدرّجات اللونية، مع مرور كل لحظة. حيث يمكن لساعة واحدة أن تتكون من آلاف الألوان المختلفة. بدءاً من الأصفر الشمعي، وصولاً إلى تدرجات الأزرق المختلفة، والظلام الداكن في نهاية المطاف. أما أنا فأجعل من ملاحظة اختلافها وتبدُّلها جزءاً من سيرورة عملي اليومي.

هناك نعمة واحدة تنقذني، ألا وهي الإلهاء. فهي تُبقي لي على رجاحة عقلي، وتساعدني في التأقّلم، وخاصة في ظل الوقت الطويل الذي قضيته حتى الآن في أداء هذا العمل. والمشكلة هنا هي، من يُمكنه أن يحلّ محلي في أداء هذه المهمة؟ من يستطيع أن ينوب عني خلال الوقت الذي أقضي فيها إجازة في إحدى المنتجعات الفارهة في أي من تلك الوجهات السياحية المشهورة، سواء كانت رحلة إلى منطقة استوائية أو إلى إحدى تلك المناطق الجبلية حيث تستمتعون بالتزلج؟ الجواب، بالطبع، هو لا أحد. وهو الأمر الذي دفعني إلى اتخاذ قرار واعٍ، متعمّد - يقوم على جعل الإلهاء عطلتي الخاصة. وغني عن القول، فأنا أستمتع خلال عطلتي بالألوان.

سارقة الكتب

ومع ذلك، فمن الممكن أن تتساءلوا، لماذا قد أحتاج إلى عطلة؟ وما هي الأشياء التي أحتاج إلى إلهاء عنها؟

يقودني جوابي عن أسئلتكم إلى النقطة التالية.

البشر الباقون.

الناجون.

فأنا لا أُطيق النظر إليهم، على الرغم من أنني ما زلتُ، وفي مناسبات عديدة، أفشل في تجنّب النظر إليهم. وبالتالي فأنا أسعى متعمداً لملاحقة الألوان لأشغل تفكيري عنهم، ولكنني في بعض الأحيان، أرى أولئك الباقين على قيد الحياة، وهم يتداعون بين أحجية الوجود، واليأس، والدهشة، بقلوب مثقوبة، ورئتين متهالكتين.

وهذا بدوره يُعيدني إلى الموضوع الذي سأرويه لكم لك هذه الليلة، أو اليوم، أو أياً كانت الساعة واللون. إنها قصّة أحد أولئك الناجين الدائمين – أحد الخبراء في البقاء على قيد الحياة، دون غيرهم.

إنها في الحقيقة مجرّد قصّة صغيرة حقاً، تدور عن وبين العناصر التالية:

- فتاة.
- بعض الكلمات.
- عازف أكورديون.
- بعض الألمان المتعصبين.
- ملاكم يهودي.
- والكثير من السرقة.

على امتداد سنين حياتها، شاهدتُ سارقة الكتب ثلاث مرات وذلك في ثلاث مناسبات منفصلة، جاءت على النحو التالي:

بجوار خط السكك الحديدية

مكتبة أحمد

في لقائنا الأول، كان اللون الذي صبغ كل شيء هو اللون الأبيض، ومن النوع الذي يُعمي الأبصار.

البعض منكم يظنون على الأرجح أن الأبيض ليس لوناً حقاً، ويؤمنون بكل الهراء المرتبط بهذه المسألة. حسناً، أنا هنا لأؤكّد لكم بأن الأبيض هو لون بلا شك، وأرى شخصياً أنه من الأفضل لكم ألا تدخلوا في جدال معي حول هذا الموضوع.

إعلان مطمئن

أرجو أن تُحافظوا على هدوئكم على الرغم من تهديدي السابق.
فأنا قد أُرعد وأزبد، إلا أنني في الحقيقة لستُ عنيفاً، ولستُ خبيثاً.
أنا نتيجة فقط.

نعم، كان اللون أبيض.

بدا وكأن العالم كله مغطّى بالثلج. وكأن الكون يرتدي الثلج الأبيض

سارقة الكتب

كثوب يستره. بجانب القطار، بدت آثار الأقدام الغارقة في الثلج حتى الركبة واضحة المعالم. أما الأشجار فقد تدثّرت بوشاح جليدي.

وكما قد تتوقعون، فقد مات شخص ما.

لم يكن في إمكانهم تركه مرمياً هناك على الأرض. في الوقت الراهن لم تكن هناك مشكلة في تركه هناك، ولكن قريباً، سيُزال الثلج من أمام مسار القطار، وسوف يتعيّن على القطار أن يمضي قُدماً في طريقه.

حارسان. وأم وابنتها. وجثة واحدة.

الأم والفتاة والجثة، متصلبات، متخشبات، وصامتات.

«حسناً، ماذا تريد مني أن أفعل أيضاً؟».

أحد الحارسين طويل القامة بينما اتّسم الآخر بالقِصر. الأطول يتحدث أولاً دوماً، مع أنه لم يكن المسؤول. نظر إلى الحارس الأصغر حجماً، ذي المعالم المستديرة، والوجه الأحمر، منتظراً إجابته.

«حسناً»، جاء الرد، «لا يمكننا أن نتركهم على هذا النحو، أليس كذلك؟».

بدأ الحارس طويل القامة يفقد صبره: «لمَ لا؟».

شارف الأقصر على الانفجار من الغضب، رفع نظره إلى ذقن الحارس الأطول وصرخ به: «هل أنت مجنون؟». بدأت علامات الاشمئزاز بالظهور بصورة أوضح على خديه. «هيا بنا»، قال، وهو يشقّ طريقه عبر الثلج. «سنحملهم ثلاثتهم ونعيدهم إلى متن القطار مجدداً، إذا تحتّم علينا ذلك. وسنقوم بإعلام المحطة التالية بأمر الجثة».

أما بالنسبة إليَّ، فقد ارتكبتُ في تلك اللحظة أحد الأخطاء الجلية. ولا أستطيع أن أشرح لكم مدى خيبة أملي من تصرفي هذا.

على الرغم من أنني قد فعلتُ كل شيء على الوجه الصحيح:

حاولتُ إلهاء نفسي بالانشغال بالسماء المُثلجة ذات البياض المبهر للبصر، والواضحة من خلال نافذة القطار المتحرك. انغمستُ فيها عملياً، إلا أنني، مع ذلك، تخاذلتُ، وتراخيتُ - وأصبحتُ مهتماً بالفتاة. استحوذ عليّ الفضول. وعندها عاهدتُ نفسي على البقاء هناك بالقدر الذي يسمح به جدول مهامي اليومية، وبقيتُ لأراقب تلك الفتاة.

بعد ثلاث وعشرين دقيقة، عندما توقّف القطار في المحطة التالية، نزلتُ معهم، حاملاً روحاً صغيرة بين ذراعيّ، ووقفتُ إلى اليمين قليلاً.

عاد الحارسان النشطان إلى الأم والفتاة والجثة الصغيرة الحجم. أذكر بوضوح أن أنفاسي حشرجت بصوت عالٍ في ذلك اليوم، وأنا مندهش من أن كِلا الحارسين لم يلحظا وجودي في أثناء مرورهما بجانبي. تراخى العالم الآن، تحت ثقل كل ذلك الثلج.

على بعد نحو عشرة أمتار إلى يساري، وقفت الفتاة الشاحبة، ذات المعدة الخاوية متخشبة ومتصلّبة.

بدا فمها متوتراً، وذراعاها البادرتان مشدودتان بإحكام.

أما الدموع فقد تجمّدت على وجه سارقة الكتب.

الكسوف

في المرّة الثانية التي رأيتها فيها، كان اللون الطاغي هو الأسود. وهو يحمل بصمتي الخاصة ويُظهر على نحو أفضل مدى براعتي - إذا جاز التعبير. وأحلك الظلام يكون قُبيل الفجر.

أتيتُ هذه المرة من أجل شاب يبلغ من العمر نحو أربع وعشرين سنة. كان الحدث جميلاً من بعض النواحي. الطائرة ما تزال تنفث الدخان المتصاعد من كلا محركيها، وقد حفرت عند تحطمها ثلاثة جروح غائرة في عمق الأرض. وقد بدا جناحاها الآن كذراعين مبتورتين. لم يعد هذا الطائر المعدني الصغير قادراً على الرفرفة بعد اليوم.

بعض الحقائق الصغيرة الأخرى

أحياناً أصل مبكراً جداً.
أُسرع لإنهاء مهمتي، إلا أن بعض الناس يتشبثون بالحياة لفترة أطول مما هو متوقع.

بعد مرور عدة دقائق، استنفد الدخان نفسه. ولم يبق هناك شيء.

سارقة الكتب

وصل صبي أولاً إلى موقع الحطام، هو نفسه كان مضطرباً وبدا وكأنه يحمل صندوق أدوات. اقترب بخوف كبير من قمرة القيادة ورأى الطيّار، أظن أنه حاول أن يعرف فيما إذا كان ما يزال على قيد الحياة أم لا. في تلك اللحظة، كان ما يزال حياً. وصلت سارقة الكتب بعده بنحو ثلاثين ثانية تقريباً.

مرّت سنوات، ولكنني مع ذلك كنتُ قادراً على تمييزها، وهي تلهث.

من بين العديد من الأشياء الموجودة في صندوق الأدوات، أخرج الصبي دمية دب.

مدّ يده عبر الزجاج الأمامي المحطم، ووضع الدب على صدر الطيّار. جلس الدب المبتسم بين الحطام المخضّب بدم الشاب. وبعد بضع دقائق، أخذتُ فرصتي. فقد كان الوقت مناسباً.

مشيتُ إليه، وفككتُ وثاق روحه وحملتها معي بلطف.

لم يبقَ هناك سوى جسد هامد، ورائحة دخان متخامد، وابتسامة دب.

ومع وصول بقيّة الحشد، تغيّرت الأمور بالطبع. بدأ الليل ينجلي. وبدأ لون الأفق بالتغيّر، ولم يبق من سواد الليل سوى خربشة، تُسارع لتختفي بسرعة.

الشاب، في المقابل، كان بلون العظام. وجسده الباهت مغطّى بزيّ عسكري متغضّن. عيناه باردتان وبنيتا اللون – مثل بقع القهوة. في خضم كل ذلك الحطام بدا شكله، بالنسبة إليَّ، غريباً ومألوفاً في آن معاً. وكأنه علامة فارقة.

لاحقاً، فعل الحشد ما تفعله الحشود دوماً.

ومع مروري بين الحشود، وقف كل منهم غارقاً في صمت الهدوء الذي عادة ما يطغى على مثل هذه الحوادث، لا يقطعه سوى مزيج من

حركات الأيدي المرتبكة، والجمل المكتومة، والصمت، والوعي الذاتي.

عندما ألقيتُ نظرة أخيرة على الطائرة خلفي، بدا لي الفم المفتوح للطيّار وكأنه يرسم ابتسامة، كما لو كان يضحك على نكتة قذرة أخيرة، على دعابة إنسانية تختتم المشهد.

كان ما يزال مكتنفاً زيّه العسكري، بينما صارع ضوءُ النهار السماءَ ليحتل مكانه فيها. في بداية رحلتي معه، وكما هو الحال مع العديد من البشر الفانين الآخرين، يظهر هناك دوماً ظل سريع، كما لو أنه اللحظة الأخيرة لكسوف سريع - كوجه من أوجه الاعتراف بانقضاء روح أخرى.

بالنسبة إليَّ، وعلى الرغم من كل الألوان التي تتداخل وتتصارع مع كل ما أراه من حولي في هذا العالم، لطالما كنتُ ألمح كسوفاً خاطفاً عند موت إنسان.

لقد رأيتُ الملايين منهم.

لقد رأيتُ أكثر مما يمكنني أن أحصيه.

العَلَم

آخر مرّة رأيتُها فيها كان اللون الطاغي هو الأحمر. السماء تُشبه الحساء الذي يغلي ويفور. وقد بدت في أجزاء منها وكأنها تحترق، مع نثرات سوداء مرشوشة كالفتات والفلفل بين الاحمرار.

في وقت سابق، كان الأطفال يلعبون الحجلة هناك، في الشارع الذي يُشبه الصفحات الملطخة بالزيت. ومع وصولي، سمعتُ رجع صداهم يتردّد في المكان، إلى جانب صوت خطو الأقدام التي تذرع الطريق ذهاباً وإياباً، وأصوات ضحكات الأطفال، والابتسامات التي تُشبه الملح في سرعة اضمحلالها.

ومن ثم، دوي الانفجارات.

هذه المرة، كل شيء جاء متأخراً جداً.

صفارات الإنذار، والصرخات التي تشق طريقها عبر الراديو. كلها وصلت متأخرة جداً.

في غضون دقائق، كتل من الاسمنت والأرض تكدّست فوق بعضها

البعض. بدت الشوارع كأوردة متفجرة، وغطى تدفق الدم وجه الطرقات إلى أن جف، أما الجثث فقد تناثرت والتصقت هنا وهناك، مثل قطع الخشب المرمية بفعل مرور فيضان.

كلها التصقت في مكانها، كل واحدة منها، مشكّلة حزمة من الأرواح.

هل كان ذلك قدَراً؟

أم حظاً عاثراً؟

هل سوء الحظ هو ما تسبب في ذلك حقاً؟

بالطبع لا.

دعونا لا نكن ساذجين. كل ذلك من فِعل القنابل التي أُلقيتُ بأيدي بشر مختبئين بين الغيوم.

لساعات، ظلّت السماء مصطبغة بلون أحمر مدمّر. وقد لحق الخراب بتلك البلدة الألمانية الصغيرة. سقطت نُدف من الرماد في مشهد جميل يُغريكم بمدّ ألسنتكم لالتقاطها، وتذوّق طعمها. إلا أنها كانت لتحرق شفاهكم وأفواهكم.

أرى كل ذلك بوضوح.

كنتُ على وشك المغادرة عندما وجدتها راكعة هناك، تلفّها سلسلة جبال من الأنقاض المصممة والمشيدة من حولها، بينما تتمسّك هي بكتاب تحمله بين يديها.

وبصرف النظر عن كل شيء آخر، أرادت سارقة الكتب بشدة أن تعود إلى القبو لتكتب أو لتقرأ قصّتها مرّة أخرى. أمكنني أن أرى ذلك جلياً على وجهها. كانت تتوق إلى ذلك - لتشعر بالأمان والسلامة في ذلك المكان المألوف - ولكنها لم تستطع الحراك. كما أن القبو لم يعد موجوداً. فقد أصبح جزءاً من الخراب المحيط بها.

أرجوكم، مرّة أخرى، وأطلب منكم أن تصدقوني.

أردتُ أن أتوقّف، أن أنحني أمامها، لأقول لها:

«أنا آسف، يا طفلتي».

إلا أن ذلك محرّم.

لم أنحنِ أمامها. ولم أتحدث.

بدلاً من ذلك، بقيتُ أراقبها لبعض الوقت، وعندما ألفت قادرة على التحرّك، تبعتُها.

رمت الكتاب من يدها، وركعت. شرعت سارقة الكتب بالنواح والعويل.

رأيتُ الحشد يدوسون على كتابها عدة مرات مع بدأ عمليات الإخلاء والتنظيف، وبالرغم من أن الأوامر قد أُعطيت بتنظيف فوضى الخرسان والاسمنت فقط، إلا أن أغلى قطعة تملكها الفتاة قد أُلقيت على متن شاحنة لجمع القمامة. عندها سارعتُ بالصعود إلى الشاحنة وأخذتُ الكتاب بين يديّ، غير مدرك بأنني سأقرأ قصتها مئات المرات على مر السنين خلال أسفاري. وبأنني سأشاهد شتى الأماكن التي تقاطعت فيها دروبنا، وسأعجب لما رأته الفتاة من أهوال وكيف نجت منها. كان ذلك أفضل ما يمكنني القيام به – مشاهدة ذلك المشهد وهو يتكامل مع كل شيء آخر شهدتُه في ذلك الوقت.

عندما أتذكّرها، أرى قائمة طويلة من الألوان، إلا أن ثلاثة ألوان على الأخص علقت في ذهني. في بعض الأحيان، أتمكّن من التحليق بعيداً عن تلك اللحظات الثلاث، متناسياً ما حدث بالهروب إلى الأفق البعيد، إلى أن تنزف حقيقة عفنة وتتجسّد أمامي بوضوح.

في تلك اللحظة أرى تلك الألوان الثلاثة أمامي.

الألوان

الأحمر:　　　الأبيض:　　　الأسود:

تتراكب الألوان فوق بعضها البعض. اللون الأسود المذهل، فوق الأبيض العالمي المُبهر، والأحمر القاني.

نعم، أذكرها في كثير من الأحيان، لطالما احتفظتُ في إحدى جيوبي المتعددة، بقصّتها لأعيد سردها مراراً وتكراراً. إنها واحدة من كثير غيرها أحملها معي، كل منها استثنائي بحد ذاته. كل منها محاولة - وقفزة هائلة في سبيل محاولة - إثبات لي أنكم أنتم، ووجودكم الإنساني، يستحق كل هذا العناء.

وها هي، واحدة من حفنة القصص.

سارقة الكتب.

إذا كانت لديكم الرغبة في تقصّي تفاصيل هذه القصّة، فتعالوا معي وسوف أروي لكم قصّة.

سأريكم شيئاً.

الفصل الأول

(دليل حفّار القبور)

بطولة:

شارع هيمل - فن شتائم الخنزرة - المرأة ذات القبضة الحديدية - محاولة تقبيل - جيسي أوينز[1] - ورق الصنفرة - رائحة الصداقة - بطلة الوزن الثقيل - وأُم جميع أشكال العقاب

(1) جيسي أوينز (1913-1980) رياضي أمريكي من أصل افريقي وعدّاء حقق رقماً قياسياً وشهرة عالمية بعد فوزه بأربع ميداليات ذهبية في دورة الالعاب الاولمبية الصيفية لعام 1936 في برلين. كان هتلر محرجاً من الانتصار الذي حققه رياضي أسود، والذي قوّض من الدعاية النازية التي تدّعي بتفوق العرق الأبيض «الآري». (المترجمة).

سارقة الكتب

الوصول إلى شارع هيمل

في تلك المرة الأخيرة.

تحت تلك السماء الحمراء...

كيف انتهى المطاف بسارقة الكتب بالركوع والعويل محاطة بكومة من الركام السخيف، والأشلاء المطبوخة التي أطاح بها الإنسان نفسه؟

قبل سنوات، كانت البداية مع الثلج.

وها قد حان الوقت للبداية.

لحظة مأساوية مذهلة

كان القطار يتحرك بسرعة، وهو يغص بالبشر.

تُوفي صبي يبلغ من العمر ست سنوات في العربة الثالثة.

سارقة الكتب وشقيقها على متن القطار كانا متجّهين مع أمهما نحو ميونخ، حيث سرعان ما سيتم وهبهما لأسرة تتبناهما وترعاهما.

ونحن نعلم الآن، بالطبع، أن الصبي لن ينجو.

نوبة سعال حادة.

تبدو وكأنها نوبة موحى بها.

وبعد وقت قصير – لا شيء، هدوء مطبق.

عندما توقف السعال، لم يكن هناك شيء سوى انعدام الحياة الذي يُجرجر نفسه أو يرتعش بما يشبه الصمت. عندها وجدت المفاجأة طريقها إلى شفتيه، اللتين كانتا بلون بني متآكل ومتداعٍ، مثل طلاء قديم – كما لو أنهما بحاجة ماسة لإعادة خلقهما من جديد. الأم نائمة، أما أنا فقد صعدتُ إلى القطار. وخطوتُ عبر الممر المزدحم لأضع يدي على فمه بلمح البصر.

لم يُلاحظ أحد ذلك.

ومضى القطار في طريقه.

باستثناء الفتاة.

بعين واحدة مفتوحة، وأخرى ما زالت غارقة في حلم بعيد، أدركت سارقة الكتب – المعروفة أيضاً باسم ليزيل ميمنجر – من دون أدنى شك بأن شقيقها الأصغر فيرنر قد أصبح الآن في عداد الأموات. لم تفارق عيناه الزرقاوان النظر إلى الأرض، من دون أن تريا شيئاً.

قبل أن تستيقظ، حَلُمت سارقة الكتب بالفوهرر، أدولف هتلر. في الحلم، رأت نفسها في مسيرة حاشدة يُلقي فيها الفوهرر خطاباً حماسياً، بينما تنظر هي إلى الجزء الخالي من الشعر في رأسه، وإلى الشكل المربع المثالي لشاربه. استمعت برضى إلى سيل الكلمات التي تنساب من فمه. وبدا أن جُمله تتوهج بنور مبهر. في لحظة لاحقة أكثر هدوءاً، انحنى نحوها

وابتسم لها. بادلته التحية وقالت: ‘Guten Tag, Herr Führer. Wie geht’s dir heute?’[1] لم تكن قد تعلّمت بعد كيف تتحدّث بشكل جيد، أو كيف تقرأ حتى، لأنها نادراً ما ذهبت إلى المدرسة. وستعرف السبب وراء ذلك في الوقت المناسب.

عندما شرع الفوهرر بالإجابة على سؤالها، استيقظت.

حدث ذلك في شهر كانون الثاني / يناير في عام 1939، كانت في التاسعة من عمرها، وعلى وشك أن تبلغ العاشرة.

مات شقيقها بجانبها، وإحدى عينيها مفتوحة، والأخرى غارقة في الحلم.

أعتقد أنه كان من الأفضل لو أكملت الحلم، ولكن ليس لي حقاً أية سيطرة على ذلك.

فتحت عينها الثانية واستيقظت فجأة ولمحتني، لا شك في ذلك. حدث ذلك بالضبط عندما ركعتُ لأستخلص روحه، وأحملها بارتخاء بين يدي المتورمتين. تسلّل الدفء إلى روحه بعد فترة وجيزة، إلا أنني عندما حملتها في البداية، شعرتُ بها لدنة وباردة، مثل الآيس كريم. بدأت تذوب بين ذراعي، لتصبح دافئةً تماماً. كما لو أنها تتماثل للشفاء.

بالنسبة إلى ليزيل ميمنجر، شُلّت قدرتها على الحركة، مذهولة بثقل الانقضاض المترنح للأفكار. «إز شتيمت نيشت»، كانت هذه الفكرة الأكثر إلحاحاً التي راودتها وهي ترتعش: هذا لا يحدث. هذا لا يحدث.

لماذا يرتعشون دوماً؟

نعم، أعلم السبب وراء ذلك، أعتقد أن لذلك علاقة ما بالغريزة.

(1) صباح الخير أيهر الفوهرر، كيف أنت اليوم.

سارقة الكتب

لوقف تدفق الحقيقة. كان قلبها في تلك اللحظة زلقاً وحاراً، وصاخباً - صاخباً جداً.

أما أنا - وبكل غباء - فقد بقيتُ متسمراً هناك لأشاهد.

بعد ذلك، أمها.

أيقظتها بكل ارتعاش الذهول الذي عايشته.

إذا عجزتم على تخيل المشهد، فعليكم التفكير بالصمت الأخرق، وبأجزاء اليأس العائمة التي تُغرق القطار.

مع استمرار تساقط الثلج، اضُطر القطار المتوجه نحو ميونخ إلى التوقف لإجراء أعمال الصيانة لمساره. وفي خضم كل هذا، هناك امرأة تنوح وتبكي، وفتاة صغيرة تقف مصعوقة بجانبها.

مذعورة، فتحت الأمُ البابَ.

وانغمست في الثلج حاملة معها الجسد الصغير.

ماذا يمكن للفتاة الصغيرة أن تفعل سوى أن تتبعها؟

كما قلتُ لكم سابقاً، خرج حارسان من القطار أيضاً. وتناقشا وتجادلا حول ما يتعيّن عليهما القيام به. فالحالة غير مواتية على أقل تقدير. وفي نهاية المطاف، تقرّر أن يذهب ثلاثتهم إلى البلدة التالية وأن يُتركوا هناك لترتيب الأمور.

هذه المرة شق القطار طريقه بصعوبة عبر البلاد المتدثّرة بالثلج، إلى أن توقّف أخيراً.

نزلوا ثلاثتهم إلى منصة المحطة، والجثة الصغيرة مكوّمة بين ذراعي الأم.

وقفوا.

أصبح جسد الصبي أكثر ثقلاً.

لم تكن لدى ليزيل أدنى فكرة عن المكان الذي وصلت إليه. كل شيء غارق في اللون الأبيض، ومع بقائهم هناك، لم يكن في إمكانها سوى التحديق في الحروف المتلاشية للافتة الموجودة أمامها. بالنسبة إليها، كانت البلدة بلا اسم، وفي تلك البلدة المجهولة دُفن شقيقها فيرنر بعد يومين، بحضور قس وزوج من حفاري القبور المرتعشين.

ملاحظة

زوج من حراس القطار.
وزوج من حفاري القبور. أحدهما يتخذ القرار، والآخر
يفعل ما يُقال له.
والسؤال هو، ماذا لو كان الآخر قادراً على فعل أكثر من
ذلك بكثير؟

ارتكاب الأخطاء، والمزيد من الأخطاء. يبدو أن كل ما أستطيع القيام به في بعض الأحيان هو ارتكاب الأخطاء.

على مدى يومين، كنتُ أركّز على عملي. جبتُ العالم كما هي عادتي دوماً، لأُسلّم الأرواح إلى الخلود، وأشاهدها تتثاقل في وجهتها. حذّرتُ نفسي عدة مرات بضرورة الابتعاد لمسافة جيدة عن المكان الذي دُفن فيه شقيق ليزيل ميمنجر. ولكنني لم أنتصح بنصيحتي.

مع اقترابي من المكان، أصبح في إمكاني أن أرى، وعلى بعد أميال، مجموعة صغيرة من البشر يقفون متصلّبين بين قفار من الثلوج. رحّبت بي المقبرة كصديق، وسرعان ما كنتُ معهم. حنيتُ رأسي احتراماً للميت الصغير.

بوقوفهما إلى يسار ليزيل، شرع حفارا القبور بفرك يديهما سعياً لبث

بعض الدفء فيهما، وبدآ يتذمّران من الثلج وظروف الحفر في ذلك الطقس. «من الصعب الحفر عبر كل هذا الجليد»، وما إلى ذلك. لا يمكن لعُمر أحدهما أن يزيد عن أربعة عشر عاماً، وهو يبدو متدرباً حديثاً في هذه المهنة. عندما سار مبتعداً، سقط كتاب أسود من جيب معطفه من دون أن ينتبه.

وبعد بضع دقائق، همّت والدة ليزيل بمغادرة المكان مع القس، وهي تشكره على مشاركته في ترتيبات الدفن.

ومع ذلك، بقيت الفتاة هناك.

انغرست ركبتاها في الأرض، وقد حانت لحظة مواجهة الحقيقة.

ما تزال غير مصدّقة لكل ما حصل، وباشرت على الفور بالحفر. لا يمكن أن يكون ميتاً. لا يمكن أن يكون كذلك. لا يمكنه أن..

وفي غضون ثوان، انحفر الثلج عميقاً في جلدها.

بدا وكأن الدم المتجمّد يتكسّر عبر يديها.

في مكان ما بين كل هذه الأكوام الثلجية، استطاعت رؤية قلبها المحطّم إلى نصفين. كل نصف يتوهّج وينبض تحت كل ذلك البياض. أدركت أن والدتها قد عادت من أجلها عندما شعرت بيد هزيلة على كتفها تسحبها بعيداً. صرخة حارة ملأت حلقها.

صورة صغيرة، ربما تبعد نحو عشرين متراً

بعد الانتهاء من مراسم الدفن، وقفت الفتاة والأم لتلتقطا أنفاسهما.
شيء ما أسود اللون ومستطيل الشكل راقد في الثلج، الفتاة وحدها هي مَن رأته، وانحنت لتلتقطه بقوة بين أصابعها.
حمل الكتاب على غلافه كتابة فضية اللون.

سارقة الكتب

تشابكت يدا الأم وابنتها، وألقيتا نظرة وداع أخيرة. غادرتا، وهما تنظران إلى الوراء بين الفينة والأخرى.

أما بالنسبة إليَّ، فقد بقيتُ للحظات بعدهما. ولوّحت لهما مودعاً، من دون أن يبادلني أحد الوداع.

ابتعدت الأم وابنتها عن المقبرة، ووجدتا طريقهما نحو القطار التالي المتجه إلى ميونخ. كلاهما نحيلتان وشاحبتان. وكلاهما تحملان قروحاً على شفتيهما، والتي لاحظتها ليزيل من خلال انعكاس وجهها على النافذة القذرة الضبابية للقطار الذي استقلتاه قبل منتصف النهار بقليل.

وفقاً للكلمات التي خطتها سارقة الكتب بنفسها، فلم يعد أي شيء كما كان قبل حادثة الوفاة المأساوية تلك.

عندما توقف القطار أخيراً في محطة ميونخ، انسكب الركاب كما لو أنهم يسقطون من طرد ممزق. أشخاص من كل مكان، والفقراء منهم هم الأسهل تمييزاً، حيث يحاولون التحرك باستمرار، كما لو أن ذلك قد يساعد في تغيير حالتهم، متجاهلين حقيقة أن نسخة جديدة من المشكلة القديمة نفسها سوف تقبع في انتظارهم في نهاية الرحلة - أو لدى النسيب الذي يتحرّقون لرؤيته.

أعتقد أن والدتها أدركت ذلك جيداً. فلم تكن عازمة على تقديم طفليها إلى عائلة غنية ومرموقة في ميونخ، وإنما إلى أسرة عادية في استطاعتها على الأقل تغذية الفتاة والصبي بشكل أفضل قليلاً، وتثقيفهما بشكل صحيح.

الصبي الصغير.

كانت ليزيل على يقين من أن والدتها تحمل ذكراه التي لا بد وأنها تثقل كاهلها. تركته هناك، بعد أن شهدت على انزلاق قدميه وساقيه وجسمه الصغير إلى تلك الحفرة المظلمة.

كيف استطاعت أن تتركه هناك؟

كيف أمكنها أن تتحرك؟

هذا ضرب من الأشياء التي لن أُدرك كنهها أو أفهمها أبداً – تلك القدرة التي يملكها البشر.

حملته، وتابعت سيرها، والطفلة الصغيرة متشبثة بها.

قابلتا السُلطات، وكانت مسألة التأخير ووفاة الصبي تأكل رأسيهما المتهالكين. ظلّت ليزيل محشورة في ركن المكتب الصغير المغبّر، بينما جلست والدتها بأفكارها المضطربة على كرسي قاسٍ جداً.

لفتهما فوضى الوداع.

دفنت الفتاة رأسها في الصوف البالي لمعطف والدتها. مدركة أن في انتظارهما المزيد من المشقة.

بعيداً عن مشارف ميونخ، تقع بلدة تسمى مولشينغ. تلك هي وجهة ليزيل، إلى شارع يحمل اسم هيمل.

هيمل = الجنة

أياً كان من أطلق اسم هيمل على ذلك الشارع فهو يتمتع حتماً بحس السخرية. ليس لأن الشارع يوحي بالجحيم، فهو لم يكن كذلك، إلا أنه بالتأكيد لم يكن الجنة أيضاً.

وبغض النظر عن كل ذلك، كان والدا ليزيل بالتبني ينتظرانها في منزلهما الكائن في ذلك الشارع.

هوبرمان هو اسم العائلة المنتظرة.

بالطبع، توقع آل هوبرمان وصول فتاة وصبي صغير، وهما يطمعان في الحصول على بدل صغير لقاء رعايتهما لهذين الطفلين. وفي الواقع، لم يجرؤ أحد على نقل الأخبار إلى روزا هوبرمان، ويُفشي لها بأن الصبي قد مات خلال الرحلة. وفي كل الأحوال، لم يكن هناك من يوّد حقاً أن يُخبر روزا بأي شيء. بالمجمل، لم تمتلك روزا ما تُحسد عليه حقاً، على الرغم من سجلها الجيّد في رعاية الأطفال، حيث استطاعت على ما يبدو تقويم بضعة أطفال في الماضي.

بالنسبة إلى ليزيل، كانت تلك هي المرة الأولى التي تُجرّب فيها ركوب السيارة.

شعرت بتقلّب معدتها، وحملت في قلبها أملاً لا جدوى منه، في أن تُضّيع السيارة طريقها، وأن تعود إلى أمها. ومن بين كل ما مرّ بها، فلم يكن في وسع أفكارها سوى أن تذهب إلى تخيّل والدتها، وهي تقف وحيدة في محطة القطار، منتظرة أن تغادر مرّة أخرى لتعود وحدها من حيث أتت. من المؤكّد أنها سترتجف مكوّمة في ذلك المعطف غير المجدي، وهي تقضم أظافرها، في انتظار القطار. لا بدّ من أن المنصة ستبدو طويلة وغير مريحة - وكأنها شريحة من الإسمنت البارد. هل ستجول بنظرها، في أثناء رحلة العودة، على الموقع التقريبي لقبر ابنها؟ أم ستكون غارقة في نوم ثقيل جداً؟

تحرّكت السيارة، حاملة معها ليزيل التي تخشى من تلك الرحلة الأخيرة القاتلة.

كان اليوم رمادياً، بلون أوروبا، وستائر من المطر تلفّ السيارة.

«وصلنا تقريباً»، قالت السيدة هاينريش من دار الرعاية وهي تبتسم، «داين نويس هاوس، هذا هو منزلك الجديد».

سارقة الكتب

مسحت ليزيل بأصابعها زجاج السيارة مشكّلة دائرة صغيرة لترى من خلالها.

صورة لشارع هيمل

تبدو المباني متلاصقة معاً، ومعظمها من المنازل الصغيرة والكتل السكنية التي تبدو عصبية. بالإضافة إلى ثلوج داكنة منثورة كالسجاد، والكثير من الإسمنت، والأشجار الجرداء، والهواء الرمادي.

إلى جانب ليزيل والسيدة هاينريش، ضمّت السيارة رجلاً بقي مع الفتاة بينما اختفت السيدة هاينريش في داخل المنزل. لم ينطق بكلمة واحدة أبداً. ولذلك افترضت ليزيل أنه موجود هناك ليضمن عدم هروبها، أو لإجبارها على الدخول إلى المنزل في حال تسبّبت في وقوع أية مشكلة. ومع ذلك، عندما بدأت المشكلة في وقت لاحق، اكتفى بالجلوس والمشاهدة. ولعله كان الملاذ الأخير، والحل النهائي.

بعد بضع دقائق، خرج رجل فارع الطول من المنزل. إنه هانز هوبرمان، والد ليزيل بالتبني. بجانبه سارت السيدة هاينريش بطولها المتوسط. وعلى الجانب الآخر برز الشكل الغريب لروزا هوبرمان، التي بدت وكأنها خزانة صغيرة ترتدي معطفاً، وتتهادى بمشيتها. بدت لطيفة تقريباً، لولا وجهها، الذي يحمل مظهر ورق مقوى مليء بالتجاعيد. تدل ملامحها على أنها منزعجة، كما لو أنها تحتمل كل مشاكل الدنيا من حولها. مشى زوجها بشكل مستقيم، وهو يحمل سيجارة مشتعلة بين أصابعه، لفّها بنفسه.

والحقيقة هي أن ليزيل قد عاندت ورفضت الخروج من السيارة.

«فاس إيست لوس ميت ديزيم كيند؟»، استفسرت روزا هوبرمان، ثم

سارقة الكتب

كرّرت سؤالها، «ما هي مشكلة هذه الطفلة؟»، أقحمت وجهها إلى داخل السيارة قائلة: «لا، ما هذا، هيا، تعالي، تعالي».

أُزيح الكُرسي الأمامي ليُفسح المجال لها للنزول، ودعاها الضوء الخارجي للخروج، إلا أن ليزيل لم تتحرك.

استطاعت من خلال الدائرة التي صنعتها أن ترى أصابع الرجل الطويل القامة، وهي ما تزال تحمل السيجارة. تبعثر الرماد من حافتها وسبح في الهواء عدة مرات قبل أن يصل إلى الأرض. مرّت خمس عشرة دقيقة حتى تمكنوا أخيراً من إقناعها بمغادرة السيارة. كان الرجل طويل القامة هو من نجح في فعل ذلك، بكل هدوء.

البوابة هي المحطة التالية التي تشبثت بها ورفضت عبورها.

تدحرجت الدموع من عينيها وهي مصمّمة على رفض الدخول إلى المنزل. بدأ الناس في التجمهر في الشارع، إلى أن كالت إليهم روزا هوبرمان الشتائم، وأجبرتهم على العودة من حيث جاءوا.

ترجمة تصريح روزا هوبرمان

«إلامَ تنظرون أيها الحمقى؟»

في نهاية المطاف، مشت ليزيل ميمنجر على مضض إلى الداخل. وقد أمسك هانز هوبرمان بإحدى يديها، وحملت بيدها الأخرى حقيبتها الصغيرة، التي تضم تحت طبقات مطوية من الملابس كتاباً أسودَ صغيراً، حيث ربما، أمضى حفّار القبور البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، في تلك البلدة التي لا تحمل اسماً، الساعات القليلة الماضية وهو يبحث عنه. أتخيّله يقول لرئيسه في العمل «أقسم لكَ، بأنه ليست لديّ أدنى فكرة عمّا

حلّ به. لقد بحثتُ عنه في كل مكان». من المؤكّد بأنه لن يشتبه في الفتاة، ومع ذلك، فها هو هناك - كتاب أسود يحمل كلمات فضية مندّس بين ملابسها.

(دليل حفّار القبور)

اثنتا عشرة خطوة لتحقيق النجاح في حفر القبور

دليل استرشادي من إصدار جمعية مقبرة بايرن

قامت سارقة الكتب بسرقتها الأولى - وهي بداية تُمهّد لمسيرة مهنية متألقة ولامعة في هذا المجال.

تربية خنزيرة

نعم، مسيرة مهنية متألقة ولامعة.

عليّ أن أسارع إلى الاعتراف بأن هناك فجوة كبيرة بين أول كتاب مسروق والثاني الذي تلاه. والنقطة الأخرى الجديرة بالملاحظة هي أن الأول قد سُرق من الثلج، بينما سُرق الثاني من النار. مع ضرورة عدم إغفال حقيقة أن الكتب الأخرى قد أُعطيت لها أيضاً. بالمجمل، فهي تملك أربعة عشر كتاباً، إلا أنها تعتقد بأن قصّتها تقوم بالأساس على عشرة منها فقط. ومن بين هذه الكتب العشرة، سرقت ستة، وظهر واحد على طاولة المطبخ، وصنع يهودي متخفٌّ كتابين من أجلها، وسُلّم الأخير لها من بعد ظهر يوم لطيف منغمس باللون الأصفر.

عندما قرّرت كتابة قصّتها، كانت تتساءل متى بالضبط تحولت الكتب والكلمات من مجرد أمرٍ تهتم به إلى أمرٍ يعني لها كل شيء. هل كان ذلك عندما وقعت عيناها لأول مرّة على تلك الغرفة المليئة بالرفوف؟ أم عندما وصل ماكس فاندينبورغ إلى شارع هيمل حاملاً معه حفنة من المعاناة وكتاب السّيرة الذاتية لهتلر والمعنون (كفاحي)؟ هل حدث ذلك عندما

بدأت القراءة في الملاجئ؟ أم خلال آخر موكب إلى داخاو؟ أم عندما حصلت على كتاب **(قاطفة الكلمات)**؟ ربما ليست هناك إجابة دقيقة حول متى وأين بدأ كل ذلك. وعلى أي حال، فأنا أستبق الأحداث. أولاً وقبل أن نتطرق إلى كل ذلك، علينا أن نُلقي نظرة على بداية حياة ليزيل ميمنجر في شارع هيمل، وفن الخنزرة.

عند وصولها، كانت علامات الصقيع والدماء المتجمدة ما تزال بادية على أصابعها. كل شيء فيها ينم عن سوء التغذية. حيث بدت أطرافها شبيهة بأسلاك معدنية. وفي الحالات النادرة التي ابتسمت فيها، برزت على وجهها ابتسامة جائعة ومرهقة.

شعرها يُشبه شعر أي فتاة ألمانية شقراء، إلا أن عينيها كانتا خطيرتين، بلون بني غامق. وفي الحقيقة فإن آخر شيء تريده هو أن تحمل عينين بنيتين في ألمانيا في ذلك الوقت. ربما ورثت لونهما البني عن أبيها، ولكن ليست هناك وسيلة للتأكّد من ذلك، فهي لا تذكر أياً من ملامحه. الشيء الوحيد الذي تعرفه عن والدها، هو تسمية لم تكن تفهم معناها.

كلمة غريبة

شيوعي

سمعت تلك الكلمة عدّة مرات على مدى السنوات القليلة الماضية.

أياً كانت البيوت المزدحمة التي ذهبوا إليها، أو الغرف المكتظة والمليئة بالأسئلة، فلطالما تواجدت تلك الكلمة الغريبة هناك، تطوف في مكان ما، معلقة في الزاوية، لتشاهد كل ما يحدث من بقعتها المظلمة. أخذت شكل بزّة رسمية، وزياً عسكرياً. لم يكن من المهم إلى أين يذهبون، فتلك الكلمة موجودة هناك على الدوام، كلّما ذُكر والدها. عندما سألت والدتها عن

معنى تلك الكلمة، أجابتها بأن ذلك ليس مهماً، وطمأنتها بألا تقلق بشأن مثل هذه الأمور. في واحد من تلك البيوت المكتظة، حاولت امرأة أكثر صحة تعليم الأطفال الكتابة، مستخدمة الطبشور على الحائط، ولطالما فكّرت ليزيل في سؤالها عن معنى الكلمة، إلا أن ذلك لم يحدث قط.

في يوم من الأيام، اقتيدت هذه المرأة للاستجواب، ولم تعد أبداً بعد ذلك.

عندما وصلت ليزيل إلى بلدة مولشينغ، راودها على الدوام إحساس غامض بأن كل تلك الترتيبات تهدف إلى إنقاذها، ولكن حتى ذلك لم يكن ليجلب لها الطمأنينة وراحة البال. فإذا كانت والدتها تحبها، لماذا تركتها على عتبة باب شخص آخر؟

لماذا؟ لماذا؟

لماذا؟

وحقيقة أنها كانت تعرف الجواب على هذا السؤال - ولو على مستوى المعرفة الأولية فقط - كانت غير ذات أهمية. عانت والدتها من مرض مزمن، من دون أن تملك من المال ما يكفي لعلاجها. وبالطبع، فقد أدركت ليزيل ذلك، إلا أن هذا لا يعني أنها قبلته. وبغض النظر عن عدد المرات التي قيل لها إن أمها قد أحبتها، فإنها لم تكن قادرة على الاعتراف بأن الدليل على ذلك يكمن في التخلي عنها. لم يكن هناك شيء يُغيّر حقيقة أنها طفلة ضائعة، هزيلة، ومتروكة في مكان غريب وبعيد، مع المزيد من الغرباء.

لقد تُركت وحيدة.

عاشت عائلة هوبرمان في إحدى المنازل الصغيرة الواقعة على شارع هيمل، وهو منزل يضم عدداً قليلاً من الغرف، ومطبخاً، ومرحاضاً خارجياً

مشتركاً مع الجيران. السقف مسطح، وهناك قبو ضحل للتخزين، لم يكن القبو ذا عمق كاف، وتلك لم تكن مشكلة في عام 1939، إلا أنها أصبحت كذلك لاحقاً، بين عامي 1942 و1943. فعندما بدأت الغارات الجوية، اضطروا دوماً إلى الإسراع نحو الشارع للعثور على ملجأ أفضل.

في البداية، كان أكثر ما ترك أثره على ليزيل هو الكلمات البذيئة الساحقة والكثيرة. حيث تترافق كل كلمة دوماً بكلمة ثانية بذيئة هي إما «Saumensch/ زاوْمِنش» أو «Saukerl / زاوْكيرل» أو «Arschloch / أرْشْلوخ». وهنا يتعيّن عليّ أن أشرح معاني هذه الكلمات لأولئك الذين لا يعرفون اللغة الألمانية. تُشير كلمة «زاو»، بطبيعة الحال، إلى الخنازير. وفي حال جمعها مع كلمة «مِنش» أي فتاة، فإنها ترمي إلى تأنيب، أو توبيخ أو إذلال الأنثى. أما كلمة «زاوْكيرل» فتُستخدم لإهانة الذكور. وبالنسبة إلى كلمة «أرشْلوخ» فمن الممكن ترجمتها مباشرة لتعني «السافل» أو «الأحمق»، وهي لا تُفرّق بين الجنسين.

«زاومنش دو دريكيغس! أيتها الخنزيرة القذرة! لمَ لا تخلعين ملابسك؟!» صرخت روزا في تلك الليلة الأولى، عندما رفضت ليزيل الاستحمام. وفي الواقع، فإن الغضب يليق بتلك المرأة، ويمكننا القول بأن وجه روزا هوبرمان تزيّن دوماً بتقاسيم تنم عن الغضب. حيث حفرت التجاعيد ذلك الشكل في عمق وجهها القبيح.

أما ليزيل، فقد غرقت في حزنها وخوفها. ولم تكن هناك من وسيلة لإقناعها بالاستحمام، أو النوم في تلك الليلة. انحشرت في إحدى زوايا الحمام الذي يُشبه خزانة صغيرة، وأسندت ظهرها إلى الجدار للحصول على القليل من الدعم. لم يكن هناك شيء سوى طلاء جاف، وصعوبة في التنفس، وطوفان من سوء المعاملة التي تنضح بها روزا.

«دعيها لوحدها». دخل هانز هوبرمان أرض المعركة، وتسرّب صوته اللطيف كما لو أنه ينزلق عبر حشد. «اتركيها لي».

اقترب وجلس على الأرض، مسنداً ظهره للجدار، حيث داهمته على الفور برودة البلاط وقسوته.

«هل تعرفين كيف تلفّين سيجارة؟» سألها. مرّت الساعة التالية أو نحو ذلك وهما غارقان في الظلمة المتزايدة، ومنشغلان باللعب بأوراق التبغ والسجائر التي دخنها هانز هوبرمان.

بعد ساعة، أصبحت ليزيل قادرة على لف السجائر بشكل جيد نسبياً. ومع ذلك فهي لم توافق على الاستحمام في تلك الليلة.

بضع حقائق عن هانز هوبرمان

يُحبّ التدخين، حيث أن أكثر ما يمتّعه في التدخين هو لف سجائره بنفسه.

يعمل هانز دهاناً، إلى جانب عزفه على الأكورديون، وهو ما يجده ملائماً خاصة في فصل الشتاء، حيث يكسب القليل من المال من خلال العزف في حانات مولشينغ، مثل حانة نولر.

تمكّن بالفعل من خداعي خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أنه سيُوضع في خضم حرب عالمية أخرى حيث سيتمكّن بطريقة أو بأخرى من تجنّبي مرّة أخرى.

بالنسبة إلى معظم الأشخاص، يكاد هانز هوبرمان أن يكون غير مرئي – شخصاً غير مميز أبداً. تُعتبر مهاراته في أعمال الدهان ممتازة، بينما تُصنّف قدرته الموسيقية بأعلى من المتوسط. وعلى الرغم من ذلك، فأنا متأكّد من أنكم التقيتم بأشخاص يشبهونه، ممن لديهم القدرة على الظهور

في خلفية أي مكان يتواجدون فيه، حتى لو وقفوا في مقدمة صف الانتظار، فهم دائماً هناك، غير ملحوظين، وغير مهمين، من دون أية قيمة خاصة.

وما هو محبط في هذا الوجه الظاهري هو أنه تضليل كامل، إذا جاز التعبير. فقد تمتّع هانز بقيمة خاصة بالتأكيد، ولم تغب ملاحظتها عن ليزيل ميمنجر (الطفلة – التي تحمل في الكثير من الأحيان حكمة تتفوق على العديد من البالغين الأغبياء). حيث لاحظت تلك القيمة على الفور.

أخلاقه وسلوكه.

الجو الهادئ المحيط به.

عندما أضاء النور في الحمام الصغير في تلك الليلة، لاحظت ليزيل غرابة عيني هانز هوبرمان. كانتا معجونتين باللطف، وبلون الفضة الناعمة. عند رؤية تلك العينين، أدركت ليزيل على الفور أن ذلك الرجل يحمل قيمة كبيرة.

بضع حقائق عن روزا هوبرمان

طولها يزيد عن المتر والنصف ببضعة سنتيمترات. تلف شعرها البني والرمادي على شكل كعكة.

وبهدف دعم دخل زوجها، اضطلعت بأعمال الغسيل والكي لدى خمسة من أغنى العائلات في مولشينغ.

أما طبخها فهو كريه الطعم.

كما تمتلك قدرة فريدة على إثارة غضب أي شخص تلتقيه في أي وقت.

لكنها مع ذلك أحبّت ليزيل ميمنجر، على الرغم من غرابة طريقتها في إظهار ذلك الحب.

وشمل ذلك ضربها بملعقة خشبية، وإيذاءها بالكلمات المشينة خلال فترات زمنية مختلفة.

عندما استحمّت ليزيل أخيراً، بعد أسبوعين من وصولها إلى شارع هيمل، عانقتها روزا عناقاً قوياً كاد أن يحطم أضلاعها، وشارفت على خنقها. قالت: «أيتها الخنزيرة القذرة – آن لكِ بالفعل أن تستحمي!».

بعد بضعة أشهر، لم تعد ليزيل تناديهم باسم السيد والسيدة هوبرمان. ففي جملة خطاب مليء بالكلمات الطنانة، قالت روزا: «اسمعيني يا ليزيل – من الآن فصاعداً ستناديني ماما». فكّرت للحظة. «ماذا كنتِ تنادين أمك الحقيقية؟».

أجابت ليزيل بهدوء: «ماما».

«حسناً أنا ماما رقم اثنين إذاً». نظرت إلى زوجها. «ويمكنكِ أن تنادي ذلك الجالس هناك...» بدا وكأنها تكوّم الكلمات في يدها لترميها عبر الطاولة. «ذلك الخنزير القذر – يمكنكِ أن تناديه بابا، هل فهمتِ؟».

«نعم»، وافقت ليزيل على الفور. فالإجابات السريعة تُثمّن عالياً في هذه الأسرة.

«نعم، ماما»، صححتها أمها. «أيتها الخنزيرة. قولي لي ماما عندما تتحدثين إليّ».

في تلك اللحظة، أنهى هانز هوبرمان لفّ إحدى سجائره، بعد أن لعق الورقة ولفها بشكل كامل. ومن ثم نظر إلى ليزيل وغمزها. وفي الحقيقة، لم تكن لدى ليزيل أدنى مشكلة في مناداته بابا.

telegram @ktabpdf

سارقة الكتب

المرأة ذات القبضة الحديدية

الأشهر القليلة الأولى كانت بالتأكيد هي الأكثر صعوبة.

ففي كل ليلة، تحلم ليزيل بكابوس رهيب ترى فيه وجه شقيقها، وهو يحدق في أرضية القطار.

كانت تستيقظ غارقة في سريرها، وهي تصرخ بين فيض أغطية فراشها. وفي الجهة الأخرى من الغرفة، كانت ترى السرير الذي كان يُفترض أن يشغله شقيقها، يطفو كقارب في قلب الظلام. ببطء، ومع استعادتها لوعيها، يشرع السرير بالغرق، ليعود إلى الأرض. وفي الحقيقة، فقد زادت هذه الكوابيس من قلقها واضطرابها، حيث عادة ما تستغرق فترة طويلة قبل أن تتوقف عن الصراخ.

ربما كان الخير الوحيد المتأتي من تلك الكوابيس هو حضور هانز هوبرمان، والدها الجديد، إلى الغرفة لتهدئتها، وليشعرها بحبه العميق لها.

في كل ليلة، اعتاد هانز أن يأتي إلى غرفة ليزيل ليخفف عنها. في المرات الأولى، كان يجلس فقط – كشخص غريب يحاول قتل وحدتها. وبعد بضع ليال، بدأ يهمس لها: «اهدئي، أنا هنا، كل شيء على ما يرام».

سارقة الكتب

بعد مرور ثلاثة أسابيع، أصبح يضمها إليه. وفي الواقع، تراكمت الثقة بينهما بسرعة، ويرجع ذلك أساساً إلى لطف الرجل، والطاقة الاستثنائية التي يتميّز بها حضوره. عرفت الفتاة منذ البداية أنه سيكون دوماً إلى جانبها في كل مرّة تصرخ فيها، وأنه لن يغادرها أبداً.

تعريف غير موجود في القاموس

عدم المغادرة: عمل نابع من الثقة والحب، غالباً ما يفهمه الأطفال فقط.

اعتاد هانز هوبرمان أن يجلس، وقد غالبه النعس، على سرير ليزيل وهي تبكي، وتمسح دموعها بأكمامه، وتتنفس رائحته المطمئنة. في فجر كل يوم، وبعد الساعة الثانية فجراً، تعاود نومها مرّة أخرى مشبعة برائحته المكوّنة من مزيج من الجلد البشري، والسجائر، وعقود من استخدام الدهان. وعندما يأتي الصباح بنوره القوي، تستيقظ لتراه مكوماً دوماً على كرسي مركون على بعد بضعة أقدام بعيداً عنها، فهو لم يستخدم يوماً السرير الآخر. أما ليزيل، فقد اعتادت أن تنسل من سريرها وتُقبّل خدّه بحذر، ليستيقظ والابتسامة تعلو وجهه.

في بعض الأيام، كان يطلب منها أن تعود إلى فراشها وتنتظر دقيقة واحدة، حيث يعود مع الأكورديون ليعزف لها، بينما تجلس هي لتدندن ألحان أبيها، وأصابع قدميها الباردتين مشدودة من الحماس. لم يعزف لها أحد الموسيقى من قبل، ولم يكن في وسعها سوى أن تبتسم عندما ترى التجاعيد وهي تغيّر شكلها على وجهه، وتتأمل اللون الفضي الناعم لعينيه – وذلك إلى أن يتناهى إلى سمعهما صوت الشتائم المتعالي من المطبخ.

– «توقّف عن إحداث كل تلك الضوضاء، أيها الخنزير!»

سارقة الكتب

إلا أنه يتابع العزف لفترة أطول قليلاً. ومن ثم يرمي بغمزة إلى الفتاة، التي تبادله بشكل أخرق، غمزة أخرى.

في بعض المرات، وفقط لإغاظة ماما أكثر، كان يأخذ الأكورديون معه إلى المطبخ ويعزف خلال الإفطار.

عادة ما يُترك الخبز والمربى الخاص ببابا نصف مأكول على طبقه، حيث يأخذ شكل علامات قضمته. فيما تداعب الموسيقى وجه ليزيل. أعلم أن ذلك يبدو غريباً، ولكن هذا ما شعرت به تماماً. حيث تلامس اليدُ اليمنى لبابا المفاتيحَ البيضاء برشاقة، بينما تضغط يده اليسرى على الأزرار (ولطالما أحبّت على وجه الخصوص أن تراه وهو يضغط على الزر الفضي اللامع - ذي نغمة «سي ماجور»). يحمل الأكورديون العديد من الخدوش، ومع ذلك فإنه يتمايل بلونه الأسود اللامع كلما ضغطت ذراعا بابا على المنفاخ المُغبر، الذي يشهق الهواء ويزفره. في المطبخ في تلك الصباحات، ينفث بابا الحياة في ذلك الأكورديون. أعتقد أن ذلك يبدو منطقياً، عندما تُمعنون التفكير فيه.

كيف يمكنكم معرفة ما إذا كان شيء ما على قيد الحياة؟

ببساطة، تتحققون من أنه يتنفس.

صوت الأكورديون هو في الواقع أيضاً إعلان عن الأمان، وضوء النهار. فمن المستحيل أن تراودها كوابيس عن شقيقها خلال النهار، ولو أنها كثيراً ما تشتاقه وتبكي في الحمام الصغير بأكبر قدر ممكن من الهدوء. إلا أنها تكون مع ذلك سعيدة بكونها مستيقظة وآمنة من تلك الكوابيس. في أول ليلة لها مع عائلة هوبرمان، أخفت تحت فراشها آخر صلة لها بشقيقها، ألا وهي كتاب (دليل حفّار القبور). أحياناً، كانت تُخرجه وتمسك به، لتحدّق بالحروف المكتوبة على غلافه وتلمس الطباعة بداخله. لم تكن لديها أدنى

فكرة عن معاني هذا الكلمات. وفي الواقع، فلم يكن من المهم حقاً أن تعرف ماهية محتوى هذا الكتاب. بل ما عناه لها هو الأمر الأكثر أهمية.

معنى الكتاب

1. المرة الأخيرة التي رأت فيها شقيقها.

2. المرة الأخيرة التي رأت فيها أمّها.

اعتادت أحياناً أن تهمس كلمة ماما وترى وجه والدتها، وتكرّر ذلك مئة مرّة في اليوم. ولكن تلك كانت مآسي صغيرة بالمقارنة مع الخوف الذي تولّده كوابيسها. حيث لم تشعر في حياتها بمثل الوحدة التي تشعر بها خلال تلك الأوقات التي تقضيها في أميال هائلة من النوم.

كما لاحظتم بالفعل، فلم يكن هناك أطفال آخرون في المنزل. حيث أنجبت عائلة هوبرمان طفلين (صبي وفتاة) من لحمهما ودمهما، إلا أنهما أصبحا كبيرين بما فيه الكفاية ليعيشا خارج منزل العائلة. عملت ترودي كخادمة ومربية أطفال، بينما عمل هانز جونيور في وسط ميونخ. وقريباً سيشاركان كلاهما في الحرب، حيث من شأن الأولى أن تصنع الرصاص، ومن شأن الثاني أن يطلقها.

أما المدرسة، فقد كانت بائسة ومروّعة تماماً.

وعلى الرغم من أنها مدرسة حكومية، إلا أنها خاضعة لتأثير كاثوليكي كبير، حيث تكمن المعضلة في أن ليزيل قد نشأت لوثرية[1]. ولم تكن هذه بداية مشجعة لها أبداً في تلك المدرسة. أضف على ذلك أنّ المدرّسة اكتشفت عجزها عن القراءة أو الكتابة.

---

(1) اللوثرية: فرع رئيس من المسيحية البروتستانتية. أسّسها مارتن لوثر (1483-1546)، وهو لاهوتي ألماني، وراهب، ومُصلح كنسي. (المترجمة).

سارقة الكتب

وبشكل مهين، أُدرجت في صف الأطفال الأصغر سناً، الذين بدأوا تواً بتعلّم الأبجدية. وعلى الرغم من كونها نحيلة وباهتة، إلا أنها شعرت بأنها عملاقة مقارنة مع الأطفال الأصغر منها، وكثيراً ما تمنّت لو أنها شاحبة بما فيه الكفاية لتختفي تماماً.

حتى في المنزل، لم يكن هناك مجال كبير للحصول على أي مساعدة في الدراسة.

«لا تطلبي منه المساعدة...»، أشارت ماما. «ذلك الخنزير...» بابا يحدق من النافذة، كما هي عادته دوماً. «قد ترك المدرسة في الصف الرابع».

دون أن يستدير، أجاب بابا بهدوء، وإنما بنبرة تقطر سُماً: «كذلك لا تطلبي منها المساعدة...» نفض رماد سيجارته خارجاً. «فقد تركت المدرسة في الصف الثالث».

لم تكن هناك كتب في المنزل (باستثناء الكتاب الذي أخفته ليزيل تحت فراشها)، وأفضل ما في إمكانها فعله هو أن تحاول ترديد الأبجدية بصوت منخفض، قبل أن تطلب منها روزا بكلمات غير لطيفة أن تصمت. استمر هذا الوضع على ما هو عليه إلى أن بلّلت ليزيل سريرها في إحدى الليالي، وعندها بدأت سلسلة من الدروس الإضافية لتعليم القراءة. وبشكل غير رسمي، أُطلق عليها اسم دروس منتصف الليل، مع أنها عادة ما تبدأ نحو الساعة الثانية فجراً، وسأوضّح ذلك بتفصيل أكبر عمّا قريب.

في منتصف شهر شباط / فبراير، وفي عيد ميلادها العاشر، حصلت ليزيل على هدية هي دمية مستعملة ذات شعر أصفر، وتنقصها ساق.

«هذا أفضل ما يمكننا أن نقدّمه»، قال بابا معتذراً.

«ماذا تقول؟ إنها محظوظة في أن تحصل عليها»، قالت ماما مصحّحة.

واصل هانز فحصه للساق المتبقية، بينما قاست ليزيل زيّها الموحّد

الجديد. عشر سنوات، هذا يعني أنها أصبحت جزءاً من شبيبة هتلر، والانضمام إلى شبيبة هتلر يعني ارتداء زي بني صغير. ولكونها أنثى، فقد التحقت ليزيل بشعبة صغار ما يُسمى بال «ب.د.م».

شرح معنى الاختصار

إنه يُشير بالألمانية إلى Bund Deutscher Mädchen – أي رابطة الفتيات الألمانيات

أول أمر تقوم به الفتيات هناك هو تعلّم كيفية قول وتنفيذ إشارة «يحيا هتلر» بشكل صحيح. ومن ثم، يتعلّمن كيفية السير بشكل مستقيم، إلى جانب لف الضمادات، وخياطة الملابس. كما يتم اصطحابهن للمشي لمسافات طويلة وممارسة كثير من الأنشطة المماثلة. يوما الأربعاء والسبت مخصصان لعقد الاجتماعات من الساعة الثالثة وحتى الخامسة مساءً. وفي كل أربعاء وسبت، اعتاد هانز أن يسير مع ليزيل إلى مقر رابطة الفتيات الألمانيات ويعود ليأخذها بعد ساعتين. لم يتحدثا كثيراً، وإنما اكتفيا فقط بالسير متشابكي الأيدي، والاستماع إلى صوت وقع أقدامهما، بينما يدخّن بابا سيجارة أو اثنتين.

القلق الوحيد الذي يسببه لها بابا هو حقيقة أنه كثيراً ما يغادر. ففي العديد من الأمسيات، كان يدخل إلى غرفة المعيشة (التي تُعتبر بمثابة غرفة نوم الزوجين أيضاً)، ليسحب الأكورديون من الخزانة القديمة ويمر عبر المطبخ إلى الباب الأمامي.

وبينما هو يقطع شارع هيمل، اعتادت ماما على فتح النافذة والصراخ عالياً: «لا تتأخر في العودة إلى المنزل!» بينما يرد هو عليها «اخفضي صوتكِ».

سارقة الكتب

«أيها الخنزير القذر! تباً لكَ! سوف أتكلم بالطريقة التي تحلو لي!»

وهنا، يلاحقه صدى شتائهما في الشارع. من دون أن ينظر أبداً إلى الوراء، أو على الأقل، إلى أن يصبح متأكداً من أن زوجته قد اختفت. في تلك الأمسيات، وعندما يصل إلى نهاية الشارع، تماماً قبل متجر السيدة ديلر، اعتاد بابا أن يلتفت حاملاً معه الأكورديون، ليلقي نظرة على الطفلة التي حلّت محل زوجته في النافذة. وباختصار، كان يلّوح بيده الطويلة الشبحية، قبل أن يعاود سيره البطيء. حيث لا تراه ليزيل إلى أن تحين الساعة الثانية فجراً، عندما يسحبها بلطف من كابوسها الرهيب.

كانت الأمسيات التي تقضيها العائلة في المطبخ الصغير صاخبة ومزعجة دوماً. حيث لا تتوقف روزا هوبرمان عن الحديث بلسانها السليط، وهي تجادل وتشكو دوماً. وصحيح أن هانز وليزيل تفاديا دوماً الجدال معها، إلا أنها لطالما تدبّرت أمرها في خلق جدال في كل فرصة تسنح لها. يمكنها أن تتجادل مع العالم بأسره في هذا المطبخ، وهي تفعل ذلك في كل مساء تقريباً. وبمجرّد تناول الطعام، ومغادرة بابا، تبقى ليزيل وحيدة مع روزا وهي تقوم بإنجاز أعمال الكي.

في بضع مرات في الأسبوع، كانت ليزيل تعود إلى البيت من المدرسة، وتجوب شوارع مولشينغ مع ماما، حيث تقومان باستلام وتسليم الغسيل والكي من المناطق الأكثر ثراء في البلدة، ومنها على سبيل المثال شارع كنوبت، وشارع هايده، والقليل غيرها. بابتسامة مصطنعة، تستلم روزا الغسيل أو تسلّمه، وبمجرّد إغلاق الباب وابتعادها عن المنزل، تُسارع إلى لعن الأغنياء، وكل أموالهم وكسلهم.

«هؤلاء المتكبّرون لا يتنازلون لغسل ملابسهم بأنفسهم»، كانت تقول ذلك، على الرغم من اعتمادها عليهم لتوليد بعض الدخل المادي.

سارقة الكتب

«ذلك الرجل»، تابعت موجّهة اتهامها إلى السيد فوجل من شارع هايده، «جنى كل أمواله من والده. وهو يبذّره على النساء والشراب، والغسيل والكي، بالطبع». لم تتوقف أبداً عن كيل الشتائم والاتهامات لتلك العائلات.

السيد فوجل، السيد والسيدة بفافلهورفر، السيدة هيلينا شميدت، وآل فاينغارتنر؛ كانوا جميعاً مذنبين في نظرها.

وبصرف النظر عن سُكره وفسقه المُكلف - ووفقاً لرواية روزا - فإن إرنست فوجل، يحكّ باستمرار شعره المحشو بالقمل، ويلعق أصابعه قبل أن يدفع لها المال. «ينبغي لي أن أغسل المال الذي آخذه منه قبل أن أعود إلى البيت»، تلك هي أسطوانتها المعتادة.

أما آل بفافلهورفر، فهم يهتمون جداً بنتائج الغسيل والكي. «لا نريد تجعيدة واحدة في هذه القمصان، من فضلك»، تقلّدهم روزا. «ولا أي تجعّد في هذه البزّة الرسمية. ثم يقفون ويتفقدون كل شيء أمامي مباشرة. يا لهم من خنازير! إنهم كالقمامة».

وبالنسبة إلى آل فاينغارتنر، فهم أناس يبدو عليهم الغباء، مع قطتهم ذات الوبر المتساقط. «هل تعرفين كمّ الوقت الذي أستغرقه للتخلص من كل هذا الوبر؟ إنه في كل مكان!».

ودائماً ما يطال الحديث هيلينا شميدت، الأرملة الغنية. «تلك العجوز الكسولة - كل ما تفعله طوال اليوم هو الجلوس فقط. لم تُضطر يوماً في حياتها إلى القيام بأي عمل».

ومع ذلك، فقد كان الازدراء الأكبر الذي تكنّه روزا موجهاً ضد المنزل رقم 8 في شارع جرانده، وهو منزل كبير، يحتل تلّة عالية في القسم العلوي من بلدة مولشينغ.

«هذا»، أوضحت لليزيل في أول زيارة لها إلى هناك، «هو منزل رئيس البلدية. هذا المحتال. تقضي زوجته يومها في المنزل، وهي بخيلة لدرجة لا تقبل فيها أن تُشعل النار لتدفئة المكان – منزلهم بارد دوماً. إنها مجنونة». وشدّدت كلامها: «مجنونة تماماً». وعندما وصلتا إلى البوابة، قالت للفتاة: «اذهبي أنتِ».

ذُعرت ليزيل عندما رأت بضع درجات أمامها ويتربّع فوقها باب بني عملاق ذو مدقة نحاسية مهيبة. «ماذا أفعل؟».

دفعتها الأم. «لا تبدئي بطرح الأسئلة الآن أيتها الخنزيرة، هيا تحركي».

تحرّكت ليزيل. سارت على الدرب، وصعدت الدرجات مترددة، ومن ثم طرقت الباب.

فتح رداء حمام الباب، وبداخله امرأة ذات عيون فزعة، وشعر منفوش مثل الزغب. بدت امرأة مهزومة. رأت المرأةُ الغريبة روزا واقفة عند البوابة، وعاجلت إلى تسليم الفتاة كيساً من الغسيل. «شكراً لكِ»، قالت ليزيل، من دون أن تحصل على أي رد، باستثناء صوت إغلاق الباب في وجهها.

قالت ماما عندما عادت ليزيل إلى البوابة. «هل رأيتِ؟ هذا ما أتحمله في حياتي. هؤلاء الأوباش الأغنياء، والخنازير الكسولة».

ألقت ليزيل، وهي تحمل كومة الغسيل، نظرة إلى الوراء. وبادلتها المدقة النحاسية النظر من على الباب.

عندما انتهت من شتم الأشخاص الذين تعمل لصالحهم، اعتادت روزا هوبرمان الانتقال إلى موضوعها المفضّل الآخر، وهو شتم زوجها. حيث تنظر دوماً إلى كيس الغسيل وإلى المنازل المتهالكة، وتتحدّث، وتتحدّث، وتتحدّث بلا توقف موجّهة حديثها المعتاد إلى ليزيل في كل مرّة تمشيان فيها عبر شارع مولشينغ: «لو كان والدك نافعاً لشيء، لم لأكن مضطرة إلى

سارقة الكتب

القيام بهذا العمل المهين». وتتابع كلامها بسخرية. «دهّان! لماذا تقبلين الزواج بذلك الأحمق؟ هذا ما قالته لي عائلتي»، تابعتا جرّ خطواتهما على طول الطريق. «وهَأنذا، أجوب الشوارع، وأعمل كالخادمة في المطبخ لأنه ليس لدى ذلك الخنزير أي عمل. ليس لديه أي عمل حقيقي، على أي حال. فكل ما يفعله هو العزف في كل ليلة على ذلك الأكورديون المثير للشفقة في تلك البارات القذرة».

- «نعم يا ماما».

«هل هذا كل ما لديكِ لتقوليه؟» بدت عينا الأم مثل قطعتين زرقاوين شاحبتين أُلصقتا على وجهها.

تابعتا سيرهما، فيما حملت ليزيل كيس الغسيل.

في المنزل، يُغلى الغسيل في المرجل بجانب الموقد، وتُعلّق الملابس بجانب المدفأة في غرفة المعيشة، ومن ثم تُكوى في المطبخ، حيث تدور كل الجدالات.

«هل سمعتِ ذلك؟» سألتها ماما في كل ليلة تقريباً، وهي تحمل في قبضتها المكواة الحديدية التي سخّنتها على الموقد. الضوء معتم في كل أرجاء المنزل، وليزيل، الجالسة على طاولة المطبخ، تُحدق في النار الموقدة أمامها.

مكتبة أحمد

«ماذا؟» ردّت ليزيل. «ما الصوت الذي سمعته؟».

«إنها هولتزابفيل اللعينة». انتفضت ماما من مكانها. «تلك الخنزيرة قد بصقت للتو على بابنا مرّة أخرى».

اعتادت السيدة هولتزابفيل، جارتهم، البصق على باب آل هوبرمان في كل مرّة تمر فيها أمامه. حيث يبعد الباب الأمامي متراً واحداً فقط عن البوابة، ويمكننا القول بأن السيدة هولتزابفيل كانت بارعة في تحديد المسافة، ودقيقة في إصابة الهدف.

سارقة الكتب

ويرجع أصل البصق إلى حقيقة أنها هي وروزا هوبرمان كانتا في حالة حرب لفظية استمرّت لعقود، من دون أن يعرف أحد منشأ هذا العداء، ومن المرجّح أنهما نفسيهما قد نسيتا السبب.

السيدة هولتزابفيل امرأة هزيلة، وحقودة بشكل واضح. لم تتزوج أبداً ولكنها أم ولدين، يكبران ذرية آل هوبرمان ببضع سنوات. التحق كلا الولدين في الجيش، وكلاهما سيظهران في قصتنا، أستطيع أن أؤكد لكم ذلك.

وفيما يخص الحقد، أود أن أضيف أيضاً أن السيدة هولتزابفيل متأنية ومتقنة في بصقها، فهي لم تهمل يوماً أن تبصق على الباب رقم ثلاثة وثلاثين، وأن تقول: «خنزيرة!» في كل مرّة تمر فيها. وفي واقع الأمر، فهناك شيء لاحظته لدى الألمان:

يبدو أنهم مولعون جداً بالخنازير.

سؤال صغير وجواب

من تظنون أنه مُجبر على تنظيف كل ذلك البصاق وإزالته
من على الباب في كل ليلة؟
نعم – لقد عرفتم الجواب.

عندما تأمركم امرأة ذات قبضة حديدية بالخروج وإزالة البصاق عن الباب، فإنكم تمتثلون لهذا الأمر. خصوصاً عندما يكون ذلك الحديد ساخناً، وعلى شكل مكواة.

وفي نهاية المطاف، يستحيل كل شيء إلى مجرد جزء من الروتين المعتاد.

سارقة الكتب

كل ليلة، تخرج ليزيل لتمسح الباب وتشاهد السماء، التي عادة ما تُشبه البصاق نفسه - باردة وثقيلة، زلقة ورمادية - ولكنها تبدو بين الحين والآخر مرصّعة ببعض النجوم التي تتجرأ على البزوغ والتوهج، حتى ولو لبضع دقائق. في تلك الليالي، اعتادت ليزيل على البقاء لفترة أطول قليلاً، والانتظار...

«مرحباً، أيتها النجوم».

... انتظار الصوت الرهيب الذي يزمجر منادياً إياها من المطبخ، أو إلى حين تغرق النجوم مرّة أخرى، في مياه السماء الألمانية.

القُبلة

(صانع القرار في مرحلة الطفولة)

كما هو الحال مع معظم البلدات الصغيرة، كانت مولشينغ مليئة بمختلف الشخصيات. حيث تعيش حفنة منهم في شارع هيمل. وبالطبع فإن السيدة هولتزابفيل هي واحدة منهم، كما شمل الآخرون أشخاصاً نذكر منهم:

- رودي شتاينر – الصبي الذي يسكن في البيت المجاور والمهووس بالرياضي الأمريكي الأسود، جيسي أوينز.
- السيدة ديلر – المرأة القوية صاحب متجر الزاوية.
- تومي مولر – طفل تسبّب التهاب أذنه المزمن في خضوعه للعديد من العمليات الجراحية، يعبر نهر وردي وجهه الذي ينتفض أحياناً بحركة لا إرادية.
- رجل يُعرف باسم بيفيكوس، وهو ذو لسان سليط وبذيء جعل روزا هوبرمان تبدو فصيحة وقديسة.

على العموم، كان الشارع مليئاً بأناس فقراء نسبياً. وعلى الرغم من

سارقة الكتب

النهوض الواضح الذي حقّقه الاقتصاد الألماني في عهد هتلر، إلا أن المناطق الفقيرة من البلدة ما تزال موجودة.

كما ذكرتُ سابقاً، فإن المنزل المجاور لآل هوبرمان مستأجر من قبل عائلة تُدعى شتاينر، وتضم ستة أطفال. أحدهم يُدعى رودي، وهو سيئ السمعة، وسيصبح عمّا قريب أفضل صديق لليزيل، ولاحقاً شريكها في الجريمة، وأحياناً المحفّز لارتكابها. التقت ليزيل برودي في الشارع.

بعد مرور بضعة أيام على حمام ليزيل الأول، سمحت لها ماما باللعب مع الأطفال الآخرين. في شارع هيمل، كانت الصداقات تُعقد في الخارج، بغض النظر عن حالة الطقس. فنادراً ما زار الأطفال منازل بعضهم البعض، لأنها صغيرة جداً لتتسع لأولئك الضيوف الصغار، وليست هناك ألعاب للعب بها. كما أنهم اعتادوا على ممارسة هوايتهم المفضلة في الشارع، ألا وهي لعب كرة القدم. حيث بدت الفرق معدّة جيداً، واستُخدمت صناديق القمامة لتحديد الأهداف.

وبوصفها الطفلة الجديدة في البلدة، فقد تم على الفور تخصيص ليزيل للعب دور حارس المرمى بين زوج من تلك الصناديق. (وبذلك استطاع تومي مولر أخيراً التحرّر من لعب هذا الدور، على الرغم من كونه أسوأ لاعب كرة قدم على طول شارع هيمل وعرضه).

لفترة من الوقت، سار كل شيء بشكل سلس ولطيف، إلى أن جاءت اللحظة المصيرية التي وقع فيها رودي شتاينر في الثلج نتيجة دفعة خاطئة من تومي مولر.

«ماذا؟!». صاح تومي، ووجهه ينتفض من اليأس. «ولكن ماذا فعلتُ أنا؟!».

مُنحت ركلة جزاء لصالح الفريق الخصم، والآن، أصبح رودي شتاينر في مواجهة الطفلة الجديدة، ليزيل ميمنجر.

سارقة الكتب

وضع الكرة فوق الثلج القذر، واثقاً من النتيجة المعتادة التي سيحققها. فبعد كل شيء، لم يخطئ رودي أية ضربة جزاء على مدى ثماني عشرة ضربة. وبغض النظر عن هوية الحارس، فإن رودي يسجّل هدفاً دوماً.

في هذه المناسبة، حاول فريق ليزيل إجبارها على التنازل عن موقعها كحارس. وكما قد تتخيلون، فقد احتجّت، ووافق رودي على بقائها.

«لا، لا»، ابتسم، وقال وهو يفرك يديه معاً: «فلتبقَ». توقّف الثلج عن الهطول على الشارع القذر، وتجمّعت آثار الأقدام الموحلة بينهما. تحرّك رودي على عجل، مسدداً رميته، واندفعت ليزيل، وتمكّنت بطريقة أو بأخرى من حرف مسار الكرة بكوعها. وقفت مبتسمة، إلا أن أول شيء رأته بعدها هو كرة من الثلج والطين سُدّدت إلى وجهها. آلمتها الضربة بشكل جنوني.

«ما رأيكِ في ذلك؟» صاح الصبي مستهزئاً، وركض خلف الكرة.

«أيها الخنزير...»، همست ليزيل. يبدو أن المفردات التي تعلّمتها في منزلها الجديد قد وجدت طريقها إلى لغتها بسرعة.

بضع حقائق عن رودي شتاينر

يكبر ليزيل بثمانية أشهر. وهو ذو أرجل نحيلة، وأسنان حادة، وعينين زرقاوين، وشعر بلون الليمون.
باعتباره واحداً من ستة أطفال في عائلة شتاينر، فقد كان جائعاً على الدوام.
ينظر الجميع إليه في شارع هيمل على أنه مجنون قليلاً. وذلك بسبب حادثة نادراً ما تحدّث عنها سُكان ذلك الحي، إلا أنها تُعرف عموماً باسم «حادثة جيسي أوينز». حيث، وفي إحدى

سارقة الكتب

الليالي، دهن رودي نفسه بالفحم الأسود وركض لمسافة مئة متر في الميدان الرياضي المحلي.

سواء كان مجنوناً أم لا، فمن المحتوم أن يكون رودي أفضل صديق لليزيل. وعلاوة على ذلك، فإن ضرب كرة ثلج في الوجه هي بلا شك البداية المثالية لصداقة دائمة.

بعد مرور بضعة أيام على التحاق ليزيل بالمدرسة، بدأت بالذهاب إلى هناك مع أطفال عائلة شتاينر. حيث طلبت والدة رودي، باربرا، من ابنها أن يسير مع الفتاة الجديدة، ويعود ذلك أساساً لكونها سمعت بحادثة كرة الثلج المشينة. أما رودي، فقد كان سعيداً بما يكفي للامتثال لطلب أمه. فهو لم يكن أبداً من الصبية الذي يكرهون الفتيات. بل على العكس من ذلك، فهو يحب الفتيات كثيراً، كما أنه استلطف ليزيل (وهذا السبب وراء ضربها بكرة الثلج في المقام الأول). في الواقع، كان رودي شتاينر واحداً من هؤلاء الأوباش الصغار الجريئين الذين يتخيّلون أنفسهم مع السيدات. وهذا النوع موجود في طفولة كل مجموعة بلا شك. فهو الصبي الذي لا يخاف من الجنس الآخر، فقط لأن الجميع يختارون تبني هذا الخوف، كما أنه من النوع الذي لا يخاف من اتخاذ القرارات. وفي هذه الحالة، اتخّذ رودي بالفعل قراره بخصوص ليزيل ميمنجر.

في الطريق إلى المدرسة، حاول أن يدلّ ليزيل على بعض المعالم في البلدة، أو على الأقل، تمكّن من تزويدها ببعض المعلومات عنها. كان يحاول إسكات أشقائه الأصغر سناً، بينما حاول أشقاؤه الأكبر سناً إسكاته هو. وكانت نقطة اهتمامه الأولى هي نافذة صغيرة في الطابق الثاني من مبنى سكني.

«هذا هو المكان الذي يعيش فيه تومي مولر». أدرك أن ليزيل لم تتذكّر

سارقة الكتب

تومي. «ذلك الولد المنتفض، ألم تلاحظيه؟ عندما كان في الخامسة من عمره، أضاعته أمه في السوق في أبرد يوم من السنة. وعندما وجدوه بعد ثلاث ساعات، كان متصلباً من البرد. أصابه ألم فظيع في أذنيه نتيجة البرد. وبعد فترة من الوقت، التهبت أُذناه من الداخل، وخضع لثلاث أو أربع عمليات، حيث أتلف الأطباء بعضاً من أعصابه. ولذلك فهو ينتفض».

تذكّرت ليزيل ذلك الصبي، وقالت: «إنه سيئ في لعب كرة القدم».

- «إنه الأسوأ».

المحطة التالية كانت متجر الزاوية في نهاية شارع هيمل، والذي تديره السيدة ديلر.

ملاحظة مهمة حول السيدة ديلر

لديها قاعدة ذهبية واحدة.

السيدة ديلر امرأة حادة الطباع، وتتميّز بنظاراتها السميكة، ونظرتها الشنيعة الشريرة. وقد طوّرت هذه النظرة الشريرة لتثبيط فكرة سرقة متجرها، الذي كانت تحرسه مثل الجندي. هي امرأة ذات صوت جليدي وحتى أنفاسها تعبق بتحية «يحيا هتلر». المتجر نفسه يكتسي بالأبيض، وهو بارد مثل الجليد وخال من أية إشارة إلى الحياة. أما المنزل الصغير المحشور بجانبه فيرتجف بشكل أكثر حدّة قليلاً من المباني الأخرى على شارع هيمل. حيث أضفت السيدة ديلر هذا الشعور، وهو الشيء المجاني الوحيد الذي يمكنك الحصول عليه منها. عاشت لمتجرها ومتجرها عاش للرايخ الثالث. حتى عندما بدأ التقنين في وقت لاحق من ذلك العام، عُرفت ببيعها بعض المواد التي يصعب الحصول عليها، وبتبرعها بالمال للحزب النازي. على الحائط، وراء مكان جلوسها المعتاد، تربّعت صورة

سارقة الكتب

مؤطّرة للفوهرر هتلر. وإذا ما دخلتم إلى متجرها من دون أن تقولوا «يحيا هتلر»، فهي ستمتنع ببساطة عن خدمتكم. عندما مرّا بجانب المتجر، لفت رودي انتباه ليزيل إلى العينين المضادتين للرصاص اللتين تحدّقان من نافذة المتجر.

«إياكِ أن تنسي أن تقولي يحيا هتلر عندما تدخلين إلى متجرها»، قال رودي محذّراً. حتى عندما ابتعدا لمسافة لا بأس بها، نظرت ليزيل إلى الوراء ورأت العينين المرهبتين ما تزالان تحدقان فيها من وراء النافذة.

بعد عبور الزاوية، يأتي شارع ميونخ (الطريق الرئيس إلى داخل وخارج بلدة مولشينغ) الموشّح ببقع المياه والثلج المتناثر.

وكما هو الحال غالباً، مرت أعداد قليلة من صفوف القوات التي تقوم بتدريباتها، حيث يمر الجنود بزيهم العسكري، وأحذيتهم السوداء التي تلوّث الثلج، ووجوههم الثابتة في تركيز مطلق على ما هو أمامهم.

بمجرّد أن شاهدوا عبور الجنود، سارت مجموعة الأطفال المكوّنة من أولاد عائلة شتاينر وليزيل أمام نوافذ بعض المتاجر، وقاعة البلدية البارزة، التي سوف تُدّمر إلى شظايا وتدفن تحت الركام بعد سنوات. بعض المتاجر مهجورة، وما تزال تحمل النجوم الصفراء والإهانات المعادية لليهود. أبعد قليلاً، وعلى الشارع نفسه، توجد الكنيسة الناهدة نحو السماء، بسقفها المرصوف بقرميد بديع. الشارع، بشكل عام، يأخذ شكل أنبوب رمادي طويل، وكأنه ممر لا ينتهي من الرطوبة، يعبره المارّة في البرد القارس، ويُسمع فيه الصوت الرقيق للخطى الغارقة في الماء.

في إحدى مراحل سيرهم، هرع رودي إلى الأمام، جارّاً ليزيل وراءه.

طرق على نافذة متجر خيّاط.

لو أنها تعرف القراءة لقرأت اللافتة الموضوعة على المتجر، ولاحظت

سارقة الكتب

أنه يخصّ والد رودي. لم يكن المتجر مفتوحاً بعد، ويقبع في داخله، وراء طاولة الاستقبال، رجل يجهّز الملابس. رفع نظره إليهما ولوّح مرحباً.

«هذا هو أبي»، قال رودي، وسرعان ما وصل بقية أطفال عائلة شتاينر من مختلف الأعمار، وهم يلوحون أو يبعثون القبلات إلى والدهم، أو يقفون ببساطة ويسلمون عليه من بعيد (في حالة الأطفال الأكبر سناً)، ثم يتابعون سيرهم، نحو المعلَم الأخير قبل المدرسة.

المحطة الأخيرة

طريق النجوم الصفراء.

إنه مكان لا يُريد أحد البقاء فيه والنظر إليه، ولكن مع ذلك، قام الجميع بذلك تقريباً. الطريق يأخذ شكل ذراع طويلة مكسورة، ويحتوي على عدة منازل ذات نوافذ مزدحمة وجدران مهترئة، وقد رُسمت نجمة داود على أبوابها. تُشبه تلك المنازل مرضى الجذام، فهي تبدو كالقروح على التضاريس الألمانية المصابة.

«شارع شيلر»، قال رودي. «طريق النجوم الصفراء».

في ذلك الشارع، يمكنكم رؤية بعض الناس يتحركون. وقد جعلهم الرذاذ يبدون مثل الأشباح. لم يكونوا بشراً، وإنما أشكال تتحرك تحت الغيوم الملونة بلون الرصاص.

«هيا، تعالا أنتما الاثنين»، ناداهما كيرت (أكبر أطفال عائلة شتاينر)، وركض رودي وليزيل بسرعة إليه.

في المدرسة، حرص رودي على لقاء ليزيل خلال فترات الاستراحة. لم يكن يهتم بتعليقات الآخرين حول غباء الفتاة الجديدة. بل وقف إلى

سارقة الكتب

جانبها منذ البداية، وسيظل كذلك حتى وقت لاحق، عندما يبلغ إحباط ليزيل درجات لا طاقة لها على احتمالها. لكنه لن يفعل ذلك مجاناً.

الشيء الوحيد الأسوا من صبي يكرهكِ

صبي يحبكِ.

في أواخر نيسان / أبريل، وإبان عودتهما من المدرسة في أحد الأيام، انتظر رودي وليزيل في شارع هيمل للمشاركة في لعبة كرة القدم المعتادة. وصلا أبكر قليلاً من الوقت المحدّد، ولم يكن هناك أطفال آخرون قد وصلوا بعد. الشخص الوحيد الذي شاهداه هو بيفيكوس، ذو اللسان السليط.

«انظري هناك»، أشار رودي.

توصيف المدعو بيفيكوس

رجل ذو جسد هزيل، وشعر أبيض.
يرتدي معطفاً مطرياً أسودَ، وسروالاً بنياً، وحذاء متحللاً،
وفماً - يا له من فم!

«مرحباً، بيفيكوس!».

مع اقتراب الهيئة البعيدة، بدأ رودي بالصفير.

قوّم الرجل المسنُّ مشيته وشرع في كيل الشتائم والسباب بشراسة لا يمكن وصفها إلا بأنها تنم عن موهبة. ما من أحد يعرف اسمه الحقيقي، أو على الأقل، في حال معرفتهم به، فإنهم لم يستخدموه قط، حيث اعتادوا على مناداته باسم بيفيكوس، وهو اسم يُطلق على الشخص الذي يُحب

سارقة الكتب

الصفير، وبالفعل فإن بيفيكوس دائم الصفير. حيث اعتاد أن يصفر بلحن راديتزكي العسكري[1]، ما حدا بجميع أطفال البلدة إلى تقليده وتكرار هذا اللحن ذاته. وبمجرّد سماعهم يتخلى بيفيكوس عن أسلوبه المعتاد في المشي (بظهره المنحني إلى الأمام، وخطواته الكبيرة المتهالكة، وذراعاه المرميتان وراء ظهره)، وينتصب لينفث شتائمه المعتادة، ويبدّد بصوته المليء بالغضب أي انطباع عابر عن الصفاء والسكينة.

في هذه المناسبة، تبعت ليزيل استهزاء رودي بشكل لا شعوري.

«بيفيكوس!» ردّدت، متقمصة بسرعة القسوة التي يبدو أن الطفولة تتطلبها. كان صفيرها سيئاً، ولكن لم يكن هناك وقت للتدرّب عليه وإظهاره بشكل أفضل.

طاردهما، وهو ينادي بعبارة استهلها «جي شايسن! اغربا عن وجهي يا كومتي الغائط!».

بدأ بعدها صوته بالانخفاض، مع ابتعاد الطفلين. في البداية، وجّه إساءته فقط إلى الصبي، ولكن سرعان ما جاء دور ليزيل.

«أيتها العاهرة الصغيرة!» كان يرعد وراءها. هاجمتها الكلمات بقسوة. «أنا لم أركِ هنا من قبل!». تخيّلوا مدى فداحة وصف فتاة تبلغ من العمر عشر سنوات بكلمة عاهرة. نعم، إنه بيفيكوس. وفي الواقع، فقد اتفق الجميع على أنه والسيدة هولتزابفيل كانا ليُشكّلا زوجاً جميلاً. «عودا إلى هنا!». كانت آخر الكلمات التي سمعتها ليزيل ورودي وهما يواصلان الهرب. ركضا حتى وصلا إلى شارع ميونخ.

---

(1) لحن عسكري من تأليف يوهان شتراوس الأب. ألّفه تكريماً للمارشال جوزيف راديتزكي فون راديتز، وعُزف لأول مرة في فيينا في 31 آب / أغسطس من عام 1848، حيث سرعان ما أصبح رائجاً جداً بين الجنود.

سارقة الكتب

«هيا»، قال رودي، بمجرّد أن استعادا أنفاسهما. «بقيت مسافة قليلة فقط».

أخذها إلى ملعب هوبيرت أوفال، مسرح واقعة جيسي أوينز، حيث وقفا هناك واضعين أيديهما في جيوبهما. امتد المسار أمامهما، وشيء واحد فقط كان ممكن الحدوث، وقد بدأه رودي. «مئة متر»، قال متحدياً. «أراهن بأنه لا يمكنكِ أن تسبقيني».

لم تكن ليزيل لتقبل أياً من ذلك. «أراهنكَ بأنني أستطيع».

- «على ماذا تراهنين، أيتها الخنزيرة الصغيرة؟ هل تملكين أية نقود؟»

- «بالطبع لا. وأنتَ؟»

«لا». ولكن كانت لدى رودي فكرة أخرى. فشخصية الصبي العاشق تتحكّم به الآن. «إذا سبقتكِ، فسأُقبّلكِ». انحنى وبدأ يستعد للانطلاق.

شعرت ليزيل بالهلع، على أقل تقدير. «لماذا تريد أن تُقبّلني؟ أنا قذرة».

«وأنا كذلك»، لم يرَ رودي في قليل من القذارة سبباً يمنعه من الحصول على ما يريد. وفي الحقيقة فقد مضت فترة لا بأس بها منذ أن استحمّا، كلاهما.

فكرّت في ذلك، وهي تنظر إلى ساقي خصمها اللتين تشبهان ساقيها. قرّرت بأنها لن تسمح له أبداً بالفوز عليها. هزّت رأسها بمنتهى الجدية، كما لو أنّ ما يحدث هو صفقة تجارية رفيعة المستوى. «يمكنكَ تقبيلي إذا فزتَ. ولكن إذا فزتُ أنا، فلن أكون حارسة المرمى في مباريات كرة القدم القادمة».

فكّر رودي في ذلك. «يبدو ذلك عادلاً بما فيه الكفاية»، وتصافحا تأكيداً لهذا الاتفاق.

كل شيء بدا مظلماً وضبابياً، وبدأت زخّات صغيرة من المطر بالهطول. أما المسار فكان موحلاً أكثر مما يبدو في ظاهره.

سارقة الكتب

استعد الخصمان.

رمى رودي حجرة في الهواء لتكون إشعاراً ببدء السباق. فعندما تضرب الأرض يمكن لهما الانطلاق.

«لا أستطيع أن أرى خط النهاية حتى»، شكت ليزيل.

- وهل تظنين أنني أراه؟

انغمست الحجرة في الأرض.

ركضا بجانب بعضهما البعض، محاولين دفع بعضهما بعضاً بمرفقيهما لاحتلال الصدارة. الأرض الزلقة أعاقت حركة أقدامهما وأوقعتهما أخيراً على بعد عشرين متر من خط النهاية.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!» صاح رودي. «أنا مغطّى بالغائط!».

«إنه ليس غائطاً»، صحّحت له ليزيل، «إنه طين»، على الرغم من أن الشكوك نفسها قد راودتها أيضاً. انزلقا خمسة أمتار أخرى نحو النهاية. «إذاً، هل نقول بأننا متعادلان؟».

نظر رودي إليها، بأسنانه الحادة وعينيه الزرقاوين اللتين تشبهان أعين أفراد العصابات. نصف وجهه مغطّى بالطين. «إذا تعادلنا، فهل سأحصل على قبلتي؟».

«ليس قبل مليون سنة». وقفْت ليزيل ونفضت بعض الطين عن سترتها.

- سوف أعفيكِ من حراسة المرمى.

- لا تهمني حراسة المرمى.

عندما عادا إلى شارع هيمل، حذّرها رودي قائلاً: «يوماً ما يا ليزيل، سوف تموتين لتحصلي على قبلة مني». أما ليزيل فقد قطعت على نفسها عهداً بأنها لن تُقبّل يوماً هذا الخنزير البائس القذر، وخاصة في ذلك اليوم.

كما كانت هناك مسائل أخرى أكثر أهمية ينبغي الاهتمام بها: نظرت إلى ملابسها الطينية وقالت ما هو واضح كعين الشمس.

- سوف تقتلني.

بالطبع فهي تقصد روزا هوبرمان، المعروفة أيضاً باسم ماما، والتي شارفت حقاً على قتلها. وبالمجمل، فقد طغت كلمة خنزيرة على العقاب الذي نالته، والذي كادت أن تتحوّل بسببه إلى قطعة من اللحم المفروم.

حادثة جيسي أوينز

في ذاكرة ليزيل، شعرت وكأنها كانت موجودة في الواقع عندما حدثت واقعة رودي الطفولية الشائنة. على نحو ما، رأت نفسها دوماً جزءاً من جمهوره الخيالي. ربما أعجبتها فكرة الصبي المدهون باللون الأسود وهو يركض عبر العشب.

حدث ذلك في عام 1936، خلال الأولمبياد الذي نظّمه هتلر.

كان جيسي أوينز قد أنهى للتو سباق التتابع 4 × 100 متر، وفاز بالميدالية الذهبية الرابعة له. سمِع العالم كله بحقيقة أن هتلر يعتبره بمرتبة دون الإنسان، وذلك لكونه أسود اللون، وبالتالي فقد رفض مصافحته. حتى الألمان الأكثر عنصرية اندهشوا من الأداء الخارق لأوينز، وتردّدت أنباء انتصاره في كل مكان، إلا أن أشد معجبيه على الإطلاق هو رودي شتاينر.

في ذلك اليوم، احتشد جميع أفراد آل شتاينر في غرفة المعيشة، واغتنم رودي الفرصة لينسل إلى المطبخ، ويأخذ بعض الفحم من الموقد، ويحمله بين يديه الصغيرتين. «الآن»، ابتسم معلناً استعداده.

لطّخ نفسه بطبقة جميلة وسميكة من الفحم واستحال جسده إلى اللون

الأسود، حتى شعره أصبح أسود اللون.

بنظرة تحمل مسحة من الجنون، حدّق الصبي إلى انعكاسه على النافذة. ارتدى يومها سروالاً قصيراً وقميصاً، وسارع بهدوء لسرقة دراجة شقيقه الأكبر. قادها عبر الشارع، متوجهاً إلى ملعب هوبيرت أوفال، حيث أخفى في إحدى جيوبه بضع قطع إضافية من الفحم، في حال بهت اللون لاحقاً.

في عقل ليزيل، رسمت صورة للقمر وهو في كبد السماء في تلك الليلة، والغيوم من حوله.

توقّفت الدراجة الصدئة أمام سياج هوبيرت أوفال، والذي تسلقه رودي. هبط على الجانب الآخر، وانطلق بحماس نحو بداية مسار سباق المئة متر. قام بعدّة حركات مطمطة خرقاء، وحفر حفرتين في التراب.

منتظراً لحظة الانطلاق، حاول حشد أقصى قدر من التركيز تحت ظلمة السماء، وأعين القمر والغيوم تراقبه عن كثب.

«يبدو أوينز مستعداً بشكل جيد»، بدأ بالتعليق. «ويمكن لهذا أن يكون أكبر انتصار له في حياته».

صافح الرياضيين الخياليين الآخرين وتمنى لهم حظاً موفقاً، على الرغم من أنه يُدرك تماماً عجزهم عن هزيمته.

أشار إليهم الحكم أن يتقدموا إلى الأمام، والجمهور محتشد في كل بوصة من محيط ملعب هوبيرت أوفال. الحشد كله يهتف بشيء واحد: جميعهم يرددون اسم رودي شتاينر - الذي كان اسمه جيسي أوينز.

ومن ثم، صمت الجميع.

قدماه العاريتان انحفرتا في الأرض، حيث أمكنه أن يشعر بتجمع التراب بين أصابع قدميه.

وبناء على طلب الحكم، اتّخذ وضعية القرفصاء - وسُمع صوت السلاح وهو يشق سواد الليل معلناً بدء السباق.

خلال الثلث الأول من السباق، كان الجميع متعادلين، ولكنها لم تكن سوى مسألة وقت قبل أن يبرز بشكل واضح ومتميز أوينز المغطّى بالفحم.

«أوينز يتصدّر السباق»، صرخ صوت الصبي وهو يركض مندفعاً مباشرة نحو التصفيق الأسطوري الممجّد لنصره الأولمبي. أمكنه أن يشعر بشريط النهاية يلامس صدره وهو يتجاوزه محتلاً المركز الأول، باعتباره أسرع رجل على قيد الحياة.

فقط عندما حقق الفوز، بدأت الأمور تأخذ منحاً سيئاً. بين الحشد، وقف والده عند خط النهاية مثل فزاعة مخيفة، أو على الأقل، فزاعة ترتدي بزّة رسمية. (كما ذكرتُ سابقاً، فإن والد رودي يعمل كخياط، ونادراً ما يُرى في الشارع من دون بزّة وربطة عنق. إلا أنه في هذه المناسبة، اكتفى بارتداء بزّة مع قميص غير مرتب، وتخلّى عن ربطة العنق).

«ماذا يحدث؟» قال لابنه عندما وصل في كل مجده الفحمي. «ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟» اختفى الحشد. ومرّت نسمة عابرة. «كنتُ نائماً على كرسي عندما لاحظ كيرت أنك قد ذهبت. وخرج الجميع للبحث عنك».

يُعتبر السيد شتاينر رجلاً مهذباً إلى حد كبير في ظل الظروف العادية. أما اكتشاف أن أحد أطفاله قد طلا نفسه بالفحم في أمسية صيفية، فلم يكن من الظروف التي يمكن اعتبارها عادية. «لقد جُنّ الصبي»، تمتم، على الرغم من اعترافه بحتمية حدوث شيء من هذا القبيل مع وجود ستة أطفال، فلا بدّ من أن يكون أحدهم على الأقل بمثابة البيضة الفاسدة، وهو ينظر إليها الآن منتظراً تفسيراً ما. «حسناً، ماذا يحدث؟».

سارقة الكتب

كان رودي يلهث منحنياً وواضعاً يديه على ركبتيه. «أنا جيسي أوينز». أجاب كما لو أن ذلك هو الشيء الأكثر طبيعية على الأرض، كما لو أنه يقصد أن يقول (ماذا يبدو لك غير ذلك بحق الجحيم؟) إلا أن حماسه قد تبدّد، عندما لاحظ مدى التعب الباد على عيني والده.

«جيسي أوينز؟» السيد شتاينر هو من الرجال المتبلدين المتخشبين، صوته حاد وحقيقي، وجسده طويل وثقيل، مثل شجر البلوط. أما شعره فهو فوضوي إلى حد كبير. «ماذا عنه؟».

- «بابا إنه اللاعب الملقّب بالسحر الأسود».

«سأُريك الآن ما هو السحر الأسود». أمسك بأذن ابنه بين الإبهام والسبابة.

جفل رودي قائلاً. «أوه، هذا مؤلم حقاً!».

«هل هو كذلك؟» قال الأب الذي كان قلقاً أكثر من ملمس الفحم الذي لوّث أصابعه. وفكّر في أن ابنه المجنون قد غطّى كامل جسده بهذا الفحم، حتى أنه دخل في أذنيه، «يا إلهي! هيا تعال».

في الطريق إلى البيت، قرّر السيد شتاينر أن يتحدّث، قدر استطاعته، عن الأمور السياسية ليُفهم الصبي أبعاد فعلته هذه. ولكن رودي لن يفهم كل شيء إلا بعد مرور سنوات - عندما يكون الأوان قد فات لتكبّد عناء فهم أي شيء.

النقاط السياسية المتناقضة لدى أليكس شتاينر

النقطة الأولى: أليكس شتاينر هو عضو في الحزب النازي إلا أنه لا يكره اليهود، ولا أي شخص آخر.

النقطة الثانية: على الرغم من ذلك، ينتابه شعور سرّي بشيء من

سارقة الكتب

الراحة (أو أسوأ - السعادة!) عندما يتم إيقاف أصحاب المحلات اليهودية عن العمل - حيث أن الدعاية الإعلامية النازية قد أفهمته بأن الأمر لم يكن سوى مسألة وقت قبل ظهور طاعون من الخياطين اليهود الذين سيأتون ليسرقوا زبائنه.

النقطة الثالثة: ولكن هل يعني ذلك أنه ينبغي إيقافهم عن العمل بشكل كامل؟

النقطة الرابعة: بالتأكيد، عليه أن يفعل كل ما في وسعه لدعم عائلته. حتى لو عنى ذلك الانتساب إلى الحزب النازي.

النقطة الخامسة: في مكان ما، في صميم قلبه، برزت نقطة إشكالية، إلا أنه اتخذ قراره بتجاهلها بأي ثمن، فهو يخشى من تبعات ما قد ينتج عنها.

عبرا عدّة طرقات إلى أن وصلا إلى شارع هيمل، حيث قال أليكس: «بُنيّ، لا يمكنك أن تكرّر فعلتك هذه وتطلي نفسك باللون الأسود مرّة أخرى، هل تفهمني؟».

بدا رودي مهتماً بما يقوله والده، ومشوشاً في الوقت ذاته. لم يعد القمر في كبد السماء الآن، إلا أنه ينعكس على وجه الصبي جاعلاً إياه يبدو جميلاً وغامضاً، مثل أفكاره. «لمَ لا، يا بابا؟».

- لأنهم سيأخذونك بعيداً.

- لماذا؟

- لأنه لا يمكن لك أن تريد أن تكون أسود اللون أو يهودياً أو أي شخص... ليس مثلنا.

- مَن هم اليهود؟

- هل تعرف أقدم زبائني السيد كوفمان؟ صاحب المتجر الذي اشترينا منه حذاءك؟

- نعم.

- حسناً، إنه يهودي.

- لم أكن أعرف ذلك. هل عليك أن تدفع لتكون يهودياً؟ هل تحتاج إلى ترخيص؟

«لا يا رودي». كان السيد شتاينر يوجّه الدراجة بيد ويمسك رودي بالأخرى. ويواجه في الأثناء صعوبة في توجيه المحادثة. إلا أنه لم يتخلَّ عن شدّ أُذن ابنه، التي نسي أن يفلتها. «الأمر يُشبه أن تكون ألمانياً، أو كاثوليكياً».

- أوه. هل جيسي أوينز كاثوليكي؟

«لا أعرف!» وتعثّر عندها بدواسة الدراجة وأفلت أذن الصبي.

مشيا بصمت لفترة من الوقت، حتى كسر رودي ذلك الصمت بقوله: «بابا، أنا أتمنى فقط لو كنتُ مثل جيسي أوينز».

هذه المرة، وضع السيد شتاينر يده على رأس رودي وأوضح: «أعرف يا بُني - ولكنك ذو شعر أشقر جميل وعينين زرقاوين كبيرتين. ينبغي أنَ تكون سعيداً بذلك، هل هذا واضح؟» ولكن في الحقيقة لم يكن هناك أي شيء واضح.

لم يفهم رودي شيئاً، وكانت تلك الليلة بمثابة تمهيد لما سيليها. وبعد عامين ونصف العام، تحوّل متجر كوفمان للأحذية إلى أجزاء من الزجاج المكسور، حيث رُميت جميع الأحذية مع عُلبها على متن شاحنة وصُودرت بعيداً.

سارقة الكتب

الوجه الآخر لورق الصنفرة

أفترضُ أنّ جميع الأشخاص يمرّون بلحظات حاسمة تُغيّر وجه حياتهم، وخصوصاً في أثناء مرحلة الطفولة. بالنسبة إلى البعض فهي حادثة جيسي أوينز، أما بالنسبة إلى الآخرين فهي اللحظة الهستيرية المصاحبة للتبوّل في السرير.

في أواخر شهر أيّار / مايو 1939، مرّت ليلة مثل معظم الليالي الأخرى، حيث تلوّح ماما بقبضتها الحديدية المتجسّدة بمكواتها، وبابا خارج المنزل. بينما تنظّف ليزيل الباب الأمامي غارقة في مشاهدة سماء شارع هيمل.

في وقت سابق من ذلك اليوم، مرّ موكب في تلك الأحياء. حيث سار الأعضاء المتطرفون من حزب العمال الاشتراكي الألماني الوطني (المعروف باسم الحزب النازي)، بقمصانهم البُنية في شارع ميونخ. كانوا يحملون لافتاتهم بفخر، ويشمخون برؤوسهم عالياً، كما لو أنها مثبتة على عصي، بينما هدرت أصواتهم بالنشيد الوطني «دويتشلاند أوبر آليس» (ألمانيا فوق كل شيء).

سارقة الكتب

كما هو الحال دائماً، كانوا يُلاقون التصفيق والتحفيز والهتاف وهم يسيرون في طريقهم إلى وجهة لا يعرفها أحد. حيث يقف الناس في الشارع ليراقبوا المشهد، بينما يُؤدّي بعضهم تحية «يحيا هتلر»، وتلتهب أيدي بعضهم الآخر بحماس التصفيق.

وجوه البعض تنضح بالفخر، مثل السيدة ديلر. وفي خضم هذا الحشد تستطيعون أن تروا هنا وهناك حفنة من الرجال الخارجين عن السرب، مثل أليكس شتاينر، الذي يقف مثل كتلة خشبية بشرية، ليُصفّق ببطء من باب الواجب، وقد ارتسم الخضوع على ملامحه.

على الرصيف، وقفت ليزيل مع أبيها ورودي. وبدا هانز هوبرمان متجّهم الوجه.

حقائق مرتبطة ببعض الأرقام

منذ عام 1933، أظهر 90 في المئة من الألمان دعماً لا يتزعزع لأدولف هتلر.

وهذا يتركنا مع 10 في المئة من الذين لم يتبنّوا الموقف نفسه.

هانز هوبرمان كان ينتمي إلى نسبة الـ 10 في المئة.

وهناك سبب لذلك.

في الليل، زارت الكوابيسُ ليزيل كما تفعل دوماً. حيث رأت في البداية القمصان البنية وهي تشق طريقها في الموكب، وسرعان ما قادوها نحو القطار حيث ينتظرها الاكتشاف المعتاد لشقيقها الذي يُحدّق مرّة أخرى.

عندما استيقظت وهي تصرخ، علمت ليزيل على الفور أن شيئاً ما قد تغيّر هذه المرة، فقد تسرّبت رائحة قوية تبعث على الغثيان من تحت أغطيتها.

سارقة الكتب

في البداية، حاولت أن تقنع نفسها بأن شيئاً لم يحدث، ولكن عندما اقترب بابا وضمها إليه، بكت واعترفت بالحقيقة هامسة إياها في أذنه.

«بابا»، همست، «بابا»، وهذا كل شيء. وأغلب الظن أنه شم الرائحة.

رفعها بلطف عن السرير وحملها إلى الحمام. وجاءت اللحظة الحاسمة بعد بضع دقائق.

«هيا سنُزيل الأغطية»، قال بابا. وعندما مدّ يده لسحب الأغطية، وقع شيء ما على الأرض بين قدمي الرجل الطويل القامة. إنه كتاب أسود ذو كتابة فضية.

نظر إليه. وثم حوّل نظره إلى الفتاة، التي تراجعت بشكل خجول.

قرأ العنوان بصوت عال مع التشديد على الكلمات: (دليل حفّار القبور).

إذاً هذا هو عنوانه، فكّرت ليزيل.

هبط صمت ثقيل عليهم الآن: الرجل، والفتاة، والكتاب. حمله بين يديه وتحدّث بلطف مطلق.

محادثة الساعة الثانية فجراً

«هل هذا لكِ؟»

«أجل يا بابا».

«هل ترغبين في قراءته؟» وأجابت مرّة أخرى: «أجل يا بابا». ارتسمت ابتسامة على الوجه المتعب، ووصلت إلى العينين الفضيتين المعطوفتين.

«حسناً من الأفضل أن نقرأه إذاً».

بعد مرور أربع سنوات، عندما بدأت الكتابة في القبو، خطرت في

سارقة الكتب

بال ليزيل فكرتان اثنتان عن حقيقة تبولّها في السرير. أولاً، شعرتُ بأنها محظوظة للغاية لأن بابا هو من اكتشف الكتاب. (لحسن الحظ، عندما غُسلت الأغطية سابقاً، أمرت روزا ليزيل بأن تُزيل الأغطية عن السرير وترتّبه، «أنجزي ذلك بسرعة أيتها الخنزيرة! هل تظنين أن لدينا النهار بطوله؟») ثانياً، افتخرت كثيراً بالدور الذي لعبه هانز هوبرمان في تعليمها وتثقيفها. [ربما لن تصدقوا ذلك]، دوّنت في مذكراتها، «ولكن لم تكن المدرسة هي التي ساعدتني على تعلّم القراءة. وإنما يعود الفضل في ذلك لبابا. يرى الناس بأنه ليس ذكياً جداً، وصحيح أنه لا يقرأ بسرعة كبيرة، إلا أنني سأدرك قريباً أن الكلمات والكتابة قد أنقذت حياته في الواقع. أو على الأقل، الكلمات والرجل الذي علّمه كيف يعزف على الأكورديون».

«لنبدأ بالأهم أولاً»، قال هانز هوبرمان في تلك الليلة. وسارع إلى غسل الأغطية ونشرها لتجف. «الآن»، قال عند عودته.

«دعينا نباشر بدرس منتصف الليل».

بُعثت الحياة في ضوء الغرفة الأصفر المُغبر.

جلست ليزيل على الأغطية النظيفة الباردة، وهي تشعر بالخزي، والسعادة في آن معاً. وخزتها فكرة أنها بللت فراشها، إلا أنها عزمت على تعلّم القراءة، لكي تتمكّن من قراءة ذلك الكتاب.

تحمّست إلى أقصى حد، وارتسمت في ذهنها على الفور صورة الأطفال العباقرة وهم يقرأون بسلاسة، وتمنّت لو كان الأمر بتلك السهولة.

«لأكون صريحاً معكِ»، أوضح بابا أولاً، «أنا شخصياً لستُ بذلك القارئ الجيد».

حقيقة أنه يقرأ ببطء لم تزعجها أبداً، بل على العكس من ذلك، حيث

سارقة الكتب

ساعد بُطء قراءته على التخفيف من الإحباط الناجم عن ضعف قدرة الفتاة على القراءة.

ومع ذلك، بدا هانز في البداية غير مرتاح قليلاً وهو يحمل الكتاب ويمحّصه.

اقترب وجلس بجانب ليزيل على السرير، مسنداً ظهره إلى الحائط، وممدداً ساقيه على الجانب. قلّب الكتاب مرّة أخرى ورماه على الفراش. «لماذا تريد فتاة لطيفة مثلكِ أن تقرأ مثل هذا الكتاب؟».

ارتبكت ليزيل مرّة أخرى. فلو كان حفّار القبور المتدرّب يقرأ الأعمال الكاملة لغوته أو أي من تلك الاسماء اللامعة الأخرى، لكان ذلك هو ما يقرآنه الآن. حاولت أن تشرح له. «أنا... عندما... انغمس في الثلج، و-» سقطت الكلمات الحساسة المرتبكة من السرير، وانهمرت على الأرض مثل المسحوق.

وعلى الرغم من ذلك، عرف بابا ماذا سيقول، فهو يعرف دوماً ما ينبغي قوله.

مرّر يده عبر شعره الأشعث وقال: «حسناً، عديني بشيء واحد يا ليزيل. إذا مُتُّ في أي وقت قريباً، تأكدي من أن يدفنوني بطريقة صحيحة».

أومأت موافقة، بصدق كبير.

«لا تهملوا الفصل السادس، أو الخطوة الرابعة في الفصل التاسع»، قال وهو يضحك، ليحاكي ضحكتها. «حسنٌ، أنا سعيد بأننا اتفقنا على ذلك، ويمكننا البدء الآن».

عدّل من جلسته وأصدرت عظامه صريراً مثل ألواح الأرضية الخشبية، وقال: «ها قد بدأ المرح!».

فتح الكتاب - وبدا وكأن نسمة سحرية عبرت المكان.

سارقة الكتب

عندما تتذكّر ذلك اليوم، تستطيع ليزيل أن تُحدّد بالضبط ما جال في فكر بابا عندما قرأ الصفحة الأولى من كتاب (دليل حفّار القبور). حيث أدرك صعوبة النص، وبأن هذا الكتاب هو بالكاد ملائم لطفلة في عمرها. كما واجه صعوبة في فهم بعض الكلمات. ناهيكم عن مدى كآبة الموضوع. أما بالنسبة إلى الفتاة، فقد انتابتها رغبة مفاجئة في قراءته، من دون أن تحاول حتى أن تفهم جذور هذه الرغبة. ربما أرادت على مستوى ما التأكّد من أن شقيقها قد دُفن بطريقة صحيحة. وأياً كان السبب، فإن لهفتها لقراءة هذا الكتاب هي بأوج ما يمكن لطفلة بعمرها أن تختبره.

حمل الفصل الأول عنوان (الخطوة الأولى: اختيار المعدات المناسبة). حيث أوجز مقطع تمهيدي قصير المواضيع التي ستغطيها الصفحات العشرين التالية، كما فصّل أنواع المجارف، والمعاول، والقفازات وما إلى ذلك، وكيفية المحافظة عليها بشكل صحيح. وبدا من الواضح أن حفر القبور ليس بمسألة بسيطة.

قلّب بابا الكتاب وشعر بعيني ليزيل المعلقتين عليه، وهما تنتظران أن ينطق شيئاً، أي شيء.

«هنا». تحرّك مرّة أخرى وأعطاها الكتاب. «انظري إلى هذه الصفحة وأخبرني بعدد الكلمات التي يمكنك قراءتها». نظرت إليها – وكذبت.

«نحو نصفها».

«اقرئي لي بعضها»، إلا أنها لم تستطع بالطبع. عندما جعلها تشير إلى الكلمات التي تستطيع قراءتها فعلياً، بلغ مجموعها ثلاثاً فقط – الكلمات الألمانية الرئيسة الثلاث التي تعني «أل التعريف»، مع العلم بأن الصفحة تضم ما لا يقل عن مئتي كلمة أخرى أو نحو ذلك.

قد يكون هذا أصعب مما أظن.

سارقة الكتب

شعرت ليزيل بأن هانز يفكّر على هذا النحو.

رفع نفسه، ووقّف على قدميه وخرج مرّة أخرى.

عندما عاد هذه المرة، قال: «في الواقع، لديّ فكرة أفضل». حمل بيده قلم رصاص ثخيناً ومجموعة من ورق الصنفرة. «دعينا نبدأ من الصفر».

لم ترَ ليزيل سبباً للممانعة.

في الزاوية اليسرى من الوجه الخلفي لورق الصنفرة، رسم مربعاً بعرض 3 سنتيمتر ورسم حرف (A) داخله. وفي الزاوية الأخرى رسم الحرف نفسه بشكله الصغير. بدا الأمر جيداً حتى الآن.

«A»، قالت ليزيل.

«أعطني مثالاً على هذا الحرف».

ابتسمت وقالت: «آيْفِل، تفاحة».

كتب الكلمة بأحرف كبيرة ورسم تفاحة غريبة الشكل تحتها. فهو في نهاية المطاف دهان، وليس رساماً. عندما أنجز رسمته، نظر إلي ليزيل وقال، «الآن حرف B».

مع مرورهم على باقي أحرف الأبجدية، أصبحت عينا ليزيل أكثر تشوقاً. صحيح أنها تعلّمت الأبجدية في المدرسة خلال مرحلة الروضة، إلا أن هذه الدروس هي أفضل بكثير، فهي الطالبة الوحيدة هناك، ولم تشعر بضخامة حجمها مقارنة مع الطلاب الأصغر سناً. كما أنه من الجميل أن تُشاهد يد بابا وهي تكتب الكلمات وترسم ببطء الرسومات البدائية.

«آه، هيا، ليزيل»، قال عندما بدا أنها تواجه صعوبة في التعلّم في وقت لاحق.

«فكّري في شيء يبدأ بحرف S، هيّا، إنها سهلة. سيخيب أملي إن لم تفكري في شيء».

سارقة الكتب

لم تستطع التفكير.

«هيا!» همس لها. «فكّري في ماما، بما تُذكّركِ؟».

عندها صفعت الكلمة وجهها، وصاحت: «خنزيرة[1]!». ضحك بابا عالياً، ثم هدأ قليلاً.

«صه! علينا أن نكون هادئين». إلا أنه استمر في الضحك وكتب الكلمة، مستتبعاً إياها بواحدة من رسوماته.

عمل فني نموذجي من أعمال هانز هوبرمان

«بابا!»، همست. «لم ترسم عينين لوجهي!».

ربّت على شعر الفتاة. واستكانت على الفور لحنانه. وقال: «بابتسامة مثل هذه، فأنتِ لا تحتاجين إلى عينين». عانقها، ثم نظر مرّة أخرى إلى الرسمة، وعيناه الفضيتان تفيضان بالدفء. «سنبدأ الآن بحرف T».

عندما أنهيا الأبجدية وكرّراها عشرات المرات، انحنى بابا وقال، «يكفي لهذه الليلة، أليس كذلك؟».

- فقط بضع كلمات أخرى؟

---

(1) Saumensch.

سارقة الكتب

أظهر بعض الصرامة، «يكفي لهذا اليوم، وعندما تستيقظين، سأعزف لكِ على الأكورديون».

- شكراً، بابا!

«ليلة سعيدة!». ثم ضحك ضحكة مقتضبة، وأضاف: «ليلة سعيدة أيتها الخنزيرة!».

- ليلة سعيدة يا بابا.

أطفأ النور، وعاد ليجلس على الكرسي. في الظلام، أبقت ليزيل عينيها مفتوحتين، وهي تراقب الكلمات.

رائحة الصداقة

استمرّت دروس منتصف الليل، على مدى الأسابيع القليلة التالية وصولاً إلى الصيف، حيث كانت تبدأ مع نهاية كل كابوس. وخلال هذه الفترة، وقعت حادثتان إضافيتان بلّلت ليزيل فيهما فراشها. وكعادته، كرّر هانز هوبرمان بطولاته السابقة في التنظيف، واضطلع ببسالة بمهمة القراءة والرسم. وخلال الساعات الأولى من تلك الصباحات، كانت أصواتهما الهادئة تبدو عاليةً في ظل الهدوء المطبق.

في يوم خميس، وبعد الساعة الثالثة ظهراً، طلبت ماما من ليزيل أن تستعد للذهاب معها وتوصيل بعض المكويات. ولكن بابا كان يُفكّر في شيء آخر.

ذهب إلى المطبخ وقال: «عذراً ماما، لكنها لن تذهب معكِ اليوم».

لم تتكبّد ماما عناء رفع نظرها عن كيس الغسيل. «ومَن سألك أنتَ، أيها الأحمق؟ هيا، تعالي يا ليزيل».

«عليها أن تقرأ»، قال بابا وهو يبتسم ويغمز لليزيل. «عليها أن تقرأ

سارقة الكتب

معي، فأنا أُدرّسها. سنذهب إلى نهر أمبر، إلى المكان الذي اعتدتُ التدرّب فيه على عزف الأكورديون». استطاع الآن أن يحوذ على اهتمام ماما.

وضعت الغسيل على الطاولة وجهّزت نفسها للوصول إلى المستوى المناسب من السخرية. «ماذا قلت؟».

- أعتقد أنكِ سمعتني يا روزا.

ضحكت ماما. «ماذا يمكنكَ أن تُدرّسها بحق الجحيم؟» واعتلت وجهها المجعد ابتسامة سخرية. «وهل تظن أن في مقدورك القراءة أيها الخنزير؟».

تحوّل المطبخ إلى أرض معركة ساخرة. ردّ بابا قائلاً: «سوف نأخذ المكويات ونوصلها إلى أصحابها بالنيابة عنكِ».

«أيها القذر...»، وتوقفت عن الكلام. انحشرت الكلمات في فمها وهي تفكّر في عرضه. «عودا قبل حلول الظلام».

«لا يمكننا أن نقرأ في الظلام يا ماما»، قالت ليزيل.

- ماذا تعنين بحذلقتكِ هذه، أيتها الخنزيرة؟

- لا شيء، ماما.

ابتسم بابا وأشار إلى الفتاة، قائلاً: «الكتاب، وورق الصنفرة، وقلم الرصاص»، وأضاف، «والأكورديون!». خلال وقت قصير أصبحا في شارع هيمل، وهما يحملان الكلمات، والموسيقى، والغسيل.

عندما سارا نحو السيدة ديلر، حاولا الالتفات عدة مرات لمعرفة فيما إذا كانت ماما ما تزال واقفة عند البوابة، لتلاحقهما بنظرها. وبالفعل كانت هناك. وفي لحظة ما نادت من بعيد، «ليزيل، احملي تلك المكويات بشكل مستو! لا تجعّديها!»

- حاضر، ماما!

وصاحت بعد بضع خطوات: «ليزيل، هل ترتدين ملابس دافئة بما فيه الكفاية؟!».

- ماذا قلتِ يا ماما؟

- خنزيرتي القذرة، أنتِ لا تسمعين أي شيء! هل ترتدين ملابس دافئة بما فيه الكفاية؟ قد يصبح الطقس أبرد لاحقاً!

بعد قطع مسافة قصيرة، انحنى بابا ليسوّي رباط حذائه.

«ليزيل»، سأل، «هل لكِ أن تلفي لي سيجارة؟» وفي الحقيقة، فلا شيء يعطيها متعة أكبر من هذا الطلب.

بمجرد تسليم المكويات، عادا إلى نهر أمبر الذي يحيط بالبلدة، ويمضي باتجاه داخاو، حيث يقع معسكر الاعتقال.

وصلا إلى حيث يوجد جسر خشبي، وجلسا على العشب على بعد ثلاثين متراً عنه، ليكتبا الكلمات ويقرآها بصوت عال، ومع اقتراب الظلام، سحب هانز الأكورديون. واستمتعت ليزيل بالنظر إلى وجهه والإنصات إلى عزفه، من دون أن تلحظ على الفور التعبير المحيّر الذي ارتسم على وجه بابا في ذلك المساء وهو يعزف.

وجه بابا

بدا شارداً وذاهلاً، ولم يكشف عن أية إجابات.
ليس بعد على الأقل.

حدث تغيير فيه، تحوّل طفيف.

رأت ذلك، إلا أنها لم تدركه حتى وقت لاحق، عندما أصبح كل شيء مترابطاً مع بعضه بعضاً. ولم تكن لديها أدنى فكرة عن حقيقة أن أكورديون

سارقة الكتب

هانز هوبرمان يحمل قصّة في حد ذاته. لاحقاً، ستصل هذه القصّة إلى المنزل رقم 33 في شارع هيمل في الساعات الأولى من الصباح، وهي ترتدي سترة مرتجفة فوق أكتاف متغضنة، حاملة معها حقيبة سفر، وكتاباً، وسؤالين اثنين. قصّة، وقصّة بعد قصّة، وقصّة داخل قصّة.

في الوقت الراهن، وبالقدر الذي يعني ليزيل، فهناك قصّة واحدة فقط، وهي تستمتع بها.

استلقت بين أحضان العشب الطويل، وأغلقت عينيها بينما استغرقت أُذناها في ملاحظة ما حولها.

بالطبع، كانت هناك بعض المشاكل أيضاً. ففي عدّة مناسبات، صاح بابا في وجهها، قائلاً: «هيا يا ليزيل، أنتِ تعرفين هذه الكلمة، أنتِ تعرفينها!». وفقط عندما تبدأ بإحراز التقدّم بشكل جيد، تتعاكس الأمور بطريقة ما.

اعتادا، خلال الطقس الجيد، الذهاب إلى نهر أمبر خلال فترة ما بعد الظهر. أما عندما يكون الطقس سيئاً، فكان القبو ملجأهما الوحيد، ويعود ذلك أساساً إلى ماما، حيث حاولا في البداية الدراسة في المطبخ، ولكن لم تكن هناك من وسيلة لإقناع ماما بالموافقة على ذلك.

«روزا»، قال هانز في إحدى المرّات، بهدوء، مقاطعاً إحدى جملها. «هل يمكن لكِ أن تقدّمي لي خدمة؟».

رفعت نظرها عن الموقد. «ماذا تُريد؟».

- أنا أطلب منكِ. وأتوسل إليكِ، هل يمكنكِ أن تُغلقي فمك لمدة خمس دقائق فقط؟

بالطبع، يمكنكم أن تتخيلوا رد الفعل على هذا الكلام. ببساطة، انتهى بهما المطاف في القبو.

لم تكن هناك إضاءة في القبو، لذلك اضُطرا إلى استخدام مصباح الكيروسين.

ببطء، وبين المدرسة والمنزل، وبين النهر والقبو، والأيام الجيدة والسيئة، بدأت ليزيل بتعلّم القراءة والكتابة.

«قريباً»، قال لها بابا، «ستُصبحين قادرة على قراءة هذا الكتاب الفظيع عن القبور وعيناكِ مغلقتان».

- وعندها يمكنني التخلّص من صف الأقزام ذاك.

نطقت تلك الكلمات بنبرة سوداوية.

في إحدى جلساتهما الخاصة في القبو، استغنى بابا عن ورق الصنفرة (فهو ينفد بسرعة)، واستلّ فرشاة دهان. لم تكن هناك أدنى رفاهية في منزل آل هوبرمان، إلا أنه ضم فائضاً من الدهان، والذي كان أكثر من مفيدٍ في سير العملية التعليمية الخاصة بليزيل. اعتاد بابا على قول كلمة، وتقوم الفتاة بتهجئتها بصوت عال ومن ثم كتابتها على الحائط في حال هجأتها بشكل صحيح. بعد مرور شهر، أعاد هانز تغطية الجدار بطبقة جديدة من الاسمنت.

في بعض الليالي، وعقب دراستها في القبو، اعتادت ليزيل الجلوس في مغطس الحمام والاستماع إلى الحوار المكرّر نفسه القادم من المطبخ.

«أنت نتن»، ماما تقول لهانز. «ورائحتك مثل السجائر والكيروسين».

أما ليزيل المغمورة بالمياه، فتُسارع إلى تخيّل تلك الرائحة المتوزّعة على ملابس بابا. بالنسبة إليها، فهي رائحة الصداقة، أكثر من أي شيء آخر، وأمكنها أن تشم تلك الرائحة على جسدها أيضاً. أحبّت ليزيل الرائحة، واستمتعت بشم ذراعها، بينما يبرد الماء من حولها.

بطلة فناء المدرسة للوزن الثقيل

بدا صيف عام 1939 على عجلة من أمره، أو ربما ليزيل هي من كانت كذلك. أمضت وقتها في لعب كرة القدم مع رودي والأطفال الآخرين في شارع هيمل (تسلية تمتد على مدار العام)، إلى جانب توصيل المكويات إلى جميع أنحاء البلدة مع ماما، وتعلّم الكلمات مع بابا. ومرّ الصيف سريعاً على هذا المنوال.

في الجزء الأخير من العام، حدث أمران.

من أيلول / سبتمبر إلى تشرين الثاني / نوفمبر
من العام ١٩٣٩

1. بدأت الحرب العالمية الثانية.

2. أصبحت ليزيل ميمنجر بطلة فناء المدرسة للوزن الثقيل.

كان يوماً بارداً في بلدة مولشينغ عندما اندلعت الحرب وزاد حجم عملي اليومي.

سارقة الكتب

تحدّث العالم كلّه عن ذلك الحدث الجلل.

وضجّت عناوين الصحف بالأخبار.

دوّى صوت الفوهرر هتلر من أجهزة الراديو الألمانية: لن نستسلم، ولن نرتاح، سننتصر، حان الوقت لانتصارنا.

بدأ الغزو الألماني لبولندا وتجمهر الناس في كل مكان ليستمعوا إلى خبر ذلك الغزو. ومثل كل شارع رئيس آخر في ألمانيا، أصبح شارع ميونخ ينبض بأخبار الحرب، وروائحتها، وأصواتها. بدأ التقنين قبل ذلك ببضعة أيام، وأصبح الآن رسمياً. كما أعلنت إنكلترا وفرنسا الحرب على المانيا. واسمحوا لي هنا بأن أسرق عبارة قالها هانز هوبرمان:

«ها قد بدأ المرح».

في يوم إعلان الحرب، كان بابا محظوظاً بما فيه الكفاية ليكون لديه عمل. وفي طريق عودته إلى المنزل، التقط صحيفة مرمية على الأرض، وبدلاً من وضعها بين علب الدهان في عربته، طواها ودسّها تحت قميصه. وصل إلى المنزل، وأخرجها من تحت ملابس، وكان العرق كفيلاً بطبع الحبر على جلده. سقطت الورقة على الطاولة، إلا ان الخبر انطبع أيضاً على صدره، مثل وشم. فتح قميصه، ونظر الى صدره في ضوء المطبخ الخافت.

«ماذا يقول الخبر؟» سألته ليزيل، وهي تُجيل نظرها بين الخطوط السوداء على جلده وبين الصحيفة.

«هتلر يستولي على بولندا»، أجاب هانز هوبرمان، وهو يهوي إلى كرسي المطبخ. «ألمانيا فوق كل شيء»، همس، وصوته أبعد ما يكون عن الفخر بوطنيته.

ارتسمت على وجهه التعابير نفسها التي يحملها عندما يبدأ بعزف الأكورديون.

سارقة الكتب

بدأت تلك الحرب، وقريباً ستخوض ليزيل حرباً من نوع آخر.

بعد ما يقرب من شهر من استئناف المدرسة، انتقلت إلى الصف الملائم لعمرها. قد تعتقدون أن هذا يرجع إلى تحسّن أدائها في القراءة، لكن الأمر لم يكن كذلك. فعلى الرغم من تحسّنها، إلا أنها ما تزال تقرأ بصعوبة كبيرة، تناثرت الجمل أمامها في كل مكان، وخدعتها الكلمات. أما السبب وراء ترفّعها في الصف فهو مرتبط بحقيقة أنها أصبحت مزعجة في الصف الأصغر سناً. فهي تُجيب على الأسئلة الموجهة إلى الأطفال الآخرين، وتُشاغب في الصف. وفي بعض الأحيان كانت تنال عقابها في الممر، والذي يُعرف باسم «فارشن».

تعريف

فارشن= مخبأ جيد

عندما وصلت إلى صفها الجديد، طلبت منها المعلمة – التي هي راهبة أيضاً – أن تجلس في مقعد جانبي، وتُغلق فمها. وفي الطرف الآخر من الصف، نظر رودي إليها ولوّح لها بحرارة. في المقابل، لوّحت له ليزيل محاولة كبت ابتسامتها.

في المنزل، غرقت في قراءة كتاب (دليل حفّار القبور) مع بابا. حيث اعتادا على رسم دائرة حول الكلمات التي لم تفهمها، لتعاود التدرّب عليها في القبو في اليوم التالي. اعتقدت أن ذلك كافياً، إلا أنه في الحقيقة لم يكن.

في بداية شهر تشرين الثاني / نوفمبر، أُقيمت بعض الاختبارات في المدرسة. أحدها كان للقراءة، حيث طُلب من كل طفل أن يقف أمام الصف بأكمله ويقرأ من صفحة تطلبها المعلّمة. كان صباحاً جليدياً،

سارقة الكتب

ذا شمس مشرقة، وارتسمت هالة حول الراهبة قابضة الأروح، الأخت ماريا. (بالمناسبة - أنا أحب هذه الفكرة البشرية عن قابض الأرواح الذي يحمل المنجل ليحصدها، فأنا أحب المنجل، وتلك الفكرة تبهجني في الحقيقة).

في ذلك الصف المُثقل بضوء الشمس، بدأت الراهبة تنادي بأسماء الأطفال عشوائياً:

«فالدنهايم، ليمان، شتاينر».

كلهم وقفوا وقرأوا، بقدراتهم المختلفة. حتّى أن رودي قرأ جيداً وعلى نحو مفاجئ.

طوال مدّة الاختبار، جلست ليزيل وهي تشعر بخليط من الترقّب والخوف المبرح. أرادت أن تقيس قدراتها، وأن تعرف مرّة واحدة وإلى الأبد مدى التقدّم الذي أحرزته. هل هي قادرة على أداء ذلك الاختبار؟ هل يمكنها أن تُقارب أداء رودي والبقية؟

في كل مرّة نظرت فيها الأخت ماريا إلى قائمتها، انشدّت أعصاب ليزيل. بدأ ذلك الشعور الغريب في بطنها وسرعان ما امتد بعد ذلك، ليحيط برقبتها، مثل حبل سميك.

عندما أنهى تومي مولر قراءته المتواضعة، أجالت ليزيل نظرها حول الصف، وأدركت أن الجميع قرأوا، وبقيت هي الوحيدة التي لم تقرأ.

«جيد جداً»، قالت الأخت ماريا، وهي تلقي نظرة على القائمة، «لقد قرأ الجميع».

ماذا؟

- لا!

ظهر صوت على الجانب الآخر من الغرفة. كان لصبي ذي شعر

ليموني وأطراف نحيلة. مدّ يده وقال: «أيتها الأخت ماريا، أعتقد بأنكِ قد نسيتِ ليزيل».

لم يُعجب كلامه الأخت ماريا.

رمت مجلدها على الطاولة أمامها وتفحّصت رودي بنظرة رافضة. فكّرت: لمَ عليها أن تتحمّل رودي شتاينر؟ ألم يكن في إمكانه ببساطة أن يُبقي فمه مغلقاً. لماذا، يا إلهي، لماذا؟

«لا»، قالت بنبرة قاطعة، وبطنها الصغير يميل إلى الأمام مع بقية جسدها. «أخشى أن ليزيل لا تستطيع أن تفعل ذلك، يا رودي». وألقت نظرة على ليزيل للتأكيد. «سوف تقرأ لي في وقت لاحق».

تنحنحت الفتاة ونطقت في تحد هادئ. «أستطيع أن أفعل ذلك الآن، أيتها الأخت». راقب معظم الأطفال الآخرين المشهد بصمت. وضحك عدد قليل منهم ضحكة طفولية مكبوتة.

لم تكن الأخت لتتحمل المزيد. «لا، لا تستطيعين!... ماذا تفعلين؟».

نهضت ليزيل من كرسيها ومشت ببطء، وبإصرار إلى أمام الصف. أمسكت الكتاب وفتحته على صفحة عشوائية.

«حسناً إذاً»، قالت الأخت ماريا. «هل تريدين القيام بذلك؟ إذاً، هيا، اقرئي لنا».

«نعم، أيتها الأخت». ألقت نظرة خاطفة على رودي، وخفضت عينيها لتتفحّص الصفحة.

عندما رفعت نظرها مرّة أخرى، بدا وكأن الغرفة تتمزق وتتشتت، ومن ثم تعود لتتماسك من جديد. بدا وكأن جميع الأطفال قد انهرسوا أمام عينيها مباشرة، وفي لحظة تألق، تخيّلت نفسها تقرأ الصفحة بأكملها بطلاقة وبانتصار لا تشوبه شائبة.

سارقة الكتب

تخيّلت

«هيا، ليزيل!».

كسر رودي الصمت.

نظرت سارقة الكتاب إلى الكلمات مرّة أخرى.

«هيا»، قال رودي. «هيا، ليزيل».

كان دمها يغلي في عروقها، وبدت الجمل ضبابية.

تحوّلت الصفحة البيضاء فجأة إلى لغة أخرى، وما زاد الطين بلة أن الدموع بدأت تتراكم الآن في عينيها. لم يعد في إمكانها أن ترى الكلمات. أما تلك الشمس الفظيعة، فقد شعرت بها تتفجر عبر النافذة - وكأن الزجاج يتناثر في كل مكان، ويلتمع أمام عيني الفتاة العاجزة ليصيح في وجهها: «يمكنكِ سرقة كتاب ولكنك عاجزة عن قراءة واحد!».

مكتبة أحمد

وأخيراً خطر في بالها حل.

تنفست، واستمرت بالتنفس، وبدأت تقرأ، ولكن ليس من الكتاب المفتوح أمامها، بل شيئاً حفظته من كتاب (**دليل حفّار القبور**). الفصل الثالث: «في حال وجود الثلج». كانت قد حفظته من صوت بابا.

«في حال وجود الثلج»، قالت، «ينبغي التأكّد من استخدام مجرفة جيدة. عليكم الحفر عميقاً، وتجنّب الكسل». مرّة أخرى، استنشقت كتلة كبيرة من الهواء، وتابعت: «بالطبع، من الأسهل أن تنتظروا حلول أدفأ وقت من اليوم، عندما...».

وانتهى ذلك.

انتُزِع الكتاب من يدها وقيل لها: «ليزيل... إلى الممر».

وهي تنال عقابها تحت صفعات الأخت ماريا، سمعت الجميع يضحكون في الصف. رأتهم، كل هؤلاء الأطفال المهروسين، يستهزئون ويضحكون، وهم غارقون في أشعة الشمس. جميعهم يضحكون باستثناء رودي.

خلال الاستراحة، كانت محط سخرية الصف، حيث اقترب منها صبي يدعى لودفيغ شميكل وهو يحمل كتاباً. «مهلاً، ليزيل»، سألها، «أواجه صعوبة في قراءة هذه الكلمة. هل يمكن لكِ أن تقرئيها لي؟». ضحك ضحكة متعجرفة لصبي يبلغ من العمر عشر سنوات، «أيتها الغبية!».

بدأت الغيوم تتجمّع الآن، كبيرة وخرقاء، وازداد عدد الذين يسخرون منها، ويستفزونها لتستشيط غيظاً.

«لا تستمعي إليهم»، نصحها رودي.

«من السهل عليكَ أن تقول ذلك. فأنت لست الغبي هنا»، أجابت.

ومع اقتراب نهاية الاستراحة، وصل عدد السخريات إلى تسع عشرة، ومع تلقيها للسخرية العشرين، لم تعد قادرة على تمالك نفسها، فقد عاد شميكل للاستهزاء بها من جديد. «هيا، ليزيل». وضع الكتاب تحت أنفها.

«ساعديني، أرجوكِ!».

وفي الحقيقة فقد ساعدته ليزيل بطريقة غير متوقعة.

وقفت، وأخذت الكتاب منه وهو يبتسم بخبث أمام الأطفال الآخرين. ألقت الكتاب بعيداً، وركلت شميكل بأقصى طاقتها في أعلى فخذه.

حسناً، كما قد تتخيلون، فقد تهاوى لودفيغ شميكل بالتأكيد، وفي طريقه نحو الأرض، تلقّى لكمة قوية على أذنه. وعندما استقر على الأرض أخيراً، تلقّى الصفعات والضربات من فتاة استولى عليها الغضب بشكل تام. كانت بشرته دافئة وناعمة جداً. وعلى الرغم من صغر حجمها، كانت مفاصل

سارقة الكتب

ليزيل وأظافرها قاسية للغاية وشرسة. «أيها الخنزير!». صوتها كذلك استطاع إيذائه. «أيها الأحمق! هل يمكنكَ أن تُهجأ لي كلمة أحمق؟».

أوه، احتشدت الغيوم في السماء، كثيفة وسمينة، مظلمة وكبيرة، وهي تصطدم ببعضها البعض، وتعتذر، لتعاود التحرّك مجدداً بحثاً عن مكان لها بين الغيوم الأخرى.

اندفع الأطفال نحو العراك بسرعة... ازداد مزيج من الأيدي والأرجل، والصيحات والهتافات من حولهما، وشهد الأطفال على ليزيل ميمنجر وهي تعطي لودفيغ شميكل عقاب عمره. «يا يسوع، ومريم، ويوسف»، صرخت فتاة، «سوف تقتله!».

لكنّ ليزيل لم تقتله. بل شارفت على ذلك.

في الواقع، قد يكون الشيء الوحيد الذي كبحها عن قتله هو وجه تومي مولر المنتفض والمبتسم، الذي يبعث على الشفقة. في ذروة امتلائها بالأدرينالين، لمحت ليزيل تومي وهو يبتسم بسخافة لدرجة أنها جرّته وبدأت بضربه أيضاً.

«ماذا تفعلين؟!» صاح نائحاً، وعندها فقط توقّفت عن ضربه، بعد أن كالت له الصفعة الثالثة أو الرابعة، وانبثق الدم من أنفه.

انحنت على ركبتيها، واستنشقت الهواء وهي تستمع إلى تأوهات الضحيتين. شاهدت دوامة الوجوه من حولها، وأعلنت: «أنا لستُ غبية». ولم يجادلها أحد.

استؤنفت المعركة فقط عندما عاد الجميع إلى الداخل، ورأت الأخت ماريا ما لحق بلودفيغ شميكل. المشتبه به الأول هو رودي وعدد من الأطفال الآخرين الذين تحملوا وطأة الشك. «أروني أيديكم»، أمرت الراهبة كل صبي، إلا أن أيديهم كانت نظيفة.

«أنا لا أصدق هذا»، تمتمت الأخت ماريا. «لا يمكن لهذا أن يحدث»، فمجرّد أن وقفت ليزيل أمامها وعرضت يديها، تجلّت عليهما بوضوح آثار ضرب لودفيغ شميكل. «إلى الممر»، قالت الأخت، للمرة الثانية في ذلك اليوم. بل الأصح، للمرة الثانية خلال تلك الساعة.

هذه المرة، لم يكن بانتظارها عقابها المعتاد. لم يكن عادياً. حيث تلقّت ضربات العصا واحدة بعد أخرى، والنتيجة الحتمية لذلك، أنها بالكاد كانت قادرة على الجلوس خلال الأسبوع التالي. لم تصدر أية ضحكات من الصف، فالخوف طغى على الجميع وهم يستمعون لصوت الضربات المتتالية.

في نهاية ذلك اليوم المدرسي، سارت ليزيل إلى منزلها مع رودي وأطفال شتاينر الآخرين. ومع اقترابهم من شارع هيمل، وفي زحمة أفكارها، طغى البؤس عليها - تذكّرت فشلها في استرجاع مقتطفات من كتاب (دليل حفّار القبور)، دمار عائلتها، كابوسها، الإذلال الذي تلقته خلال اليوم - عندها، انهارت على قارعة الطريقة وبكت. فذلك حتمي لا محالة.

وقف رودي بجانبها، وتأملها.

بدأ المطر بالهطول، لطيفاً وقوياً.

ناداهما كيرت شتاينر، لكن أياً منهما لم يتحرك. جلست ليزيل متألمة، بين حبات المطر المتساقطة، ووقف الآخر بجانبها، منتظراً.

«لماذا كان عليه أن يموت؟». سألت، إلا أن رودي لم يفعل شيئاً، ولم يقل شيئاً.

عندما انتهت أخيراً ووقفت بنفسها، وضع ذراعه حولها، بأسلوب أفضل الأصدقاء، وسارا معاً. لم يطلب قُبلة، ولا أي شيء من هذا القبيل. وهنا يمكنكم أن تُحبّوا رودي على شهامته تلك إذا شئتم.

فقط لا تركليني على خصيتيّ.

هذا ما كان يفكّر فيه، لكنه لم يقله لليزيل. فقط بعد مرور أربع سنوات تقريباً، صرّح بتلك المعلومة. أما الآن، فقد سار رودي مع ليزيل في طريقهما إلى شارع هيمل تحت المطر.

كان هو الشخص المجنون الذي لوّن نفسه باللون الأسود وهزم العالم.

وكانت هي سارقة الكتب العاجزة عن قراءة الكلمات.

لكن ثقوا بي، فإنّ الكلمات في طريقها إليها، وعندما ستصل، ستحملها ليزيل بين يديها مثل الغيوم، وستلفظها مثل المطر.

سارقة الكتب

الفصل الثاني

حركة اللامبالاة

بطولة:

فتاة مصنوعة من الظلام – متعة السجائر – سائرة البلدة – بعض الرسائل الميتة – عيد ميلاد هتلر – عَرَق ألماني نقي 100% – أبواب السرقة – وكتاب النار

سارقة الكتب

سارقة الكتب

فتاة مصنوعة من الظلام

بعض البيانات الإحصائية

الكتاب المسروق الأول: 13 كانون الثاني / يناير 1939
الكتاب المسروق الثاني: 20 نيسان / أبريل 1940
المدة الفاصلة بين الكتابين المسروقين المذكورين آنفاً: 463 يوماً

يمكننا تبسيط الموضوع بالقول بأن القليل من النار، وحشد من الأناس الملتفين حولها، هو ربما كل ما تحتاجه ليزيل ميمنجر من أجل سرقة كتابها الثاني، حتى لو عسعس دخانه بين يديها، وانطفأت ناره ببطء بين أضلاعها.

ولكن المشكلة هنا هي كما يلي:

ليس هذا الوقت الملائم لتبسيط الأمور.

كما أن الوقت ليس ملائماً لتكونوا أنصاف مشاهدين، أو متململين، أو منشغلين بتفاصيل أخرى - فعندما سرقت ليزيل كتابها الثاني، تضافرت العديد من العوامل التي برّرت توقها إلى القيام بذلك، كما أن فعل السرقة

سارقة الكتب

ذاك قد حفّز ما سيحدث من أحداث مستقبلية. ووفّر لها مكاناً لتستمر بسرقة الكتب. وعلاوة على ذلك، فإنه سيُلهم هانز هوبرمان لابتكار خطة لمساعدة الملاكم اليهودي، وسيُظهر لي مجدداً أن الفرصة تؤدي إلى أخرى، تماماً كما يؤدي الخطر إلى المزيد من المخاطر، والحياة إلى المزيد من الحياة، والموت إلى المزيد من الموت.

بطريقة ما، كان ذلك من فعل القدر.

فكما ترون، قد يقول لكم الكثيرون إن ألمانيا النازية قد بُنيت في الأصل على معاداة السامية، وعلى أكتاف زعيم مفرط بحماسته، وأمة من المتعصبين الذين تغذيهم الكراهية، إلا أن ذلك كلّه لم يكن ليؤدي إلى أي شيء، لو لم يكن الألمان يحبّون نشاطاً واحداً بعينه: ألا وهو الحرق.

أَحبّ الألمان حرق الأشياء: المحلات التجارية، والمعابد اليهودية، والبرلمان، والمنازل، والممتلكات الشخصية، والقتلى، وبطبيعة الحال: الكتب. استمتعوا بحرق كتاب جيد، ما أعطى مُحبّي الكتب الفرصة للحصول على بعض المنشورات التي لم تكن لديهم أدنى فرصة بخلاف ذلك للحصول عليها. ومن بينهم هؤلاء الأشخاص الذين تتملكهم مثل هذه الرغبة، هي كما تعلمون فتاة نحيلة تُدعى ليزيل ميمنجر. ربما انتظرت أربعمئة وثلاثة وستين يوماً لتنفّذ سرقتها الثانية، إلا أن الغنيمة تستحق عبء الانتظار. من بعد ظهر أحد الأيام الذي انطوى على الكثير من الإثارة والشر الجميل، وكاحل غارق بالدم، وصفعة من يد موثوقة، حققت ليزيل ميمنجر قصّة نجاحها الثانية.

(اللامبالاة): كتاب أزرق اللون ذو كتابة حمراء محفورة على الغلاف، وتحت العنوان تظهر صورة صغيرة حمراء لطائر الوقواق. عندما تستعيد ما حدث، لا تشعر ليزيل بأدنى خجل من سرقة ذلك الكتاب، بل على العكس

من ذلك، فما شعرت به حينها كان أقرب ما يكون إلى الفخر. أما الغضب والكراهية القاتمة فقد شكّلا الدافع الذي غذّيا رغبتها في سرقة الكتاب. في الواقع، في 20 نيسان / أبريل – عيد ميلاد الفوهرر – انتزعت ليزيل، الفتاة المصنوعة من الظلام، هذا الكتاب من تحت كومة من الرماد المشتعل.

وبطبيعة الحال، ينبغي أن يكون السؤال هو لماذا فعلت ذلك؟

ما الذي أشعل غضبها؟

وما الذي حدث خلال الأشهر الأربعة أو الخمسة الماضية ليتوّج بمثل هذا الشعور؟

باختصار، سافر الجواب من شارع هيمل إلى الفوهرر، ومن ثم إلى الموقع المجهول لأمها الحقيقية، وعاد مرّة أخرى.

ومثل معظم حالات البؤس التي تحدث عادة، فقد بدأ كل شيء مع مظاهر خادعة توحي بالسعادة.

متعة السجائر

مع نهاية عام 1939، بدا أن ليزيل قد تأقلمت مع الحياة في بلدة مولشينغ بشكل جيد جداً. وعلى الرغم من استمرار كوابيسها عن شقيقها، وشوقها لأمها الذي لم يفارقها، إلا أن شيئاً من الراحة قد تسلل الآن إلى حياتها أيضاً.

أحبّت بابا، هانز هوبرمان، كما أحبّت أمها الجديدة، على الرغم من أعمال الغسيل، والاعتداءات والإساءات اللفظية. بالإضافة إلى ذلك، فقد أحّبت وكرهت أفضل صديق لها - رودي شتاينر - وهو تناقض طبيعي تمام. وأحبّت حقيقة أنه على الرغم من فشلها في المدرسة، إلا أن قراءتها وكتابتها تتحسنان بالتأكيد، وستصبحان قريباً على مستوى يدعو للاحترام. أدّى كل هذا إلى شكل من أشكال الرضا، الذي سيزداد قريباً ليُقارب مفهوم الشعور بالسعادة.

مفاتيح السعادة

1. الانتهاء من قراء كتاب (دليل حفّار القبور).
2. الهروب من غضب الأخت ماريا.
3. الحصول على كتابين كهدية لعيد الميلاد.

سارقة الكتب

17 كانون الأول / ديسمبر.

تذكّرت التاريخ جيداً، فقد كان الأسبوع السابق لعيد الميلاد.

كالمعتاد، قاطع كابوسها الليلي نومها وأيقظها هانز هوبرمان. أمسكت يده النسيج المغسول بالعرق لكنزة بيجامتها، وهمس: «القطار؟».

وأكدت ليزيل: «القطار».

تجرّعت ما يكفي من الهواء وأصبحت مستعدة. بدآ القراءة من الفصل الحادي عشر من كتاب (دليل حفّار القبور). وبعد أن دقّت الساعة 03:00 فجراً بقليل، أتمّا قراءة الفصل، ولم يبقَ سوى الفصل الأخير، «احترام المقبرة». بابا، بعينيه الفضيتين المتورمتين من التعب ووجهه الغارق وراء شعر وجهه، أغلق الكتاب متوقعاً معاودة نومه. إلا أن ذلك لم يحصل.

لم تمضِ برهة على إطفاء الضوء، حتى تحدّثت معه ليزيل عبر الظلام. «بابا؟».

لم يُصدر سوى حشرجة، من مكان ما في حلقه.

- هل أنت مستيقظ يا بابا؟

- أجل.

استندت إلى كوع واحد. «هل يمكننا إنهاء الكتاب، من فضلك؟».

أخذ نفساً طويلاً، وحكّ بيده شعيرات شاربه، وأنار الضوء.

فتح الكتاب وبدأ: «الفصل الثاني عشر: احترام المقبرة».

قرآ خلال الساعات الأولى من الصباح، ورسما دوائر حول الكلمات التي لم تفهمها ليزيل، وتدربا عليها كعادتهما إلى أن بزغ ضوء النهار. شارف بابا على النوم في بضع مناسبات، مستسلماً لتعب عينيه الذي لا يكل ولا يمل، ولذبول رأسه. أما ليزيل فقد كانت له في المرصاد في كل مرّة، ولم تكن لتسمح له بالنوم، أو لتشعر بالإهانة من نومه.

سارقة الكتب

إنها فتاة ذات هدف كبير تسعى إلى تحقيقه.

في نهاية المطاف، عندما بدأ الظلام في الخارج يتفرّق قليلاً، أنهيا الكتاب أخيراً. وجاء المقطع الأخير منه على هذا النحو:

[نحن، في جمعية مقبرة بايرن، نأمل في أن نكون قد زودناكم بالمعلومات اللازمة لكل تفاصيل العمل، وتدابير السلامة، وواجبات حفّاري القبور. كما نتمنى لكم كل النجاح في حياتكم المهنية في مجال الفنون الجنائزية، ونأمل أن يكون هذا الكتاب قد قدّم لكم المساعدة المرجوة].

عندما أُغلق الكتاب أخيراً، تشاركا نظرة عميقة. وكسر بابا الصمت: «لقد أنجزنا ذلك، أليس ذلك؟».

تأمّلت ليزيل، المغمورة تحت بطانيتها، الكتاب الأسود بين يديها، وحروفه الفضية. أومأت موافقة، وهي تشعر بجفاف فمها وجوعها الصباحي. كانت تلك إحدى لحظات التعب التام، والانتصار التام، ليس فقط من خلال إنجاز العمل المطلوب، وإنما أيضاً للتفوق على الليل الذي حجب الطريق.

مطمط بابا جسده، وقبضتاه وعيناه مغلقتان بإحكام. في ذلك اليوم، لم يكن الصباح ليجرؤ أن يكون ممطراً. نهضا، واتجها نحو المطبخ. شاهدا عبر ضباب وصقيع النافذة قضبان الضوء الوردية المنعكسة على الأسطح الثلجية لمنازل شارع هيمل.

«انظري إلى الألوان»، قال بابا. من الصعب ألا تعجبوا برجل لا يكتفي فقط بملاحظة الألوان، وإنما يتحدث من خلالها أيضاً.

ما زالت ليزيل تحمل الكتاب. تشبثت به بقوة أكبر مع تحوّل الثلج إلى اللون البرتقالي. على أسطح أحد المنازل، استطاعت أن ترى صبياً صغيراً، يجلس متأملاً السماء.

«اسمه فيرنر»، قالت.

حيث خرجت الكلمات بشكل لا إرادي.

«أجل»، قال بابا.

في المدرسة خلال ذلك الوقت، لم تكن هناك اختبارات قراءة جديدة. أما ليزيل فقد استجمعت ببطء ثقتها بنفسها. وقبل دخولها إلى الصف في أحد الأيام، التقطت كتاباً ضالاً، لترى ما إذا كان بمقدورها قراءته من دون أية مشاكل. استطاعت قراءة كل كلمة، ولو أنها تقرأ بوتيرة أبطأ بكثير من زملائها. أدركت حينها أنه شتّان ما بين أن يكون المرء على شفا تحقيق شيء ما، وبين تحقيقه فعلياً على أرض الواقع، حيث أن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً.

بعد ظهر أحد الأيام، شعرت برغبة جامحة في سرقة كتاب من رف كتب الصف، ولكن احتمال تلقيها لعقاب آخر في الممر، على يد الأخت ماريا، شكّل رادعاً قوياً بما فيه الكفاية. وعلاوة على ذلك، فلم تكن لديها في الواقع أية رغبة حقيقية في سرقة الكتب من المدرسة. على الأرجح أن فشلها في القراءة أمام الصف هو السبب وراء عدم اهتمامها بالكتب المدرسية. لكن ليزيل لم تكن متأكدة من السبب الحقيقي وراء عدم اهتمامها ذاك، بل عرفت فحسب أنها تشعر على ذلك النحو.

في الصف، لم تكن تتكلم مع أحد، ولم ترتكب أدنى تصرّف خاطئ.

ومع اقتراب فصل الشتاء، لم تعد ضحية لإحباطات وعقاب الأخت ماريا، فقد فضّلت أن تشاهد الأطفال الآخرين وهم يخرجون إلى الممر لينالوا عقابهم العادل. صحيح أنه ليس من المتعة في شيء سماع صوت طالب آخر يعاني في الممر، إلا أن حقيقة أنه شخص آخر (غيرها) بعثت الراحة في قلبها.

عندما توقفت الدروس في المدرسة لفترة وجيزة من أجل عطلة عيد الميلاد، تجرّأت ليزيل على معايدة الأخت ماريا قبل العطلة.

كما أدركت ليزيل تماماً أن آل هوبرمان مفلسين حقيقة، وأنهم يسددون ديونهم ويدفعون الإيجار بأسرع مما يحصلون على المال الكافي. ولذلك، فهي لم تتوقع الحصول على أية هدية من أي نوع، ربما فقط بعض الطعام الأفضل في تلك المناسبة. عشية عيد الميلاد، ذهبت إلى الكنيسة في منتصف الليل بصحبة ماما، وبابا، وهانز جونيور، وترودي، عادت الى المنزل لتجد شيئاً ملفوفاً في صحيفة تحت شجرة عيد الميلاد.

«إنها هدية من سانتا كلوس»، قال بابا. لكنّ الفتاة لم تنخدع، وعانقت والديها، بينما الثلج ما يزال يغطي كتفيها.

أزالت الورقة، لتعثر على كتابين صغيرين. حمل الأول عنوان (الكلب فاوست)، ومؤلّفه يدعى ماثيوس أوتلبيرغ. سينتهي بها الأمر بقراءة هذا الكتاب ثلاث عشرة مرّة، بدأتها في عشية عيد الميلاد، عندما أنجزت قراءة عشرين صفحة على طاولة المطبخ، بينما تجادل بابا مع هانز جونيور حول موضوع لم تفهمه، شيء ما يُسمى السياسة.

في وقت لاحق، قرآ المزيد في السرير، متمسّكين بتقليد رسم دائرة حول الكلمات التي لا تعرفها للتدّرب عليها. ضم كتاب (الكلب فاوست) صوراً أيضاً، ورسومات وكاريكاتوريات جميلة لكلب من نوع جيرمان شيفرد، حيث يسيل لعابه على الدوام ولديه القدرة على التحدّث.

حمل الكتاب الثاني عنوان (المنارة)، ومؤلفته امرأة اسمها إنغريد ريبنشتاين. هذا الكتاب أكبر قليلاً، لذلك لم تستطع ليزيل قراءته سوى تسع مرات، وبذلك زادت سرعة قراءتها قليلاً مع نهاية هذه القراءات الغزيرة.

بعد أيام قليلة من عيد الميلاد، سألت بابا عن هذين الكتابين، عندما

سارقة الكتب

جلسوا جميعاً لتناول الطعام في المطبخ. كانت تنظر إلى ملعقة حساء البازلاء وهي تجد طريقها إلى فم ماما. ومن ثم قرّرت تحويل تركيزها إلى بابا: «هناك شيء أحتاج إلى سؤالك عنه».

في البداية، لم يكن هناك أي جواب.

«وما هو؟». كانت تلك ماما، وفمها ما يزال نصف ممتلئ بالبازلاء.

- أريد فقط أن أعرف كيف حصلتما على المال لشراء الكتابين.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه بابا. «هل تريدين أن تعرفي حقاً؟».

- بالطبع.

أخرج بابا من جيبه ما تبقى من حصته من التبغ وبدأ بلف سيجارة، حينها بدأت ليزيل تفقد صبرها.

- هل ستخبرني أم لا؟

ضحك بابا. «ولكنني أخبركِ بالفعل يا طفلتي». أكمل لف سيجارة واحدة، ووضعها على الطاولة، وبدأ بلف سيجارة أخرى. «هكذا تماماً».

في الأثناء، أنهت ماما حساءها، قمعت تجشؤها، وأجابت عنه. «ذلك الخنزير»، قالت. «هل تعرفين ماذا فعل؟ لقد لف جميع سجائره القذرة، وذهب إلى سوق البلدة وقايضها مع بعض الغجر».

«ثماني سجائر لكل كتاب». وسارع بابا إلى وضع سيجارة في فمه بحركة انتصار. أشعلها واستنشق الدخان، «نشكر الرب على وجود السجائر، أليس كذلك يا روزا؟».

بادلته روزا إحدى علاماتها الفارقة، نظرة اشمئزاز لا مثيل لها، تلتها الكلمة الأكثر شيوعاً من مفرداتها: «خنزير!».

ألقت ليزيل غمزة تجاه بابا وأكملت حساءها. وكما هي الحال دائماً، فلا بدّ لأحد كتبها من أن يلازمها دوماً.

لم تنكر ليزيل أن الإجابة عن سؤالها كانت أكثر من مُرضية. وفي الحقيقة، ليس هناك الكثير من الأشخاص الذين يستطيعون القول بأن تعليمهم كان لقاء السجائر.

ماما، من ناحية أخرى، قالت لو كان هانز هوبرمان نافعاً حقاً، لكان بادل بعض التبغ بالثوب الجديد الذي تحتاجه بشدة، أو ببعض الأحذية. «لكن لا...» وأفرغت ذخيرتها من الكلمات البذيئة على حوض الغسيل. «عندما يتعلق الأمر بي، فأنتَ تفضّل أن تدخّن حصتك بالكامل، أليس كذلك؟ مضيفاً إليها حصة الجيران لو استطعت».

بعد بضع ليال، عاد هانز هوبرمان إلى المنزل يحمل صندوقاً من البيض: «آسف، أيتها الأم»، ووضعه على الطاولة، «لقد نفدت الأحذية من جميع المتاجر».

لم تتذمّر ماما.

بل على العكس من ذلك، فقد غنّت لنفسها وهي تطهو ذلك البيض. بدا أن هناك متعة كبيرة في السجائر، وكان ذلك وقتاً سعيداً في منزل آل هوبرمان.

إلا أنه ما لبث أن انتهى بعد بضعة أسابيع.

سارقة الكتب

سائرة البلدة

بدأ العفن مع الغسيل، وسرعان ما ازداد.

عندما رافقت ليزيل روزا هوبرمان لتسليم الغسيل في مختلف أرجاء مولشينغ، أخبرها أحد زبائنها، السيد إرنست فوجل، أنه لم يعد في إمكانه تحمّل نفقات الغسيل والكي. برّر قائلاً: «هذا الزمان، ماذا يمكنني أن أقول؟ أصبح كل شيء أكثر صعوبة. الحرب تجعل الأمور أصعب». نظر إلى الفتاة. «أنا متأكد من أنك تحصلين على بدل لقاء رعايتك لهذه الطفلة الصغيرة، أليس كذلك؟».

فوجئت ليزيل بصمت ماما، التي تحمل كيسها الفارغ إلى جانبها.

هيا، ليزيل. لم تنطق روزا هاتين الكلمتين، إلا أنها جرّتها وراءها بيديها القاسيتين.

من عتبة باب بيته، نادى السيد فوجل، الذي يبلغ طوله نحو متر وثمانين، وشعره دهني يتأرجح بلا حياة أمام جبينه: «أنا آسف يا سيدة هوبرمان!». أما ليزيل فقد لوّحت له مودعة. ولوح لها هو في المقابل.

سارقة الكتب

وبّختها ماما بقسوة قائلة: «لا تلوحي لذلك الأحمق! هيا أسرعي الآن».

في تلك الليلة، عندما استحمّت ليزيل، دعكتها ونظفتها ماما بقسوة أكثر من المعتاد، وهي تتمتم طوال الوقت عن فوجل الخنزير، وتقلّده كل دقيقتين. «أنا متأكد من أنك تحصلين على بدل لقاء رعايتك لهذه الطفلة...» ضغطت بقوة أكبر على الصدر العاري لليزيل، منشغلة بتنظيفها. «لا يدفعون الكثير مقابل رعايتكِ أيتها الخنزيرة. واعلمي بأنني لن أصبح غنية من وراء رعايتك». لم يكن في وسع ليزيل سوى الجلوس هناك وتلقّي سيل الكلمات.

وفي الواقع، لم يمض أكثر من أسبوع على تلك الواقعة، حتى دفعتها روزا إلى المطبخ. «حسنٌ يا ليزيل». أجلستها إلى الطاولة، «بما أنك تقضين نصف وقتك في الشارع للعب كرة القدم، يمكنكِ أن تقدمي لي بعض المساعدة هنا على سبيل التغيير».

نظرت ليزيل إلى يديها فقط. «ما الأمر يا ماما؟».

«من الآن فصاعداً ستقومين بجمع الغسيل وتسليمه بالنيابة عني. من المرجح ألا يطردنا هؤلاء الأغنياء إذا وقفتِ أنتِ أمامهم. وإذا سألوكِ عني، فقولي إنني مريضة. وليبدُ عليك الحزن عندما تقولين ذلك. وفي جميع الأحوال، فأنتِ نحيلة وشاحبة بما فيه الكفاية لتستحوذي على شفقتهم».

– السيد فوجل لم يشفق عليّ.

– حسناً. ربما قد يُشفق عليكِ الآخرون. لذلك لا تجادليني في هذا الأمر.

بدا غضبها واضحاً.

– حاضر، ماما.

للحظة، بدا أن روزا سوف تعطف عليها، أو تربّت على كتفها.

سارقة الكتب

إلا أنها لم تفعل شيئاً من هذا القبيل.

بدلاً من ذلك، وقفت روزا هوبرمان، واختارت ملعقة خشبية لوّحت بها أمام وجه ليزيل، وقد بدا ذلك ضرورياً لاستكمال ما تريد قوله:

- عندما تذهبين إلى ذلك الشارع، ستأخذين معك كيس الغسيل إلى كل منزل، وتعودين به مباشرة إلى هنا، مع النقود، حتى لو كان مبلغاً زهيداً. لا تذهبي إلى بابا، في حال كان يعمل على غير العادة. ولا تتجولي مع ذلك الخنزير الصغير رودي شتاينر. عودي إلى المنزل مباشرة.

- حاضر، ماما.

- وعندما تحملين ذلك الكيس، احمليه بشكل صحيح. لا تُؤرجحيه، أو تُسقطيه، أو تجعّديه، أو ترميه فوق كتفك.

- حاضر، ماما.

- حاضر، ماما! (من المؤكّد أن روزا هوبرمان تُجيد التقليد بشكل عظيم) أُحذّرك من أن تفعلي أياً من هذه الأمور التي نهيتك عنها أيتها الخنزيرة! سأكتشف ذلك فيما إذا فعلتِ، أنتِ تدركين ذلك، أليس كذلك؟

- أجل، ماما.

في كثير من الأحيان، كان قول هاتين الكلمتين أفضل وسيلة للنجاة والبقاء على قيد الحياة، بالطبع إلى جانب فعل ما قيل لها. وبالفعل سارت ليزيل في شوارع بلدة مولشينغ، انطلاقاً من حي الفقراء ووصولاً إلى أماكن الأغنياء، حيث تجمع الغسيل وتسلّمه. بدأ الأمر في البداية كعمل فردي، ولم تشكُ منه قط.

في المرة الأولى التي حملت فيها كيس الغسيل عبر البلدة، وبمجرّد أن وصلت إلى شارع ميونخ، نظرت إلى كلا الاتجاهين، وشرعت على

الفور بأرجحة الكيس بدورة قوية - كنوع من ثورة كاملة - إلا أنها سُرعان ما توقفت لتتفقّد محتوياته وتطمئن على سلامتها، ولحسن الحظ، لم يكن هناك أية تجعيدات أو حنيات. بل مجرّد ابتسامة ارتسمت على وجهها، ووعد قطعته بألا تؤرجح الكيس مرّة أخرى.

عموماً، استمتعت ليزيل بمهامها الجديدة. بالطبع لم تكن تحصل على حصة من الأجر، لكن يكفيها أن تخرج من المنزل، وتجوب الشوارع من دون ماما، فتلك هي الجنة في حد ذاتها بالنسبة إليها. ففي الشوارع، ما من إصبع يوجه الاتهامات، أو شتائم تُلقى جزافاً، وما من أشخاص يحدقون في وجهها وهي تتلقى اللعنات لحملها الكيس بشكل خاطئ.

لا شيء سوى الصفاء.

كما أصبحت تُحبّ الناس الذين تتعامل معهم أيضاً:

- آل بفافلهورفر، الذين يحرصون على تفحّص الملابس، ويؤكّدون عند استلامها: «أجل، أجل، جيد جداً». حيث تخيّلت ليزيل أنهم يقومون بكل شيء مرتين.
- السيدة هيلينا شميدت اللطيفة، والتي تُعطي النقود لليزيل بيدها التي تعاني من التهاب المفاصل.
- آل فاينغارتنر، وقطهم ذو الشارب المنحني الذين يندفع دوماً نحو الباب معهم لاستقبال الزوار. ليتل جوبلز، هذا كان اسمه، تيمناً بالرجل الثاني في حكم هتلر.
- والسيدة هيرمان، زوجة رئيس البلدية، التي تقف بشعرها المنفوش مرتجفة في مدخل بيتها الضخم والبارد. امرأة صامتة دوماً، ووحيدة دوماً. وهي لم تنبس ببنت شفة، ولا مرّة واحدة.

في بعض الأحيان، تطوّع رودي لمرافقة ليزيل.

«كم من المال لديكِ هناك؟». سألها من بعد ظهر أحد الأيام. وقد بدأ الظلام يهبط وهما يسيران باتجاه شارع هيمل، مارّين بجانب متجر السيدة ديلر. «هل سمعتِ بأمر السيدة ديلر؟ يقولون إنها تُخبئ الحلوى والمصاصات في مكان ما، ويمكننا الحصول عليها لقاء دفع السعر المناسب...».

«لا تجرؤ حتى على التفكير في ذلك». قالت ليزيل، وهي تقبض على المال بأقصى قوتها، كما هي عادتها دوماً. «الأمر سهل بالنسبة إليكَ، فأنتَ لن تُضطر إلى مواجهة أمي».

أجاب رودي لامبالياً: «يكفيني شرف محاولة إقناعكِ».

في منتصف شهر كانون الثاني / يناير، ركّزت الدروس المدرسية اهتمامها على كتابة الرسائل. وبعد تعلّم الأساسيات، تعيّن على كل طالب كتابة رسالتين: واحدة إلى صديق، وواحدة إلى شخص في صف آخر.

وجاءت الرسالة التي أرسلها رودي إلى ليزيل على الشكل التالي:

[عزيزتي الخنزيرة الصغيرة،

هل ما زلتِ عديمة الفائدة في كرة القدم كما كنتِ في آخر مرّة لعبنا فيها؟ آمل ذلك. وهذا يعني أنني أستطيع أن أسبقكِ في الجري مرّة أخرى، تماماً مثلما فعل جيسي أوينز في دورة الألعاب الاولمبية...]

عندما وجدت الأخت ماريا تلك الرسالة، سألته سؤالاً واحداً، وبمنتهى الهدوء.

عرض الأخت ماريا

«سيد شتاينر، هل ترغب في زيارة الممر؟»

سارقة الكتب

غني عن القول بأن رودي أجاب بالنفي، وبأن مصير الرسالة كان الإتلاف، حيث شرع رودي بكتابة واحدة أخرى. وجه رسالته هذه المرة إلى فتاة تدعى ليزيل ليستفسر فيها عن هواياتها.

وهي في المنزل، تُكمل الرسالة الخاصة بالوظيفة المدرسية، قرّرت ليزيل أن الكتابة إلى رودي أو أي خنزير آخر، هي في غاية السخف في الواقع، ولا تعني شيئاً.

في أثناء انشغالها بالكتابة في القبو، تبادلت أطراف الحديث مع بابا، الذي يُعيد طلاء الجدار مرّة أخرى، ويحوم هو وأبخرة الدهان حولها في المكان.

- ما رأيكَ؟

- بماذا؟

- هل سأستطيع كتابة رسالة إلى ماما؟

ساد الصمت لبرهة وجيزة.

«لماذا تريدين أن تكتبي لها رسالة؟ ألا يكفيكِ أن تُضطري إلى تحملّها في كل يوم»، وابتسم ابتسامة خبيثة. «أليس هذا سيئاً بما فيه الكفاية؟».

«ليست ماما تلك هي مَن أقصدها»، ابتلعت ريقها.

«أوه». عاود بابا عمله على الجدار، وتابع طلاءه. «حسناً، أعتقد ذلك. يمكنكِ أن تُرسليها إلى تلك المرأة التي جلبتك إلى هنا وزارتنا في مناسبات قليلة - لا أذكر ما اسمها، تلك المرأة التي من دار الرعاية».

«السيدة هاينريش».

«هذا صحيح. أرسليها إليها. ربما بإمكانها أن توصلها إلى أمكِ». شعرت ليزيل بأن كلامه غير مقنع على الإطلاق، كما لو أنه يحاول إخفاء

سارقة الكتب

شيء عنها. كما أن السيدة هاينريش، وخلال زياراتها القصيرة، كانت مقتضبة جداً عند الحديث عن أمها.

وبدلاً من سؤاله مباشرة عن المشكلة الحقيقية، باشرت ليزيل الكتابة على الفور، واختارت تجاهل الشعور المتشائم الذي سرعان ما بدأ يتصاعد في قلبها. استغرقها الأمر ثلاث ساعات، وست مسودات لإكمال الرسالة، حيث أخبرت والدتها كل شيء عن بلدة مولشينغ، وبابا، والأكورديون، وعن الأساليب الغريبة وإنما الصادقة التي يتبعها رودي شتاينر، وشرحت لها بالطبع مآثر روزا هوبرمان. وأوضحت مدى افتخارها بقدرتها الحالية على القراءة والكتابة ولو بشكل بسيط. وفي اليوم التالي، ألصقت على الرسالة طابعاً حصلت عليه من درج المطبخ، وتوجّهت إلى متجر السيدة ديلر لإرسالها. بعدها، بدأت رحلة الانتظار.

في الليلة التي كتبت فيها الرسالة، استرقت السمع لمحادثة دارت بين هانز وروزا.

«لماذا تكتب لأمها؟». قالت ماما، وقد بدا صوتها هادئاً ومهتماً على نحو مفاجئ. وكما يمكنكم أن تتخيلوا، فقد أقلق هذا التبدّل الفتاة إلى حد كبير، حيث تفضّل سماع جدالهما المعتاد على همسهما الغريب هذا. وفي الحقيقية، بالكاد ما يكون البالغون الهامسون محل ثقة كبيرة.

«سألتني»، أجاب بابا، «ولم أستطع أن أقول لها لا. كيف لي أن أمنعها؟».

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!». قالت ماما هامسة أيضاً، «عليها أن تنساها فحسب. من يدري أين هي؟ ومن يدري ماذا فعلوا بها؟».

في سريرها، عانقت ليزيل نفسها بشدة، وتكوّرت على نفسها.

فكّرت في والدتها وكرّرت أسئلة روزا هوبرمان.

سارقة الكتب

أين هي؟

وماذا فعلوا بها؟

حينها، خطر لها السؤال المنطقي التالي، من «هم» في الواقع أولئك المقصودون بهذا السؤال؟

رسائل ميتة

نظرة خاطفة إلى المستقبل، في القبو، في شهر أيلول / سبتمبر 1943.

فتاة تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، منشغلة بالكتابة على كتاب صغير ذي غلاف داكن. تبدو نحيلة وإنما قوية، وقد شهدت على الكثير من الأمور. أما بابا، فهو يجلس والأكورديون عند قدميه.

قال: «هل تعرفين يا ليزيل؟ كنتُ على وشك أن أكتب لكِ جواباً، وأوقّعه باسم أمكِ». حكّ ساقه، في المكان الذي اعتاد فيه الجص أن يكون. «لكنني لم أستطع. لم أستطع أن أحمل نفسي على القيام بذلك».

عدّة مرات، خلال الفترة المتبقية من شهر كانون الثاني / يناير ومجمل شهر شباط / فبراير، عندما بحثت ليزيل في صندوق البريد عن أي رد قد يردها من أمها، كان قلب بابا يتمزق بحزن جلي. «أنا آسف»، اعتاد أن يقول لها. «لم يصللكِ شيء اليوم، أليس كذلك؟». عندما تتذكر تلك الفترة، ترى ليزيل أن العملية برمتها كانت بلا طائل. فلو كان بمقدور والدتها التواصل مع أي شخص، لتواصلت بالفعل مع العاملين في دار الرعاية، أو مع الفتاة مباشرة، أو مع آل هوبرمان. ولكن لم يكن هناك أي نوع من التواصل.

سارقة الكتب

وليزداد الطين بلة، استلمت ليزيل في منتصف شهر شباط / فبراير رسالة من أحد زبائن الغسيل والكي، آل بفافلهورفر، في شارع هايده. حيث وقف الزوجان بفخر كبير في مدخل البيت، ونظرا إليها بنظرة حزينة. «أعطِ هذه الرسالة لأمكِ»، قال الرجل، وسلمها الظرف. «قولي لها إننا آسفان. قولي لها إننا آسفان».

لم تكن تلك ليلة هانئة في منزل آل هوبرمان.

حتى عندما تراجعت ليزيل إلى القبو لكتابة رسالتها الخامسة لأمها (أرسلتها جميعها باستثناء واحدة)، أمكنها أن تسمع روزا وهي تكيل الشتائم والسباب إلى آل بفافلهورفر السفهاء، وإلى ذلك الكسول إرنست فوجل.

سمعَتها تصيح: «أتمنى أن يتبولوا جميعهم النار لمدة شهر كامل».

عندما حلّ عيد ميلادها، لم تكن هناك أية هدية في انتظارها، لأنه ببساطة لم يكن هناك أي مال. في ذلك الوقت، لم يعد لدى بابا أي تبغ ليقايضه.

«لقد قلتُ لكَ». رفعت ماما إصبعها في وجهه. «قلتُ لكَ ألا تعطيها كِلا الكتابين في عيد الميلاد. ولكن لا، هل كنت لتستمع لي؟ بالطبع لا!».

«أعرف ذلك!» والتفت بهدوء نحو الفتاة. «أنا آسف يا ليزيل. لكننا لا نستطيع تحمل تكاليف هدية».

لم تمانع ليزيل. لم تتذمر أو تعاند، أو تضرب الأرض بقدميها. بل ابتلعت خيبة الأمل ببساطة، وقرّرت القيام بإحدى المخاطر المحسوبة – وهي أن تقدّم هدية لنفسها. جمعت كل الرسائل التي راكمتها لترسلها إلى أمها، ووضعتها في ظرف واحد، واستخدمت مجرّد جزء صغير جداً من مال الغسيل والكي لإرسالها. بالطبع، ستنال عقابها، وسيكون ذلك

على الأرجح في المطبخ، من دون أن يصدر عنها أي اعتراض أو ممانعة.

بعد ثلاثة أيام، بدأت الخطة تتحقّق على أرض الواقع.

«إنها ناقصّة». أحصت ماما المال للمرة الرابعة، بينما وقفت ليزيل عند الموقد. الجو الحار هناك زاد من التدفق السريع لدمها. «ماذا حدث يا ليزيل؟».

كذبت قائلة: «لا بد من أنهم أعطوني أقل من المعتاد».

- هل قمتِ بعدّ النقود؟

وانهارت أمام هذا الاستجواب. «لقد أنفقتها يا ماما».

اقتربت روزا منها. ولم تكن هذه علامة جيدة. لقد أصبحت قريبة جداً من الملاعق الخشبية. «ماذا فعلتِ؟».

وقبل أن تتمكن من الإجابة، انهالت الملعقة الخشبية على جسد ليزيل ميمنجر كأن وحشاً قد انقض عليها. ارتسمت علامات حمراء مؤلمة مثل آثار الأقدام على كامل جسدها. وعندما انتهى الضرب الوحشي، وارتمت على الأرض، حاولت الفتاة النظر إلى أمها وشرح ما حدث.

رأت ضوء المطبخ الأصفر ينبض، ولم تكن قادرة على فتح عينيها بشكل كامل. «لقد قمتُ بإرسال رسائلي».

ما أثار انتباهها حينها هو كمية الغبار المتراكمة على الأرض، والشعور الذي راودها بأن ملابسها موجودة إلى جانبها أكثر من كونها ترتديها، وإدراكها المفاجئ أن كل هذا العذاب هو بلا جدوى - فأمها لن ترد على أيٍّ من رسائلها، وأنها لن تراها أبداً مرّة أخرى. جاء هذا الإدراك المتأخّر بمثابة عقاب ثان لها، عقاب ثقيل، لم يتوقف لوقت طويل.

فوقها، بدت روزا مطموسة المعالم، إلا أنها سرعان ما أصبحت أوضح مع اقتراب وجهها المجعد. وقفت فوقها بكامل غضبها، حاملة

الملعقة الخشبية إلى جانبها مثل الهراوة. انحنت نحوها وتمتمت: «أنا آسفة، يا ليزيل».

كانت ليزيل تعرف حقيقة روزا بما يكفي لتدرك أن ذلك الاعتذار ليس كاذباً.

أصبحت العلامات الحمراء أكبر حجماً، وأخذت شكل بقع احتلّت جلدها. بقيت قابعة هناك بين الغبار والأوساخ، والضوء الخافت. هدأ تنفسها، وسالت دمعة صفراء شاردة على وجهها. شعرت بنفسها مكومة فوق الأرض، وأحسّت بساعدها، وركبتها، وكوعها، وخدها، وساقها.

كانت الأرضية باردة، ولا سيما عند خدها، إلا أنها عجزت عن التحرك.

أدركت أنها لن ترى أمها الحقيقية مرّة أخرى.

لمدة ساعة تقريباً، بقيت ممددة هناك تحت طاولة المطبخ، إلى أن عاد بابا إلى المنزل وعزف الأكورديون.

حينها فقط جلست وبدأت بالتعافي.

عندما كتبت عمّا حدث في تلك الليلة، لم تحمل أية ضغينة تجاه روزا هوبرمان على الإطلاق، أو تجاه أمها أيضاً. فقد رأت أنهما ضحيتان لظروفهما. الفكرة الوحيدة التي تكرّرت على الدوام هي الدمعة الصفراء. حيث أدركت أنه فيما لو كان المطبخ مظلماً، لكان من شأن الدمعة أن تكون سوداء.

«إلا أن المطبخ كان مظلماً»، قالت لنفسها.

لا يهم كم من مرّة حاولت فيها أن تتخيل ذلك المشهد مع الضوء الذي تعرف تماماً أنه مُضاء هناك، إلا أنها واجهت دوماً صعوبة في تصوّره. لم ترَ سوى مشهد تعرّضها للضرب في الظلام، حيث بقيت هناك، على أرضية المطبخ الباردة والمظلمة. حتى موسيقى بابا حملت لون الظلام.

سارقة الكتب

حتى موسيقى بابا.

الغريب في الأمر أنها شعرت بارتياح غامض بفعل تلك الفكرة، بدلاً من أن تضطّرب بمجرّد التفكير فيها.

الظلام، والضوء.

ما هو الفرق بينهما؟

عزّزت الكوابيس من وجودها في كل منهما، حيث بدأت سارقة الكتب تفهم حقاً حقيقة الأمور، وكيف ستكون دائماً. على أقل تقدير، استطاعت أن تُحضّر نفسها. ولعل هذا هو السبب في أنها كانت قادرة على التفاعل والقيام برد فعل، في يوم عيد ميلاد الفوهرر هتلر، وذاك على الرغم من كل حيرتها وغضبها. حينها تجلّت بوضوح الإجابة على السؤال المتعلق بمعاناة أمها الحقيقة.

ليزيل ميمنجر جاهزة ومتأهبة.

عيد ميلاد سعيد، سيد هتلر!

كل عام وأنتَ بخير!

عيد ميلاد هتلر، 1940

في خضم كل هذا اليأس، حرصت ليزيل على تفقّد صندوق البريد من بعد ظهر كل يوم، طوال شهر آذار / مارس وحتى شهر نيسان / أبريل، وذلك على الرغم من زيارة قامت بها السيدة هاينريش بناء على طَلب هانز، والتي أوضحت خلالها لآل هوبرمان أن مكتب الرعاية قد فقد الاتصال تماماً مع بولا ميمنجر. ومع ذلك، استمرت الفتاة في الانتظار، وكما قد تتوقعون، ففي كل مرّة تتفقد فيها البريد، لم يكن هناك شيء في انتظارها.

بلدة مولشينغ، مثل بقية ألمانيا، كانت منهمكة بالاستعداد لعيد ميلاد هتلر. وفي هذا العام بالذات، ومع تطوّر الحرب وموقف هتلر المنتصر حالياً، أراد الحزبيون النازيون في مولشينغ أن يكون الاحتفال على مستوى لائق بشكل خاص، حيث سيكون هناك موكب، ومسيرات، وموسيقى، وغناء، وسيكون هناك حريق.

في أثناء سيرها في شوارع مولشينغ لجمع وتسليم الغسيل والكي، شاهدت ليزيل أعضاء الحزب النازي وهم يراكمون كل ما يمكن إشعاله. في بضع مرات، رأت ليزيل الرجال والنساء وهم يطرقون الأبواب،

ويسألون الناس عما إذا كان لديهم أي مواد يرغبون في التخلص منها أو إتلافها. كما أعلنت نسخة من صحيفة «مولشينغ اكسبرس» التي وجدها بابا أن حريقاً احتفالياً سيُقام في ساحة البلدة، ويتعيّن على جميع شعب شبيبة هتلر المحلية الحضور، حيث سيكون احتفالاً ليس فقط بمناسبة عيد ميلاد الفوهرر، بل بالنصر المتحقق على أعدائه وعلى القيود التي فُرضت على ألمانيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ونصّت الصحيفة على ما يلي: «ينبغي تقديم أية مواد، بما في ذلك الصحف، والملصقات، والكتب، والأعلام، وأي مواد دعائية صادرة عن أعدائنا، إلى مكتب الحزب النازي في شارع ميونخ».

حتى شارع شيلر - طريق النجوم الصفراء - الذي ما يزال في انتظار تجديده، تم نهبه لمرة أخيرة، للعثور على شيء، أي شيء، يمكن حرقه باسم مجد الفوهرر. وليس من المستغرب أن يقوم بعض أعضاء الحزب النازي بطباعة ألف أو نحو ذلك من الكتب أو الملصقات ذات المحتوى الأخلاقي السام، وذلك لمجرّد حرقها ببساطة.

كل شيء في مكانه المناسب لجعل يوم 20 نيسان / أبريل يوماً مهيباً. سيكون يوماً مليئاً بالحرق والهتاف.

وسرقة الكتب.

في ذاك الصباح، سار كل شيء كالمعتاد في منزل آل هوبرمان.

«ذلك الخنزير ينظر من النافذة مرّة أخرى»، انهمرت لعنات روزا هوبرمان، التي تابعت قائلة: «إنه يفعل ذلك في كل يوم، إلامَ تنظرُ هذه المرة؟».

«أوه!»، تنهد بابا مع فرحة غامضة، وقد غطّى ظهره العلم المعلّق على النافذة. «عليكِ أن تُلقي نظرة على هذه المرأة التي أراها». نظر من فوق

كتفه وضحك لليزيل. «قد اذهب وأركض خلفها. وأتركك هنا لتموتين يا ماما».

«أيها الخنزير!» وهزّت الملعقة الخشبية في وجهه.

واصل بابا النظر عبر النافذة، نحو امرأة وهمية، وممر حقيقي جداً من الأعلام الألمانية.

في شوارع مولشينغ في ذلك اليوم، تم تزيين كل نافذة على شرف الفوهرر. وفي بعض الأماكن، مثل متجر السيدة ديلر، غُسل الزجاج بحماس، ورُفع علم جديد، وبدا الصليب المعقوف مثل جوهرة معلّقة على بطانية حمراء وبيضاء. في أماكن أخرى، عُلّق العلَم من الحافة مثل غسيل عُلّق ليجف، لكنه موجود على أي حال.

في وقت سابق، وقعت كارثة صغيرة. حيث عجز آل هوبرمان عن العثور على علمهم.

«سوف يكتشفوننا»، حذّرت ماما زوجها، «سيأتون ويأخذوننا إلى وجهة لا يعلمها أحد، علينا أن نجده!» في مرحلة ما، بدا أن بابا سيُضطر إلى النزول إلى القبو ليرسم العلم على إحدى قطع القماش. ولحسن الحظ، ظهر العلم أخيراً، مدفوناً وراء الأكورديون في الخزانة.

«ذلك الأكورديون الجهنمي، هو ما أعاق رؤيتي له!» ثارت ثائرة ماما، وصاحت: «ليزيل! تعالي إلى هنا».

حظيت الفتاة بشرف تعليق العلم على إطار النافذة.

في وقت لاحق، حضر هانز جونيور وترودي إلى المنزل لتناول الغداء، كما فعلا في عشية عيد الميلاد، أو عيد الفصح. وأظن أن الوقت قد حان الآن للتعريف بهما بشكل ملائم:

ترودي، أو ترودِيل، كما يناديها البعض، هي أطول من ماما ببضع

بوصات فقط. وهي نسخة عن أسلوب روزا هوبرمان المؤسف في المشي، إلا أن بقية تفاصيلها هي أكثر اعتدالاً بكثير. ونظراً لكونها تعيش كخادمة في الجزء الغني من ميونخ، فهي تشعر على الأرجح بالملل من الأطفال، لكنها كانت قادرة دوماً على قول بعض الكلمات اللطيفة والتبسّم في وجه ليزيل. لديها شفتان ناعمتان، وصوت هادئ.

أما هانز جونيور فهو يحمل عيني والده، وهو بالطول نفسه. إلا أن الفضة في عينيه، لم يكن لها دفء عيني بابا. على عظامه لحم أكثر أيضاً، وشعره أشقر شائك وجلد بلون الطلاء الأبيض.

جاءا إلى البيت معاً على متن قطار من ميونخ، ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى عاودت التوترات القديمة الظهور.

تاريخ موجز هانز هوبرمان وابنه

في رأي هانز جونيور، فإن والده جزء من ألمانيا القديمة المتداعية – تلك التي سمحت للآخرين باستباحتها بينما شعبها يعاني. وعندما كبر، أدرك أن والده يُدعى «دهّان اليهود» –لأنه يدهن المنازل اليهودية.

ثم وقعت حادثة سأعرضها لكم بالتفصيل عمّا قريب – حيث أخفق هانز في الانضمام إلى الحزب. الجميع يعرف أنه لا ينبغي لأحد أن يدهن فوق الإهانات المكتوبة على واجهة متجر يهودي، فمثل هذا السلوك يُعتبر مُسيئاً لألمانيا، ومزعجاً للمعتدي.

«إذاً، هل سمحوا لكَ بالانضمام إليهم أخيراً؟» تابع هانز جونيور الحديث من حيث توقف في عيد الميلاد.

سارقة الكتب

- الانضمام إلى ماذا؟

- خمّن... الحزب.

- لا، أعتقد أنهم قد نسوا أمري.

- حسناً هل حاولتَ مرّة أخرى؟ لا يمكنك الاكتفاء بالجلوس وانتظار أن يضمك العالم الجديد إليه ببساطة. عليك أن تخرج وأن تكون جزءاً منه، على الرغم من أخطاء الماضي.

رفع بابا نظره إليه. «أخطاء؟ لقد ارتكبتُ العديد من الأخطاء في حياتي، إلا أن عدم الانضمام إلى الحزب النازي ليس واحداً منها. الطلب ما زال موجوداً لديهم - أنت تعرف ذلك - وليس في وسعي العودة والتقدّم بطلب جديد. أنا فقط...».

كان ذلك عندما اقتحمت الغرفة ريح قوية، عبرت من خلال النافذة. ربما هي نسمة عادية وقد حشدت قوة أكبر بمناسبة عيد ميلاد الرايخ الثالث. أو ربما هي أوروبا تتنفّس مرّة أخرى. وفي كلتا الحالتين، مرّت بينهما وعيونهما المعدنية تتصادم في المطبخ مثل علب الصفيح.

قال هانز جونيور: «أنتَ لم تهتم يوماً بهذا البلد، ليس بما يكفي، على أي حال».

بدأت عينا بابا تتقهقران. إلاّ أن ذلك لم يوقف هانز جونيور، الذي نظر لسبب ما إلى الفتاة، التي وضعت كُتبها الثلاثة بشكل عامودي على الطاولة، كما لو أنها تجري محادثة مع بعضها البعض، وتمتمت بصمت كلمات الكتاب الذي انشغلت بقراءته. «ما نوع التفاهة التي تقرؤها هذه الفتاة؟ يتعيّن عليها أن تقرأ كتاب (كفاحي) لهتلر».

«لا تقلقي يا ليزيل»، قال بابا. «استمرّي في القراءة فحسب. إنه لا يُدرك ما يقوله».

سارقة الكتب

لكن هجوم هانز جونيور لم ينته بعد. اقترب أكثر، وقال: «أنتَ إما مع الفوهرر أو ضده – وأستطيع أن أرى بجلاء أنك ضده. كنتَ دائماً ضده». شاهدت ليزيل وجه هانز جونيور، وركّزت على شفتيه الرقيقتين، والخط الصخري لأسنانه السفلية. «أمر يدعو للشفقة حقاً – كيف يمكن لرجل أن يقف مكتوف اليدين، من دون أن يفعل شيئاً، بينما أمة بأكملها تُنظّف قمامة الماضي وتُحيل نفسها إلى أمة عظيمة».

ترودي وماما جلستا بصمت، وخوف، كما هو حال ليزيل. غرق المطبخ برائحة حساء البازلاء، وشيء ما يحترق، وبعبق المواجهة.

انتظروا جميعاً ما سيقوله الاثنان بعد ذلك.

الابن هو من كسر الصمت، وقال كلمتين اثنتين فحسب.

«أيها الجبان!». قالها في وجه بابا، وغادر المطبخ والمنزل على الفور.

متجاهلاً عبثية ما سيقوم به، مشى بابا إلى مدخل المنزل وصرخ وراء ابنه. «جبان؟ أنا جبان؟!» ثم هرع إلى البوابة وركض خلفه بتضرّع. سارعت ماما إلى النافذة، أزالت العلم لتتمكن من فتحها. روزا وترودي وليزيل وقفن معاً، ليشاهدن الأب وهو يلحق بابنه، ويمسك به، متوسلاً إياه أن يتوقف. كنّ غير قادرات على سماع أي شيء، ولكن الطريقة التي حرّر فيها هانز جونيور نفسه بدت قاسية بما فيه الكفاية. مشهد بابا وهو يراقب ابنه يسير مبتعداً، صدع قلبيهما من بعيد.

«هانزي!» صرخت ماما أخيراً. جفلت ترودي وليزيل من صوتها. «عُد إلى هنا!» إلا أن الصبي قد اختفى.

نعم، ذهب الصبي. كنتُ أتمنى أن أطمئنكم بالقول بأن الأمور سارت على ما يرام بالنسبة إلى هانز جونيور، إلا ذلك سيُجانب الحقيقة.

سارقة الكتب

عندما اختفى من شارع هيمل في ذلك اليوم باسم الفوهرر، اندفع إلى أحداث قصّة أخرى، تؤدي كل خطوة منها بشكل مأساوي إلى روسيا.

إلى ستالينغراد.

بضع حقائق عن ستالينغراد

1. **في صباح كل يوم من عام 1942 وبداية عام 1943، كانت السماء في تلك المدينة بيضاء بلون أغطية السرير.**
2. **طوال تلك الأيام، حملت الأرواح عبر السماء، حيث تغطّى بياض السماء بلون الدم، إلى أن امتلأت وانتفخت وكادت تُطبق على الأرض.**
3. **في المساء، تُصبح السماء نظيفة وتبيضُّ من جديد، استعداداً للفجر المقبل.**
4. **حدث ذلك عندما كان القتال يدور خلال النهار فحسب، فما بالكم بما حدث بعد ذلك!**

مع ذهاب ابنه، وقف هانز هوبرمان لبضع لحظات، حيث بدا الشارع أمامه كبيراً جداً.

عندما عاد إلى المنزل، ثبّتت ماما نظرها عليه، من دون أن تنبس ببنت شفة. لم تقرّعه على الإطلاق، وهذا كما تعلمون أمرٌ غير طبيعي أبداً. ربما شعرت بأنه جُرح بما فيه الكفاية، بعد أن وصفه ابنه الوحيد بأنه جبان.

بقيّ، لفترة من الوقت، صامتاً على الطاولة بعد تناول الطعام. هل كان جباناً حقاً، كما قال ابنه بوحشية كبيرة؟ بالتأكيد، اعتبر نفسه كذلك خلال الحرب العالمية الأولى. وعزا نجاته لهذا الجُبن. ولكن في المحصّلة، هل هناك جبن في الاعتراف بالخوف؟ هل هناك جبن في السعادة بالنجاة؟

سارقة الكتب

تزاحمت أفكاره على الطاولة وهو يحدق فيها.

«بابا؟» سألت ليزيل، لكنه لم ينظر إليها. «عن ماذا كان يتحدث؟ ماذا عنى عندما قال...».

«لا شيء»، أجاب بابا. تكلّم، بهدوء موجّهاً حديثه إلى الطاولة. «لا شيء. تناسي كل ما قاله يا ليزيل». استغرقه الأمر دقيقة واحدة ليعاود الكلام مرّة أخرى. «ألا ينبغي أن تتجهزي؟» نظر إليها هذه المرة. «أليس لديكِ حريق لتشاهديه؟».

«أجل يا بابا».

ذهبت سارقة الكتب وبدّلت ملابسها لترتدي الزي الرسمي الخاص بشبيبة هتلر، وبعد نصف ساعة، غادر الجميع مشياً باتجاه مقر رابطة الفتيات الألمانيات. من هناك، سيتم نقل الأطفال إلى ساحة البلدة ضمن مجموعات.

وستُلقى الخطب والكلمات.

وستُشعل النار.

وسيُسرق كتاب.

عَرَق ألماني نقي 100٪

اصطف الناس في الشوارع، وتدفّقت مجموعات شبيبة هتلر نحو قاعة البلدية والميدان. في عدد قليل جداً من المناسبات نسيت ليزيل أمر والدتها، وأية مشكلة أخرى تعاني منها. وفي هذه المناسبة بالذات، ازداد فخرها بنفسها عندما صفّق الناس لعبورها هي وبقية الفتيات. لوّح بعض الأطفال لذويهم، ولكن لفترة وجيزة فقط - فالتعليمات واضحة وصارمة بأن يسيروا مباشرة وألا ينظروا أو يلوحوا للحشد.

عندما وصلت مجموعة رودي إلى الساحة وأُمِرت بالتوقف، ظهر تخلخل في الصف، والسبب هو تومي مولر. فمع توقّف بقية الفوج، اندفع تومي مباشرة واصطدم بالصبي الواقف أمامه.

«أيها الأحمق!» صاح الصبي، قبل أن يستدير ليعرف مّن اصطدم به.

«أنا آسف»، قال تومي، ويداه ممدودتان باعتذار. ووجهه ينتفض كعادته. «لم أسمع الأمر». كانت لحظة قصيرة فحسب، إلا أنها تُقدّم لمحة عن المشاكل القادمة، التي ستقع لكلٍ من تومي ورودي.

في نهاية المسيرة، سُمح لشِعَب شبيبة هتلر بالتفرّق. فمن المستحيل

سارقة الكتب

تقريباً السيطرة على كل هؤلاء الأطفال واليافعين بينما تشتعل النار أمام عيونهم ويزداد حماسهم. صرخوا معاً تحية «يحيا هتلر»، وأصبحوا بعدها أحراراً في التجول. بحثت ليزيل عن رودي، ولكن بمجرد أن تناثر حشد الأطفال، علقت بين فوضى الزي الرسمي والكلمات العالية النبرة. حيث نادى الأطفال على أطفال آخرين.

وبحلول الساعة الرابعة والنصف، أصبح الهواء بارداً إلى حد كبير.

وبدأ الناس يتمازحون حول مدى حاجتهم إلى التدفئة. «إن حرق هذه القمامة هو أفضل استخدام لها على أي حال».

استُخدمت العربات لنقل كل شيء وإلقائه في وسط ساحة البلدة. رُميت الكتب والأوراق وغيرها من المواد إلى الكومة الكبيرة. ومن بعيد، بدا المشهد وكأنه لبركان، أو شيء مخيف وغريب هبط بأعجوبة في وسط البلدة، ويحتاج إلى إخماد بسرعة.

ملأت الرائحة أنوف الحشود، التي وقفت على مسافة ملائمة من النار. وبالمجمل، زاد عددهم على ألف شخص منتشرين حول النار، وعلى درجات قاعة البلدية، وعلى أسطح المنازل التي تحيط بالميدان.

عندما حاولت ليزيل أن تشق طريقها عبر الحشود، دفعها صوت فرقعة إلى الاعتقاد بأن النار قد بدأت تشتعل بالفعل. إلا أنه لم يكن سوى ضجيج البشر الذين لا يكفّون عن الحركة، والتدفّق، والحماس.

لقد بدأوا من دوني!

على الرغم من أن شيئاً داخلها أصرّ بأن ما يحدث يُعتبر جريمة - فكتبها الثلاثة هي أغلى ما تملك - إلا أنها اضُطرت إلى رؤية ذلك الشيء المحترق. لم تستطع تفادي الأمر. وأنا شخصياً أعتقد بأن البشر يحبون مشاهدة القليل من الدمار، حيث يبدؤون ببعض القلاع الرملية، والبيوت

الورقية، ويتطور الأمر بعد ذلك إلى ما هو أخطر، كما تكمن مهاراتهم العظيمة في قدرتهم على التصعيد. مكتبة أحمد

اطمأنت إلى أنها لم تفوّت إشعال النار، عندما وجدت فجوة بين الجدران البشرية، وأصبحت قادرة على رؤية الكومة المذنبة، وهي لم تُمسّ بعد. كانت مرمية ومتناثرة، وذكّرتها بطفل منبوذ، بعيد، وحائر، عاجز عن تغيير مصيره، ولم يُحبّه أحد في حياته. تخيلّته خفيض الرأس، ويديه في جيبيه. منبوذاً إلى الأبد.

آمين.

استمرت القطع في التراكم هنا وهناك، بينما بحثت ليزيل عن رودي. أين هو ذلك الخنزير؟

عندما رفعت نظرها، رأت السماء مزدحمة. حيث انتصب أفق من الأعلام والزي النازي، الذي أعاق مجال رؤيتها في كل مرّة حاولت فيها أن ترى ما يجري من حولها. كل جهودها بدت بلا طائل. الحشد هو نفسه دائماً، وما من مجال لتفاديه، أو المرور من خلاله أو الوصول إلى مهادنة معه. على المرء أن يتنفس معه، ويُغني أغانيه، وينتظر اشتعال النار.

وقف رجل على المنصة وطلب من الجميع الصمت والاستماع. زيه الرسمي ذو لون بنيّ لامع، وبدت آثار الكيّ جلية عليه.

بدأ الصمت يسود.

أولى كلماته كانت: «يحيا هتلر!».

وأول عمل له: أداء تحية الفوهرر.

«اليوم هو يوم جميل»، تابع كلمته. «ليس فقط لأنه عيد ميلاد زعيمنا العظيم، بل لأننا أيضاً أوقفنا أعداءنا مرّة أخرى. ومنعنا وصولهم إلى عقولنا...».

سارقة الكتب

ما تزال ليزيل تحاول شق طريقها عبر الحشود.

«لقد وضعنا نهاية لهذا المرض الذي انتشر في ألمانيا على مدى السنوات العشرين الماضية، إن لم يكن أكثر!». أصبح يؤدي الآن ما يسمى بـ«شرايَراي»، أي عرض بارع لمهارات الصراخ العاطفي - محذراً الحشد لضرورة أن يكونوا حذرين، ويقظين، وأن يبحثوا عن - ويعملوا على تدمير- مكائد الَشر التي تُخطط للتأثير في الوطن الأم بطرق بائسة. «عديمو الأخلاق! أولئك الشيوعيون!» ها قد عادت تلك الكلمة للظهور مرّة أخرى. تلك الكلمة القديمة، والغرف المظلمة، والرجال ذوي البزّات الرسمية. «دي يودن - أولئك اليهود!».

بحلول منتصف الخطاب، استسلمت ليزيل. استولت عليها كلمة «الشيوعيون»، واجتاحها الخطاب النازي من كلا الجانبين. فقدت نفسها في مكان ما بين الأقدام الألمانية من حولها. شلالات من الكلمات، وفتاة تحاول أن تجد طريقها عبر المياه. فكّرت في الكلمة مرّة أخرى.

«الشيوعيون».

حتى الآن، قيل للفتيات في رابطة الفتيات الألمانيات، أن الألمان هم العِرق المتفوق، من دون الإشارة إلى أي عرق آخر على وجه الخصوص. بالطبع، يعرف الجميع بأمر اليهود، فهم الجُناة الرئيسون المسؤولون عن خرق والإساءة إلى المثالية الألمانية. ومع ذلك، لم تتم الإشارة إلى الشيوعيين ولا مرّة واحدة قبل اليوم، على الرغم من أن أصحاب هذه العقيدة السياسية هم في الحقيقة عُرضة للملاحقة والعقاب أيضاً.

عليها أن تخرج من ذلك الحشد.

أمامها رأس ذو شعر أشقر مفروق وضفائر استقرت هادئة على الكتفين أمامها. تذكّرت ليزيل تلك الغرف المظلمة التي مرّت بها في ماضيها، وأمها التي تُجيب على الأسئلة المتلاحقة.

سارقة الكتب

أدركت كل شيء بوضوح الآن:

أمها الجائعة، ووالدها المفقود، إنهم شيوعيون.

وشقيقها الميت.

«والآن، نقول وداعاً، لهذه القمامة، وهذا السم».

قبل ثوانٍ من أن تشرع ليزيل ميمنجر بالتحرّك مع غثيانها، للخروج من الحشد، ترجّل المخلوق ذو الزي الرسمي البني اللامع من على المنصة. أخذ شعلة نار من مساعده وأضاء الكومة التي أحالته قزماً ببهائها. «هايل هتلر! – يحيا هتلر!».

الجمهور: «يحيا هتلر!».

مشت مجموعة رجال من جهة المنصة وأحاطت بالكومة، وزادت في إشعالها، الأمر الذي أعجب الجميع. حيث تصاعدت الأصوات، وانسكبت رائحة العَرق الألماني النقي من كل حدب وصوب، حتى أصبح الجميع يسبحون فيها. العرق. والكلمات. والابتسامة. دعونا لا ننسى موضوع الابتسامة.

انهالت بعد ذلك العديد من الكلمات والتعليقات، وكذلك تحية أخرى من طراز «يحيا هتلر». وأنا أتساءل في الحقيقة عمّا إذا فقد أي شخص عينه، أو أُصيب بجروح في يده أو معصمه، في خضم كل تلك التحيات. فكل ما تتطلبه مثل هذه الحوادث هو أن يقف المرء ووجهه مُدار نحو الجهة الخطأ في الوقت الخطأ، أو أن يقف على مقربة جداً من الشخص الذي أمامه أو خلفه. ربما أُصيب البعض بالفعل بجروح أو إصابات. وأنا شخصياً أستطيع أن أؤكد لكم بأن أحداً لم يمت جرّاء ذلك، أو على الأقل، ليس جسدياً. بالطبع، لا يمكنني أن أنسى ضغط العمل الذي عانيتُ منه بموت أربعين مليون شخص خلال مجمل الحرب، ولكن هذه مسألة ثانوية الآن، واسمحوا لي الآن أن أعود إلى مسألة النار.

سارقة الكتب

لوّحت النيران البرتقالية أمام الحشد مع ذوبان الورق والمطبوعات بداخلها، حيث تمزّقت الكلمات المحترقة بعيداً عن جملها.

على الجانب الآخر، وبعيداً عن الحرارة الضبابية، كان في الإمكان رؤية القمصان البنية والصلبان المعقوفة وهي تتشابك معاً، فما طغى على المشهد في ذلك اليوم هو الزي الرسمي، والأعلام، والرموز.

الطائرات في السماء قامت بالتفافات وتحويمات، منجذبة بطريقة أو بأخرى نحو الوهج - واقتربت إلى حد كبير من الحرارة، أم من البشر؟ بالتأكيد لم تكن الحرارة تعني شيئاً.

وفي خضم محاولتها للهروب، وجدها صوت ما.

«ليزيل!».

وجد الصوت طريقه عبر الحشود. لم يكن صوت رودي، إلا أنها شعرت بأنه مألوف.

استدارت، وتبعت الصوت، ووجدت الوجه المرتبط به. أوه، لا. إنه لودفيغ شميكل. إلا أنه خالف هذه المرة توقعاتها، فلم يحاول أن يسخر، أو يلقي مزحة، أو يجري أية محادثة على الإطلاق. كل ما فعله هو سحبها نحوه والإشارة إلى كاحله، الذي سُحق في خضم الاحتفال العظيم، وبدأ ينزف دماً داكناً ومشؤوماً عبر جوربه. ارتسم على وجهه، وتحت خصل شعره الأشقر المتشابك، تعبير عاجز. بدا كحيوان - بالتأكيد لم يكن كغزال - جريح تحت الأضواء، لم يأخذ شكل حيوان محدد، بل مجرد حيوان، جُرح في خضم مشاجرة بين أبناء جنسه، وهو على شفا أن يُداس من قبلهم.

بطريقة ما، ساعدته على النهوض وسحبته نحو الخلف. إلى حيث الهواء النقي.

سارقة الكتب

ترنّحا وارتميا على درج الكنيسة، حيث بعض المساحة الكافية ليجلسا هناك ويستريحان، شعر كلاهما بالارتياح.

بدأ شميكل بالتنفس، وتمكّن أخيراً من الكلام.

جلس، وأمسك بكاحله، ونظر إلى وجه ليزيل ميمنجر. «شكراً»، قالها وهو ينظر إلى فمها بدلاً من عينيها. أصبح قادراً على التنفس بشكل أكبر، «و...»، شاهدا كلاهما ضروباً من التصرفات الغريبة للأطفال، وبعض العنف الذي عادة ما يمارسه الأطفال في الفناء المدرسي. «أنا أشعر بالأسف – من أجل – أنتِ تعلمين».

سمعت ليزيل تلك الكلمة تتردّد مرّة أخرى على المنصة من بعيد.

الشيوعيون.

إلا أنها اختارت التركيز على كلام لودفيغ شميكل. «أنا أيضاً».

ركزا كلاهما على استعادة أنفاسهما في ذلك الوقت، فلا يوجد ما يمكن القيام به أو قوله، فقد انتهى عملهما معاً.

اتّسعت بقعة الدم على كاحل لودفيغ شميكل.

وكلمة واحدة ألقت بثقلها على الفتاة.

إلى يسارهما، لاقى اللهب، وحرق الكتب، التهليل والتصفيق الذي يلاقيه الأبطال.

سارقة الكتب

أبواب السرقة

بقيت جالسة على درج الكنيسة، بانتظار بابا، وهي تُشاهد الرماد التائه وجثث الكتب المكدّسة. بدا كل شيء حزيناً، وظهرت الجمرات البرتقالية والحمراء مثل حلويات مرمية، واختفت معظم الحشود. رأت السيدة ديلر وهي تغادر (راضية جداً)، وبيفيكوس (ذو الشعر الأبيض، والزي النازي، والحذاء المهترئ نفسه، وصفير الانتصار). لم يعد هناك شيء الآن سوى أعمال التنظيف، وقريباً، لن يذكر أحد أن كل ذلك قد حدث.

فقط الرائحة هي ما ستعبق في المكان لفترة أطول قليلاً.

- ماذا تفعلين؟

وصل هانز هوبرمان إلى درج الكنيسة.

- مرحباً، بابا.

- كان من المفترض أن تكوني أمام قاعة البلدية.

- آسفة يا بابا.

جلس بجانبها، وأمسك بين يديه خصلة من شعر ليزيل، ليدُسّها برفق خلف أذنها. «ليزيل، ما المشكلة؟».

سارقة الكتب

لم تقل شيئاً لفترة من الوقت. فقد انشغلت بإجراء حساباتها، على الرغم من معرفتها المسبقة بالنتيجة.

معادلة صغيرة

كلمة الشيوعي + نار كبيرة + مجموعة من الرسائل الميتة + معاناة والدتها + وفاة شقيقها =

الفوهرر

الفوهرر.

كان هو المقصود بـ «هم» الذين تحدث عنهم هانز وروزا هوبرمان في ذلك المساء عندما كتبتَ رسالة إلى والدتها لأول مرّة. عرفت ذلك، ولكن توجّب عليها أن تسأل لتتأكّد.

«هل والدتي شيوعية؟». طرحت سؤالها وهي تحدق أمامها مباشرة. «كانوا يستجوبونها ويسألونها أسئلة كثيرة دائماً، قبل أن آتي إلى هنا».

عدّل هانز من جلسته قليلاً، مفكّراً في بداية كذبة.

– ليست لديّ أدنى فكرة – لم ألتق بها يوماً.

– هل أخذها الفوهرر بعيداً؟

فاجأهما السؤال كلاهما على حد سواء، وأُجبر بابا على الوقوف. نظر إلى الرجال بالزي البني، وهم منكبون على كومة الرماد بمعاولهم. أمكنه أن يسمع صوت ضرب معاولهم. بدأت كذبة أخرى تنمو في فمه، إلا أنه وجد صعوبة في نطقها. قال: «أعتقد أنه فعل ذلك، نعم».

«كنتُ أعرف ذلك». خرجت الكلمات مندفعة من فمها، وشعرت ليزيل بفوران غضبها، وهو ينتفض بقوة في داخلها.

سارقة الكتب

«أنا أكره الفوهرر!»، قالت. «أنا أكرهه!».

وهانز هوبرمان؟

ماذا فعل؟ ماذا قال؟

هل انحنى واحتضن ابنته بالتبني، كما أراد أن يفعل؟ هل أخبرها أنه آسف لما حدث لها، ولأمها، ولما حدث لشقيقها؟

ليس بالضبط.

أغمض عينيه بشدة، ثم فتحهما. وصفع ليزيل ميمنجر على وجهها مباشرة.

«لا تقولي ذلك أبداً!». قال بصوت هادئ وحاد.

تداعت الفتاة وارتخت على الدرج، وجلس هو بجانبها، ووجهه بين يديه. سيكون من السهل القول بأنه مجرد رجل طويل القامة يجلس محطماً على درج الكنيسة، إلا أنه لم يكن كذلك. في ذلك الوقت، لم يكن لدى ليزيل أدنى فكرة عن حقيقة أن والدها بالتبني، هانز هوبرمان، عالق في إحدى أخطر المعضلات التي يمكن لمواطن ألماني مواجهتها. ليس ذلك فحسب، بل أنه يواجهها منذ ما يقرب من العام تقريباً.

«بابا؟».

تجلّت المفاجأة في صوتها، وأصبحت بلا حول ولا قوة. أرادت أن تركض ولكنها لم تستطع. رفع بابا يديه عن وجهه الآن، بعد أن استجمع العزيمة للكلام مرّة أخرى.

«يمكنكِ قول ذلك في منزلنا»، قال وهو ينظر بجدية إلى خد ليزيل. «لكن إياكِ أن تقولي ذلك أبداً في الشارع، أو في المدرسة، أو في رابطة الفتيات الألمانيات، أبداً!» وقف أمامها ورفعها بيديه، وهزها. «هل تسمعينني؟».

سارقة الكتب

بعينيها المفتوحتين على أشدهما، أومأت ليزيل موافقة بإذعان.

كان ذلك في الواقع، بروفة تحضيرية لمحاضرة مستقبلية ستُعطى عندما تصل أسوأ مخاوف هانز هوبرمان إلى شارع هيمل، في وقت لاحق من ذلك العام، خلال الساعات الأولى من صباح شهر تشرين الثاني / نوفمبر.

«جيد». أعادها إلى الأرض. «الآن، دعينا نحاول...» نزل بابا الدرجات، ووقف منتصباً، مادّاً ذراعه، بزاوية خمس وأربعين درجة. «يحيا هتلر!».

وقفت ليزيل ورفعت يدها أيضاً. وببؤس مطلق، كرّرت ما قاله هانز: «يحيا هتلر!». بدا مشهداً غريباً تماماً - فتاة تبلغ من العمر أحد عشر عاماً، تحاول كبت بكائها على درج الكنيسة وهي تحيي الفوهرر، بينما أصوات ضرب المعاول مسموعة في الخلفية المظلمة وراء بابا.

«هل ما زلنا أصدقاء؟».

بعد مرور نحو ربع ساعة، مدّ بابا يده لمصالحتها، مُقدّماً عربون تجديد الصداقة على شكل ورق سجائر وتبغ حصل عليه مؤخراً.

ودون أن تنبس بكلمة، مدّت ليزيل يدها على نحو حزين وشرعت في لفّها.

لفترة وجيزة، جلسا هناك معاً.

والدخان يتسلّق الهواء فوق كتف بابا.

بعد مرور عشر دقائق أخرى، ستُشرع أبواب السرقة كصدع ضئيل فحسب، وستوسّعها ليزيل ميمنجر أكثر قليلاً، لتمرّ عبرها.

سؤالان يطرحان نفسهما هنا

هل ستوصد الأبواب خلفها؟
أم ستَسمح لها بالخروج مجدداً؟

سارقة الكتب

كما ستكتشف ليزيل لاحقاً، فإن السارق الجيد يتطلب أشياء كثيرة. ومنها القدرة على التسلل. وقوة الأعصاب. والسرعة.

والأهم من هذا كله، هو مطلب نهائي واحد.

الحظ.

دعوني أتجاوز الدقائق العشر التي أمضياها على الدرج.

فالأبواب أصبحت مشرّعة الآن.

كتاب النار

جاء الظلام على أجزاء متفرقة، ومع نهاية السيجارة، بدأت ليزيل وهانز هوبرمان السير نحو المنزل. للخروج من الميدان، كان عليهما أن يمرّا بجانب موقع الكومة المشتعلة، ومن ثم عبر طريق جانبي صغير يؤدي إلى شارع ميونخ. إلا أنهما في الحقيقة لم يصلا إلى ذلك البعد.

في أثناء سيرهما، نادى نجار في منتصف العمر، يُدعى ولفغانغ إيديل، على هانز. إنه النجار الذي بنى المنصات التي اعتلاها كبار النازيون خلال إشعال النار، وهو الآن منشغل بعملية تفكيكها. «هانز هوبرمان؟» كانت سوالفه طويلة تصل إلى فمه، وصوته مظلم. «هانزي!».

«أهلاً، ولفغانغ»، أجاب هانز وعرّف عن الفتاة، التي ألقت تحية يحيا هتلر بحماس. «أحسنتِ، يا ليزيل».

في الدقائق القليلة الأولى، بقيت ليزيل بعيدة لمسافة خمسة أمتار عن المحادثة. وصلتها بعض الكلمات لكنها لم تولِ الكثير من الاهتمام إليها.

- هل يُتاح لكَ الكثير من العمل؟

- لا، أصبحت الأمور أكثر ضيقاً الآن. أنت تعرف كيف هي الأمور، وخاصة عندما لا تكون عضواً.

سارقة الكتب

- قلتَ لي آخرة مرّة بأنك ستنضم يا هانزي.

- حاولتُ، ولكنني ارتكبت خطأ - وأعتقد أنهم ما زالوا يدرسون الموضوع.

جالت ليزيل نحو كومة الرماد، التي بدت مثل المغناطيس، مثل مسخ يصعب على العين مقاومة النظر إليه، على غرار طريق النجوم الصفراء.

لم تستطع أن تُشيح بنظرها بعيداً. ولكونها وحيدة هناك، فلم تُضطر إلى التقيد بالانضباط الصارم والحفاظ على مسافة آمنة. جذبتها الكومة نحوها وبدأت باستكشافها بفضول.

فوقها، كانت السماء تستكمل روتينها الاعتيادي وتنحدر نحو الظلمة، ولكن في الأفق البعيد، على كتف الجبل، بقي هناك أثر خفيف للضوء.

«انتبهي أيتها الفتاة»، قال لها زيّ رسمي، وهو يجرف بعض الرماد على عربة.

بالقرب من قاعة البلدية، وقفت تحت الضوء بعض الظلال المثرثرة، المبتهجة على الأرجح بنجاح النار. من حيث وقفت ليزيل، بدت أحاديثهم أصواتاً فقط، من دون كلمات واضحة على الإطلاق.

لبضع دقائق، شاهدت الرجال وهم يجرفون الكومة، ويحاولون بداية جعلها أصغر على الجانبين، للسماح لها بالانهيار. تحركوا ذهاباً وإياباً نحو شاحنة قريبة، وبعد ثلاث رحلات من هذا النوع، عندما انخفضت الكومة بالقرب من القاع، انزلق من داخل الرماد جزء صغير من مادة حيّة.

المادة

نصف علم أحمر، وملصقان اثنان يُعلنان عن شاعر يهودي،
وثلاثة كتب، ولافتة خشبية تحمل كتابة باللغة العبرية.

سارقة الكتب

ربما هي الرطوبة، أو ربما لم تشتعل النار طويلاً بما فيه الكفاية للوصول إلى العمق. أياً كان السبب، فقد ظهرت من بين الرماد مجموعة ناجين من موت محقّق.

«ثلاثة كتب». نطقت ليزيل بهدوء وهي تنظر إلى ظهور الرجال.

«هيا»، قال أحدهم. «أسرعوا، أنا أتضوّر جوعاً». وتحركوا نحو الشاحنة.

برزت مجموعة الكتب بشكل أكثر وضوحاً الآن.

وتحرّكت ليزيل نحوها. الحرارة ما تزال قوية بما فيه الكفاية لتدفئتها وهي تقف عند سفح كومة الرماد. عندما مدّت يدها، لسعتها النار، لكنها حرصت في المحاولة الثانية، أن تكون سريعة بما فيه الكفاية. أمسكت بأقرب الكتب، وهو ذي لون أزرق، محروق عند الحافات، إلا أنه غير متضرر بخلاف ذلك.

بدا الغلاف وكأنه منسوج مع مئات الألياف المشدودة والمثبتة بإحكام. طُبعت أحرف حمراء على تلك الألياف. والكلمة الوحيدة التي تسنّى لليزيل قراءتها هي «مبالاة». لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لقراءة البقية، فقد برزت هناك مشكلة جديدة.

الدخان.

تطاير الدخان من الغلاف عندما حملت الكتاب وأسرعت به بعيداً. شعرت بثقل رأسها، وبدأت أعصابها المشدودة تُثبت هشاشتها مع كل خطوة. قطعت أربع عشرة خطوة قبل أن تسمع الصوت الذي انطلق خلفها.

«مهلاً!».

عندها شارفت على الركض إلى الخلف وقذف الكتاب إلى الكومة، لكنها لم تستطع. الحركة الوحيدة التي استطاعت القيام بها هي الاستدارة نحو مصدر الصوت.

«هناك بعض الأشياء التي لم تحترق هنا!» كان ذلك أحد رجال التنظيف. لم يكن يخاطب الفتاة، بل بالأحرى الحشد الواقف أمام قاعة البلدية.

- حسناً إذاً، احرقها مرّة أخرى! وشاهدها وهي تحترق!

- أعتقد أنها رطبة!

- يا يسوع، ومريم، ويوسف! هل يتعيّن عليّ القيام بكل شيء بنفسي؟

سُمع صوت خطوات تمر. كان ذلك رئيس البلدية وهو يرتدي معطفاً أسود فوق زيه النازي. لم يلحظ الفتاة التي وقفت متيبّسة تماماً على بُعد مسافة قصيرة.

لحظة تأمل

انتصب تمثال سارقة الكتب في الساحة...
ألا توافقونني الرأي بأنه من النادر جداً أن يبرز تمثال قبل أن يُصبح صاحبه مشهوراً؟

غرقت في متعة كونها متجاهلَة تماماً!

أصبح الكتاب بارداً الآن بما يكفي لتضعه تحت زيها الرسمي. في البداية، شعرت به لطيفاً ودافئاً. لكن عندما استأنفت المشي، بدأ يسخن مرّة أخرى.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى بابا وولفغانغ إيديل، بدأ الكتاب يحرقها. بدا وكأنه يشتعل.

نظر الرجلان إليها.

وابتسمت.

على الفور، عندما تقلّصت الابتسامة على شفتيها، شعرت بشيء آخر. أو بشكل أدق، بشخص آخر. لم يكن لديها أدنى شك في أنها تحت المراقبة. غمرها ذلك الشعور، وتأكّدت عندما تجرّأت على مواجهة الظلال الواقفة أمام قاعة البلدية. فبالقرب من مجموعة الظلال، وقف ظل آخر على بعد بضعة أمتار. وعندها أدركت ليزيل أمرين.

بضع قطع صغيرة من الإدراك

1. هوية الظل.
2. حقيقة أنه قد رأى كل شيء.

وضع الظل يديه في جيب معطفه.

بدا ذا شعر منفوش.

ولو كان له وجه، فسيحمل تعبيراً يدل على الحزن.

«اللعنة»، قالت ليزيل، بصوت عال بما يكفي لتسمعه هي فقط.

- هل أنتِ جاهزة للذهاب؟

خلال اللحظات السابقة على الخطر الداهم، ودّع بابا ولفغانغ إيديل واستعدّ لمرافقة ليزيل إلى المنزل.

- جاهزة.

بدآ بمغادرة مكان الجريمة، وأصبح الكِتاب يحرقها حقاً الآن. لقد أطبق كتاب (اللامبالاة) على قفصها الصدري.

عندما مرّا من جانب ظلال قاعة البلدية، جفلت سارقة الكتب.

«ما المشكلة؟» سألها بابا.

«لا شيء».

ومع ذلك، فهناك كم لا بأس به من المشاكل:

- الدخان يتصاعد من ياقة ليزيل.
- تشكّلت قلادة من العرق حول حلقها.
- شرع الكتاب في افتراسها من تحت قميصها.

سارقة الكتب

الفصل الثالث

(كفاحي)

بطولة:

الطريق إلى المنزل - المرأة المكسورة - المُكافح - لاعب الخفة - سِمات الصيف - صاحبة المتجر الآرية - الشخير - المحتالون - والانتقام على شكل حلوى مختلطة

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الطريق إلى المنزل

(كفاحي).

الكتاب الذي كتبه الفوهرر بنفسه.

وهو الكتاب الثالث المهم جداً الذي وصل إلى ليزيل ميمنجر، إلا أنها لم تسرقه هذه المرة. بل ظهر في بيتها في شارع هيمل، ربما بعد ساعة من معاودة ليزيل النوم بعد كابوسها الإلزامي.

قد يقول البعض إنها معجزة حقيقية أن تملك هذا الكتاب.

بدأت رحلته نحو منزلها في ليلة النار.

كانا في منتصف الطريق تقريباً إلى شارع هيمل عندما لم تعد ليزيل قادرة على التحمّل أكثر من ذلك. انحنت وأزالت الكتاب الذي ينضح بالدخان، وسمحت له بالقفز بخجل من يد إلى يد.

عندما برد بما فيه الكفاية، راقباه للحظة منتظرين أن تتوضّح الكلمات.

قال بابا: «ماذا تسمين هذا بحق الجحيم؟».

مدّ يده وأمسك بكتاب (اللامبالاة). لم يطلب أي تفسير. فمن الواضح أن الفتاة قد سرقته من كومة النار. كان الكتاب حاراً ورطباً، بلون أزرق

وأحمر – بدا محرجاً. فتحه هانز هوبرمان عند الصفحتين الثامنة والثلاثين، والتاسعة والثلاثين. «كتاب آخر؟» سأل بابا.

فركت ليزيل أضلاعها لتخفيف ألم الحروق.

نعم.

كتاب آخر.

«يبدو»، اقترح بابا، «أنني لن أضطر إلى مبادلة المزيد من السجائر، أليس كذلك؟ ليس وأنتِ تسرقين هذه الأشياء بأسرع مما يمكنني شراؤها».

ليزيل، من جهتها، لم تتكلم. ربما أدركت حينها أن الجرم يتكلّم عن نفسه على أفضل وجه. ولا يمكن دحضه.

تأمّل بابا العنوان، وربما تساءل عن نوع التهديد الذي حمله هذا الكتاب لقلوب وعقول الشعب الألماني. أعاده إليها. شيء ما حصل.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!». سقطت كل كلمة وشكّلت الكلمة التالية.

لم يعد في إمكان المجرمة أن تقاوم. «ما الأمر يا بابا؟ ماذا هناك؟».

«بالطبع».

مثل معظم البشر الذين يكونون في قبضة الوحي، وقف هانز هوبرمان في حالة خدر. أمامه خياران، إما أن يصيح بالكلمات التالية، أو يحتفظ بها لنفسه. وفي كلتا الحالتين، من المرجّح أن أول شيء سيقوله هو تكرار لآخر شيء قاله قبل لحظات فقط.

«بالطبع».

هذه المرّة، بدا صوته مثل قبضة، تضرب بقوة على الطاولة.

شهد الرجل شيئاً. راقبه بسرعة، من البداية إلى النهاية، مثل سباق، إلا أنه مرتفع جداً وبعيد جداً لتراه ليزيل. توسّلت إليه: «هيا، بابا، ما الأمر؟»

خافت أن يخبر ماما عن الكتاب. وكما يفعل البشر، تكون مخاوفهم محور تفكيرهم. «هل ستخبرها؟».

- عفواً، ماذا؟

- أنت تعلم. هل ستخبر ماما بما حدث؟

ما زال هانز هوبرمان يُشاهد ذلك المشهد المرتفع والبعيد.

- ماذا سأخبرها؟

رفعت ليزل الكتاب. «عن هذا». لوّحت به في الهواء، كما لو أنها تلوّح ببندقية.

بدا بابا مرتبكاً. «لماذا سأخبرها؟».

كانت تكره الأسئلة التي من هذا القبيل، فقد أجبرتها على الاعتراف بحقيقة قبيحة، والكشف عن طبيعتها اللصوصية القذرة. «لأنني سرقتُ مرّة أخرى».

جلس بابا في وضع القرفصاء، ثم نهض ووضع يده على رأسها. تلمّس شعرها بأصابعه القوية الطويلة وقال: «بالطبع لا يا ليزيل. أنتِ بأمان».

«إذاً، ماذا ستفعل؟» هذا هو السؤال الحقيقي.

ما هو العمل الرائع الذي كان هانز هوبرمان على وشك أن يبتكره من الهواء الرقيق لشارع ميونخ؟

قبل أن أقول لكم ما حدث، أعتقد أنه ينبغي لنا أولاً أن نلقي نظرة على ما كان يراه قبل أن يتّخذ قراره.

بابا ذو الرؤى السريعة

رأى أولاً كتب الفتاة: (دليل حفّار القبور)، (الكلب فاوست)، (المنارة)، والآن، (اللامبالاة).

رأى بعد ذلك المطبخ وهانز جونيور، وهو ينظر إلى تلك الكتب الموضوعة على الطاولة حيث تقرأ الفتاة عادة. ويقول:

«ما نوع التفاهة التي تقرؤها هذه الفتاة؟»

يُكرّر ابنه السؤال ثلاث مرات، وبعد ذلك يُقدم اقتراحه لقراءة مواد أكثر ملاءمة.

«اسمعي يا ليزيل». وضع بابا ذراعه حولها وسار معها. «هذا سرنا. سنقرأ هذا الكتاب في الليل، أو في القبو، تماماً مثل الكتب الأخرى - ولكن عليكِ أن تعديني بشيء واحد».

- لكَ ذلك يا بابا.

كان الليل هادئاً وساكناً، بدا أن كل ما حولهما يستمع لما يقولانه. «إذا طلبتُ منكِ يوماً ما أن تحافظي على سر أبوحه لكِ، فسوف تفعلين ذلك».

- أعدكَ.

- جيد. هيا الآن. إذا تأخرنا أكثر من ذلك فستقتلنا ماما، ونحن لا نريد ذلك، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى ذلك، لن تقومي بسرقة أي كتاب بعد اليوم، حسناً؟

ابتسمت ليزيل.

ما لم تعرفه حتى وقت لاحق، هو أنه خلال الأيام القليلة القادمة، تمكّن والدها بالتبني من مقايضة بعض السجائر بكتاب آخر، إلا أنه لم يكن من أجلها هذه المرة. حيث طرق على باب مكتب الحزب النازي في مولشينغ، واغتنم الفرصة ليسأل عن طلب عضويته. وبمجرّد أن نوقش هذا الموضوع، شرع في منحهم آخر ما يملكه من نقود، ودزينة من السجائر، ليحصل في المقابل على نسخة مستعملة من كتاب (كفاحي).

«أتمنى لك قراءة سعيدة»، قال أحد أعضاء الحزب.

«شكراً لكَ»، أومأ هانز.

عندما وصل إلى الشارع، كان ما يزال قادراً على سماع الرجال في الداخل. سمع أحد الأصوات بشكل خاص وهو يقول: «لن تتم الموافقة عليه أبداً، حتى لو اشترى مئة نسخة من (كفاحي)». ووافقه الجميع على ما قاله.

حمل هانز الكتاب في يده اليمنى، وهو يُفكّر في نفقات البريد، وبقائه بلا سجائر، وابنته بالتبني التي ألهمته هذه الفكرة الرائعة.

«شكراً لكِ»، كرّر بصوت مسموع في أثناء مرور أحد المارة الذي سأله عما قاله.

بدماثته المعتادة، أجاب هانز: «لا شيء، أيها الرجل الطيب، لا شيء على الإطلاق. يحيا هتلر!»، وسار في شارع ميونخ حاملاً صفحات كتاب الفوهرر.

شهدت تلك اللحظة مجموعة من المشاعر المختلطة، ففكرة هانز هوبرمان لم تنبع من ليزيل فحسب، بل من ابنه كذلك. هل خشي بالفعل ألا يراه مرّة أخرى؟ من ناحية أخرى، استمتع أيضاً بنشوة فكرة لم يجرؤ حتى الآن على تصوّر تعقيداتها، وأخطارها، وسخافاتها الشريرة. في الوقت الراهن، بدت الفكرة كافية، وغير قابلة للتدمير. حسناً، إلا أن مسألة تحويلها إلى أمر واقع، فهي أمر مختلف تماماً. ومع ذلك، دعونا نسمح له بأن يستمتع بها في الوقت الراهن.

سنعطيه مهلة سبعة أشهر.

ثم نأتي لنحاسبه.

ويالهول الطريقة التي سنأتي بها!

مكتبة رئيس البلدية

من المؤكّد أن شيئاً عظيماً كان قادماً نحو منزل رقم 33 في شارع هيمل. وهو أمر تجهله ليزيل حالياً، فالفتاة مشغولة بشي أكثر أهمية الآن:

لقد سرقت كتاباً.

وشاهدها شخص ما وهي تفعل ذلك.

وهنا، تفاعلت سارقة الكتب مع هذه الحقيقة، بشكل مناسب.

حيث شعرت في كل دقيقة، وكل ساعة، بالقلق، أو لنصف ذلك بدقة أكبر، بالارتياب. فعادة ما يؤدي النشاط الإجرامي إلى مثل هذه النتيجة، ولا سيما بالنسبة إلى الأطفال. فهم يتصوّرون تشكيلة واسعة من لحظات إلقاء القبض عليهم. وتشمل بعض الأمثلة على ذلك: أناس يواجهونهم بحقيقتهم في الأزقة، أو إدراك المدرسين فجأة لكل خطيئة ارتكبها الطفل في أي وقت مضى، أو الاعتقاد بحضور الشرطة إلى باب المنزل في كل مرّة تتحرك فيها ورقة شجر أو تُغلق بوابة بعيدة.

بالنسبة إلى ليزيل، أصبح الارتياب عقاباً في حد ذاته، وكذلك الخوف من تسليم بعض الغسيل إلى منزل رئيس البلدية. يمكنكم أن تتخيلوا أنه

عندما حان وقت تسليم الغسيل، تجاهلت ليزيل المنزل القابع في شارع جرانده، حيث سلّمت الغسيل إلى هيلينا شميدت - المصابة بالتهاب المفاصل - واستلمت بعضه من منزل فاينغارتنر - المُحبّين للقطط - إلا أنها تجاهلت تماماً المنزل الذي يملكه البورجِرمايستر هاينز هيرمان وزوجته إلسا.

ترجمة سريعة أخرى

بورجرمايستر = رئيس البلدية

في المرة الأولى، قالت إنها نسيت ببساطة المرور على ذلك المكان - وهو عذر واهٍ، وخصوصاً أن المنزل يقع على تلة تطل على البلدة، وما من مجال لنسيانه على الإطلاق. عندما عادت خالية الوفاض مرّة أخرى، كذبت وقالت إنها مرّت على المنزل، ولكنها لم تجد أحداً هناك.

«تقولين لا يوجد أحد في المنزل؟». بدت ماما مشككة. وشكوكها حملتها على استخدام الملعقة الخشبية. لوّحت بها أمام وجه ليزيل وقالت: «اذهبي إلى هناك الآن، وإن لم تعودي مع الغسيل، فلا تكلّفي نفسك عناء العودة إلى هنا على الإطلاق».

«حقاً؟».

كان ذلك رد رودي عندما أخبرته ليزيل بما قالته ماما. «هل تريدين أن نهرب معاً؟».

«سنموت جوعاً».

«أنا أموت جوعاً على أي حال!». ضحكا.

«لا»، قالت. «عليّ أن أقوم بذلك».

telegram @ktabpdf

سارقة الكتب

سارا في البلدة كما يفعلان عادة عندما يرافقها رودي خلال أدائها لعملها. حاول دائماً أن يكون رجلاً نبيلاً وأن يحمل الكيس، لكن ليزيل رفضت ذلك رفضاً قاطعاً في كل مرّة. فهي تخشى من عقاب ماما، ولا يمكنها إلا أن تعتمد على نفسها لحمل الكيس بشكل صحيح. فمن المرجّح أن يفسد أي شخص آخر محتوياته، أو يلويه، أو يحمله بطريقة خاطئة؛ والأمر لا يستحق المجازفة. أيضاً، من المرجح أنها إذا سمحت لرودي بحمل الكيس عنها، فسوف يتوقع قبلة مقابل خدماته، وهذا لم يكن خياراً ملائماً بالنسبة إليها. علاوة على ذلك، فهي معتادة على عبئه، ولذلك فقد تعلّمت أن تُنقّله من كتف إلى كتف، لتريح كل جانب بعد قطع مئة خطوة أو نحو ذلك.

مشت ليزيل إلى اليسار، ورودي إلى اليمين. وتولّى رودي الحديث معظم الوقت، حيث حدّثها عن مباراة كرة القدم الأخيرة في شارع هيمل، والعمل في متجر والده، وأي شيء آخر خطر في باله. حاولت ليزيل الاستماع إليه، إلا أن محاولتها باءت بالفشل. فكل ما سمعته هو الخوف والرهبة التي تصم أذنيها بصوتها الذي يزداد علواً كلما اقتربا من شارع جرانده.

«ماذا تفعلين؟ أليس هذا هو المنزل؟».

أومأت ليزيل بأنه على حق، حيث حاولت تجاوز منزل رئيس البلدية لكسب بعض الوقت.

«حسناً»، حثّها الصبي على الإسراع. بدأت بلدة مولشينغ تغرق في الظلام. والبرد يتسلق من قاع الأرض. «تحرّكي أيتها الخنزيرة»، وبقي واقفاً عند البوابة.

بعد أن عبرت الممر، انتصبت أمامها ثماني درجات تؤدي إلى المدخل

سارقة الكتب

الرئيس للمنزل، وبدا لها الباب الضخم مثل وحش يقبع في انتظارها. عبست ليزيل أمام المدقة النحاسية.

«ماذا تنتظرين؟». نادى رودي.

التفتت ليزيل وواجهت الشارع. هل هناك أية طريقة لتتهرب من هذا الموقف؟ هل هناك قصّة أخرى، أو لنقل الحقيقة، كذبة أخرى أغفلتها؟

«ليس أمامنا اليوم بطوله»، عاد صوت رودي البعيد ليصدح مرّة أخرى. «ماذا تنتظرين بحق الجحيم؟».

«هلّا أغلقت فمك، شتاينر!». وصل إليه صراخها كالهمس.

- ماذا قلتِ؟

- قلتُ لك اخرس، أيها الخنزير الغبي!

وبقولها ذلك، عادة مرّة أخرى لمواجهة الباب، رفعت المدقة النحاسية وطرقتها ثلاث مرات، ببطء. اقتربت قدمان من الجانب الآخر.

في البداية، لم تنظر إلى المرأة، بل ركّزت على كيس الغسيل في يدها. تأمّلت رباط الكيس وهي تمرره إليها. أُعطيت المال، ومن ثم، لا شيء. زوجة رئيس البلدية، التي لم تنطق بكلمة، وقفت ببساطة برداء الحمام، وشعرها الناعم المنفوش مربوط إلى الخلف على شكل ذيل قصير. بدا وكأن نسمة قوية تدور في الداخل. شيء يُشبه النَفس المتصوّر لجثة باردة. لم تقل المرأة أي شيء، وعندما وجدت ليزيل الشجاعة لرفع رأسها والنظر إليها، ارتدت المرأة تعبيراً لا ينم عن اللوم أو العتاب، بل عن بُعد مطلق. للحظة، نظرت المرأة إلى الصبي وراء ليزيل، ومن ثم هزّت رأسها مودّعة، وتراجعت إلى الخلف لتغلق الباب.

لفترة طويلة، بقيت ليزيل، تواجه الباب الخشبي أمامها.

«حسناً، أيتها الخنزيرة!» لم يأتيه أي رد. «ليزيل!» استدارت ليزيل.

سارقة الكتب

بحذر.

نزلت الدرجات القليلة الأولى وهي ما تزال تنظر إلى الباب وتُفكّر.

لعل المرأة لم ترها وهي تسرق الكتاب. فالظلام كان قد بدأ يحل حينها. أو ربما هي إحدى تلك اللحظات التي يبدو فيها يبدو أن الشخص ينظر إليكم مباشرة، بينما هو ينظر في الواقع إلى شيء آخر أو يفكّر ببساطة في أي شيء آخر. أياً كان الجواب، فلم تحاول ليزيل التفكير في أي تحليل آخر.

شعرت بأنها قد نجت بفعلتها، وهذا كافٍ.

استدارت ونزلت بقية الدرج بشكل طبيعي، وتجاوزت الدرجات الثلاث الأخيرة بقفزة واحدة.

«هيا لنذهب، أيها الخنزير!». وسمحت لنفسها بالاستمتاع بضحكة.

الارتياب الذي أصاب الطفلة ذات الأعوام الأحد عشر قوي حقاً، إلا أن الراحة التي شعرت بها أعطتها سعادة غامرة تفوق الوصف.

شيء بسيط لتثبيط السعادة الغامرة

لم تنجُ بفعلتها.
فزوجة رئيس البلدية قد رأت كل ما فعلته.
إلا أنها تنتظر فقط حلول اللحظة المناسبة.

مرّت بضعة أسابيع، تخلّلها لعب كرة القدم في شارع هيمل.

وقراءة كتاب (اللامبالاة) بين الساعة الثانية والثالثة من فجر كل يوم – بعد الكابوس، أو خلال فترة ما بعد الظهر، في القبو.

زيارة حميدة أخرى لمنزل رئيس البلدية.

سارقة الكتب

كل شيء بدا جميلاً.

إلى أن قامت ليزيل بزيارتها التالية من دون أن يصحبها رودي، حيث فرضت الفرصة نفسها.

أتت ليزيل لاستلام الغسيل. فتحت زوجة رئيس البلدية الباب، إلا أنها لم تكن تحمل الكيس كما تفعل عادة. بدلاً من ذلك، تحرّكت جانباً وأشارت بيدها ومعصمها النحيل للفتاة لكي تدخل.

«أنا هنا لآخذ الغسيل فقط». جفّ دم ليزيل في عروقها. وبدأت تشعر بأنها على وشك الانهيار، كما لو أنها ستتحطّم إلى شظايا على الدرجات.

عندها، نطقت المرأة بكلمتها الأولى. مدّت يدها بأصابعها الباردة، وقالت: «فارِته - انتظري». عندما تأكّدت من أن الفتاة قد وقفت لتنتظر، استدارت ومشت على عجل نحو الداخل.

«الحمد لله»، تنفّست ليزيل الصعداء. «لقد دخلت لتجلب الغسيل».

إلا أن ما عادت به المرأة لم يكن يُشبه الغسيل في شيء.

عندما عادت، وقفت بثبات مقلقل، حاملة معها كومة من الكتب التي شكّلت برجاً أمام بطنها - بدءاً من صرتها وحتى صدرها. بدت هشة جداً في ذلك المدخل الهائل. رموشها طويلة وفاتحة، ووجهها يحمل مسحة طفيفة من تعبير يكاد يقول: تعالي وانظري.

إنها عازمة على تعذيبي، فكرّت ليزيل. سوف تأخذني إلى الداخل، وتُشعل الموقد وترميني فيه، مع الكتب. أو سوف تحبسني في القبو من دون أي طعام.

على الرغم من ذلك، ولسبب ما - يعود على الأرجح لإغراء الكتب - وجدت نفسها تدخل إلى المنزل. صرير حذائها على ألواح الأرضية الخشبية جعلها تنكمش خجلاً، وعندما ضربت بقعة معينة من الأرضية،

سارقة الكتب

أصدر الخشب أنيناً كاد يجعلها تتوقف. لم يوقف الصوت زوجة رئيس البلدية، بل اكتفت بالنظر إلى الفتاة وراءها وواصلت سيرها، إلى أن وصلت إلى باب ذي لون كستنائي. بدا الآن أن وجهها يطرح سؤالاً.

هل أنتِ مستعدة؟

حرّكت ليزيل رأسها قليلاً، كما لو أنها قد تستطيع رؤية ما وراء الباب الذي أمامها. وكانت هذه إشارة واضحة لرغبتها بمعرفة ما يكمن وراءه.

«يا يسوع، ومريم...».

نطقت ذلك بصوت عال، وتوزّعت الكلمات في غرفة مليئة بالهواء البارد والكتب. كتب منتشرة في كل مكان! كل جدار مسلّح برفوف مزدحمة ومكتظة. بالكاد يظهر طلاء الحائط. هناك، رأت جميع الأنماط والأحجام المختلفة للحروف المطبوعة على الكتب السوداء، والحمراء، والرمادية، والملونة بكل لون. إنه أجمل مشهد رأته ليزيل ميمنجر في حياتها.

ابتسمت مندهشة لوجود مثل هذه الغرفة!

حتى عندما حاولت مسح الابتسامة عن وجهها وإخفائها بساعدها، أدركت على الفور عبثية محاولتها. شعرت بعيني المرأة وهي تنظر إلى جسدها، وعندما بادلتها النظر، استقرّت العينان على وجه ليزيل.

ساد صمت يزيد على ما توقعته ممكناً، حيث امتد مثل مطاط يتوق لينكسر. وبالفعل كسرته الفتاة.

«هل يمكنني...؟».

وقفت الكلمتان بين أمتار وأمتار من الأرضية الخشبية الشاغرة، وبدت الكتب على بعد أميال.

أومأت المرأة.

نعم، يمكنكِ.

ببطء، تقلّصت الغرفة، حتى استطاعت سارقة الكتب أن تلمس الرفوف على بعد بضع خطوات صغيرة. مرّرت ظاهر يدها على طول الرف الأول، واستمعت إلى صوت أظافرها وهي تنزلق عبر كل كتاب. بدا كصوت أداة موسيقية أو قدمين راكضتين. استخدمت كلتا يديها، وهي تسابقهما على رف تلو الآخر. ضحكت، وانتشر صوت ضحكتها عالياً في حلقها. عندما توقفت في نهاية المطاف ووقفت في منتصف الغرفة، أمضت عدة دقائق تنقّل نظرها بين الرفوف وأصابعها المرّة تلو الأخرى.

كم عدد الكتب التي لمستها؟

كم عدد الكتب التي شعرت بها؟

تقدّمت وأعادت الكرّة مرّة أخرى، ببطء أكثر هذه المرة، مستخدمة راحة يدها لتشعر بكل كتاب. بدا كل شيء مثل السحر، مثل الجَمال، وخاصة تحت الخطوط البرّاقة للضوء المنهمر من الثريا. في عدّة مناسبات، شارفت على سحب كتاب من مكانه، إلا أنها لم تجرؤ على إزعاج هذه الكتب، فقد كانت مثالية جداً.

على يسارها، رأت المرأة مرّة أخرى، واقفة إلى جانب مكتب كبير، وهي ما تزال تحمل البرج الصغير من الكتب. وقفت بسعادة، وبدت ابتسامة وكأنها تَشل شفتيها.

«هل تريدين مني أن...؟».

لم تُنهِ ليزيل سؤالها، حيث باشرت فعلياً بتنفيذ ما كانت ستسألها عنه. مشت وأخذت الكتب بلطف من يد المرأة. ثم وضعتها في مكان الأجزاء المفقودة من الرف الموجود بجانب النافذة المفتوحة قليلاً. شعرت بتسلل البرد الخارجي إلى الداخل.

للحظة، فكّرت في إغلاقه، إلا أنها عاودت التفكير أكثر، وقررت بأن هذا لم يكن منزلها، وليس هناك مجال للعبث. بدلاً من ذلك، عادت إلى السيدة الواقفة خلفها، ولاحظت يديها الهزيلتين، وابتسامتها التي أخذت الآن مظهر الكدمة على وجهها.

ماذا الآن؟

فرض الارتباك نفسه على الغرفة، وألقت ليزيل نظرة وداعية عابرة على جدران الكتب. وتلمّست الكلمات طريقها إلى فمها، إلا أنها خرجت باندفاع. «عليّ أن أذهب».

استغرق الأمر ثلاث محاولات للمغادرة.

انتظرت في الردهة لبضع دقائق، لكن المرأة لم تأتِ خلفها، وعندما عادت ليزيل إلى باب الغرفة، رأتها جالسة إلى المكتب، تُحدق في أحد الكتب. اختارت ليزيل عدم إزعاجها. لذلك عادت إلى الردهة لتحمل كيس الغسيل وتذهب في طريقها.

هذه المرة، تجنبت أن تخطو فوق البقعة الحسّاسة في الألواح الأرضية، ومشت على طول الممر الطويل، مفضّلة السير إلى جانب الجدار الأيسر. عندما أغلقت الباب خلفها، أصدرت المدقة النحاسية صوتها القوي. اندفعت ليزيل خارجة وكيس الغسيل إلى جانبها، «هيا انطلقي»، قالت لنفسها.

في البداية، مشت نحو المنزل في حالة من الذهول، فقد رافقتها على طول الطريق تلك التجربة السريالية الخاصة بغرفة الكتب والمرأة المنكسرة المذهولة. استطاعت رؤية المشهد يتكرّر أمامها مثل مسرحية. ولعل ذلك مشابه للطريقة التي رأى فيها بابا الوحي الخاص بكتاب (كفاحي). أينما نظرت، رأت ليزيل زوجة رئيس البلدية والكتب مكدسة فوق ذراعيها.

في الزوايا، أمكنها أن تسمع صوت يديها وهي تمر على الكتب، وتزعج الرفوف. رأت النافذة المفتوحة، والثريا ذات الضوء الجميل، ورأت نفسها تُغادر، من دون أن تنطق بكلمة شكر واحدة.

سرعان ما تحوّلت حالتها الحالمة إلى حالة من الضيق والكره الذاتي. وبدأت بتوبيخ نفسها.

«لم تقولي شيئاً». هزّت رأسها بقوة، في خضم الخطى المسرعة. «لم تقولي وداعاً. ولا شكراً. ولا أية عبارة من قبيل: هذا أجمل مشهد رأيته في حياتي. لا شيء!» إنها بالتأكيد سارقة كتب، ولكن هذا لا يعني أنها بلا تهذيب على الإطلاق، وبأنه ليس بمقدورها أن تكون دمثة ولبقة.

سارت لبضع دقائق، وهي تُصارع ترددها.

بوصولها إلى شارع ميونخ، وصلت معاناتها إلى نهايتها. فعندما قرأت لافتة «الخيّاط شتاينر»، اتّخذت قرارها واستدارت لتركض إلى حيث أتت.

هذه المرة، لم يكن هناك تردد.

طرقت الباب، وأرسلت المدقة النحاسية صداها المدوي عبر الخشب.

اللعنة!

لم تكن زوجة رئيس البلدية، بل رئيس البلدية نفسه، هو من وقف أمامها. وفي خضم استعجالها، لم تنتبه ليزيل للسيارة المركونة أمام البيت في الشارع.

بشاربه وبزّته السوداء قال الرجل: «هل يمكنني مساعدتكِ؟».

لم تستطع ليزيل أن تقول شيئاً، ليس بعد. انطوت على نفسها، مقطوعة النفس. لحسن الحظ، وصلت المرأة في اللحظة التي تمالكت فيها نفسها جزئياً على الأقل. وقفت إلسا هيرمان وراء زوجها، إلى الجانب قليلاً.

«لقد نسيتُ»، قالت ليزيل. رفعت الكيس وخاطبت زوجة رئيس البلدية.

وعلى الرغم من بذلها جهداً للتنفس، نطقت بتلك الكلمات ووجهتها نحو المرأة عبر الفجوة الضيقة بين رئيس البلدية وإطار الباب. بذلت جهداً عظيماً في التنفس لدرجة أنها نطقت عدداً قليلاً فقط من الكلمات في كل مرّة. « لقد نسيتُ... أعني، أنا فقط، أردتُ،... أن أشكركِ».

ارتسمت كدمة جديدة على وجه زوجة رئيس البلدية. تقدّمت للوقوف بجانب زوجها، أومأت بضعف شديد، انتظرت قليلاً، ثم أغلقت الباب.

استغرق الأمر دقيقة أو نحو ذلك لتغادر ليزيل.

ابتسمت وهي تنزل الدرج.

سارقة الكتب

دخول المُكافح

لنُغيّر المشهد الآن.

مرّت الأمور بسلاسة كبيرة حتى الآن، ألا تظنون ذلك يا أصدقائي؟ ما رأيكم في أن ننسى بلدة مولشينغ لدقيقة أو اثنتين؟

فذلك سيُفيدنا قليلاً.

كما أنه مهم للقصّة.

سوف نسافر قليلاً، إلى غرفة تخزين سرية، وسنرى ما سنراه.

جولة سياحية في بحر المعاناة

إلى يساركم، أو ربما إلى يمينكم، أو أمامكم مباشرة، تجدون غرفة سوداء صغيرة.

يجلس فيها رجل يهودي.

إنه في حالة يُرثى له، وهو يتضوّر جوعاً.

إنه خائف.

من فضلكم – حاولوا ألا تُشيحوا بنظركم بعيداً.

سارقة الكتب

على بعد بضع مئات من الأمتار إلى الشمال الغربي، في قلب مدينة شتوتغارت، بعيداً عن سارقي الكتب وزوجات رؤساء البلديات، وشارع هيمل، جلس رجل في الظلام. فقد قرروا أن ذلك هو أفضل مكان له، حيث من الصعب العثور على يهودي في الظلام.

جلس على حقيبة سفره، منتظراً. كم يوماً مرّ حتى الآن؟

لم يتناول سوى الطعم الكريه لنَفَسه الجائع على امتداد فترة بدا وكأنها أسابيع، من دون أن يحدث شيء حتى الآن. في بعض الأحيان، سمع أصواتاً بعيدة من حوله، وتاق إلى أن يُحطّموا الباب، ويجرّوه إلى الخارج نحو الضوء الذي لا يُطاق. في الوقت الراهن، لم يكن بيده حيلة إلا الجلوس على حقيبته التي أحالها إلى أريكة، ووضع يديه تحت ذقنه، بينما يحرق مرفقاه فخذيه.

حاول أن ينام، إلا أنه لم يحصل سوى على النوم الذي يزيد من جوعه، وعلى القلق المتولّد من حالة نصف الاستيقاظ، وعذاب الأرضية القاسية.

تجاهل الحكة التي تخز قدميه.

لا تحكّ الأخمصين.

ولا تتحرك كثيراً.

فقط اترك كل شيء كما هو، بأي ثمن. قد يحين الوقت قريباً للذهاب، حيث سينفجر الضوء مثل بندقية أمام العينين. قد يحين الوقت للذهاب. قد يحين الوقت، لذلك استيقظ. استيقظ الآن، اللعنة!

استيقظ.

فُتح الباب وأُغلق، وتكوّمت هيئة فوقه. امتدت يد إلى برودة ملابسه والجسد المتوتر تحتها. وجاء صوت وراءها.

«ماكس»، همس الصوت. «ماكس، استيقظ».

عيناه لم تفعلا أي شيء يدلّ عادة على الصدمة. لم تتحركا بسرعة، أو تدورا في محجريهما، لا شيء. تلك الحركات تحدث عندما تستيقظ من كابوس، لا عندما تستيقظ إلى كابوس. فتح عينيه ببطء، محاولاً التأقلم مع الانتقال من حالة الظلام إلى الضوء الخافت. جسده هو الذي تفاعل... اهتز، ورفع ذراعاً لتقبض على الهواء.

حاول الصوت أن يهدئه الآن. «أنا آسف لأن الموضوع يستغرق وقتاً طويلاً. أعتقد أن هناك أشخاصاً يراقبونني. والرجل الذي جهّز بطاقة الهوية قد استغرق وقتاً أطول مما توقعت، ولكن...» توقف الصوت لبرهة. «إنها لكَ الآن. ليست ذات نوعية عالية ولكن دعنا نأمل بأن تكون جيدة بما فيه الكفاية لتوصلك إلى هناك». جلس ماكس، ولوح بيده أمام الحقيبة، وفي يده الأخرى وُضع شيء ثقيل ومسطح. «هيا - تحرّك الآن». أطاع ماكس الصوت، ووقف وهو يحك جسده. أمكنه الشعور بحركة عظامه. «البطاقة في هذا». كان كتاباً. «عليك أن تضع الخريطة هنا أيضاً، وعليها الاتجاهات. وهناك مفتاح ملصق على الغلاف الداخلي»، فتح الحقيبة بهدوء قدر الإمكان، ودس الكتاب بداخلها بحرص وكأنه قنبلة. «سأعود في غضون أيام قليلة».

ترك كيساً صغيراً مليئاً بالخبز، والدهن، وثلاث جزرات صغيرات. وبجانبه زجاجة من الماء. لم تكن هناك أي اعتذارات.

«هذا أفضل ما يمكنني القيام به». فُتح الباب، وأُغلق.

وحيداً مجدداً.

ما أدركه على الفور حينها كان الصوت.

بدا كل شيء صاخباً للغاية وهو وحيد في الظلام. وفي كل مرّة تحرّك فيها، سمع ضجيجاً، كما لو أنه يرتدي بزة ورقية.

سارقة الكتب

الطعام.

قسّم ماكس الخبز إلى ثلاثة أجزاء. وضع اثنين منها جانباً، وغمس نفسه في تلك القطعة التي حملها بيده، وهو يمضغ ويبتلع، مجبراً لقيماته على عبور الممر الجاف لحلقه. كان الدهن بارداً وصلباً، وهو يشق طريقه إلى معدته، ويعلق للحظات في بعض الأحيان، قبل أن يجد طريقه إلى وجهته المنشودة.

ومن ثم حان دور الجزر.

مرّة أخرى، وضع اثنتين جانباً والتهم الثالثة. الضوضاء تصم الآذان. بالتأكيد، يمكن للفوهرر نفسه أن يسمع صوت سحق الجزر في فمه، والذي كسّر أسنانه مع كل قضمة. عندما شرب الماء، كان متأكداً من أنه يبتلع أسنانه المكسورة مع الجزر. ونصح نفسه: في المرة القادمة، اشرب أولاً.

لاحقاً، عندما غادرته الأصداء، ووجد الشجاعة للتحقّق من أسنانه باستخدام أصابعه، وجد كل أسنانه في مكانها، سليمة. حاول أن يبتسم، لكنه لم يستطع، فكل ما ارتسم في ذهنه هو محاولة خانعة، وفم مليء بالأسنان المكسورة.

تحسّس أسنانه لساعات.

فتح الحقيبة وحمل الكتاب.

لم يتمكّن من قراءة العنوان في الظلام، كما أن إشعال عود ثقاب الآن سيكون مغامرةً كبيرةً لا ضرورة لها.

عندما تكلّم، جاء صوته كالهمس.

«من فضلكَ»، قال. «أرجوك!».

سارقة الكتب

كان يتحدث إلى رجل لم يلتق به قط. ومن بين بعض التفاصيل المهمة الأخرى، عرف اسم الرجل. هانز هوبرمان. تحدّث إليه مجدداً، إلى الغريب البعيد.

وتوسّل إليه.

«أرجوك!».

سِماتُ الصيف

ها قد عرفتم الآن، ما كان قادماً إلى شارع هيمل بحلول نهاية عام 1940.

أنا أعرف.

وأنتم تعرفون.

إلا أن ليزيل ميمنجر، لم تعرف شيئاً على الإطلاق.

بالنسبة إلى سارقة الكتب، كان صيف ذلك العام بسيطاً. فقد تألّف من أربعة عناصر أو سمات رئيسة. وقد تساءلت في بعض الأحيان، عن أيّ منها هو الأقوى.

والمرشحون هم...

1. التقدّم في قراءة كتاب (اللامبالاة)، في كل ليلة.

2. القراءة على أرضية مكتبة رئيس البلدية.

3. لعب كرة القدم في شارع هيمل.

4. اغتنام فرصة سرقة جديدة ومختلفة.

قرّرت ليزيل أن كتاب (اللامبالاة) هو كتاب ممتاز. في كل ليلة، بعد أن تُهدئ نفسها من جراء كابوسها اليومي، تشعر بسعادة عامرة لأنها مستيقظة، وقادرة على القراءة. «بضع صفحات فقط؟» يسألها بابا، وتومئ ليزيل موافقة. وفي بعض الأحيان، يُكملان فصلاً كاملاً في القبو خلال فترة ما بعد الظهر.

تجلّت بوضوح المشكلة التي رأتها السُلطات في هذا الكتاب. فبطل الرواية يهودي يظهر بمظهر إيجابي، وهذا أمر لا يغتفر. حيث يسرد الكتاب قصّة رجل غني تعِب من ترك الحياة تمرّ أمامه – ويصف وصوله إلى حالة من اللامبالاة بالمشاكل والملذات التي يحظى بها الإنسان خلال حياته على الأرض.

خلال الجزء الأول من الصيف في مولشينغ، أحرزت ليزيل وبابا تقدّماً في قراءة الكتاب. حيث سافر بطل القصّة إلى أمستردام لإنجاز بعض الأعمال التجارية، والثلج يرتجف خارجاً. أحبّت الفتاة ذلك الوصف – ارتجاف الثلج. «هذا هو بالضبط ما يفعله عندما يتساقط». قالت لهانز هوبرمان، وهما يجلسان معاً على السرير، وبابا نصف نائم، والفتاة مستيقظة ومتيقظة.

في بعض الأحيان، استمتعت بمشاهدة بابا – الذي تعرف عنه أكثر وأقل مما يُدرك أيٌّ منهما – وهو يغفو. وكثيراً ما سمعته يتناقش مع ماما حول افتقاره للعمل، أو خيبة أملهما بعد ذهاب هانز لرؤية ابنهما، واكتشافه أن الشاب قد ترك مسكنه، وهو على الأرجح في طريقه إلى الحرب.

«نم جيداً يا بابا»، قالت الفتاة، وانسلّت من السرير لإطفاء الضوء.

السمة التالية، كما ذكرتُ، هي مكتبة رئيس البلدية.

ولتجسيد هذه الحالة بالذات، يُمكننا أن ننظر إلى يوم بارد في أواخر شهر حزيران / يونيو.

مكتبة أحمد

سارقة الكتب

رودي شديد السخط.

مَن تظن ليزيل ميمنجر نفسها لتقول له إنها تُريد أخذ الغسيل وحدها اليوم؟ أيخجلها السير معه في الشوارع؟

«توقّف عن الشكوى، أيها الخنزير!»، وبّخته. «أنا فقط لا أريدك أن تفوّت المباراة».

نظر إليها من فوق كتفه. «حسناً، إذا صغتِ الأمر بهذه الطريقة...». قال ذلك وهو يضحك ضحكة مكتومة، «... فيمكنكِ الذهاب مع غسيلكِ». ركض ولم يهدر أي وقت في الانضمام إلى الفريق. عندما وصلت ليزيل إلى أعلى شارع هيمل، نظرت إلى الوراء في الوقت المناسب لتراه يقف أمام أقربَ الأهداف المؤقتة.

كان يلوح.

«خنزير»، ضحكت، وبينما هي ترفع يدها، أدركت تماماً أنه يدعوها «خنزيرة» في الوقت نفسه.

وأعتقد أن هذا أقرب شيء إلى الحب بالنسبة إلى أطفال في سن الحادية عشرة.

بدأت تركض نحو شارع جرانده وبيت رئيس البلدية.

بالتأكيد، كدّها العرق، وواجهت صعوبة في التقاط أنفاسها.

إلا أن كنزاً كان في انتظارها، حيث يمكنها التمتّع بالكتب والقراءة.

سمحت زوجة رئيس البلدية للفتاة بالدخول إلى المكتبة للمرة الرابعة، بينما اكتفت هي بالجلوس إلى المكتب ومشاهدة الكتب. خلال الزيارة الثانية، سمحت لليزيل بأن تسحب واحداً من الكتب لتتصفحه. بعد ذلك، لحق كتاب بالآخر، إلى أن تكّوم ما يقرب من نصف دزينة تحت إبطها، أو في الكومة التي يزداد علّوها على اليد الأخرى.

في هذه المرّة، وقفت ليزيل في محيط الغرفة الباردة، وزمجر بطنها. لم يتولّد أي رد فعلٍ عن المرأة المحطمة والصامتة، التي ارتدت رداء الحمام هذه المرة أيضاً. وعلى الرغم من أنها نظرت إلى الفتاة عدّة مرات، إلا أن لم تُطل النظر إليها، فهي عادة ما تولي اهتماماً أكبر لما هو بجانبها، لشيء مفقود. النافذة مشرّعة على مصراعيها، والهواء البارد يندفع من خلالها، مع بعض الرياح العاتية.

جلست ليزيل على الأرض، والكتب متناثرة حولها.

وغادرت بعد أربعين دقيقة. بعد أن أعادت كل كتاب إلى مكانه.

«وداعاً، سيدة هيرمان». وجاء كلامها دائماً بمثابة صدمة. «شكراً لكِ». بعدها، دفعت المرأة أجور الغسيل لليزيل التي همّت بالمغادرة، وهي تشعر بأن كل حركة تقوم بها هذه المرأة هي محسوبة بدقة.

ركضت سارقة الكتب نحو منزلها.

مع حلول منتصف الصيف، أصبحت الغرفة المليئة بالكتب أكثر دفئاً، ولم تعد الأرضية مؤلمة إلى حد كبير. كما اعتادت ليزيل، في كل يوم تأتي فيه لتسليم أو استلام الغسيل، على الجلوس محاطة بكومة صغيرة من الكتب، لتقرأ بضع فقرات من كلٍ منها، محاولة حفظ الكلمات التي لا تعرفها، لكي تسأل بابا عنها عندما تعود إلى المنزل. في وقت لاحق، عندما كتبت ليزيل المراهقة عن تلك الكتب، أشارت إلى أنها لم تعد تذكر العناوين: ولا عنواناً واحداً. ربما لو سرقت تلك الكتب، لتذكّرتها على نحو أفضل.

ما تذكّرته هو أن إحدى الكتب المصورة حمل اسماً مكتوباً بطريقة خرقاء على الغلاف الداخلي:

اسم صبي

يوهان هيرمان

عضّت ليزيل على شفتها، لكنها لم تستطع أن تقاوم فضولها لفترة أطول. من موقعها على الأرض، استدارت ونظرت إلى المرأة في ثوب الحمام وطرحت سؤالها. «من هو يوهان هيرمان؟».

نظرت المرأة إلى مكان ما بجوار رُكبتي الفتاة.

اعتذرت ليزيل. «أنا آسفة. لم ينبغي لي أن أسأل عن مثل هذه الأشياء...» وتركت الجملة لتموت لوحدها.

لم يتغير وجه المرأة، إلا أنها تمكّنت بطريقة ما من الكلام. «إنه لا شيء الآن في هذا العالم»، وأوضحت. «كان...».

ملفات الذاكرة

أوه نعم، تذكّرتُه.

يومها بدت السماء قاتمة وعميقة، مثل الرمال المتحركة. والصبي عالق في سلك شائك، كتاج عملاق من الشوك. ففككّتُ وثاقه وحملتُه معي. عالياً فوق الأرض، وغرقنا معاً، حتى ركبتينا.

كان ذلك مجرّد يوم آخر من عام 1918.

«بصرف النظر عن كل شيء آخر»، قالت، «لقد تجمّد حتى الموت». للحظة لعبت بيديها، وقالت ذلك مرّة أخرى. «تجمّد حتى الموت، أنا متأكّدة من ذلك».

زوجة رئيس البلدية هي امرأة واحدة فقط من فرقة حول العالم لأشخاص مثلها. لقد رأيتموها من قبل، أنا متأكّد. في قصصكم، في قصائدكم، وفي الشاشات التي تعشقون مشاهدتها. إنهم في كل مكان، فلما لا يكونون هنا في هذه القصّة؟ لمَ لا يكونون على تلّة خلابة في بلدة ألمانية صغيرة؟ إنه مكان جيد للمعاناة، مثل أي مكان آخر.

سارقة الكتب

المقصد أن إلسا هيرمان قرّرت أن تجعل من معاناتها انتصارها. وعندما رفضت المعاناة تركها، استسلمت لها، واعتنقتها.

كان في إمكانها أن تُطلق النار على نفسها، أو تؤذي نفسها، أو تنغمس في أشكال أخرى من التشويه الذاتي، لكنها اختارت ما كانت تشعر على الأرجح أنه الخيار الأضعف - أن تتحمل على الأقل عدم الراحة التي يتسبّب بها الطقس. أدركت ليزيل أنها كانت تُصلي لأن تكون أيام الصيف باردة ورطبة، وقد عاشت في المكان المناسب لتحقيق ذلك.

عندما غادرت ليزيل المنزل في ذلك اليوم، قالت شيئاً بارتباك كبير. حيث كافحت ضد كلمتين عملاقتين، حملتهما على كتفها وأسقطتهما كزوج أخرق أمام إلسا هيرمان. سقطا عندما وهنت الفتاة تحت ثقلهما ولم يعد بإمكانها حملهما لفترة أطول. ألقتهما بحجمهما الكبير وصوتهما العالي، وطبيعتهما الخرقاء.

كلمتان عملاقتان

أنا آسفة

مرّة أخرى، نظرت زوجة رئيس البلدية إلى الفضاء المجاور لها، وكان وجهها صفحة فارغة.

«على ماذا؟» سألت، ولكن الوقت قد انقضى عندما قالت ذلك. فقد أصبحت الفتاة خارج الغرفة بالفعل، وعلى وشك الوصول إلى الباب الأمامي. عندما سمعت سؤال إلسا، توقّفت، لكنها اختارت عدم العودة، وفضّلت أن تجد طريقها بلا ضجة إلى خارج المنزل. تأمّلت بلدة مولشينغ للحظات قبل أن تختفي فيها، وقد رافقها لفترة من الوقت شعور عميق بالشفقة على زوجة رئيس البلدية.

سارقة الكتب

في أحيان كثيرة تساءلت ليزيل عمّا إذا كان ينبغي عليها ببساطة أن تترك المرأة وشأنها. لكن إلسا هيرمان امرأة مثيرة جداً للاهتمام، كما أن جاذبية الكتب قوية حقاً. فيما مضى، كانت الكلماتُ سبباً في جعل ليزيل تبدو إنسانة عديمة الفائدة أمام صف بأكمله، ولكن الآن، وهي تجلس على الأرض، برفقة زوجة رئيس البلدية المتسمّرة إلى مكتب زوجها، فإنها تشعر بقوة حقيقية لا تقبل الشك. وهي تشعر بذلك في كل مرّة تتعلّم فيها كلمة جديدة أو تُركّب جملة فصيحة.

كانت طفلة.

في ألمانيا النازية.

وكم من الملائم أن تكتشفَ قوة الكلمات!

وما مدى الفظاعة (والبهجة!) التي سوف تشعر بها بعد عدّة أشهر، عندما ستُطلق العنان لقوة هذا الاكتشاف الجديد، في اللحظة نفسها التي تخذلها فيها زوجة رئيس البلدية. وياللسرعة التي ستُغادرها فيها الشفقة، لتتحوّل نحو شيء آخر تماماً...

الآن، على الرغم من ذلك، وفي صيف عام 1940، لم يكن في مقدورها أن ترى ما ينتظرها، وعلى أكثر من طريق. بل وقفت شاهدة فقط على امرأة حزينة مع مجموعة من الكتب التي استمتعت بزيارتها.

هذا كل شيء. إنه الجزء الثاني من وجودها في ذلك الصيف.

أما الجزء الثالث، والحمد لله، فقد كان أكثر مرحاً بقليل – ألا وهو لعب كرة القدم في شارع هيمل.

اسمحوا لي بأن أرسم لكم صورة عن الواقع في ذلك الصيف:

طريق يُبلي القدمين.

اندفاع التنفس الصبياني.

سارقة الكتب

صياح كلمات: «هنا! من هنا! أيها القذر!».

الارتداد الخشن للكرة على الطريق.

كل ذلك موجود في شارع هيمل، فضلاً عن صوت الاعتذارات، مع تقدّم الصيف.

الاعتذار يخصّ ليزيل ميمنجر، وهو موجّه نحو تومي مولر.

مع بداية شهر تموز/ يوليو، تمكّنت أخيراً من إقناعه بأنها لن تقتله. منذ أن ضربته في شهر تشرين الثاني / نوفمبر الماضي، بقي تومي خائفاً من الاقتراب منها. وفي اجتماعات كرة القدم في شارع هيمل بقي بعيداً عنها تماماً. «لا يمكنك أن تحزر أبداً متى ستفقد عقلها»، فضفض لرودي، ووجه ينتفض، مقاطعاً كلماته.

ولننصف ليزيل هنا، فهي لم تتخلَ أبداً عن محاولة التهدئة من روعه. وقد شعرت بخيبة أمل لأنها نجحت في تحقيق السلام مع لودفيغ شميكل، بينما فشلت في تحقيق ذلك مع البريء تومي مولر، الذي استمر في إظهار الجُبن قليلاً كلما رآها.

«كيف أمكنني أن أعرف أنك كنتَ تبتسم فرحاً بانتصاري في ذلك اليوم؟» سألته مراراً وتكراراً.

حتى أنها حلّت محله كحارسة مرمى لعدد من المرّات، إلى أن توسّل إليه جميع أعضاء الفريق لكي يعود ويتولّى مهامه.

«عُد الى هناك!». أمره أخيراً صبي اسمه هارالد مولنهور. «فأنت عديم الفائدة هنا». وكان ذلك بعد أن تسبّب تومي في إيقاعه وهو على وشك أن يُسجل هدفاً. ولو أنهما لا يلعبان في الفريق نفسه لحصل هارالد على ضربة جزاء نتيجة الخطأ الجسيم الذي ارتكبه تومي.

عادت ليزيل إلى اللعب في أرض الملعب، حيث دائماً ما ينتهي بها

سارقة الكتب

المطاف، بطريقة أو بأخرى، بخوض شجار مع رودي. حيث يطاردان، ويوقعان، ويشتمان بعضهما بعضاً. ويُعلّق رودي. «لا يمكن لها أن تغلبني هذه المرة، تلك الخنزيرة الحمقاء، ليس لديها أمل في الفوز». ويبدو أنه استمتع بشتمها بكلمات من هذا النوع.

كانت تلك واحدة من أفراح الطفولة.

ونوع آخر من الأفراح، هو بالطبع، السرقة. الجزء الرابع، صيف عام 1940.

في الواقع، هناك أشياء كثيرة جمعت بين رودي وليزيل، لكن السرقة هي ما عزز صداقتهما بشكل تام. وقد حدث ذلك خلال إحدى الفرص المدفوعة بقوة واحدة لا مفر منها - ألا وهي جوع رودي. حيث دائماً ما استمات الصبي للحصول على شيء ليأكله.

علاوة على حالة التقنين، لم يسر عمل والده على ما يرام في الآونة الأخيرة (صحيح أنهم قد تخلّصوا من تهديد المنافسة اليهودية، إلا أنهم خسروا زبائنهم اليهود كذلك). حاول آل شتاينر تدبّر أمورهم بشق الأنفس. ومثل العديد من العائلات الأخرى في شارع هيمل، فقد تعيّن عليهم المقايضة. أرادت ليزيل أن تُعطيه بعض الطعام من منزلها، ولكنه لم يكن وفيراً هناك. فقد اعتادت ماما على إعداد حساء البازلاء، فهي تطهو منه في ليالي الأحد ما يكفي ليس ليوم أو يومين فحسب، بل حتى يوم السبت التالي. ومن ثم، تُعيد في يوم الأحد التالي طهي حساء البازلاء من جديد. وفي نهاية المطاف، فإن جُلّ ما وُضع على مائدة آل هوبرمان هو حساء البازلاء، والخبز، وأحياناً بعض البطاطس أو اللحم، حيث يتناولون ما هو أمامهم من دون التجرّؤ على طلب المزيد، أو التذمّر.

في البداية، حاولا القيام بأشياء لمحاولة حمله على نسيان جوعه.

سارقة الكتب

فرودي لم يكن يشعر بالجوع عندما يلعبان كرة القدم في الشارع، أو يأخذان دراجَتَي شبقيقه وشقيقته ويذهبان بهما إلى متجر أليكس شتاينر، أو يزوران والد ليزيل، في حال عمله في ذلك اليوم. حيث اعتاد هانز هوبرمان أن يجلس معهما ويُطلق النكات مع أفول ضوء النهار.

مع وصول بضعة أيام حارّة، جاء الإلهاء الآخر على شكل تعلّم السباحة في نهر أمبر. صحيح أن المياه ما زالت باردة جداً، إلا أنهما ذهبا على أي حال.

«هيا»، حاول رودي إقناعها. «فقط إلى هنا. إنه ليس عميقاً جداً هنا». لم ترَ الحفرة العملاقة التي سارت إليها وغرقت فيها مباشرة. السباحة على طريقة الكلب أنقذت حياتها، على الرغم من أنها كادت أن تختنق بعد ابتلاعها كمية هائلة من المياه.

«أيها الخنزير!»، شتمته عندما انهارت على ضفة النهر.

حرص رودي على البقاء بعيداً عنها. فقد رأى ما فعلته بلودفيغ شميكل. «يمكنكِ السباحة الآن، أليس كذلك؟».

وهو إنجاز لم يبهجها على وجه الخصوص. انطلقت بعيداً، والتصق شعرها بجانب وجهها، والمُخاط يتدفق من أنفها.

ناداها: «هل يعني هذا بأنني لن أحصل على قبلة لتعليمك السباحة؟».

«خنزير!».

يا لوقاحته!

وجاء المحتوم.

فحساء البازلاء الذي يدعو للكآبة، وجوع رودي دفعهما أخيراً إلى السرقة. وارتباطهما بمجموعة من الأطفال الأكبر سناً الذين يسرقون من المزارعين. إنهم سارقوا الفاكهة.

بعد إحدى مباريات كرة القدم، تعلّمت ليزيل ورودي فوائد إبقاء أعينهم مفتوحة. فبينما هما جالسان على درج منزل رودي، لاحظا أن فريتز هامر - أحد رفاقهم الأكبر سناً - يتناول تفاحة. كانت من نوع (كلار) - الذي ينضج بين شهري تموز/ يوليو وآب/ أغسطس - بدت رائعة في يده، وبرزت ثلاث أو أربع حبات أخرى من جيوب سترته. اقتربا منه.

«من أين حصلت على تلك؟» سأله رودي.

ابتسم الصبي في البداية فقط. «صه» ثم شرع في سحب تفاحة من جيبه ورماها له. «ألقيا نظرة عليها فقط»، حذرهما. «لا تأكلاها».

في المرة التالية، شاهدا الصبي نفسه يرتدي السترة نفسها في يوم دافئ جداً لا يحتاج إلى سترة. وعندها قرّرا تقفّي أثره، حيث قادهما نحو منبع نهر أمبر، في مكان قريب من حيث اعتادت ليزيل أن تقرأ أحياناً مع بابا، عند بداية تعلّمها القراءة.

كان في انتظاره مجموعة مكونة من خمسة صبية، بعضهم نحيل، وبعضهم قصير وضعيف.

وفي الحقيقة، فقد تواجد عدد قليل من هذه المجموعات، أو العصابات إذا صح التعبير، في مولشينغ خلال تلك الفترة، وضم بعضها أعضاءً صغاراً بالسن (بعمر ست سنوات). زعيم هذه العصابة هو مجرم محبوب يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً ويدعى آرثر بيرغ. نظر حوله ورأى الطفلين واقفين خلفهم. «ماذا؟» سأل.

«أنا أتضوّر جوعاً»، أجاب رودي.

«وهو سريع»، قالت ليزيل.

نظر بيرغ إلى وجهها. «أنا لا أذكر أنني طلبتُ رأيكِ». كان بطول يافع في سن المراهقة، وذا رقبة طويلة. تجمّعت البثور في مجموعات مكتظة

سارقة الكتب

على وجهه. «ولكنك تعجبينني». بدا ودوداً، بطريقة مراهق ذي لسان سليط. «أليست هذه هي الفتاة التي ضربت شقيقك يا أندرل؟» بالتأكيد، وصلت شهرة تلك الحادثة إلى أبعد مما تصوّرت ليزيل، فالقدرة على ضرب أحد ما تتجاوز الفروق العمرية.

نظر إليها صبي آخر – من أولئك القصار النحيلين – ذو شعر أشقر وأشعث، وجلد بلون الجليد. «أعتقد ذلك».

وأكّد رودي ذلك. «إنها هي».

اقترب أندي شميكل منها، وتأمّلها، من رأسها حتى أخمص قدميها. بدا وجهه جاداً ومفكّراً، قبل أن يُفصح عن ابتسامة كبيرة. «عمل عظيم، أيتها الطفلة». وربّت بقوة على ظهرها. «كنتُ لأُجلدَ لو ارتكبتُ فعلتكِ نفسها».

انتقل آرثر إلى رودي. «وأنت الصبي الذي قلّد جيسي أوينز، أليس كذلك؟»

أومأ رودي.

«من الواضح»، قال آرثر، «أنك أحمق – ولكنك من النوع الملائم لنا. هيا».

وبذلك أصبحوا جزءاً من تلك العصابة.

عندما وصلوا إلى المزرعة، حصلت ليزيل ورودي على كيس. وحمل آرثر بيرغ كيس الخيش الخاص به. مرّر يده عبر خصلات شعره الناعم. «هل سرق أي منكما أي شيء من قبل؟».

«بالطبع»، أكّد رودي. «دوماً». لم يبدُ مقنعاً جداً.

أما ليزيل فكانت أكثر تحديداً. «لقد سرقتُ كتابين»، وضحك آرثر، ثلاث ضحكات قصيرة. وبدا وكأن بثوره على وشك أن تُغيّر موقعها.

سارقة الكتب

«لا يمكنكِ أن تأكلي الكتب، يا حبيبتي».

من هناك، بدأوا بفحص أشجار التفاح، التي وقفت في صفوف ملتوية طويلة. وأعطى آرثر بيرغ الأوامر. «أولاً»، قال. « ينبغي ألا يُقبض عليكم وأنتم على السياج. وفي حال قُبض عليكم هناك، فسوف نترككم وراءنا. مفهوم؟» هز الجميع رؤوسهم موافقين، أو قالوا نعم. «ثانياً. ليصعد واحد على الشجرة، وليبق الآخر أسفلها. فعلى شخص ما أن يجمع التفاح المتساقط». فرك يديه معاً. كان يستمتع بهذا. «ثالثاً. إذا رأيتم شخصاً قادماً، فعليكم أن تصرخوا بصوت عال ما يكفي لإيقاظ الموتى – وعندها نهرب جميعاً. حسناً؟».

«حسناً». صدرت الكلمة بصوت جوقة واحدة.

سارقا تفاح مبتدآن، يتهامسان

- ليزيل... هل أنتِ متأكدة؟ هل ما زلتِ ترغبين في فعل ذلك؟
- انظر إلى الأسلاك الشائكة، رودي، إنها عالية جداً.
- لا، لا، انظري، عليكِ رمي الكيس فوقها. هل رأيتِ؟ مثلهم.
- حسناً.
- هيا إذاً!
- لا أستطيع! (تردّدتْ) رودي، أنا...
- تحرّكي، أيتها الخنزيرة!

دفعها نحو السياج، وألقى الكيس الفارغ على السلك الشائك، وتسلقا فوقه. ركضا نحو الآخرين، حيث شقّ رودي طريقه إلى أقرب شجرة وبدأ برمي التفاح. بينما وقفت ليزيل تحت الشجرة، وبدأت بلمّ التفاح ووضعه في الكيس. لكنه عندما امتلأ، برزت مشكلة أخرى.

«كيف سنعود من فوق السياج؟».

وجاء الجواب عندما لاحظا آرثر بيرغ وهو يتسلّق عند أقرب نقطة إلى عمود السياج. «تكون الأسلاك أقوى هناك»، أشار رودي، الذي ألقى الكيس وراء السياج، وجعل ليزيل تذهب أولاً، ثم هبط بجانبها على الجانب الآخر، بين الفاكهة التي انسكبت من الكيس.

بجانبهما، وقفت الأرجل الطويلة لآرثر بيرغ وهو يراقبهما مندهشاً.

«ليس سيئاً»، هبط صوته فوقهم. «ليس سيئاً على الإطلاق».

عندما عادوا إلى النهر مختبئين بين الأشجار، أخذ الكيس وأعطى ليزيل ورودي دزينة من التفاح ليتشاركاها معاً.

«عمل جيد»، كان تعليقه النهائي على هذه المسألة.

بعد ظهر ذلك اليوم، وقبل عودتهما إلى المنزل، التهمت ليزيل ورودي اثنتي عشرة تفاحة في غضون نصف ساعة. في البداية فكّرا في مشاركة الفاكهة مع عائلتيهما في المنزل، ولكن ذلك ينطوي على مخاطر كبيرة. حيث لم يجدا وسيلة لشرح مصدر الفاكهة. كما أن ليزيل فكّرت بإمكانية إعلام بابا فقط، لكنها خشيت من أن يُفكّر في أنه يُربّي مجرمة في منزله. وبذلك كان الخيار الأسلم هو تناول كامل التفاحات.

على ضفة النهر، حيث تعلمت السباحة، تخلّصا من بقايا كل التفاح. ولكونهما غير معتادين على مثل هذا الفخامة، فقد عرفا أنه من المرجح أن يكون مصيرهما المرض نتيجة تناولهما هذه الكمية، إلا أنهما تناولاها على أي حال.

«أيتها الخنزيرة!» عنّفتها ماما في تلك الليلة. «لماذا تتقيئين كثيراً؟».

«ربما بسبب حساء البازلاء»، اقترحت ليزيل.

«هذا صحيح»، ردد بابا، واقفاً عند النافذة مرّة أخرى. لا بدّ من أن هذا هو السبب. أشعر بالغثيان قليلاً أيضاً».

«مَن سألكَ، أيها الخنزير؟» واستدارت بسرعة لمواجهة الخنزيرة المتقيئة. «حسناً؟ ما السبب؟ ما هو، قولي أيتها الخنزيرة القذرة؟».

إلا أن ليزيل لم تقل شيئاً.

التفاح، فكّرت بسعادة. التفاح، وتقيّأت مرّة أخرى.

سارقة الكتب

صاحبة المتجر الآرية

وقفا خارج متجر السيدة ديلر، مستندين إلى جدار أبيض.

فم ليزيل ميمنجر منهمك في تناول مصاصة.

والشمس في عينيها.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات، إلا أنها ما تزال قادرة على الكلام، والمجادلة.

محادثة أخرى بين رودي وليزيل

- أسرعي، أيتها الخنزيرة، هذه العاشرة بالفعل.

- لا، إنها ليست كذلك، إنها الثامنة فقط. ما زال لديّ اثنتان.

- حسناً، أسرعي إذاً. لقد قلتُ لكِ بأنه من الأفضل لو جلبنا سكيناً وقطعناها بالنصف... هيا، هاتان اثنتان.

- حسناً. خذ. ولا تبتلعها.

- هل أبدو كأحمق؟

(صمت قصير)

سارقة الكتب

- هذا أمر عظيم، أليس كذلك؟

- من المؤكّد أنه كذلك، أيتها الخنزيرة.

مع نهاية شهر آب / أغسطس وتوديع فصل الصيف، وجدا قرشاً واحداً على الأرض. وبالطبع فقد اكتسحتهما سعادة غامرة.

وجداه بين بعض الأوساخ، على طريق تسليم واستلام الغسيل. قِرشٌ وحيد متآكل.

«ألقِ نظرة على هذا!».

انقض رودي عليه. وغمرتهما الإثارة وهما في طريقهما إلى متجر السيدة ديلر، من دون أن يفكّرا للحظة أن قرشاً واحداً قد لا يكون السعر المناسب لما يريدانه. اندفعا عبر الباب، ووقفا أمام صاحبة المتجر الآرية، التي نظرت إليهما بازدراء.

«أنا أنتظر»، قالت، وشعرها مربوط إلى الخلف، وفستانها الأسود يخنق جسدها. بينما تضطلع صورة الفوهرر المؤطّرة بمهام المراقبة.

«يحيا هتلر!»، بدأ رودي.

«يحيا هتلر!»، أجابت، وهي تنتصب وراء طاولة الاستقبال. «وأنتِ؟». حملقت في وجه ليزيل، التي سارعت على الفور إلى قول «يحيا هتلر!».

لم يستغرق رودي طويلاً حتى أخرج العملة من جيبه ووضعها بقوة على الطاولة. نظر مباشرة إلى عيني السيدة ديلر المترقبتين قائلاً: «تشكيلة من المصاصات، من فضلك».

ابتسمت السيدة ديلر بأسنانها المتراكبة فوق بعضها البعض. كما أن لطفها غير المتوقع جعل رودي وليزيل يبتسمان أيضاً. ولكن ليس لوقت طويل.

سارقة الكتب

انحنت، وبحثت قليلاً، ومن ثم واجهتهما مرّة أخرى. «خذ»، قالت، وهي ترمي بمصاصة واحدة على الطاولة أمامها. «اخلطها بنفسك».

في الخارج، فتحاها وحاولا عضّها لقسمها مناصفة، إلا أن السُكّر كان قاسياً جداً مثل الزجاج، حتى بالنسبة إلى أسنان رودي التي تشبه أسنان الحيوانات المفترسة. بدلاً من ذلك، تبادلا الأدوار في لعقها إلى أن أنهياها. عشر لعقات لرودي، وعشر لليزيل.

«هذه..»، أعلن رودي في لحظة ما، بابتسامة تُظهر أسنانه المغطاة بالحلوى، «..هي الحياة الجميلة»، ولم تخالفه ليزيل. عندما انتهيا من تناولها، تلوّنت شفاههما بلون أحمر مبالغ فيه. وفي طريقهما إلى المنزل، ذكّرا بعضهما بعضاً بضرورة إبقاء أعينهما إلى الأرض بحثاً عن نقود أخرى.

بالطبع، لم يجدا شيئاً. فلا يمكن لأحد أن يكون محظوظاً مرتين في سنة واحدة، ناهيكم عن بعد ظهر يوم واحد.

ومع ذلك، بألسنة وأسنان وشفاه حمراء، سارا في شارع هيمل، وهما يفحصان الأرض بسعادة خلال مسيرهما.

كان يوماً عظيماً، وكانت ألمانيا النازية مكاناً رائعاً.

المُكافح، تتمة

لننتقل إلى فترة لاحقة الآن، إلى صراع في ليل بارد. وسنسمح لسارقة الكتب باللحاق بنا لاحقاً.

في 3 تشرين الثاني / نوفمبر، جلس على أرضية القطار. وهو يقرأ نسخة من كتاب (كفاحي)، منقذه. والعرق يسبح من يديه. حيث انطبعت آثار أصابعه على الكتاب.

تفخر شركة سارقة الكتب للإنتاج بأن تُقدّم رسمياً

كتاب (كفاحي)، بقلم
أدولف هتلر

خلف ماكس فاندينبورغ، فتحت مدينة شتوتغارت زراعيها متهكمة.

لم يكن يوماً موضع ترحيب هناك، لذلك حاول ألا ينظر إلى الوراء بينما تهضم معدته الخبز المتعفن. ولكن في عدّة مناسبات، استدار وشاهد الأضواء تتحوّل إلى حفنة قليلة ومن ثم تختفي تماماً.

افخر بنفسك، نصح نفسه. لا ينبغي أن تبدو خائفاً. اقرأ الكتاب. وابتسم. إنه كتاب رائع - أعظم كتاب قرأته في حياتي. تجاهل تلك المرأة الجالسة قبالتك. إنها نائمة الآن على أي حال. هيا، ماكس، لن يستغرق الأمر سوى بضع ساعات حتى تصل.

وكما اتضح، لم تستغرق الزيارة التي وُعد بها في غرفة الظلام أياماً، بل استغرقت أسبوعاً ونصف، ومن ثم أسبوعاً آخر، وآخر، إلى أن فقد كل إحساس بمرور الأيام والساعات. نُقل مرّة أخرى إلى غرفة تخزين صغيرة أخرى، حيث المزيد من الضوء، والمزيد من الزيارات، والمزيد من الطعام. بيد أن الوقت كان ينفد.

«سأغادر قريباً»، قال له صديقه فالتر كوغلر. «أنت تعرف كيف هو الوضع في الجيش».

«أنا آسف يا فالتر».

وضع فالتر كوغلر - صديق ماكس من الطفولة - يده على كتف اليهودي. «قد يكون الوضع أسوأ». ونظر إلى عيني صديقه اليهودي. «فمن الممكن أن أكون أنتَ».

كان ذلك اجتماعهما الأخير. حيث ترك كيساً أخيراً في الزاوية. وفي هذه المرة، جلب معه تذكرة قطار. فتح فالتر كتاب (كفاحي) ودسّ التذكرة فيه، بجانب الخريطة. «الصفحة الثالثة عشرة»، ابتسم، «من أجل الحظ، أليس كذلك؟».

«من أجل الحظ»، وتعانق الاثنان.

عندما أُغلق الباب، فتح ماكس الكتاب وتفحّص التذكرة. من شتوتغارت إلى ميونخ، ومنها إلى باسينغ. انطلق القطار بعد يومين، ليلاً، في الوقت المناسب للحاق بالرحلة الأخيرة. ومن هناك، تعيّن عليه أن

سارقة الكتب

يمشي سيراً على الأقدام. حفظ الخريطة في رأسه بأدقّ تفاصيلها. ومازال المفتاح ملصقاً على الغلاف الداخلي للكتاب.

جلس لمدة نصف ساعة قبل أن يخطو نحو الكيس ويفتحه. وبصرف النظر عن الطعام، ضم الكيس في داخله القليل من المواد الأخرى.

المحتويات الإضافية المقدّمة من فالتر كوغلر

شفرة حلاقة صغيرة.

ملعقة – أقرب شيء إلى المرآة.

كريم حلاقة.

مقص.

عندما غادر، لم يكن في غرفة التخزين شيء سوى الأرضية.

«وداعاً»، همس لها.

آخر شيء رآه ماكس كان تلة صغيرة من الشعر، متكومة بجانب الجدار.

وداعاً.

بوجهه النظيف والحليق بشكل غير متوازن، وشعره الممشط بدقة، خرج من ذلك المبنى رجلاً جديداً. في الواقع، خرج ألمانياً. مهلاً لحظة، إنه ألماني بالفعل. أو في الواقع، لطالما كان ألمانياً.

في بطنه، تحرّك مزيج كهربائي من الطعام والغثيان.

مشى إلى المحطة.

أظهر تذكرته وبطاقة الهوية، وجلس الآن ضمن مقصورة مربعة صغيرة في القطار، في دائرة الخطر مباشرة.

«الأوراق».

سارقة الكتب

هذا ما كان يخشى سماعه.

ألا يكفي الخوف الذي شعر به عندما تم إيقافه لتدقيق أوراقه على رصيف المحطة. علِم في قرارة نفسه بأنه لن يستطيع الصمود مرتين.

يداه ترتجفان.

رائحة - رائحة كريهة - للذنب.

ببساطة، لم يعد في وسعه تحمّل ذلك مرّة أخرى.

لحسن الحظ، مرّ الأمر بسلام ولم يطلبوا سوى التذكرة، والآن، كل ما بقي له هو نافذة تُطلّ على مدن صغيرة، تجمعات من الأضواء، وشخير امرأة على الجانب الآخر من المقصورة.

خلال الجزء الأكبر من الرحلة، أمضى وقته في قراءة الكتاب، محاولاً عدم رفع نظره أبداً.

جالت الكلمات على فمه.

وبشكل غريب، وبينما هو يُقلّب الصفحات، ويتقدّم في قراءة الفصول، بقيت كلمة واحدة فقط معلّقة على لسانه.

(كفاحي).

العنوان، مرّة تلو أخرى، والقطار يهدر في طريقه، من بلدة ألمانية إلى أخرى.

(كفاحي).

من بين كل الأشياء، هو الشيء الوحيد الذي يُنقذه.

المحتالون

يمكنكم القول بأن الأمور قد جرت على نحو سلس بالنسبة إلى ليزيل ميمنجر حتى الآن. وهي كذلك في الواقع، مقارنة بماكس فاندينبورغ. بالطبع لا يمكننا أن ننسى حقيقة وفاة شقيقها بين ذراعيها، وتخلّي أمها عنها.

ولكن أي شيء هو أفضل من كون المرء يهودياً في ألمانيا النازية.

خلال الوقت الذي مرّ قبل وصول ماكس، فقدت ليزيل زبوناً آخر، هم آل فاينغارتنر هذه المرة. وبشكل طبيعي، فقد ثارت ثائرة ماما في المطبخ. بينما واست ليزيل نفسها بحقيقة أنه ما يزال هناك زبونان، بل الأفضل من ذلك، أحدهما هو رئيس البلدية، مع زوجته، وكتبه.

أما بالنسبة إلى أنشطة ليزيل الأخرى، فما زالت منخرطة في أنشطتها غير القانونية مع رودي شتاينر. بل أود أن أضيف بأنهما عملا على صقل أساليبهما الشريرة.

قاما بعدة رحلات سرقة مع آرثر بيرغ وأصدقائه، مدفوعين بحرصهما على إثبات جدارتهما وزيادة مخزونهما من اللصوصية. حيث سرقوا مع

سارقة الكتب

العصابة البطاطس من إحدى المزارع، والبصل من أخرى. إلا أنهما حققا انتصارهما الأكبر لوحدهما.

كما رأينا في وقت سابق، فمن فوائد السير عبر البلدة هو احتمال العثور على أشياء على الأرض. والفائدة الأخرى هي ملاحظة الأشخاص، أو الأهم من ذلك، ملاحظة الأشخاص أنفسهم وهم يكررون الأشياء نفسها أسبوعاً بعد أسبوع.

صبي من المدرسة يُدعى أوتو شتورم، كان أحد هؤلاء الأشخاص. حيث يركب دراجته، بعد ظهر كل يوم جمعة، إلى الكنيسة، حاملاً البضائع إلى القساوسة.

راقباه لمدة شهر كامل، ومع تحوّل الطقس من جيد إلى سيئ، عزم رودي في يوم جمعة صقيعي، على عرقلة روتين أوتو.

«كل هؤلاء القساوسة»، أوضح رودي وهما يسيران عبر البلدة. «لا تنقصهم السُمنة على أي حال. ويمكنهم البقاء من دون غذاء لمدة أسبوع أو نحو ذلك».

لم يكن في وسع ليزيل سوى الموافقة. فهي أولاً، لم تكن كاثوليكية. وثانياً، قد غلبها الجوع. وكما هو الحال دائماً، حملت كيس الغسيل. بينما حمل رودي دلوين من الماء البارد، أو كما قال، دلوين من الجليد المستقبلي.

قبل الساعة الثانية ظهراً، انطلق إلى مسعاه.

ودون أي تردد، سكب الماء على الطريق في المكان المحدد حيث سيقطع أوتو المنعطف على دراجته.

تعيّن على ليزيل أن تعترف. فقد شعرت بالقليل من الذنب في البداية، إلا أن الخطة مثالية، أو على الأقل أقرب ما يمكن إلى المثالية.

سارقة الكتب

بعد أن تجاوزت الساعة الثانية بقليل، وكما هي عادته في كل يوم جمعة، استدار أوتو شتورم إلى شارع ميونخ حاملاً السلع في السلة الأمامية لدراجته، بين مقبضي المقود.

كانت تلك هي أبعد مسافة سيقطعها على دراجته في يوم الجمعة ذاك.

الطريق جليدي بطبيعة الحال، إلا أن رودي أضاف طبقة إضافية. وهو بالكاد قادر على كبت ابتسامته التي ارتسمت على عرض وجهه.

«هيا»، قال. «اقترب إلى هناك».

بعد مرور نحو خمسة عشر دقيقة، أتت الخطة الشيطانية بثمارها، إذا جاز التعبير.

أشار رودي بإصبعه. «ها قد جاء». قطع أوتو المنعطف ببلادة حمل وديع.

ولم يُضيّع أي وقت في فقدان السيطرة على دراجته، والانزلاق عبر الجليد، حيث سقط بعنف ليستقرّ أخيراً ووجهه ملاصق للطريق.

عندما لم يتحرك، نظر رودي إلى ليزيل بقلق. «يا أيها المسيح المصلوب»، قال: «أعتقد بأننا قد قتلناه!» خرج من مخبئهما ببطء، وأزال السلة وفرّا على الفور.

«هل كان يتنفس؟» سألت ليزيل وهما يسيران في الشارع.

«لا أعرف»، قال رودي، متشبثاً بالسلة. ولم تكن لديه أدنى فكرة عن وضع أوتو.

عندما أصبحا بعيدين في أسفل التلة، شاهدا أوتو وهو يقف، ويحك رأسه، وما بين ساقيه، ويبحث في كل مكان عن سلته.

«يا له من كومة قذارة غبية!»، ابتسم رودي. تفقدا الغنائم: الخبز،

والبيض المكسور، والجائزة الكبرى، لحم الخنزير المقدّد. قرّب رودي اللحم من أنفه وتنفّسه بشكل رائع.

«جميل».

وعلى الرغم من إغراء الاحتفاظ بالنصر لأنفسهما، إلا أن شعور الولاء لآرثر بيرغ قد غلبهما. ذهبا إلى مسكنه الفقير في شارع كيمبف وعرضا عليه غنائمهما. لم يستطع آرثر أن يكبت مباركته للموضوع.

«ممن سرقتما هذا كله؟».

تطوّع رودي للإجابة. «أوتو شتورم».

«حسناً»، أومأ، «أياً كان هذا، فأنا ممتن له». دخل إلى المنزل وعاد مع سكين، ومقلاة، وسترة، وسار اللصوص الثلاثة معاً أمام مدخل الشقق.

«سننادي على الآخرين»، قال آرثر بيرغ عندما أصبحوا في الخارج. «قد نكون مجرمين، إلا أننا لسنا عديمي الأخلاق تماماً». ومثل سارقة الكتب، فقد رسم آرثر على الأقل خطاً أحمرَ في مكان ما.

طرقوا على عدد من الأبواب الأخرى. ونادوا على الأسماء في الشقق الواقعة في الشوارع السفلية، وسرعان ما أصبحت كامل عصابة آرثر بيرغ لسرقة الفاكهة في طريقها إلى نهر أمبر. في المنطقة الفارغة على ضفة النهر، أشعلوا النار، وأنقذوا ما تبقى من البيض لقليه. تقاسموا الخبز واللحم، ولم تبقَ ولا ذرة واحدة مما حمله أوتو شتورم. في نهاية المطاف، لم يُكتب للقساوسة أن يذوقوا أياً من تلك الأطايب في ذلك اليوم.

مع اقتراب اجتماعهم من نهايته، نشب جدال حول السلة. أراد غالبية الفتيان حرقها. إلا أن فريتز هامر وأندي شميكل أرادا الاحتفاظ بها. أما آرثر بيرغ، ذو السِمات الأخلاقية المتضاربة، حمل في رأسه فكرة أفضل.

«أنتما الاثنان»، قال لرودي وليزيل. «ربما عليكما أن تُعيداها إلى ذلك المدعو شتورم. أظن أن ذلك الوغد المنحوس يستحق ذلك».

- أوه بالله عليك يا آرثر!

- لا أريد أن أناقش ذلك أكثر يا أندي.

- يا يسوع المسيح!

- وهو كذلك لا يريد أن يناقش ذلك أيضاً.

ضحكت العصابة وحمل رودي شتاينر السلة. «سأعيدها وأعلّقها على صندوق بريدهم».

مشى نحو عشرين متراً فقط، قبل أن تلحقه الفتاة. أدركت أنها ستصل إلى المنزل متأخرة وستنال عقابها، إلا أنه يتعيّن عليها مرافقة رودي شتاينر عبر البلدة، إلى مزرعة شتورم، على الجانب الآخر.

سارا بصمت لفترة طويلة.

«هل أنتَ متضايق؟» سألته ليزيل أخيراً. وهما في طريق عودتهما إلى المنزل.

- لماذا؟

- أنت تعلم.

- بالطبع، ولكنني لم أعد جائعاً، وأراهن أنه ليس جائعاً أيضاً. لا تظني لثانية أن القساوسة سيحصلون على الطعام من آل شتورم لو لم يكن هناك ما يزيد على حاجتهم في المنزل.

- لقد اصطدم بالأرض بقوة.

- لا تُذكّريني...

لكن لم يستطع رودي شتاينر كبت ابتسامته. وفي السنوات القادمة،

سوف يتحوّل من سارق للخبز إلى واهبه - ليُثبتَ مرّة أخرى تناقض الإنسان. الكثير من الخير، والكثير من الشر، يا له من مزيج غريب!

بعد خمسة أيام من نصرهما الصغير - الحلو والمر - ظهر آرثر بيرغ مرّة أخيرة، ودعاهما إلى مشروع السرقة التالي. صادفاه على شارع ميونخ، في طريق عودتهما من المدرسة، في يوم أربعاء. كان يرتدي زي شبيبة هتلر. «سنذهب مرّة أخرى بعد ظهر الغد. هل ترغبان في الانضمام إلينا؟».

لم يستطيعا تمالك نفسيهما.

- أين؟

- البطاطس.

بعد مرور أربع وعشرين ساعة، عبَرت ليزيل وردي السياج المسوّر بالأسلاك الشائكة مرّة أخرى وملآ كيسهما.

ظهرت المشكلة وهما يهربان.

«أيها المسيح!» صاح آرثر. «إنه المزارع!» دبّت كلمته الذعر في قلوب الجميع. صرخ كما لو أنه قد هاجمه بالفعل. انفرج فمه، وطارت الكلمة منه، كالفأس.

بالتأكيد، عندما استداروا، شاهدوا المزارع يركض وراءهم، وهو يحمل فأسه عالياً.

ركضت العصابة بأكملها نحو خط السياج، وقفزوا من فوقه. رودي، الذي كان الأبعد عن العصابة، حاول اللحاق بهم بسرعة، ولكن ليس بما يكفي لتجنّب أن يكون الأخير. رفع ساقه فوق السياج، إلا أنه علق.

«مهلاً!».

صرخ صوت المسكين الذي تقطّعت به السبل.

توقفت العصابة.

وبشكل غريزي، ركضت ليزيل عائدة نحوه.

«أسرعوا!» صاح آرثر. صوته بعيد، كما لو أنه ابتلعه قبل أن يخرج من فمه.

السماء بيضاء.

فرّ الآخرون.

وصلت ليزيل وبدأت بسحب قماش سرواله. انفرجت عينا رودي على أشدهما من الخوف. «أسرعي!»، قال. «إنه قادم».

في البعيد، ما زال في إمكانهما سماع صوت الأقدام الهاربة، عندما فجأة أمسكت يد إضافية السلك وأبعدته بعيداً عن سروال رودي شتاينر. بقيت قطعة من القماش على العقدة المعدنية إلا أن الصبي تمكّن من الفرار.

«تحرّكا الآن»، قال آرثر لهما، مع وصول المزارع، وهو يشتم، ويكيل السباب والشتائم، ويكافح لالتقاط أنفاسه. حمل الفأس بشدة، ولوح به أمامه صارخاً بالكلمات العقيمة التي يقولها كل من تعرّض للسرقة:

«سوف أُلقي القبض عليكم! سوف أجدكم! سأعرف من أنتم!». وعندها جاء رد آرثر بيرغ.

«الاسم هو أوينز!». وحلّق بعيداً، ليلحق بليزيل ورودي. «جيسي أوينز!».

عندما وصلا إلى مكان آمن، جلسا مكافحين لملء رئتيهما بالهواء. انضم إليهما آرثر بيرغ بعد برهة، ولم يجرؤ رودي على النظر إليه. «حدث ذلك لنا جميعاً»، قال آرثر، مستشعراً خيبة الأمل التي أصابت رودي. هل كان يكذب؟ لم يكن في وسعهما التأكّد، ولن يعرفا الجواب عن هذا السؤال أبداً.

بعد بضعة أسابيع، انتقل آرثر بيرغ إلى كولونيا.

بعد تلك الحادثة، التقيا به لمرة أخيرة بالصدفة، خلال إحدى جولات ليزيل لتسليم الغسيل. في زقاق قبالة شارع ميونخ، أعطاه آرثر كيساً ورقياً بُنياً يحتوي على دزينة من حبات الكستناء. ابتسم بتكلّف قائلاً: «الديّ معارف يعملون في مجال التحميص». بعد إبلاغهما بخبر رحيله، تكلّف ابتسامة كثيرة البثور، ولطم كل منهما على جبينه. «لا تأكلاها كلها دفعة واحدة!». بعدها، لم ترَ أعينهما آرثر بيرغ أبداً.

أما بالنسبة إليَّ، فأستطيع أن أؤكّد لكم بأنني قد رأيتُه بالتأكيد.

تحية صغيرة لآرثر بيرغ، الرجل الذي لمّا يزل حياً

كانت سماء كولونيا صفراء متعفنة، ومفتتة عند الحواف.
جلس، مسنوداً إلى الجدار، وهو يحمل طفلة بين ذراعيه. إنها أخته.
عندما توقفت عن التنفس، بقي معها. شعرتُ بأنه سيحملها لساعات.
تفاحتان مسروقتان كانتا في جيبه.

هذه المرة تصرّفا بشكل أكثر ذكاء. حيث أكل كل منهما حبة كستناء واحدة وباعا البقية من خلال زيارة البيوت وعرضها على الساكنين.

«إذا كانت لديكم بعض القروش»، قالت ليزيل في كل بيت، «فلدي بعض الكستناء». وانتهى بهما المطاف مع ستة عشر قرشاً.

«الآن»، ابتسم رودي، «حان وقت الانتقام».

من بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، عادا إلى متجر السيدة ديلر، ألقيا تحية «يحيا هتلر»، وانتظرا.

سارقة الكتب

«هل تريدان مصاصات مختلطة هذه المرّة أيضاً؟» قالت باستهزاء، وأومأ الاثنان موافقان. نثرا النقود على الطاولة بفخر، وفي المقابل تكشّف وجه السيدة ديلر عن ابتسامة مكبوتة.

«نعم، سيدة ديلر»، قالا بانسجام تام. «تشكيلة من المصاصات، من فضلكِ». بدا الفوهرر المؤطّر فخوراً بهما.

انتصار ما قبل العاصفة.

المُكافح، الختام

بهذا يأتي المرح إلى نهايته الآن، ليُعلن عن بداية الكفاح والنضال. لديّ هنا ليزيل ميمنجر في يد، وماكس فانديبنبورغ في الأخرى. وقريباً سوف أُصفّق لأجمعهما معاً. لذلك أمهلوني بضع صفحات فقط.

المُكافح:

في حال قتلوه الليلة، فسيموت على الأقل وهو على قيد الحياة.

أصبح القطار بعيداً الآن. وعلى الأرجح، فقد تابعت المرأة التي تشخر جاعلة من المقصورة سريرها، سفرها إلى وجهتها المجهولة. الآن، خطوات فقط تفصل بين ماكس والبقاء على قيد الحياة.

خطوات، وأفكار، وشكوك.

تابع الخريطة في ذهنه من باسينغ إلى مولشينغ. كان الظلام قد حل عندما وقع نظره على البلدة للمرّة الأولى. آلمته ساقاه بشكل رهيب، لكنه شارف على الوصول إلى مقصده -المكان الأخطر ليتواجد فيه. وقد أوشك على لمسه بيديه.

تماماً كما هو موصوف على الخريطة، وجد شارع ميونخ وشق طريقه على طول الطريق.

تيبّس كل شيء.

أضواء الشوارع المتوهجة.

الأبنية المظلمة السلبية.

وقفت قاعة البلدية مثل شاب عملاق، ذي قبضة كبيرة جداً بالنسبة إلى سنه. اختفت الكنيسة في الظلام كلما نظرت عيناه صعوداً.

كل تلك التفاصيل وقفت لتشهد عليه.

ارتجف.

وحذّر نفسه. «أبقِ عينيك مفتوحتين».

(يُبقي الأطفال الألمان أعينهم مفتوحة بحثاً عن القطع النقدية الملقاة على الأرض، في حين يُبقي اليهود الألمان أعينهم مفتوحة خوفاً من إلقاء القبض عليهم).

وتمشياً مع استخدام رقم ثلاثة عشر لجلب الحظ، فقد عكف على عدّ خطواته في مجموعات مكونة من هذا العدد. فقط ثلاث عشرة خطوة، قال لنفسه. هيا، فقط ثلاث عشرة أخرى. وبشكل تقديري، فقد أنهى تسعين مجموعة، إلى أن وقف أخيراً على زاوية شارع هيمل.

حمل حقيبته في يد.

وحمل بالأخرى كتاب (كفاحي).

كلاهما ثقيل، وكلاهما ملوثّان ببضع نقاط من العرق.

الآن، تحوّل إلى الشارع الجانبي، في طريقه إلى المنزل رقم ثلاثة وثلاثين، مقاوماً رغبته في الابتسام، ومقاوماً رغبته في النحيب، أو حتى في

تخيّل الأمان التي قد ينتظره. وذكَّر نفسه بأن هذا ليس وقت الأمل، الذي شارف بالتأكيد على تلمسّه تقريباً. كان في وسعه أن يشعر به، في مكان ما بعيدٍ عن متناول يده. وبدلاً من الاعتراف والتمتّع به، انغمس في التفكير مرّة أخرى بما سيفعله في حال أُلقي القبض عليه في اللحظة الأخيرة، أو في حال وقع خطأ ما، ووجد في انتظاره الشخص الخطأ.

بطبيعة الحال، انتابه أيضاً شعور بالخطيئة.

أنّى له أن يفعل هذا؟

أنّى له أن يظهر فجأة ويطلب من الناس المخاطرة بحياتهم من أجله؟ كيف له أن يكون أنانياً لهذه الدرجة؟

المنزل رقم ثلاثة وثلاثون.

أخيراً أصبح وجهاً لوجه مع المنزل المنشود.

بدا المنزل شاحباً، كما لو أنه مصاب بمرض ما. رأى بوابة حديدية وباباً بنياً ملوّثاً بالبصاق.

أخرج من جيبه المفتاح، الذي لم يصدر صوتاً بل بقي ساكناً مملاً في يده. للحظة، ضغط عليه، نصف متوقع أن يذوب ويتسرّب إلى معصمه. إلا أنه لم يذُب، فهو من المعدن الصلب الذي لا يتزعزع. استمر بالضغط عليه إلى أن جرح يده.

ببطء، انحنى المُكافح إلى الأمام، وضع خده على الباب الخشبي، وأدار المفتاح في قفل الباب.

سارقة الكتب

الفصل الرابع

المُبتزِ

بطولة:

عازف الأكورديون - حافظ الوعد - فتاة جيدة - الملاكم اليهودي - غضب روزا - محاضرة - النائم - مبادلة الكوابيس - وبعض الصفحات من القبو

سارقة الكتب

سارقة الكتب

عازف الأكورديون

(الحياة السرية لهانز هوبرمان)

وقف شاب في المطبخ. وقد بدا المفتاح الذي يحمله في يده كأنه يصدأ ويتحلل. لم يقل أي شيء من قبيل مرحباً، أو أرجو المساعدة، أو أية عبارة أخرى متوقعة. بل طرح سؤالين.

السؤال الأول

«هل أنتَ هانز هوبرمان؟»

السؤال الثاني

«هل ما زلتَ تعزف الأكورديون؟»

وهو ينظر بقلق إلى الشكل البشري القابع أمامه، خرج صوت الشاب عبر الظلام كما لو كان كل ما بقي منه.

بابا، في حالة تأهّب وخوف، اقترب منه أكثر.

سارقة الكتب

وهمس إلى المطبخ، «بالطبع ما زلتُ أعزف».

ويعود كل ذلك إلى سنوات عديدة مضت، إلى الحرب العالمية الأولى.

إنها غريبة، تلك الحروب.

مليئة بالدم والعنف - وكذلك بالقصص التي يصعب فهمها. «إنني أقول الحقيقة»، سيقول لكم أحدهم: «لا يهمني إن لم تُصدقوني، إلا أن ذلك الثعلب هو ما أنقذ حياتي»، أو قد يقولون: «قُتل شخصان واقفان إلى جانبيّ، إلا أنني وقفتُ هناك. الوحيد الذي بقيتُ من دون رصاصة بين عينيّ. لماذا أنا؟ لماذا أنا وليس هما؟».

تُشبه قصّة هانز هوبرمان هذا النوع من القصص. وعندما قرأتُها بين كلمات سارقة الكتب، أدركتُ بأننا اقتربنا من بعضنا البعض في أكثر من مناسبة خلال تلك الفترة، ومع ذلك فلم نحدد موعداً رسمياً للقائنا. أنا شخصياً، كان لديّ الكثير من العمل، أما هانز، فأعتقد أنه بذل قصارى جهده لتجنّب لقائي.

في المرة الأولى التي كنا فيها قريبين بعضنا من بعض، كان هانز يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، ويقاتل الفرنسيين. غالبية الشبان في فصيله كانوا يتحرّقون للقتال. أما هانز فلم يكن مندفعاً إلى ذلك الحد. أخذتُ عدداً قليلاً منهم على طول الطريق، ولكن كما تعرفون فأنا لم أقترب من ملامسة هانز هوبرمان. إما لأنه محظوظ جداً، أو لأنه يستحق أن يعيش، أو لوجود سبب وجيه يُبرّر بقاءه على قيد الحياة.

في الجيش، بقي دوماً في الوسط، يركض في الوسط، ويتسّلق في الوسط، ويُطلق النار بشكل مستقيم بما يكفي لتجنّب إثارة غضب رؤسائه. ولم يتفوق بما فيه الكفاية ليكون واحداً من أول المختارين للركض مباشرة نحو ذراعيّ أنا.

على مر السنين، رأيتُ الكثير من الشبان الذين يعتقدون أنهم يركضون لملاقاة شباب آخرين من أعدائهم.

إلا أن الحقيقة هي على عكس ذلك.

فهم يركضون لملاقاتي.

بقي على أرض المعركة لمدة ستة أشهر تقريباً، قبل أن ينتهي به المطاف في فرنسا، حيث أنقذ حدث غريب – ظاهرياً – حياته. وقد ترى وجهة نظر أخرى أن ما حدث يبدو منطقياً تماماً في خضم لا معقولية الحرب.

على العموم، الوقت الذي قضاه في الحرب العظمى أدهشه بدءاً من لحظة انضمامه إلى الجيش. مرّت تلك الفترة مثل مسلسل تدور أحداثه يوماً بعد يوم، بعد يوم، بعد يوم:

محادثات الرصاص.

الرجال المستريحون.

أفضل النكات القذرة في العالم.

العَرق البارد – ذلك الصديق الصغير الخبيث – الذي يُطيل المقام على الإبطين وفي السراويل.

استمتع هانز بلعب الورق، ومباريات الشطرنج القليلة، على الرغم من أنه لا يُجيد أبداً لعبة الشطرنج، كما استمتع بالموسيقى.

دائماً الموسيقى.

رجل يكبره بسنة – يهودي ألماني يدعى إيريك فاندينبورغ – علّمه عزف الأكورديون. تدريجياً، أصبح الاثنان صديقين لأن أياً منهما لم يكن مهتماً جداً بالقتال. فقد فضّلا لف السجائر على التمرّغ في الثلج والطين.

سارقة الكتب

وفضّلا إطلاق النكات السخيفة على إطلاق الرصاص. وبذلك فقد بُنيت صداقتهما المتينة على القمار والتدخين والموسيقى، ناهيكم عن الرغبة المشتركة في البقاء على قيد الحياة. المشكلة الوحيدة التي واجهت تلك الصداقة هي أن إيريك فاندينبورغ وُجد لاحقاً على تلة عشبية، موزعاً على أشلاء. عيناه مفتوحتان وخاتم زواجه قد سُرق. حَملتُ روحه مع البقية، وانطلقنا بعيداً. كان الأفق بلون الحليب. بارد وطازج، ومنسكب بين الجثث.

كل ما بقي حقاً من إيريك فاندينبورغ هو بعض الممتلكات الشخصية والأكورديون. أُرسل كل شيء إلى منزله باستثناء الأكورديون. فقد اعتُبر ذا حجم كبير جداً. وبشيء من لوم الذات، جلس على سريره المؤقت في المعسكر، ومن ثم أُعطي لصديقه هانز هوبرمان، الرجل الوحيد الذي بقي على قيد الحياة.

نجا هانز هوبرمان على الشكل التالي

لم يذهب إلى المعركة في ذلك اليوم.

ويعود الفضل في ذلك إلى إيريك فاندينبورغ. أو بشكل أكثر تحديداً، إلى إيريك فاندينبورغ وفُرشاة أسنان الرقيب.

في ذلك الصباح تحديداً، وقبل فترة وجيزة من المغادرة إلى أرض المعركة، أسرع الرقيب ستيفان شنايدر إلى أماكن النوم ودعا الجميع للتأهّب. كان يحظى بشعبية بين الرجال، فهو يتمتّع بحس الفكاهة، ويتفنّن في إحاكة المقالب المضحكة. وعلاوة على ذلك، فهو لم يكن يوماً وراء أي شخص يشن هجوماً ويُطلق النار.

بل كان دوماً يتقدّم صفوف المتقاتلين.

سارقة الكتب

في بعض الأيام، اعتاد أن يدخل إلى غرفة استراحة الرجال ويقول شيئاً من قبيل «مَن منكم من منطقة باسينغ؟»، أو «مَن منكم يجيد الرياضيات؟»، أو في حالة هانز هوبرمان، «مَن خطه جميل؟».

لم يتطوع أحد، خاصة بعد معرفتهم بما فعل في المرّات السابقة.

ففي أحد الأيام، وقف جندي شاب متحمّس يدعى فيليب شلينك بفخر وقال: «نعم يا سيدي، أنا من باسينغ». سُلِّم على الفور فرشاة أسنان، وأُمر بتنظيف المراحيض.

ولذلك عندما سأل الرقيب عن صاحب أجمل خط، يمكنكم أن تتفهّموا بالتأكيد لماذا لم يتقدّم أحد ويتطوّع. فقد اعتقدوا أنهم سيكونون فريسة لإحدى مقالبه، أو سيكونون أول الجنود الذي يتم التحقّق من نظافتهم، أو سيؤمرون بتلميع حذاء الملازم غريب الأطوار قبل مغادرتهم.

«هيا تشجعوا!»، قال شنايدر. ومرّر يده على شعره اللامع، الذي يضم دوماً خصلة خارج السرب، متيقظة في قمة رأسه. «أيها الأوباش عديمو الفائدة، لا بدّ من أن أحدكم على الأقل قادر على الكتابة بشكل ملائم».

في البعيد، سُمع صوت إطلاق نار. مكتبة أحمد

وأثار رد فعل.

«اسمعوا»، قال شنايدر، «هذه المعركة ليست مثل سابقاتها. حيث سيستغرق القتال الصباح بأكمله، وربما أطول». ولم يكن في وسعه أن يكبتَ ابتسامته. «شلينك يُلمّع المراحيض بينما تلعبون أنتم الورق. ولكن هذه المرة ستذهبون الى هناك، إلى المعركة».

الحياة أو الفخر.

كان يأمل بشكل واضح أن يتمتّع أحد رجاله بالذكاء الكافي لاختيار الحياة.

سارقة الكتب

نظر إيريك فاندينبورغ وهانز هوبرمان إلى بعضهما بعضاً. إذا ما تقدّم شخص ما الآن، فمن شأن الفصيل أن يُحيل حياته إلى جحيم. فلا يوجد من يُحبّ الجُبناء. ومن ناحية أخرى، إذا كان هناك شخص يستحق الترشيح...

لم يتقدّم أحد إلى الأمام، إلا أن صوتاً تقدّم وخاطب الرقيب، واستقرّ عند قدميه ككرة تنتظر ركلة جيدة، قال: «هوبرمان، يا سيدي». ذلك الصوت هو صوت إيريك فاندينبورغ. فقد اعتقد بوضوح أن ذلك اليوم لم يكن الوقت المناسب لموت صديقه.

مرّ الرقيب جيئة وذهاباً أمام الجنود.

«مَن قال هذا؟».

ستيفان شنايدر، رجل يتّسم بالسرعة في كل جوانب حياته، وهو قصير القامة – يتحدّث، ويتحرك، ويتصرّف بعجلة دوماً. وبينما خطا شنايدر أمام صف الجنود، تأهّب هانز منتظراً الأوامر المخزية. لعل إحدى الممرضات مريضة، وهناك حاجة لوجود شخص لإزالة واستبدال الضمادات على الأطراف المصابة للجنود الجرحى. أو ربما يتعيّن عليه لعق ألف مظروف وختمه وإرساله إلى أرض الوطن، لإشعار العائلات بموت أبنائها.

في تلك اللحظة، صدح الصوت مرّة أخرى، وانتقل إلى جنود آخرين ردّدوا «هوبرمان». حتى أن إيريك قال: «لديه خط بديع، يا سيدي، لا غبار عليه».

«لقد حُسم الأمر إذاً». ارتسمت ضحكة دائرية، على فمه الصغير. «هوبرمان، أنت المختار».

تقدّم الجندي الشاب في طريقه إلى الأمام، وسأل عن المطلوب منه.

تنهّد الرقيب. «يحتاج الكابتن إلى من يكتب له عدداً من الرسائل.

سارقة الكتب

فهو مصاب بروماتيزم رهيب في أصابعه. أو التهاب المفاصل، لا أعرف. وعليك أن تكتبها عنه».

لم يكن هذا هو الوقت المناسب للمناقشة، وخاصة أن شلينك قد أُرسل لتنظيف المراحيض والآخر، فليغر، قارب أن يقتل نفسه وهو يلعق المظاريف، فقد أُصيب لسانه بمرض أحال لونه أزرق.

«نعم، يا سيدي»، وافق هانز، وانتهى الأمر. كانت قدرته على الكتابة مشكوك فيها على أقل تقدير، لكنه اعتبر نفسه محظوظاً. ولذلك فقد انكبّ على كتابة الرسائل بأفضل وجه ممكن، في حين ذهب بقية الرجال إلى أرض المعركة.

ولم يعد أيٌّ منهم.

تلك كانت المرة الأولى التي هرب فيها هانز هوبرمان من قبضتي، في الحرب العظمى.

أما الهروب الثاني فسيحصل في عام 1943، في مدينة ايسن.

حربان وهروبان.

مرّة وهو شاب، ومرّة وهو في منتصف العمر.

قليلون هم الرجال المحظوظون بما فيه الكفاية لخداعي مرّتين.

حمل الأكورديون معه على طوال فترة الحرب.

وعندما تعقّب أثر أسرة إيريك فاندينبورغ في شتوتغارت عند عودته، أبلغته زوجة فاندينبورغ أن في إمكانه الاحتفاظ بالآلة. فقد امتلأت شقتها بمثيلاتها، كما أن النظر إلى تلك الآلة بالذات بثّ الحزن في قلبها، ويكفيها أن تُذكّرها بقية الآلات به، بالإضافة إلى عملها في تدريس الآلة، وهو عمل تشاركته فيما مضى مع إيريك.

«عَلِّمني العزف»، أبلغها هانز، كما لو أن ذلك قد يساعدها.

ربما قد حقق كلامه غايته، حيث سألته المرأة المدمَرة عمّا إذا كان في إمكانه أن يعزف لها. بكت بصمت وهو يضغط على الأزرار والمفاتيح لعزف مقطوعة «فالس الدانوب الأزرق» على نحو أخرق، فتلك كانت المقطوعة المفضلة لدى زوجها.

«أتعرفين»، أوضح لها هانز، «لقد أنقذ حياتي». الضوء في تلك الغرفة الصغيرة معتم، والهواء يُطبق على الصدر. «لقد كان... في حال احتجتِ إلى أي شيء في أي وقت...». ووضع على الطاولة ورقة صغيرة تحمل اسمه وعنوانه. «أنا أعمل دهاناً. وسأدهن شقتك مجاناً، وقتما تشائين». أدرك أنه تعويض بلا قيمة، لكنه عرضه على أي حال.

أخذت المرأة الورقة، ولم يمض وقت طويل، حتى تجوّل طفل صغير في الغرفة وجلس على حضنها.

«هذا هو ماكس»، قالت المرأة، إلا أن الصبي كان صغيراً جداً وخجولاً ليقول أي شيء. بدا نحيلاً، ذا شعر ناعم، حيث راقبت عيناه الغامضتان الغريبَ وهو يعزف أغنية أخرى في الغرفة الثقيلة. كان ينقّل نظره من وجه إلى وجه، بينما يعزف الرجل وتبكي المرأة. أثّر عزفه فيهما بعمق. يا لهذا الحزن!

غادر هانز.

«لم تُخبرني أبداً»، قال موجّهاً كلامه إلى إيريك فاندينبورغ الميت وأُفق شتوتغارت. «لم تُخبرني أبداً أن لديك ابناً».

توقّف متأملاً شتوتغارت، ومن ثم عاد إلى ميونخ، متوقّعاً ألا يسمع أي خبر من هذه العائلة مرّة أخرى. ما لم يكن يعرفه هو أن مساعدته ستكون بالتأكيد ضرورية، ولكن ليس في موضوع الدهان، وليس قبل عشرين سنة أو نحو ذلك.

سارقة الكتب

بعد عودته من الحرب، مرّت بضعة أسابيع قبل أن يباشر بأعمال الدهان. في أشهر الطقس الجيد، انكبّ على العمل بغزارة ونشاط. وحتى في فصل الشتاء، اعتاد أن يقول لروزا بأن العمل قد لا يكون كثيراً، إلا أنه موجود على الأقل بين الفينة والأخرى.

لأكثر من عقد من الزمن، مرّ كل شيء بسلاسة.

وُلد هانز جونيور وترودي. ونشآ وهما يزوران بابا حيث يعمل ويدهن الطلاء على الجدران، وينظّف الفراشي.

عندما ارتقى هتلر إلى السلطة في عام 1933، تدهورت أعمال الدهان قليلاً. حيث لم ينضم هانز إلى حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني (الحزب النازي) مثل أغلبية الناس. وقد فكّر مطوّلاً قبل اتخاذه هذا القرار.

عمليّة تفكير هانز هوبرمان

لم يكن متعلّماً جداً أو سياسياً، إلا أنه رجل يُقدّر الإنصاف والعدل. فقد أنقذ يهودي حياته في إحدى المرّات وليس له أن ينسى ذلك. لم يكن في مقدوره الانضمام إلى حزب يُعادي فئة بهذه الطريقة. علاوة على ذلك، ومثل حال صديقه أليكس شتاينر، فبعض من أكثر زبائنه ولاءً ووفاءً كانوا يهوداً. وكالكثير من اليهود، لم يكن يظن بأنه يُمكن لهذه الكراهية أن تدوم، ولذلك فقد اتخذ قراراً واعياً بعدم اتباع هتلر. وكان قراره هذا كارثياً على عدة مستويات.

بمجرّد أن بدأ الاضطهاد، جفّ عمله ببطء. في البداية، لم تكن الأمور بتلك الدرجة من السوء، ولكنه سرعان ما بدأ يخسر زبائنه.

وبدا أن حفنة من الاقتباسات، والدعايات الموجّهة، قد بدأت تتبخر وتغلغل في الهواء النازي المتصاعد.

سارقة الكتب

اقترب من أحد المؤمنين المُسنين، ويدعى هربرت بولينجر - رجل ذو خصر نصف كروي يتحدث الألمانية الفصحى (كان من هامبورغ) - عندما صادفه في شارع ميونخ. في البداية نظر الرجل إلى الأرض، ولكن عندما عادت عيناه لتواجه الدهّان، أربكه السؤال بوضوح. لم يكن هناك سبب يدعو هانز للسؤال، لكنه فعل على أي حال.

- ماذا يحدث يا هربرت؟ أنا أخسر زبائني بأسرع مما يمكنني عدّهم.

لم يعد بولينجر مرتبكاً. بل وقف منتصباً، وقدّم الحقيقة في صيغة سؤال:

- حسناً يا هانز. هل أنت عضو؟

- في ماذا؟

هانز هوبرمان كان يعرف بالضبط ما الذي يتحدث عنه الرجل.

- بربك، هانزي! لا تجعلني أقولها صراحة.

ودّعه الدهّان الطويل القامة، وتابع سيره.

ومع مرور السنين، ازداد ترهيب اليهود عشوائياً في جميع أنحاء البلاد، وفي ربيع عام 1937، استسلم هانز هوبرمان أخيراً. قام ببعض الاستفسارات، وتقدّم بطلب للانضمام إلى الحزب.

بعد أن قدّم طلبه في مقر الحزب النازي في شارع ميونخ، شهِد على أربعة رجال وهم يرمون الطوب على واجهة متجر لبيع الملابس يُدعى كلينمان. إنه واحد من عدد قليل من المتاجر اليهودية التي كانت ما تزال تعمل في بلدة مولشينغ. وفي الداخل، تحرّك رجل صغير الحجم جيئة وذهاباً في المتجر، وهو ينظّف الزجاج المكسور الذي ينسحق تحت قدميه. عُلّقت نجمة بلون الخردل أمام باب متجره، وبأحرف ملتوية، كانت كلمتا «قذارة يهودية» تقطران بالدهان. تحوّلت الحركة في الداخل من متسارعة إلى بطيئة، ثم توقفت تماماً.

اقترب هانز وأطلّ برأسه إلى الداخل. «هل تحتاج إلى بعض المساعدة؟».

نظر إليه السيد كلينمان، الذي بدا خائر القوى وهو يحمل في يده مكنسة. «لا، هانز. أرجوك. اذهب». كان هانز قد دهن منزل جويل كلينمان في العام السابق. وتذكّر أطفاله الثلاثة. استطاع أن يتذكّر وجوههم ولكن ليس أسماءهم.

«سوف أمرُّ غداً»، قال: «وسأُعيد دهن بابك». وهو الأمر الذي قام به بالفعل.

وتلك كانت غلطته الثانية.

حيث وقعت الأولى بعد رؤيته لهذا المشهد مباشرة.

عاد إلى حيث جاء، وطرق على الباب، ومن ثم على نافذة الحزب النازي. اهتز الزجاج إلا أن أحداً لم يُجب. ذهب الجميع إلى منازلهم، وآخر عضو كان يمشي في شارع ميونخ. عندما سمع صوت الطرق على الزجاج، لاحظ الدهّان.

عاد وسأله ما المشكلة.

قال هانز: «لم يعد في إمكاني الانضمام إلى الحزب».

أصيب الرجل بالصدمة. «لمَ لا؟».

نظر هانز إلى قبضة يده اليمنى وبلع ريقه. أمكنه بالفعل تذوق طعم الخطأ، مثل قطعة معدنية تذوب في فمه. «انسَ ما قلتُه». استدار وسار إلى المنزل.

تبعته الكلمات.

«فكِّر في الأمر يا سيد هوبرمان. وأعلمنا بقرارك».

لم يُبدِ أي ردة فعل.

سارقة الكتب

في الصباح التالي، وكما وعد، استيقظ هانز في وقت أبكر من المعتاد، ولكن ليس مبكّراً بما فيه الكفاية، ليكون بعيداً عن الأنظار. عندما وصل، وجد باب متجر كلينمان رطباً بالندى. جفّفه، وطابق اللون إلى أقرب حد ممكن، وغطّى الباب بطبقة جيدة من الدهان.

مرّ بجانبه رجل لم يُظهر أي عداء أو استهجان.

«يحيا هتلر!»، قال.

«يحيا هتلر!»، أجاب هانز.

ثلاث حقائق صغيرة وإنما مهمة

1. الرجل الذي مرّ بجانبه هو رولف فيشر، أحد أكبر النازيين في مولشينغ.

2. كُتبت شتيمة جديدة على الباب في غضون ست عشرة ساعة.

3. لم يُمنح هانز هوبرمان عضوية الحزب النازي.

ليس بعد، على أي حال.

كان هانز محظوظاً لأنه لم يلغِ طلب عضويته رسمياً. وفي حين تمّت الموافقة على العديد من الأشخاص على الفور، فقد تمّت إضافته إلى قائمة الانتظار، التي نُظر إليها بعين الشك والريبة. في نهاية عام 1938، عندما عُزل اليهود تماماً عقب أحداث ليلة الكريستال[1]، زارهم البوليس السري الألماني، حيث قام العناصر بتفتيش المنزل، وعندما لم يعثروا على شيء أو أي شخص مشبوه، كان هانز هوبرمان من المحظوظين.

(1) تعرف أيضاً بليلة البلور أو الزجاج المكسور، وهي ليلة ارتكب فيها النازيون في جميع أنحاء ألمانيا والنمسا عنفاً منسّقاً ضد اليهود وممتلكاتهم، وهي ليلة 9-10 تشرين الثاني / نوفمبر 1938. (المترجمة).

فقد سُمح له بالبقاء.

ما أنقذه على الأرجح هو أن الناس يعرفون على الأقل بأنه ينتظر الموافقة على طلبه. ولهذا، فقد تم التسامح معه، والأخذ بعين الاعتبار حقيقة كونه دهّاناً كفؤاً.

ومن ثم، برز منقذه الآخر.

على الأرجح، فإن الأكورديون هو ما جنّبه النبذ والإقصاء الكلي. فالدهانون متوافرون بكثرة ومن جميع أنحاء ميونخ، ولكن بفضل التعليم الذي حصل عليه من إيريك فانديبورغ، وما يقرب من عقدين من التدريب المستمر، لم يكن هناك أحد في مولشينغ قادر على العزف مثله. صحيح أنه أسلوبه لا يتسم بالكمال، إلا أنه يفيض بالدِفء. وحتى الأخطاء بدت جيدة تحت أنامله.

اعتاد أن يُلقي تحية «يحيا هتلر» عندما يُطلب منه ذلك، كما حمل العلَم في الأيام المناسبة. ولم تكن هناك أية مشكلة واضحة.

ثم، في 16 حزيران / يونيو 1939 (رسخ هذا التاريخ في ذاكرته دائماً)، وبعد مرور ما يقرب من ستة أشهر على وصول ليزيل إلى شارع هيمل، وقع حدث غيّر حياة هانز هوبرمان بشكل لا رجعة فيه.

في ذلك اليوم، كانت لديه بعض أعمال الدهان التي يتعيّن عليه إنجازها.

غادر المنزل في السابعة صباحاً.

وجرّ عربة الدهان خلفه، غافلاً عن حقيقة أن هناك من يتبعه.

عندما وصل إلى موقع العمل، اقترب منه شاب غريب. كان أشقر الشعر، طويل القامة، وجدياً.

نظر الرجلان إلى بعضهما البعض.

سارقة الكتب

- هل أنت هانز هوبرمان؟

أومأ هانز موافقاً. وقال وهو يمدّ يده ليمسك بفرشاة الطلاء:

- نعم، أنا.

- هل تعزف الأكورديون؟

توقف هانز هذه المرة، وترك الفرشاة مكانها.

ومرة أخرى، أومأ موافقاً.

فركَ الغريب فكّه. نظر حوله. ومن ثم تحدّث بهدوء كبير، وبوضوح كبير. «هل أنتَ رجل يفي بوعوده؟».

أخذ هانز علبتي طلاء ودعاه للجلوس على إحداها. ولكن قبل أن يقبل الدعوة، مدّ الشاب يده وعرّف عن نفسه. «اسمي فالتر كوغلر. وقد جئتُ من شتوتغارت».

جلسا وتحدّثا بهدوء لمدة خمس عشرة دقيقة أو نحو ذلك، ورتّبا اجتماعاً في وقت لاحق، عندما يحلّ الليل.

فتاة جيدة

في تشرين الثاني / نوفمبر عام 1940، وصل ماكس فاندينبورغ إلى مطبخ منزل رقم 33 في شارع هيمل، وكان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً. بدت ملابسه وكأنها تُثقل كاهله، والتعب يغالبه لدرجة أن أقل نسمة قد تكسره إلى نصفين. وقف في المدخل مهتزاً.

«هل ما زلت تعزف الأكورديون؟».

بالطبع، السؤال الحقيقي هو: «هل ما زلت ترغب في مساعدتي؟».

مشى بابا إلى الباب الأمامي وفتحه. نظر إلى الخارج بحذر، في كلا الاتجاهين، وعاد. وأطلق الحكم التالي «لا يوجد شيء».

ماكس فاندينبورغ، الشاب اليهودي المتعب، أغمض عينيه وشعر بأنه يقترب قليلاً من السلامة والأمان. الفكرة في حد ذاتها بدت له غير معقولة، إلا أنه قبِلها مع ذلك.

تحقّق هانز من أن الستائر مغلقة بشكل كامل، ومن عدم وجود أي شق فيها. وبينما هو منهمك في ذلك، لم يعد ماكس قادراً على التحمّل. تكوّم على الأرض، شابكاً يديه معاً.

ولفّه الظلام.

حملت أصابعه رائحة الحقيبة، والمعدن، و(كفاحي)، والنجاة.

فقط عندما رفع رأسه، وصل الضوء الخافت من المدخل إلى عينيه. لاحظ وجود فتاة واقفة هناك، ترتدي بيجامتها.

«بابا؟».

وقف ماكس، مثل عود ثقاب مشتعل. وتضخّم الظلام الآن، من حوله.

«كل شيء على ما يرام يا ليزيل». قال بابا، «عودي الى السرير».

توقّفت للحظة قبل أن تجرّ قدميها نحو غرفتها. وبينما هي تسترق نظرة أخيرة على الغريب الذي في المطبخ، استطاعت رؤية كتاب على الطاولة.

«لا تخف»، سمعت بابا يهمس. «إنها فتاة جيدة».

خلال الساعة القادمة، بقيت الفتاة الجيدة مستيقظة في سريرها، وهي تستمع إلى الجمل الهادئة غير المفهومة المتسرّبة من المطبخ.

بقيت بطاقة واحدة لمّا تُلعب بعد.

تاريخ موجز عن الملاكم اليهودي

وُلد ماكس فاندينبورغ في عام 1916.

ونشأ في شتوتغارت.

عندما كان أصغر سناً، أكثر ما أحبّه هو عراك جيد بالأيدي.

دخل أول شجار له عندما كان عمره إحدى عشرة سنة، وجسده نحيلٌ كمقبض مكنسة.

ينزل غروبر.

هذا هو اسم خصمه. ذو الفم السليط، والشعر المجعّد.

طالب الأطفالُ في الملعب المحلي بأن يتقاتلا، ولم يمانع أي من الصبيين.

قاتلا مثل الأبطال.

لدقيقة واحدة.

وعندما أصبح الوضع مثيراً للاهتمام، جُرّ الطفلان من ياقاتهما، من قبل أحد الآباء.

سارقة الكتب

تقاطرت نقطة دم من فم ماكس.

ذاق طعمها، وبدا طعمها جيداً.

لم يكن الكثيرون من أبناء حيّه مقاتلين، وإذا كانوا، فلم يفعلوا ذلك بقبضاتهم. في تلك الأيام، اعتاد الناس على القول بأن اليهود يُفضّلون الوقوف ببساطة وتلقّي الضربات، وسوء المعاملة بصمت، ومن ثم يجدون طريقهم للتفوق. من الواضح أن اليهود ليسوا كُلّهم سواسية.

كان يبلغ من العمر سنتين تقريباً عندما مات والده، ممزقاً إلى أشلاء على تلة عشبية.

وعندما أصبح في التاسعة من عمره، أفلست والدته تماماً. باعت استوديو الموسيقى الذي كان بمثابة شقّتهما وانتقلا للعيش في منزل عمه. نشأ هناك مع ستة من أبناء عمه الذين ضربوه، وأزعجوه، وأحبوه على حد سواء. القتال مع أكبرهم، إسحاق، كان بمثابة تدريب مكثّف على القتال بالقبضات، إلا أنه هُزم على يده في كل ليلة تقريباً.

عندما بلغ الثالثة عشرة من العمر، ضربت مأساة أخرى الأسرة. توفي عمه.

مثل أغلبية اليهود، لم يكن العم متهوراً مثل ماكس. بل هو من النوع الذي يعمل بصمت مقابل الحصول على الفتات. لم يكن رجلاً غنياً، ولم يغتصب حق أي شخص آخر. مات من جرّاء نمو شيء في بطنه، شيء يشبه كرة البولينغ المليئة بالسُم.

وكما هو الحال في كثير من الحالات المشابهة، أحاطت الأسرة بسرير المريض وشاهدته يستسلم.

على نحو ما، بين الحزن والخسارة، ضربت خيبة أمل ماكس فاندينبورغ، الذي كان حينها يافعاً في سن المراهقة، ويتمتّع بيدين قويتين،

سارقة الكتب

وعينين محاطتين بالكدمات، وأسنان متقرحة. بل حتى أنه أصبح ساخطاً، وهو يُشاهد عمه يغرق ببطء في سرير الموت. لذلك فقد اتّخذ قراره بأنه لن يسمح لنفسه بالموت بهذه الطريقة.

بدا وجه الرجل مستسلماً وخانعاً تماماً، وظهر شديد الصفرة والهدوء، على الرغم من الشكل الفج لجمجمته، وفكه الكبير الذي لا نهاية له، وعظام خده البارزة، وعينيه الغائرتين. كان هادئاً جداً لدرجة جعلت الصبي يرغب في طرح سؤال.

أين هي الرغبة في القتال؟ تساءل.

أين هي إرادة التشبّث بالحياة والاستمرار؟

بالطبع، بالنسبة إلى يافع في الثالثة عشرة من عمره، فقد كان ماكس مفرطاً قليلاً في قسوته. فكيف له أن يُطلق أحكاماً بهذه الطريقة، وهو لم يلتقِ وجهاً لوجه بأحد يُشبهني. على الأقل ليس بعد.

مثل بقيّة أفراد الأسرة، وقف حول السرير وشاهد الرجل يموت – في حالة اندماج آمن بين الحياة والموت. بدا ضوء النافذة رمادياً وبرتقالياً، بلون جلد الصيف، وبدا عمه مرتاحاً عندما انقطع تنفسه أخيراً.

«عندما يقبضني الموت»، توعّد الصبي، «فسيشعر بثقل قبضتي على وجهه».

شخصياً، أنا أحبُّ مثل هذه الوعود. ومثل هذه البسالة الغبية.

نعم فعلاً.

أنا أحبُّ ذلك كثيراً.

منذ تلك اللحظة، بدأ في خوض جولات القتال بانتظام أكبر. حيث تجتمع مجموعة من الأصدقاء والأعداء الأشداء في منطقة صغيرة في شارع شتيبر، ليتقاتلوا تحت الضوء الخافت. ألمان أصليون، ويهودي

غريب، وفتيان من الشرق. لم يهم. فليس هناك ما يوازي معركة جيدة للتفريغ عن الطاقة التي يضُج بها سن المراهقة. حتى الأعداء كانوا على بعد شعرة واحدة من أن يُصبحوا أصدقاء.

استَمتَع بالحلقات الضيقة والمجهول.

بحلاوة ومرارة عدم اليقين:

الفوز أو الخسارة.

إنه ذلك الشعور القوي المضطرب الذي يستبيح المعدة إلى أن يعجز المرء عن تحمله. وهنا يكمن العلاج الوحيد في المضي قُدماً وتوجيه اللكمات. فماكس لم يكن من النوع الذي يموت وهو يفكّر في ضعفه ذاك.

عندما يذكر تلك الأيام، يرى أن معركته المفضّلة هي النزال الخامس ضد طفل طويل القامة، وقوي، يُدعى فالتر كوغلر. كانا بعمر خمسة عشر عاماً، وقد فاز فالتر بالنزالات الأربعة السابقة، إلا أن ماكس يشعر هذه المرة بشيء مختلف. فهناك دم جديد يمرٌّ في عروقه - دم النصر - ولديه القدرة على التخويف والإثارة.

كما هو الحال دائماً، فهناك حلقة ضيقة من المتفرجين حولهم، وأرض قذرة، وابتسامات محفورة على الوجوه الفضولية، والمال المحمول في الأصابع القذرة، والنداءات والصرخات التي يضج بها المكان.

يا إلهي! إنه مزيج لا يوصف من الفرح والخوف، هذا الضجيج الرائع.

المقاتلان منغمسان في حماسة اللحظة، ووجوههما مُحمّلة بتعبير جدي، يبدو مبالغاً فيه نتيجة الضغوط، فالتركيز الكبير.

بعد دقيقة أو نحو ذلك من اختبار بعضهما البعض، بدآ بالتحرك أقرب، وأخذ المزيد من المخاطر. إنه قتال شوارع بعد كل شيء، وليس معركة طويلة للحصول على لقب. ولم يكن لديهما النهار بطوله لحسم المعركة.

«هيا، ماكس!» نادى عليه أحد أصدقائه. من دون أن يتوقّف ليلتقط أنفاسه بين أي من هذه الكلمات: «هيا ماكسي تاكسي ستنال منه الآن ستنال منه أيها الصبي اليهودي ستنال منه ستنال منه!».

طفل صغير بخصلات شعر ناعمة، وأنف نال حصته من الضرب، وعيون غائمة، إنه ماكس، الذي كان أقصر من خصمه. أسلوبه القتالي تعوزه الأناقة تماماً، حيث يقاتل منحنٍ على نفسه، ويندفع إلى الأمام، ليكيل اللكمات بسرعة في وجه كوغلر. بدا الصبي الآخر، أقوى بشكل واضح وأكثر مهارة، وبقي في وضع مستقيم، وهو يصبُّ اللكمات باستمرار على خدّي ماكس وذقنه.

استمر ماكس في المناورة والهجوم.

وحتى مع الامتصاص الثقيل للكمات والعقاب، واصل التحرّك إلى الأمام. غيّر الدم من لون شفتيه، وقريباً سيجف على أسنانه.

سُمع هدير كبير عندما سقط أرضاً. حتى كاد المراهنون أن يحصلوا على غنائمهم.

وقف ماكس.

تعرّض للضرب مرّة أخرى قبل أن يُغيّر من تكتيكاته، وبذلك أغرى فالتر كوغلر بالاقتراب أكثر من عادته. وبمجرّد أن وصل إلى القرب المطلوب، أصبح ماكس قادراً على تطبيق لكمة قصيرة، قاسية على وجهه. على الأنف تماماً.

كوغلر، الذي استحالت عيناه عمياء فجأة، ارتدّ إلى الخلف، واستغلّ ماكس فرصته. تبعه إلى اليمين ولكمه مرّة أخرى، ومن ثم وجّه إليه لكمة وصلت إلى أضلاعه. وأخيراً، أنهته اليد اليمنى التي استقرّت على ذقنه. وقع فالتر كوغلر على الأرض، وشعره الأشقر ملطّخ بالأوساخ. انفرجت

ساقاه على شكل حرف V. وانهمرت الدموع مثل الكريستال على وجهه، على الرغم من أنه لم يكن يبكي. إلا أن الدموع انفجرت من عينيه.

الحلقة المحيطة بهما بدأت بالعد.

اعتادوا على العدّ دائماً، تحسّباً لأي خطأ. الأصوات والأرقام.

العادة بعد المعركة تنصّ على أن من شأن الخاسر أن يرفع يد المنتصر. عندما وقف كوغلر أخيراً، مشى متجهماً نحو ماكس فاندينبورغ ورفع ذراعه في الهواء.

«شكراً»، قال له ماكس.

وقدّم كوغلر تحذيراً. «في المرة القادمة سأقتلكَ».

على مدى السنوات القليلة التالية، خاض ماكس فاندينبورغ وفالتر كوغلر ثلاثة عشر نزالاً. حيث سعى فالتر دوماً إلى الانتقام من الفوز الأول الذي حقّقه ماكس عليه، وسعى ماكس إلى محاكاة لحظة المجد التي حقّقها. وفي النهاية، حُسم سجل الانتصارات لصالح فالتر (10-3).

قاتلا بعضهما البعض حتى عام 1933، حينها كانا بعمر السابعة عشر. وتحوّل الاحترام الصارخ إلى صداقة حقيقية، وغادرتهما الرغبة في القتال. شغل كل منهما وظيفة إلى أن أُقيل ماكس مع بقية اليهود من مصنع جدرمان الهندسي في عام 1935، وذلك بعد وقت قصير من صدور قوانين نورمبرغ، التي تمنع اليهود من الحصول على الجنسية الألمانية، وتمنع الزواج بين الألمان واليهود.

«يا يسوع!»، قال فالتر مساء أحد الأيام عندما التقيا على الزاوية الصغيرة حيث كانا يتقاتلان. «تلك هي الأيام الجميلة، أليس كذلك؟ لم يكن هناك أي شيء من هذا الهراء». وربّت بظاهر يده على النجمة الموضوعة على كُم ماكس. «لا يمكننا الآن أن نتقاتل مثل تلك الأيام».

سارقة الكتب

ماكس خالفه الرأي. «نعم يمكننا. لا يمكنكَ الزواج من اليهود، ولكن ليس هناك قانون يمنع قتالكَ واحداً منهم».

ابتسم فالتر. وتابع ماكس «بل على العكس، ربما يكون هناك قانون يُكافئ ذلك - طالما تفوز أنتَ».

خلال السنوات القليلة القادمة، اجتمعا ببعضهما البعض بشكل متقطّع في أحسن الأحوال. فماكس، مثل بقية اليهود، كان يتعرّض للرفض بشكل مُطّرد ويُهان مراراً وتكراراً. في حين غرق فالتر في عمله، في شركة طباعة.

إذا كنتم من النوع الذي يهتم بمثل هذه المواضيع، فيسّرني أن أقول لكم بأنه نعم، كانت هناك بضع فتيات مررن في حياة الشابين خلال تلك السنوات. تدعى إحداهن تانيا، والأخرى هيلدي. لم تدم العلاقة مع أي منهما. لم يكن هناك وقت، وذلك يعود على الأرجح إلى عدم اليقين والضغط المتصاعد. كما احتاج ماكس إلى البحث عن عمل، فماذا في وسعه أن يقدّم إلى مثل هؤلاء الفتيات؟ وبحلول عام 1938، كان من الصعب تصوّر أن تُصبح الحياة أكثر صعوبة.

ثم حلّ يوم 9 تشرين الثاني / نوفمبر. ليلة الكريستال. ليلة البلّور المكسور.

في تلك الليلة، لحق الدمار بالكثيرين من أترابه اليهود، إلا أنها كانت كذلك لحظة هروب ماكس فاندينبورغ.

كان في الثانية والعشرين من عمره.

في تلك الليلة، دُمّرت العديد من المؤسّسات اليهودية ونُهبت. طُرق باب الشقة بقوة كادت أن تحطمه. مع عمته، ووالدته، وأبناء عمه وأطفالهم، انحشر ماكس في غرفة المعيشة.

«افتحوا الباب!».

نظر أفراد العائلة كلٌّ منهم إلى الآخر. شعروا بإغراء كبير للتشتت في الغرف الأخرى، إلا أن الخوف أغرب من أي شعور آخر. فقد أصبحوا عاجزين عن التحرك.

سُمع الصوت مرّة أخرى. «افتحوا!».

وقف إسحاق وسار إلى الباب. استحال خشب الباب إلى الحياة، وهو ينبض من شدة الضرب. نظر وراءه إلى الوجوه المجرّدة من أي شيء إلا الخوف. أدار القفل وفتح الباب.

كما هو متوقّع، إنه نازي يرتدي الزي الرسمي.

«أبداً».

تلك كانت إجابة ماكس الأولى.

وتعلّق بيد والدته، وسارة، أقرب أبناء عمومته إلى قلبه. «لن أغادر. إذا لم نذهب جميعاً، فلن أذهب أيضاً».

كان يكذب.

عندما دفعته بقية عائلته، تصارعت مشاعر الراحة في داخله وكأنها فاحشة. فلم يكن يريد أن يشعر بها، إلا أنه ومع ذلك شعر بها، مختلطة مع مزيج من الخوف الذي جعله يشعر برغبة في التقيؤ. أنّى له أن يفعل ذلك؟ كيف استطاع أن يفعل ذلك؟

لكنه فعل.

«لا تجلب شيئاً». قال فالتر، «فقط ثيابك التي عليك. سأعطيكَ البقية».

«ماكس»، قالت أمّه.

وأخرجت من أحد الأدراج ورقة قديمة ودسّتها في جيب سترته. «في حال...»، وعانقته للمرة الأخيرة، ومن ثم أضافت: «قد تكون هذه الورقة أملكَ الأخير».

سارقة الكتب

نظر إلى وجهها المتقدّم في العمر وقبّلها، بقوة، على الشفتين.

«هيا». سحبه فالتر، بينما ودعته بقية الأسرة، وقدمت له المال وبعض الأشياء الثمينة. «الفوضى في كل مكان، والفوضى هي ما نحتاجه تماماً».

غادرا، من دون النظر إلى الوراء.

عذّبه ذلك.

كم تمنّى لو أنه التفت ليُلقي نظرة أخيرة على عائلته وهو يغادر الشقة. ربما عندها لن يكون الذنب ثقيلاً إلى هذه الدرجة.

لا وداعاً نهائياً.

لا نظرة أخيرة تتشابك فيها العيون.

لا شيء سوى الغياب.

على مدى السنتين التاليتين، ظلّ مختبئاً في غرفة تخزين فارغة. في مبنى حيث عمل فالتر في السنوات السابقة. لم يحصل إلا على فُتات الطعام. في ذلك الوقت، كان هناك الكثير من الريبة. أما بالنسبة إلى بقية اليهود في الحي، فقد هاجر أصحاب الأموال، بينما حاول اليهود الفقراء الهجرة من دون تحقيق الكثير من النجاح. كانت عائلة ماكس من الفئة الثانية. وقد جهد فالتر للاطمئنان على أحوالهم بين الحين والآخر، بحيث لا يلفت الأنظار إليه. وعندما زارهم من بعد ظهر أحد الأيام، فتح شخص آخر الباب.

عندما سمع ماكس الأخبار، شعر بجسده ينكمش إلى كرة، مثل صفحة مليئة الأخطاء. مثل القمامة.

في كل يوم، حاول تقوية نفسه، وهو يشعر بالاشمئزاز والامتنان. كان محطّماً، إلا أنه – وبطريقة أو بأخرى – لم يتمزق إلى شظايا.

في منتصف عام 1939، أي بعد نحو ستة أشهر من اختبائه، قرّر

سارقة الكتب

الصديقان ضرورة اتخاذ مسار جديد للعمل. تفحّصا الورقة التي تسلّمها ماكس عندما هجر عائلته. هذا صحيح - رأى فعلته على أنها هجر لعائلته، وليس هروباً للنجاة. لم يستطع النظر إلى الموضوع من زاوية أخرى - أغرقه عذاب الضمير.

نحن نعرف بالفعل ما كُتب على تلك الورقة:

اسم واحد، وعنوان واحد

هانز هوبرمان

منزل رقم 33، شارع هيمل، بلدة مولشينغ.

«الوضع يزداد سوءاً». قال فالتر لماكس: «في أي وقت الآن، قد يكتشفون أمرنا. لا نعرف ما قد يحدث. قد يُمسكون بي. قد يتعيّن عليكَ العثور على هذا المكان... أنا أخاف جداً أن أطلب المساعدة من أي شخص هنا. قد يحتجزونني». لم يكن هناك سوى حل واحد فقط. «سأذهب إلى هناك وأجد هذا الرجل. إذا تحوّل إلى نازي - وهو أمر محتمل جداً - فسأعود أدراجي. على الأقل سنعرف حينها، أليس كذلك؟»؟

أعطاه ماكس آخر قرش يملكه للقيام بالرحلة، وبعد بضعة أيام، عندما عاد فالتر، تعانقا قبل أن يحبس ماكس أنفاسه. ويسأل: «ماذا إذاً؟».

أومأ فالتر. «إنه جيد. ما زال يعزف على الأكورديون الذي أخبرتك والدتكَ عنه - أكورديون والدك. وهو ليس عضواً في الحزب. لقد أعطاني بعض المال، إنه فقير ومتزوج، وهناك طفلة في المنزل».

أثارت هذه النقطة اهتمام ماكس. «كم تبلغُ من العمر؟».

- عشر سنوات. لا يمكن أن يكون كل شيء كامل.

سارقة الكتب

- نعم فعلاً. فالأطفال ثرثارون.

- نحن محظوظان لأننا عثرنا عليه على هذه الحال.

جلسا في صمت لبعض الوقت. ماكس هو أول مَن بادر لكسر الصمت.

- أظن أنه قد بدأ يكرهني بالفعل، أليس كذلك؟

- لا أعتقد ذلك. فقد أعطاني المال، أليس كذلك؟ وقال بأن الوعد يبقى وعداً.

بعد أسبوع، جاءت رسالة. أخبر هانز فالتر كوغلر بأنه سيحاول إرسال أشياء للمساعدة كلما استطاع. وضم في الرسالة خريطة من صفحة واحدة لبلدة مولشينغ وميونخ الكبرى، فضلاً عن طريق مباشر يؤدي من باسينغ (محطة القطار الأكثر موثوقية) إلى الباب الأمامي لمنزله. وفي رسالته، كانت الكلمات الأخيرة واضحة.

«كُن حذراً».

في منتصف أيّار / مايو 1940، وصل كتاب (كفاحي)، مع مفتاح ملصق على الغلاف الداخلي.

الرجل عبقري، قرّر ماكس، لكن الرعب ما زال يجتاحه بمجرّد التفكير في السفر إلى ميونخ. من الواضح أنه تمنّى - وكذلك جميع الأشخاص المعنيّون الآخرون - عدم القيام بهذه الرحلة على الإطلاق.

لكن المرء لا يحصل دائماً على ما يريد.

خصوصاً في ألمانيا النازية.

مرّة أخرى، مر الزمن.

واتّسعت دائرة الحرب.

وظلّ ماكس مخفياً عن العالم في غرفة فارغة أخرى.

إلى أن حدث المحتوم.

تم إخطار فالتر بأنه سيُرسل إلى بولندا، لمواصلة توطيد سلطة ألمانيا على كلٍ من البولنديين واليهود على حد سواء. وحال أحدهما لم يكن أفضل بكثير من الآخر.

حان الوقت.

ذهب ماكس في طريقه إلى ميونخ ومولشينغ، وهو يجلس الآن في مطبخ غريب، يطلب المساعدة التي ينشدها، ويعاني من الإدانة التي شعر بأنه يستحقها.

مدّ هانز هوبرمان يده لمصافحته وقدّم نفسه.

أعدّ له بعض القهوة في الظلام.

ذهبت الفتاة منذ بعض الوقت، إلا أن بعض الخطى القوية قد اقتربت الآن. إنها ورقة اللعب التي لم تُلعب بعد.

في الظلام، كان ثلاثتهم معزولين تماماً.

حدّقوا جميعاً في بعضهم بعضاً. وكسرت المرأة الصمت.

غضب روزا

عادت ليزيل إلى النوم عندما دخل صوت روزا هوبرمان الذي لا لبس فيه المطبخ. وأيقظها لشدته.

«ما الذي يحدث هنا؟».

الفضول كان أكثر ما شعرت به ليزيل حينها، وهي تتخيّل روزا تصبّ جام غضبها على الاثنين في خطبة قاسية من الشتائم التي لا تتوقف. سمعت بالتأكيد صوت حركة وتحريك كرسي.

بعد عشر دقائق من ضبط النفس، شقّت ليزيل طريقها نحو الممر، وما رأته أدهشها حقاً: روزا هوبرمان واقفة بجانب ماكس فاندينبورغ، وهي تشاهده يتناول حساء البازلاء السيئ السمعة الذي تُعدّه. الشموع مضاءه على الطاولة. ولم تكن ترتجف.

بدت ماما خطيرة.

وقلقة.

على نحو ما، وعلى الرغم من ذلك، اعتلت وجهها أيضاً ملامح الانتصار، إلا أنه ليس الانتصار الذي ينبع من إنقاذ إنسان آخر من

سارقة الكتب

الاضطهاد، بل شيء من قبيل، «انظر؟ فهو لا يشكو من حسائي». وهي تُنقّل نظرها من الحساء إلى اليهودي ومن ثم إلى الحساء مجدداً.

عندما تحدّثت مرّة أخرى، سألته فقط عما إذا كان يريد المزيد.

رفض ماكس، مفضّلاً بدلاً من ذلك الإسراع إلى المغسلة والتقيؤ. كان ظهره متشنجاً وذراعاه مشدودتين كثيراً.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!»، تمتمت روزا. «لقد انضم إلى جوقة الكارهين لحسائي».

استدار نحوهما، وقدّم ماكس اعتذاره. كلماته متقطعة وصغيرة، يقمعها الحمض الذي يشعر به في معدته. «أنا آسف. أظن أنني أكلتُ كثيراً. معدتي، كما تعلمون، لقد مضى طويل منذ أن... لا أعتقد أنه يمكن لها هضم مثل...».

«ابتعد»، أمرته روزا. وبدأت التنظيف.

عندما انتهت، وجدت الشاب جالساً إلى طاولة المطبخ، عابساً تماماً. وجلس هانز قبالته، واضعاً يديه على الطاولة.

أمكن لليزيل أن ترى من الممر، وجه الغريب، ومن خلفه، التعبير القلق المخربش بشكل فوضوي على وجه ماما.

تقدّمت ليزيل إلى المطبخ، ونظرت إلى والديها بالتبني.

مَن هما حقاً؟

سارقة الكتب

محاضرة ليزيل

السؤال، مَن هما هانز وروزا هوبرمان، لم يكن أسهل مشكلة تتطلب الحل. هل هما من فئة الأناس اللطفاء؟ أم من الجهلاء تماماً؟ أم من الذين يُشكّ في سلامتهم العقلية ؟

أما المأزق الذي جلباه على نفسيهما فهو الجزء الأسهل الذي يمكن فهمه.

حال هانز وروزا هوبرمان

شائكة جداً في الواقع.
شائكة إلى درجة مرعبة.

عندما يظهر يهودي في مكان سكنكم في الساعات الأولى من الصباح، وتحديداً في مسقط رأس النازية، فمن المرجّح أن تواجهكم مستويات شديدة من الانزعاج، والقلق، والدهشة، والارتياب. كل من هذه المشاعر يلعب دوره، وكل منها يؤدي إلى شك مُتسلل بأن نتيجة كارثية آتية لا محالة. والخوف يلتمع بشكل لا يرحم في العيون.

سارقة الكتب

النقطة المفاجئة التي لا بدّ من ذكرها، هي أنه، وعلى الرغم من هذا الخوف البرّاق في الظلام، فقد قاوموا جميعهم بطريقة ما إلحاح الوقوع ضحية الهستيريا.

أمرت ماما ليزيل بالابتعاد والذهاب إلى غرفتها.

«إلى سريركِ، أيتها الخنزيرة». صوتها هادئ وإنما حازم. لم تكن على طبيعتها أبداً.

لحقها بابا بعد بضع دقائق، ورفع الأغطية عن السرير.

- هل كل شيء على ما يرام يا ليزيل؟

- أجل يا بابا.

«كما ترين، فلدينا زائر». تمكّنت فقط من رؤية الهيئة الطويلة لهانز هوبرمان في الظلام. «وسينام هنا هذه الليلة».

- حسناً يا بابا.

بعد بضع دقائق، أصبح ماكس فاندينبورغ في الغرفة، بلا ضوضاء وبشكل مبهم. الرجل الغريب لم يتنفس، ولم يتحرك. ومع ذلك، انتقل بشكل ما من باب الغرفة إلى السرير الفارغ دوماً، واندس تحت الأغطية.

«هل كل شيء على ما يرام؟»

سأل بابا مرّة أخرى، إلا أنه خاطب ماكس هذه المرّة.

خرج الرد عائماً من فم الغريب، ومن ثم صبّ نفسه مثل وصمة التصقت بالسقف. هكذا هو شعوره بالعار. «نعم. شكراً لكَ». كرّر قول ذلك مرّة أخرى، عندما أصبح بابا في طريقه إلى موقعه المعتاد على الكرسي المجاور لسرير ليزيل. «شكراً لكَ».

مرّت ساعة أخرى قبل أن تغفو ليزيل.

نامت بعمق ولمدة طويلة.

سارقة الكتب

أيقظتها يد بعد الثامنة والنصف بقليل في صباح اليوم التالي.

وأبلغها الصوت المرتبط بتلك اليد بأنها لن تذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم، بحجة أنها مريضة.

عندما استيقظت تماماً، شاهدت الغريب نائماً في السرير المقابل. وأظهرت البطانية شعره المشعث فقط. لم يصدر عنه أي صوت، كما لو أنه درّب نفسه بطريقة أو بأخرى على النوم بهدوء أكثر من باقي البشر.

بانتباه كبير، مرّت بجانبه، ولحقت ببابا.

للمرة الأولى على الإطلاق، كان المطبخ وماما هادئين، حيث ساد نوع من الصمت الاستهلالي المقلق. ولراحة ليزيل، فلم يدم إلا بضع دقائق فقط.

بدأوا بتناول طعام، وتصاعد صوت مضغ الطعام.

وعلى الفور، شرعت ماما بإعلان الحدث ذي الأولوية اليوم. جلست إلى طاولة المطبخ، وقالت: « اسمعي الآن يا ليزيل. سوف يخبركِ بابا بشيء مهم اليوم». بدا الموضوع جدياً - فهي لم تقل كلمة خنزيرة حتى. وهذا إنجاز شخصي في الامتناع عن كيل الشتائم. «سوف يتحدث معكِ، وعليكِ أن تستمعي إليه. هل هذا واضح؟».

الفتاة ما تزال تحاول أن تفهم غرابة الوضع.

«هل هذا واضح، أيتها الخنزيرة؟» هذا أفضل، فقد عادت إلى طبيعتها.

وأومأت الفتاة موافقة.

عندما دخلت إلى غرفة النوم مرّة أخرى لجلب ملابسها، استدار الجسد في السرير المقابل وتكوّر على نفسه. لم يعد جسداً مستقيماً بل شكلاً من أشكال حرف Z، ممتداً بشكل قُطري من الزاوية إلى الزاوية، ومتعرّجاً في السرير.

سارقة الكتب

أصبحت قادرة على رؤية وجهه الآن، تحت الضوء المتعب. كان فمه مفتوحاً وبشرته بلون قشر البيض. غطّى الشعر فكه وذقنه، وبدت أذناه قاسيتين ومسطحتين. أنفه صغير وإنما غريب الشكل.

«ليزيل!».

استدارت.

«هيا بسرعة!».

وذهبت إلى الحمام.

بعد أن غيّرت ملابسها وأصبحت في الممر، أدركت أنها لن تذهب بعيداً. فبابا يقف أمام باب القبو، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة جداً. أضاء المصباح وقادها إلى الأسفل.

بين رائحة الطلاء وأكوام من الأوراق التي يستخدمها لمنع تلويث الأرض بالدهان، طلب منها بابا أنِ تجلس. تحمل الجدران الكلمات التي تدرّبت عليها في الماضي. «عليّ أن أخبركِ ببعض الأشياء».

جلست ليزيل على رأس كومة من الأوراق، وجلس بابا على علبة طلاء كبيرة. لبضع دقائق، بحث عن الكلمات. وعندما عثر عليها، وقف ليقولها. فرك عينيه.

«ليزيل»، قال بهدوء، «لم أكن متأكداً يوماً من أن أياً من هذا سيحدث، لذلك لم أخبركِ... عني... وعن الرجل في الطابق العلوي». سار من أول القبو إلى آخره، وضوء المصباح يُضخّم ظله حيث أحاله إلى عملاق على الحائط، يسير ذهاباً وإياباً.

عندما توقف عن المشي، بقي ظله وراءه، يشاهد ما يحدث. شخص ما يراقب دائماً.

«هل تعرفين الأكورديون الخاص بي؟» قال، وهناك، بدأت القصّة.

شرح لها عن الحرب العالمية الأولى، وعن إريك فانديبورغ، ووصف لها الزيارة التي قام بها إلى زوجة الجندي الميّت. «الصبي الذي جاء إلى الغرفة في ذلك اليوم هو الرجل الموجود في الطابق العلوي. هل فهمتِ؟».

جلست سارقة الكتب واستمعت إلى قصّة هانز هوبرمان، التي استمرّت لنحو ساعة من الزمن، إلى أن حانت لحظة الحقيقة، التي تضمّنت محاضرة واضحة وضرورية جداً.

«ليزيل، عليكِ أن تستمعي إليّ». جعلها بابا تقف وحمل يدها بين يديه.

واجها الجدار.

حيث الأشكال الداكنة والكلمات التي تدرّبت عليها فيما مضى.

أمسك أصابعها بحزم.

«هل تذكرين عيد ميلاد الفوهرر - عندما سِرنا من جانب كومة النار إلى المنزل في تلك الليلة؟ هل تذكرين ما وعدتني به؟».

وافقته الفتاة. قالت ووجهها إلى الجدار: «وعدّتكَ بأنني سأحفظ سراً».

«هذا صحيح». بين ظلال اليدين المتشابكتين، تناثرت الكلمات المكتوبة، وهي تطفو على أكتافهما، وتستريح على رأسيهما وتتعلق من أذرعهما. «ليزيل، إذا أخبرتِ أي شخص عن الرجل الموجود في منزلنا، فسنكون جميعنا في ورطة كبيرة». مشى على الخط الدقيق بين إخافتها لتدخل في غياهب النسيان، وتهدئتها بما يكفي لتبقى هادئة. أطعمها الجُمَل وراقبها بعينيه المعدنيتين. وأضاف بيأس وهدوء: «على أقل تقدير، سوف تُؤخذ ماما وأنا بعيداً». بدا هانز قلقاً بشكل واضح لأنه على وشك إخافتها إلى حد كبير، إلا أنه أخذ في حسبانه درجة الخطر، مفضّلاً أن يُخطئ في التسبّب بالكثير من الخوف بدلاً من عدم إثارة ما يكفي منه. ففي النهاية ينبغي أن يكون امتثال الفتاة حقيقة مطلقة لا تتغيّر.

في نهاية المطاف، نظر هانز هوبرمان إلى ليزيل ميمنجر وتأكّد من أنها تُركّز على ما يقوله.

قدّم لها قائمة بالعواقب. «إذا أخبرتِ أي شخص عن هذا الرجل...».

معلّمتها.

رودي.

وبغض النظر عن هوية الشخص الذي ستكشف له السر.

فما يهم هو أن ذلك سيجلب البلاء على العائلة.

«بداية»، قال: «سوف آخذُ كل كتبكِ - وأحرقها». بدا قاسي القلب. «سأرميها في الموقد، أو المدفأة». كان يتصرّف بالتأكيد مثل الطاغية، إلا أن ذلك ضروري. «هل تفهمين؟».

الصدمة حفرت ثقباً في قلبها، دقيقاً جداً.

تراكمت الدموع في عينيها.

«أجل يا بابا».

«ومن ثم». عليه أن يبقى قاسياً، واضطر إلى إجبار نفسه على ذلك. «سوف يأخذونكِ بعيداً عني. هل تريدين ذلك؟».

أصبحت تبكي الآن، بجدية. «لا».

«جيد». اشتدت قبضته على يدها. «سوف يجرّون الرجل بعيداً، وربما ماما وأنا - ولن نعود أبداً».

كان ذلك كافياً لتأدية الغرض المطلوب.

بدأت الفتاة بالنحيب على نحو لا يمكن السيطرة عليه لدرجة أن بابا تحرّق إلى ضمها لتهدئتها. إلا أنه لم يفعل. وبدلاً من ذلك، وضع وجهه قبالة وجهها ونظر مباشرة إلى عينيها. وأطلق العنان لأهدأ كلماته حتى الآن. «فيرشتيست دو ميش؟ هل تفهمينني؟».

هزّت الفتاة رأسها موافقة. وبكت.

الآن، وهي مهزومة، ومحطمة، ضمّها بابا تحت ثقل الهواء المحمّل برائحة الدهان وضوء الكيروسين.

«أنا أفهم يا بابا، أنا أفهم».

بدا صوتها مكتوماً في معانقته، وبقيا هكذا لبضع دقائق.

كافحت ليزيل لاستعادة أنفاسها، وربّت بابا بحنو على ظهرها.

عندما عادا إلى الطابق العلوي، وجدا ماما جالسة في المطبخ، وحدها متأملة. عندما رأتهما، وقفت وأشارت إلى ليزيل لتقترب أكثر. لاحظت الدموع التي جفّت على وجهها، وضمّت الفتاة إليها في معانقة خشنة. «آليس غوت ساومنينش؟ هل كل شيء على ما يرام، أيتها الخنزيرة؟».

لم تكن في حاجة إلى إجابة.

كل شيء على ما يرام.

إلا أنه فظيع أيضاً.

النائم

نام ماكس فاندينبورغ لثلاثة أيام متتالية.

ضمن فترات معينة من هذا النوم، راقبته ليزيل. ويمكننا القول إنه بحلول اليوم الثالث، تحوّل الأمر إلى هاجس، فقد انشغلت بمراقبة وضعه، لمعرفة إن كان ما يزال يتنفس أم لا. أصبح في إمكانها الآن أن تفهم علامات الحياة التي تصدر عنه: حركة شفتيه، ولحيته المبعثرة، وخصل شعره التي تتحرّك قليلاً عندما ينتفض رأسه في حالة الحلم.

في كثير من الأحيان، عندما تقف فوق رأسه، تخطر لها فكرة مخزية بأنه قد استيقظ للتو، وبأن عينيه نصف المغمضتين تراقبانها وهي تتأمله. فكرة إمساكها بالجرم المشهود أقلقتها وحمّستها في آن معاً. أخافتها الفكرة، إلا أنها احتفظت بها. وفقط عندما تناديها ماما، كانت تجرّ نفسها بعيداً، وهي تشعر بالراحة وخيبة الأمل لأنها قد لا تكون موجودة معه هناك عندما يستيقظ.

في بعض الأحيان، مع اقتراب ماراثون النوم من نهايته، كان يتمتم.

حيث يسرد عدّة أسماء، كقائمة مرجعية.

سارقة الكتب

إسحاق. العمة روث. سارة. ماما. فالتر. هتلر.

العائلة، الصديق، العدو.

كانوا جميعاً معه تحت غطاء سريره، وفي مرحلة ما، بدا أنه يصارع شيئاً ما. «لا»، همس. وكرّر ذلك سبع مرات. «لا».

ليزيل، المنشغلة بفعل المشاهدة، لاحظت بالفعل أوجه الشبه بينها وبين هذا الغريب. وصل كلاهما في حالة من الخوف والذعر إلى شارع هيمل. وكلاهما تلاحقهما الكوابيس.

عندما حان الوقت، استيقظ وقد اكتسحه التشويق المخيف المترافق مع عدم إدراكه للمكان الذي يوجد فيه.

بعد عينيه، جلس في الزاوية، ونطق أخيراً.

«آي!».

خرجت دفعة من الصوت من فمه.

عندما رأى الوجه المقلوب للفتاة فوق رأسه، ضربته الفكرة المؤلمة لجهله بالواقع من حوله، وحاجته إلى التذكّر من أجل فك أسرار المكان والزمان الحالي. بعد بضع ثوان، تمكّن من تمالك نفسه والنظر إليها. بدت حركاته مجزأة. وبعد أن فتح عينيه، ظهر مقدار التشوّش والضياع الذي أصاب هاتين العينين البنيتين.

كرد فعل انعكاسي، تراجعت ليزيل إلى الوراء.

تحرّكت ببطيء شديد.

ووصلت يد الغريب، التي تحمل حرارة السرير، إلى ساعدها لتوقفها.

«أرجوكِ».

صوته أيضاً أمسك بها، كما لو أنه يمتلك أظافر غرسها في لحمها.

«بابا!». صرخت بصوت عال.

«من فضلكِ!». قال بهدوء.

حدث ذلك في وقت متأخر من بعد ظهر رمادي ولامع. حيث طغى على الغرفة لون داكن، هو كل ما سمح نسيج الستائر بدخوله. وفي حال كنتم متفائلين، فيمكنكم تخيّله بلون برونزي.

عندما جاء بابا، وقف أولاً في المدخل وشاهد ماكس فاندينبورغ بوجهه اليائس وأصابعه القابضة على ليزيل. «أرى أنكما قد تعارفتما»، قال.

بدأت أصابع ماكس بالارتخاء.

سارقة الكتب

مبادلة الكوابيس

وعد ماكس فاندينبورغ بأنه لن ينام في غرفة ليزيل مرّة أخرى. ما الذي كان يفكر فيه في تلك الليلة الأولى؟ الفكرة في حد ذاتها أرعبته، فهي تحمل الكثير من المخاطر لتلك العائلة الطيبة.

برّر لنفسه بأنه كان مشتتاً جداً عند وصوله لدرجة أنه سمح بمثل هذه المخاطرة. فالقبو هو المكان الوحيد الملائم له، بغض النظر عن البرد والشعور بالوحدة. إنه يهودي، ولا يمكن له سوى التواجد في القبو أو أي مكان آخر مخفي، ليتمكّن من النجاة والبقاء على قيد الحياة.

«أنا آسف»، اعترف لهانز وروزا، وهم ينزلون درجات القبو. «من الآن فصاعداً سأبقى هنا. ولن تسمعوا مني أي شيء. لن أصدر أي صوت».

هانز وروزا، الغارقان في يأس المأزق، لم يجادلاه، ولا حتى فيما يتعلق ببرودة المكان. أعطياه بطانيات، وملآ مصباح الكيروسين. اعترفت روزا له بأنه لن يكون هناك الكثير من الطعام، وفي المقابل طلب منها ماكس بحماس أن تُعطيه الفتات فحسب، وفقط عندما لا يُريد أحد تناولها.

«لا، لا»، أكّدت روزا له. «سأقوم بتغذيتك، بأفضل ما أستطيع».

سارقة الكتب

أنزلا إليه الفراش الموضوع على السرير الفارغ في غرفة ليزيل، ووضعا مكانه كومة من الأوراق التي يستخدمها هانز لمنع تلويث الأرض بالدهان - مبادلة ممتازة.

في القبو، وضع هانز وماكس الفراش تحت الدرج وبنيا جداراً من الأوراق على الجانب. جعلا الأوراق عالية بما فيه الكفاية لتغطية كامل الباب المثلث الشكل، كما تسهُل إزالتها في حال أصبح ماكس في حاجة ماسة إلى هواء إضافي.

اعتذر بابا: «إنه مكان بائس جداً للإقامة فيه، وأنا أدرك ذلك».

«أفضل من لا شيء»، أكّد له ماكس. «أفضل مما أستحق - شكراً لك».

مع وضع بعض علب الطلاء بطريقة جيدة، اعترف هانز أنها تبدو في الواقع وكأنها مجموعة من الخردة المرمية بشكل عشوائي في الزاوية، بعيداً عن الطريق. والمشكلة الوحيدة هي أنه بمجرّد تحريك عدد من علب الطلاء وإزالة ورقة أو اثنتين، يُمكن من السهل كشف مكان اليهودي.

«لنأمل فقط أنها جيدة بما فيه الكفاية»، قال.

«يجب أن تكون». زحف ماكس إليها. وقال مرّة أخرى، «شكراً لك».

شكراً لك.

بالنسبة إلى ماكس فاندينبورغ، هاتان الكلمتان هما الأكثر بؤساً لقولهما، حيث تنافسهما فقط كلمتا «أنا آسف». شعر بدافع دائم لقول كلا التعبيرين، مدعوماً بمصيبة الإحساس بالذنب.

كم مرّة، خلال تلك الساعات القليلة الأولى من الاستيقاظ، شعر برغبة في مغادرة هذا القبو وترك المنزل تماماً؟ لا بدّ من أنه شعر بذلك مئات المرّات.

وعلى الرغم من ذلك، بدا ذلك مجرّد شعور عابر في كل مرّة. ما زاد من سوء الحالة.

سارقة الكتب

أراد أن يخرج – يا إلهي، كم أراد ذلك! (أو على الأقل أراد أن يُريد ذلك) – لكنه أدرك بأنه لن يجرؤ على القيام بذلك. وهذا يُشبه ما حدث له يوم ترك عائلته في شتوتغارت، تحت حجاب الولاء الملفق.

كي يعيش.

البقاء كان العيش.

والثمن هو الذنب والعار.

خلال أيامه الأولى في القبو، لم تتواصل ليزيل معه أبداً. أنكرت وجوده ككل. هو وشعر المتطاير، وأصابعه الباردة والزلقة.

وجوده المعذَّب.

وفي المقابل، طغت جدية كبيرة على ماما وبابا، والكثير من الفشل في صنع القرارات.

فكّرا في إمكانية نقله.

«ولكن إلى أين؟». لم يلقَ السؤال أية إجابة.

في هذه الحالة، كانا بلا أصدقاء، ومشلولين. لم يكن هناك مكان آخر يلجأ إليه ماكس فانديبنورغ. فالمكان الوحيد هو منزلهما.

هانز وروزا هوبرمان. لم ترهما ليزيل يوماً ينظران إلى بعضهما البعض بهذه الكثرة، أو بهذه الجدية.

تولّيا كلاهما مهمة إنزال الطعام إلى القبو وخصّصا علبة طلاء من القصدير ليتبوّل فيها ماكس. حيث يتخلص هانز من المحتويات بأقصى قدر من الحكمة. وكذلك تدبّرت روزا بعض دلاء الماء الساخن ليغسل اليهودي نفسه. فقد بدا قذراً.

في الخارج، قبع جبل من الهواء البارد، الذي يُميّز شهر تشرين الثاني / نوفمبر، عند الباب الأمامي في كل مرّة غادرت فيها ليزيل المنزل.

تساقط رذاذ المطر مثل المجرفة.

وتساقطت الأوراق الميتة على الطريق.

قريباً جداً، سيأتي دور سارقة الكتب لزيارة القبو.

فقد أجبراها على القيام بذلك.

نزلت الدرجات مترددة، وهي تعلم بأنه ما من داع لقول أي شيء. فصوت قدميها يكفي لإيقاظه.

وقفت وانتظرت في وسط القبو. شعرت وكأنها تقف وسط حقل كبير في وقت الغسق. والشمس تغرب وراء محصول من الأوراق التي تم حصادها.

خرج ماكس، وهو يحمل كتاب (كفاحي) بين يديه. كان قد عرض إعادة الكتاب إلى هانز هوبرمان عند وصوله إليهم، إلا أنه أخبره أن في وسعه الاحتفاظ به.

بالطبع، لم تستطع ليزيل، وهي تحمل العشاء بين يديها، أن تُشيح بنظرها عن الكتاب، الذي رأته عدّة مرات في رابطة الفتيات الألمانيات، لكنه لم يُقرأ أو يُستخدم مباشرة في أنشطتهن. كانت هناك إشارات إلى عظمته من حين لآخر، فضلاً عن الوعود بأن فرصة دراسته ستأتي في سنوات لاحقة، مع انتقالهنّ إلى شعبة شبيبة هتلر الأكبر سناً.

لاحظ ماكس اهتمامها بالكتاب، فتفحّصه أيضاً.

«هل...؟» همست.

صدر صوتها غريباً ومجعّداً من فمها.

قرّب اليهودي رأسه قليلاً. «عفواً؟».

قدّمت له حساء البازلاء وعادت إلى الطابق العلوي، مندفعة، حمقاء، ومحمرّة الوجه.

«هل هو كتاب جيد؟».

في الحمام، وأمام المرآة الصغيرة، تدرّبت على قول ما تريده. رائحة البول ما تزال تحيط بها، حيث استخدم ماكس علبة القصدير قبل نزولها إليه بلحظات. يا لها من رائحة نتنة، فكرّت.

على ما يبدو فإن رائحة بول الآخرين هي دائماً أسوأ من رائحة بول المرء نفسه.

تتالت الأيام.

كل ليلة، وقبل أن تذهب إلى النوم، سمعت ماما وبابا في المطبخ يتناقشان حول ما حدث حتى الآن، وما هما بصدد فعله، وما الذي ينبغي القيام به في المستقبل. في الأثناء، بدت صورة ماكس وكأنها تحوم حولها، بوجهه الذي يحمل دوماً تعبيراً ينم عن الشكر، وعينيه المتعبتين.

مرّة واحدة فقط اندلع خلاف في المطبخ.

بابا.

«أعرف!».

كان صوته حاداً، لكنه سرعان ما أعاده إلى همس مكتوم.

«مع ذلك، لا بد لي من الذهاب، على الأقل عدّة مرات في الأسبوع. لا أستطيع البقاء هنا طوال الوقت. نحن في حاجة إلى المال، وإذا تقاعستُ عن العزف هناك فسوف يرتابون. قد يتساءلون لماذا توقفتُ. أخبرتهم بأنك كنتِ مريضة الأسبوع الماضي، وعلينا الآن القيام بكل شيء كما اعتدنا دوماً». وهنا تكمن المشكلة.

فقد تغيّرت الحياة بأشد الطرق الممكنة، ولكن يتحتم عليهم جميعاً أن يتصرفوا كما لو أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

تخيّلوا معي ضرورة رسم ابتسامة على وجوهكم بعد تلقّي صفعة قوية، ومن ثم فكّروا في تكرار ذلك على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم.

هذا تماماً ما يعنيه إخفاء يهودي.

ومع تحوّل الأيام إلى أسابيع، تشكّل الآن قبول مُكره لما حدث - كل ذلك نتيجة الحرب، وهانز الذي حافظ على وعده، والأكورديون. أيضاً، في غضون ما يزيد قليلاً على نصف عام، فقَدَ آل هوبرمان ابنهم، وحصلوا على بديل عنه، ولو كان ذلك وفقاً لمعادلة خطيرة إلى أبعد الحدود.

ما صدم ليزيل على الأكثر هو التغيير الذي طرأ على ماما. سواء من ناحية الحسبة التي قسّمت بها الطعام، أو لجمِها للسانها السليط السيئ السمعة، أو حتى التعبير اللطيف الذي ارتسم على وجهها القاسي.

وفي نهاية المطاف، شيء واحد قد أصبح واضحاً وضوح الشمس الآن.

روزا هوبرمان
هي امرأة جيدة خلال الأزمات.

حتى عندما ألغت هيلين شميدت، المصابة بالتهاب المفاصل، طلباتها من خدمات الغسيل والكي - بعد شهر من وصول ماكس إلى شارع هيمل - اكتفت روزا بالجلوس إلى طاولة المطبخ، وقرّبت وعاء الطبخ نحوها. «سأُعدّ حساءً جيداً الليلة».

كان الحساء رهيباً.

في كل صباح عندما تغادر ليزيل إلى المدرسة، أو في الأيام التي تخرج فيها للعب كرة القدم، أو استكمال ما تبقى من جولة الغسيل، تتحدّث إليها

ماما بهدوء: «تذكّري يا ليزيل...». وتُشير إلى فمها بحركة تدل على ضرورة كتمان السر، وهذا كل شيء. وعندما تومئ ليزيل موافقة، تقول ماما: «فتاة جيدة. انطلقي الآن أيتها الخنزيرة».

صدَقَت بالفعل كلمات بابا، وحتى كلمات ماما، فليزيل بالفعل فتاة جيدة، حيث أبقت فمها مغلقاً في كل مكان تذهب إليه، ودفنت السر عميقاً في قلبها.

سارت في أرجاء البلدة بصحبة رودي كما تفعل دائماً، واستمعت إلى قصصه التي لا تنتهي. في بعض الأحيان، اعتادا على مقارنة ما يشاهدانه في شعب شبيبة هتلر، حيث ذكر رودي للمرة الأولى قائداً سادياً شاباً يُدعى فرانز دويتشر. وفي حال لم ينشغل رودي في الحديث عن طرق دويتشر العنيفة والشديدة، فهو يُعيد مراراً وتكراراً، وبتفصيلات لا نهاية لها، الكيفية التي سجّل فيها هدفه الأخير في ملعب كرة القدم في شارع هيمل.

«أعرف»، تؤكّد له ليزيل. «كنتُ هناك».

– وماذا يعني هذا؟»

– أقصد بأنني رأيتُ ذلك، أيها الخنزير!

– وكيف لي أن أعرف ذلك؟ فكل ما أعرفه أنك عادة ما تكونين مرمية على الأرض في مكان ما، تلعقين الطين الذي خلّفته ورائي وأنا أسجل الهدف.

ربما كان رودي السبب الذي أبقاها عاقلة، بحديثه الغبي، وشعره الليموني، وغروره.

فهو يصدح بثقة أن الحياة ليست سوى مزحة – وسلسلة لا نهاية لها من أهداف كرة القدم، ومخزون مخادع ومستمر من الثرثرة التي لا معنى لها.

أيضاً، هناك زوجة رئيس البلدية، والقراءة في مكتبة زوجها. أصبح

سارقة الكتب

الطقس بارداً هناك الآن، وهو يُصبح أكثر برودة مع كل زيارة، إلا أن ذلك لم يدفع ليزيل إلى أن تعدل عن رأيها في الذهاب إلى المكتبة. اعتادت أن تختار حفنة من الكتب وتقرأ مقتطفات صغيرة من كل منها، إلى أن صادفت من بعد ظهر أحد الأيام كتاباً لم تستطع أن تتركه من يدها. حمل عنوان (رجل الصافرة). وقد انجذبت إليه أصلاً بسبب مشاهدتها المتقطعة للصافر الشهير في شارع هيمل - بيفيكوس. وهي تذكره مكوّراً في معطفه، وتذكر ظهوره أمام كومة النار في عيد ميلاد الفوهرر.

تدور الأحداث الأولى في الكتاب حول جريمة قتل، طعن، في شارع فيينا. ليس بعيداً عن كاتدرائية القديس استيفان.

مقتطف صغير من كتاب (رجل الصافرة)

استلقت هناك، خائفة، غارقة في بركة من الدم، ولحن غريب يصدح في أذنها. تذكّرت السكين، وهي تدخل وتخرج من جسدها، وتذكّرت تلك الابتسامة. فرجل الصافرة يبتسم دوماً وهو يهم بالهروب إلى جُنح الليل المظلم والقاتل...

لم تكن ليزيل متأكّدة مما إذا كانت الكلمات أم النافذة المفتوحة هي التي دبّت القشعريرة في جسدها. في كل مرّة توصل فيها ليزيل الغسيل إلى منزل رئيس البلدية، حرصت على قراءة ثلاث صفحات إضافية، جلبت لها القشعريرة والرهبة. ولكن في نهاية المطاف، لم يكن مقدّراً لها أن تستمر بالقيام بذلك إلى الأبد.

وبالمثل، لم يستطع ماكس فانديبورغ تحمّل القبو لفترة أطول. لم يُظهر أية شكوى - فلم يكن لديه الحق لإظهار ذلك - لكنه شعر بتدهور حالته الصحية ببطء، في أحضان البرد الذي لا يرحم. وكما اتضح،

فالفضلُ في إنقاذه يعود إلى بعض القراءة والكتابة، وكتاب يحمل عنوان (اللامبالاة).

«ليزيل»، قال هانز في إحدى الليالي، «تعالي إلى هنا».

منذ وصول ماكس، حدث خلل كبير في نشاط القراءة مع بابا، الذي رأى بوضوح أن الوقت قد حان الآن للاستئناف. «تعالي»، قال لها. «لا أريدكِ أن تُصبحي كسولة. اذهبي واحضري أحد كتبك. ما رأيكِ في كتاب (اللامبالاة)؟».

المزعج في كل هذا هو أنها عندما عادت حاملة الكتاب في يدها، أشار إليها بابا لتتبعه إلى غرفة العمل القديمة. القبو.

«ولكن بابا»، حاولت أن تُغيّر رأيه. «لا يمكننا...».

- ماذا؟ هل يوجد وحش هناك؟

حدث ذلك في يوم جليدي من بداية شهر كانون الأول / ديسمبر. شعرت بالقبو يُصبح أكثر وحشة مع نزول كل درجة.

- إنه بارد جداً، يا بابا.

- لم يزعجكِ ذلك من قبل.

- نعم، ولكنه لم يكن أبداً بهذه البرودة...

عندما نزلا إلى الأسفل، همس بابا لماكس. «هل يمكننا اقتراض المصباح، من فضلك؟».

بخوف، حرّك الأوراق وعلب القصدير، ومرّر الضوء، ملامساً يد هانز، الذي هزّ رأسه رافضاً، وتمتم ببعض الكلمات: «إِس إيست يا فانزين، نيت؟ هذا جنوني، أليس كذلك؟» وقبل أن تُعيد يدُ ماكس ترتيب الأوراق، أمسك بها. «تعال أنت أيضاً. رجاء يا ماكس».

سارقة الكتب

ببطء، سحب الأوراق جانباً وظهر الجسد والوجه الهزيل لماكس فاندينبورغ، تحت ضوء المصباح القلق. وقف بصعوبة كبيرة، وهو يرتجف. لمس هانز ذراعه، ليقرّبه إليه أكثر.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف! لا يمكنك البقاء هنا. سوف تتجمد حتى الموت». استدار، «ليزيل. املئي حوض الاستحمام، بماء ليست ساخنة جداً، تماماً كما لو أنها قد بدأت تبرد». ركضت ليزيل.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!».

سمعتها مرّة أخرى عندما وصلت إلى الممر.

عندما دخل الحمام صغير الحجم، وقفت ليزيل في باب الحمام واستمعت، متخيّلة الماء الفاترة تتحول إلى بخار عندما تلامس جسده الجليدي. ماما وبابا في ذروة نقاشهما في غرفة المعيشة، وأصواتهما محاصرة بين جدران الممر.

- سوف يموت هناك، أنا أؤكّد لكِ.

- ولكن ماذا لو رآه شخص ما؟

- لا، لا، سيصعد في الليل فقط. وخلال النهار سنترك كل شيء مفتوحاً. فلا شيء لإخفائه. سنستخدم هذه الغرفة بدلاً من المطبخ. فمن الأفضل الابتعاد عن الباب الأمامي.

ساد الصمت.

قالت ماما: «حسناً... نعم، أنت على حق».

«إذا كنا سنُقامر على يهودي»، قال بابا بعد فترة وجيزة، «فمن الأفضل أن نقامر على يهودي حي»، ومنذ تلك اللحظة، وُلد روتين جديد.

في كل ليلة، أُشعلت النار في غرفة ماما وبابا، وظهر ماكس هناك

سارقة الكتب

بصمت، حيث جلس في الزاوية، محشوراً، ومشوشاً، من لطف الناس على الأرجح، وعذاب البقاء على قيد الحياة – وفوق كل ذلك، تألّق الدفء.

الستائر مغلقة بإحكام. نام ماكس على الأرض، مع وسادة تحت رأسه، والنار تستحيل رويداً رويداً إلى رماد.

في الصباح، يعود الى القبو.

رجل لا صوت له.

الفأر اليهودي، يعود إلى حفرته.

جاء عيد الميلاد ومرّ، وهو يحمل رائحة خطر إضافي. فكما هو متوقع، لم يزرهم هانز جونيور (نعمة وخيبة أمل مشؤومة)، لكن ترودي حضرت كالمعتاد، ومرّت الأمور بسلاسة.

خصائص السلاسة

بقي ماكس في القبو.
حضرت ترودي وذهبت من دون أن تشك بشيء.

قرّر هانز وروزا بانه لا يمكن الوثوق بترودي، على الرغم من موقفها المعتدل.

«نحن نثق فقط بالأشخاص الذين يتعيّن علينا أن نثق بهم»، قال بابا، «وهذا يعني نحن الثلاثة فقط».

كان هناك طعام إضافي واعتذار لماكس لأن هذا ليس دينه، ولا عيده، إلا أنه طقس على أي حال.

لم يبدِ أية شكوى.

فما الأسباب التي ستدفعه إلى ذلك؟

سارقة الكتب

أوضح أنه يهودي بالتنشئة، بالدم، إلا أن اليهودية قد أصبحت الآن أكثر من أي وقت مضى، مجرّد تسمية - قطعة مُدمرة من الحظ العاثر.

استغل عندها الفرصة أيضاً ليقول بأنه يأسف لعدم مجيء ابن عائلة هوبرمان لزيارتهم. ورداً على ذلك، قال له بابا بأن هذه الأمور خارج سيطرتهم. «بعد كل شيء»، قال، «يمكنكَ أن تُدرك ذلك بنفسكَ - فالشاب ما زال صبياً، ويحق للصبي في بعض الأحيان، أن يكون عنيداً».

تركا الموضوع عند ذلك الحد.

خلال الأسابيع القليلة الأولى، ظل ماكس صامتاً، من دون أن ينطق بأية كلمة، مكتفياً بالجلوس أمام النار المشتعلة في المدفأة. الآن، بعد أصبح يحصل على حمام مناسب مرّة واحدة في الأسبوع، لاحظت ليزيل أن شعره لم يعد عُشاً من الأغصان المتشابكة، وإنما مجموعة من الريش الذي يرفرف فوق رأسه. ما زالت خجولة من الغريب، ولذلك فقد همست لبابا. «شعره يُشبه الريش».

«ماذا؟» خنقت النار الكلمات.

«قلتُ»، همست مرّة أخرى، واقتربت منه أكثر، «شعره يُشبه الريش...».

نظر هانز هوبرمان إليه وعاود النظر إليها. هز رأسه موافقاً. أنا متأكّد من أنه تمنى لو تُشبه عيناه عيني الفتاة، ببراءتهما وبساطتهما.

لم يُدركا أن ماكس قد سمع كل كلمة.

أحياناً، جلب معه كتاب (كفاحي) وقرأه بجوار النار، وهو يغلي ويستشيط غضباً من محتواه. في المرة الثالثة التي جلبه فيها، وجدت ليزيل أخيراً الشجاعة لطرح سؤالها. «هل هو - كتاب جيد؟».

رفع رأسه من الكتب. أخذت أصابعه شكل قبضة، ومن ثم ارتخت مجدداً. مبعداً الغضب عنه، ابتسم لها. رفع غرّته الريشية وأبعدها عن

سارقة الكتب

عينيه. «إنه أفضل كتاب على الإطلاق». نظر إلى بابا، ثم عاد لينظر إلى الفتاة. «لقد أنقذ حياتي».

اقتربت الفتاة منه قليلاً، وجلست بقربه مقاطعة ساقيها. سألته بهدوء: «كيف ذلك؟».

عندها، بدأت في كل ليلة مرحلةٌ من السرد القصصي في غرفة المعيشة. اعتاد التحدّث بصوت عالٍ بما يكفي ليسمع كلامه مَن في الغرفة. وبذلك، بدأت قطعٌ من لغز حياة الملاكم اليهودي تتجمّع لتُشكّل قصّة واضحة أمام أعينهم.

أحياناً، حمل صوت ماكس فاندينبورغ حس الدعابة، على الرغم من أنه بدا في الحقيقة مثل صوت الاحتكاك - كحجر يُفرك بلطف فوق صخرة كبيرة. في أحيان أخرى، بدا عميقاً ومتكسراً، وأحياناً توقّف تماماً. أما صوته الأعمق، فيظهر عندما يتحدث بندم، ويتكسّر في نهاية مزحة، أو تصريح ينمّ عن الاستنكار والانتقاص الذاتي.

«يا يسوع المصلوب!»، هو رد الفعل الأكثر شيوعاً على قصّة ماكس فاندينبورغ، وعادة ما يتبعه سؤال.

سؤال من قبيل

كم مكثتَ في تلك الغرفة؟
أين هو فالتر كوغلر الآن؟
هل تعرف ماذا حلّ بعائلتك؟
ما هي وجهة المرأة التي تشخر في القطار؟
بلغ سجل خسارتك أمام فالتر كوغلر عشرة مقابل ثلاثة!
لماذا تابعتَ قتاله؟

سارقة الكتب

لاحقاً، عندما عاودت ليزيل النظر إلى أحداث حياتها، كانت تلك الليالي التي قضتها في غرفة المعيشة من أوضح ذكرياتها. ففي إمكانها أن تتذكّر بجلاء ضوء النار المنعكس على وجه ماكس الذي يحمل لون قشر البيض، وأن تذوق حتى طعم النكهة الإنسانية في كلماته. كان مسار نجاته يترابط قطعة وراء قطعة، كما لو أنه يُقطّع كلَ جزء من ذاته، ويقدّمه على طبق أمامهم.

مكتبة أحمد

«أنا أناني جداً».

عندما قال ذلك، استخدم ساعده لتغطيه وجهه. «فقد تركتُ عائلتي خلفي. وجئتُ إلى هنا. معرّضاً إياكم جميعاً للخطر...» كشف عن كل مكنونات نفسه، وأوضح حقيقة مشاعره. ارتسم الحزن والدمار عبر وجهه. «أنا آسف. هل تصدقونني؟ أنا آسف جداً، أنا آسف جداً، أنا...».

لامست ذراعه النار وسحبها بسرعة.

شاهدوه جميعاً، صامتين، إلى أن وقف بابا واقترب منه. جلس بجانبه.

«هل حرقتَ يدك؟».

في مساء أحد الأيام، جلس هانز، وماكس، وليزيل أمام النار. كانت ماما تعمل في المطبخ، وماكس يعيد قراءة كتاب **(كفاحي)** مرّة أخرى.

«هل تعلم...» قال هانز وانحنى نحو النار. «بأن ليزيل قارئة جيدة حقاً». أنزل ماكس الكتاب من يده. «ولديها الكثير من القواسم المشتركة معك. ربما أكثر مما تظن». تأكّد بابا أن روزا ليست قادمة. «فهي أيضاً تُحب خوض عراك جيد بالأيدي».

«بابا!».

ليزيل، الطفلة النحيلة التي شارفت على بلوغ الثانية عشرة من العمر، صُعقت من كلام والدها وهي تُسند ظهرها للجدار. «لم أخض عراكاً يوماً!».

سارقة الكتب

«صه!»، ضحك بابا. وأشار لها بأن تُبقي صوتها منخفضاً. انحنى مجدداً، ولكن هذه المرة نحو الفتاة. «حسناً، وماذا عن الضرب المبرح الذي تسببتِ به للودفيغ شميكل، ها؟».

«أنا لم...» لقد انكشف أمرها. ولم يعد هناك مجال لأي إنكار لا طائل منه. «كيف عرفتَ ذلك؟».

«رأيتُ والده في حانة نولر»، أجاب.

غطّت ليزيل وجهها بيديها. وعندما كشفته مرّة أخرى، سألت السؤال المصيري. «هل أخبرتَ ماما؟».

«هل تمزحين؟» غمز ماكس وهمس للفتاة. «ما زلتِ على قيد الحياة، أليس كذلك؟».

تلك كانت الليلة الأولى التي يعزف فيها بابا الأكورديون في المنزل منذ عدة أشهر. استمر لنصف ساعة أو نحو ذلك، إلى أن طرحَ سؤالاً على ماكس.

«هل تعلمتَ العزف؟».

راقب الوجهُ المكوّم في الزاوية النارَ وهي تلتهب في المدفأة. «نعم، تعلّمتُ العزف». ساد صمت طويل. «إلى أن أصبح عمري تسع سنوات. فبعدها، باعت أمي استوديو الموسيقى وتوقّفت عن التدريس. أبقت فقط على أكورديون واحد، إلا أنها أقلعت أخيراً عن فكرة تدريسي بعد أن قاومتُ التعلّم. كنتُ أحمق».

«لا»، قال بابا. «كنتَ صبياً».

خلال الليالي القادمة، ستستمر ليزيل ميمنجر وماكس فاندينبورغ في عيش القاسم المشترك الآخر بينهما. كلٌّ في غرفته المنفصلة، كانا يشهدان

على كوابيسهما ويستيقظان، أحدهما يصرخ بين الأغطية، والآخر يبحث عن الهواء بجوار النار المطفأة.

في بعض الأحيان، وخلال انغماس ليزيل في القراءة مع بابا نحو الساعة الثالثة فجراً، فإنهما يسمعان معاً لحظة استيقاظ ماكس. «إنه يحلمُ مثلكِ»، قال بابا. في إحدى المرات، مدفوعة بصوت خوف ماكس، قرّرت ليزيل مغادرة سريرها. بعد استماعها لقصّته وماضيه، تكوّنت لديها فكرة جيدة عمّا قد يراه في تلك الكوابيس، بل حتى أنها تكهّنت بالجزء المحدد من القصّة الذي يزوره في كل ليلة.

شقّت طريقها بهدوء نحو الممر، ومن ثم إلى غرفة المعيشة التي كانت بمثابة غرفة النوم.

«ماكس؟».

همست بنعومة، وطفت في سماء نومه.

في البداية لم يصدر عنه أي صوت، لكنه سرعان ما جلس وبحث في الظلام.

بابا ما يزال نائماً على كرسيه في غرفة نومها. وجلست ليزيل على الجهة الأخرى من الموقد مقابل ماكس. خلفهما، نامت ماما بصوت عال. وبدت المرأة التي شخرت على القطار هادئة بالمقارنة معها.

لم تكن النار الآن سوى جنازة من الدخان الميت والذي يموت، في آن معاً. وفي هذا الفجر بالذات، كانت هناك أصوات وهمسات.

مبادلة الكوابيس

الفتاة: «قُل لي. ماذا ترى عندما تحلم على هذا الشكل؟»

اليهودي: «... أرى نفسي أستدير، وألوح لعائلتي مودعاً».

سارقة الكتب

الفتاة: «أنا أيضاً أرى الكوابيس».

اليهودي: «ماذا ترين؟».

الفتاة: «قطار، وشقيقي الميت».

اليهودي: «شقيقكِ؟».

الفتاة: «توفي إبّان انتقالي إلى هنا، على الطريق».

الفتاة واليهودي معاً: «يا - نعم».

سيكون من الجميل أن نقول إنه بعد هذا الإفصاح الصغير، لم تعد تلك الكوابيس السيئة لزيارة ليزيل ولا ماكس مرّة أخرى. سيكون قول ذلك جميلاً إلا أنه لن يكون حقيقياً. فالكوابيس استمرّت في الزيارة كما تفعل دائماً. يُشبه ذلك أن تسمعوا بخبر إصابة أو مرض أفضل لاعب في فريق الخصم، إلا أنكم ما تلبثون أن تجدوه أمامكم على أرض الملعب، يقوم بالإحماء مثل بقية اللاعبين، وهو على أهبة الاستعداد لكسب المباراة. أو مثل قطار، يصل في موعده المحدّد إلى محطته الليلية، جارّاً وراءه حبلاً من الذكريات. الكثير من الجر. والكثير من ردود الفعل الغريبة.

الشيء الوحيد الذي تغيّر هو حقيقة أن ليزيل قد أخبرت بابا بأنها أصبحت كبيرة بما يكفي الآن للتعامل مع كوابيسها. للحظة، بدا حزيناً بعض الشيء، ولكن كما هو الحال دائماً مع بابا، فإنه يقول الشيء المناسب في الوقت المناسب.

«حسناً، الشكر لله على ذلك»، ابتسم نصف ابتسامة. «على الأقل، يمكنني الآن أن أحصل على المزيد من النوم. فذلك الكرسي يقتلني». لفّ ذراعه حول الفتاة وسارا إلى المطبخ.

مع تقدّم الزمن، تطوّر تمايز واضح بين عالمين مختلفين تماماً - العالم

سارقة الكتب

داخل المنزل رقم 33 في شارع هيمل، والعالم الموجود خارجه. وتكمن الخدعة في إبقائهما منفصلين.

في العالم الخارجي، تعلّمت ليزيل الاستفادة على نحو أكبر من الأشياء البسيطة التي قد يوفّرها لها. بعد ظهر أحد الأيام، وهي في طريقها إلى المنزل حاملة معها كيس الغسيل الفارغ، لاحظت وجود صحيفة بارزة من صندوق القمامة. الطبعة الأسبوعية من صحيفة «مولشينغ اكسبرس». حملتها وأخذتها إلى المنزل، وقدّمتها إلى ماكس. «فكرتُ في أنك قد ترغب في حل الكلمات المتقاطعة لتمرير الوقت»، قالت له.

ثمّن ماكس عالياً هذه البادرة، وحرص على قراءة الصحيفة من بدايتها إلى نهايتها. وبعد بضع ساعات، أراها كيف أكمل حل الكلمات المتقاطعة، باستثناء كلمة واحدة.

«اللعنة على تلك الكلمة السابعة عشرة في الخانة العمودية»، قال.

في شهر شباط / فبراير من عام 1941، حصلت ليزيل، بمناسبة عيد ميلادها الثاني عشر، على كتاب آخر مستعمل، وكانت ممتنة لذلك. حمل الكتاب عنوان (رجال الطين)، وتدو قصّته حول أب وابن غريبي الأطوار. عانقت ليزيل ماما وبابا لتشكرهما، في حين وقف ماكس مرتبكاً في الزاوية.

«آليس جوتّه تسوم جيبورتس تاغ! عيد ميلاد سعيد!»، ابتسم بضعف، وهو يضع يديه في جيبيه. «لم أكن أعرف، وإلا لأهديتكِ شيئاً». تلك كذبة صارخة - فلم يكن لديه شيء ليهديها إياه، إلا ربما كتاب (كفاحي)، ومن غير الممكن أن يُعطي مثل هذا الكتاب المحمّل بالأكاذيب المتطرفة إلى يافعة ألمانية، فسيكون بهذا الفعل مثل الخروف الذي يُسلّم سكيناً إلى الجزار.

ساد صمت غير مريح.

بعد أن احتضنت ماما وبابا.

بدا ماكس وحيداً جداً.

ابتلعت ليزيل ريقها.

وسارت نحوه وعانقته. «شكراً يا ماكس».

في البداية، جمِد في مكانه، ومن ثم رفع يديه تدريجياً وبادلها العناق.

لاحقاً فقط، ستكتشف التعبير العاجز على وجه ماكس فاندينبورغ، وبأنه في تلك اللحظة بالذات قد عزم على إعطائها شيئاً في المقابل. كثيراً ما أتخيله مستلق في فراشه، والنوم قد جافاه طوال تلك الليلة، وهو يُفكّر في ما يمكن أن يُقدّمه لها.

وكما اتّضح، فقد سُلّمت الهدية على ورق، بعد نحو أسبوع.

أحضرها إليها في الساعات الأولى من الصباح، قبل أن ينزل الدرجات الإسمنتية عائداً إلى ما يُحبُّ أن يدعوه الآن منزله.

سارقة الكتب

صفحات من القبو

لمدة أسبوع، أُبعدت ليزيل عن القبو بشكل تام. فقد تولّت ماما وبابا إنزال الطعام إلى ماكس.

«لا، أيتها الخنزيرة»، قالت لها ماما في كل مرّة تطوّعت فيها لإنزال الطعام. وكان هناك دوماً عذر جديد. «ما رأيكِ بأن تقومي بأشياء مفيدة هنا على سبيل التغيير، مثل إنهاء الكي؟ هل تعتقدين أن حمل الغسيل في جميع أنحاء البلدة هو عمل مميز جداً؟ حاولي كيّه!» يمكنكم المخادعة بسهولة عندما تكون سمعتكم لاذعة. وقد نجح الأمر.

خلال هذا الأسبوع، قام ماكس بقص مجموعة صفحات من كتاب (كفاحي) وطلاها كلها باللون الأبيض، ومن ثم علقها على حبل، من بداية القبو إلى نهايته. عندما جفّت كلها، بدأ الجزء الصعب من المهمة. كان تعليمه جيداً بما يكفي لتسهيل الأمر، إلا أنه لم يكن بالتأكيد كاتباً، ولا فناناً. وعلى الرغم من هذا، فقد صاغ الكلمات في رأسه حتى يمكنه كتابتها من دون خطأ. بدأ بكتابة القصّة على الورق الذي كوّن فقاعات

سارقة الكتب

ومحدّبات تحت ضغط الطلاء الجاف، مستخدماً لإتمام ذلك فرشاة صغيرة وطلاءً أسود.

قصّة (المراقب).

حسَب بأنه سيحتاج الى ثلاث عشرة صفحة، لذلك قام بطلاء أربعين، متوقعاً تخريب ما لا يقل عن ضعفي الصفحات الناجحة. تدرّب على بضع صفحات من صحيفة مولشينغ اكسبرس، مُحسِّناً من عمله الفني الأساسي الأخرق للوصول إلى مستوى يمكنه هو قبوله. في أثناء انغماسه في عمله، سمع في رأسه همسات الفتاة: «شعره»، قالت مراراً وتكراراً، «يُشبه الريش».

عندما انتهى، استخدم سكيناً لثقب الصفحات وربطها معاً بخيط. والنتيجة النهائية جاءت على شكل كتاب مؤلّف من ثلاث عشرة صفحة على الشكل التالي:

سارقة الكتب

طوال عمري، وأنا أُخاف
... من الرجال الذين يراقبونني.

افترض بأنه اول رجل كان رقيباً على هوائي،

... إلا أنه
اختفى قبل أن أتذكره.

لسبب ما، عندما كنت صبياً، احببت القتال.
وكنت أخسر في معظم النزالات. حيث
يقف فوق رأسي صبي آخر،
يراقبني والدم يتساقط من
أنفه احيانا.

بعد سنوات عديدة، أصبحت في حاجة إلى الاختباء.
وحاولت ألا أنام لأنني كنت أخشى من قد يكون
هناك عندما أستيقظ.

عندما كنتُ مختبئاً، حلمتُ برجلٍ معين. والجزء
الأصعب هو عندما سافرتُ للعثور عليه.

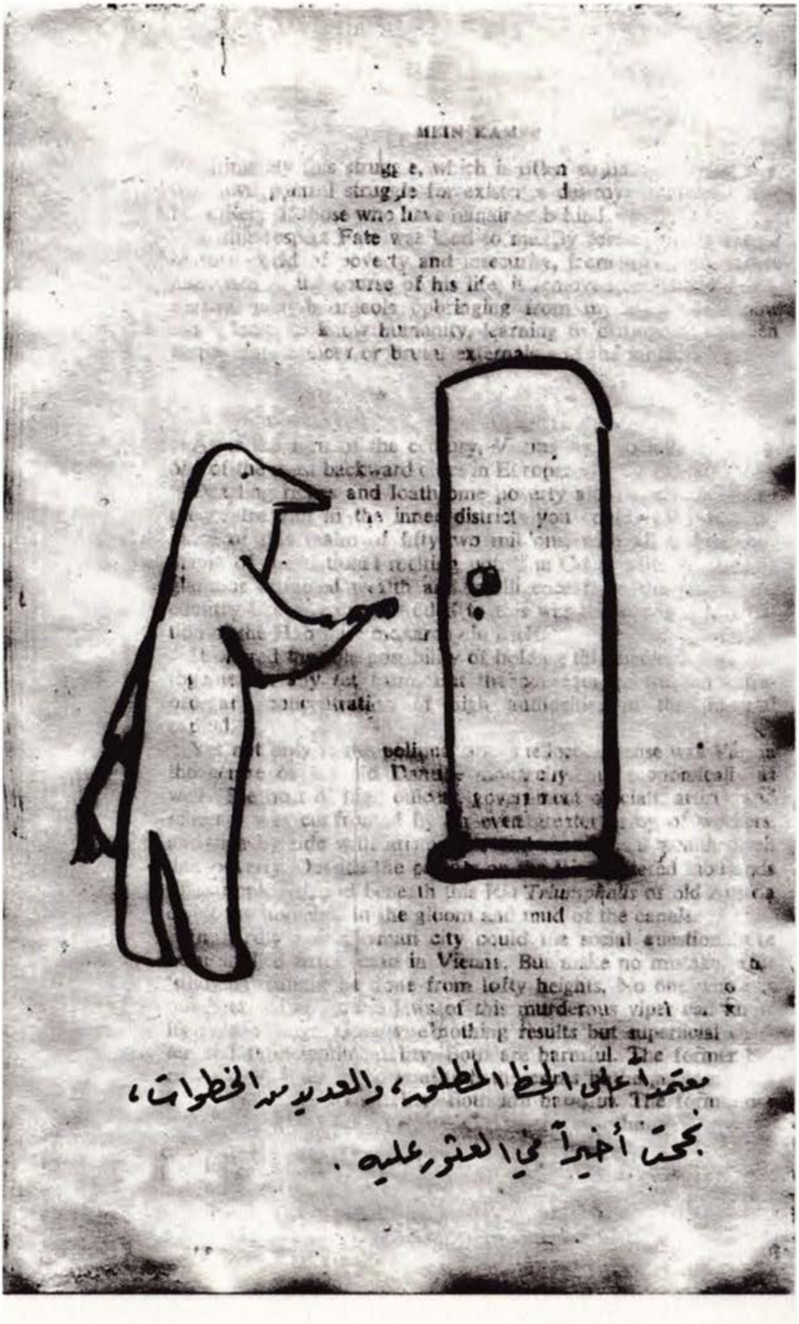
معتمداً على الحظ المطلق، والعديد من الخطوات،
نجحت أخيراً في العثور عليه.

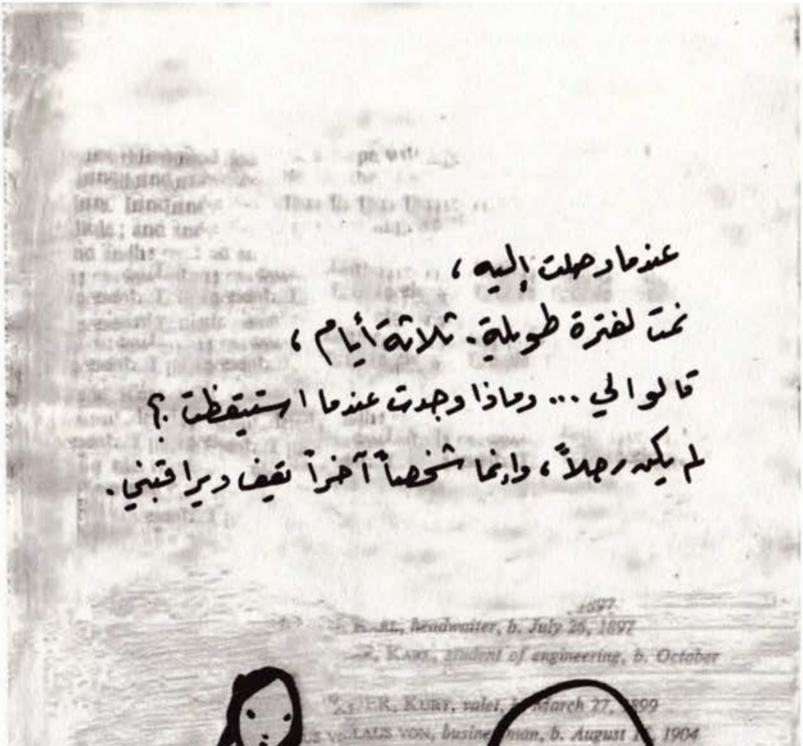
عندما وصلت إليه،
نمتُ لفترة طويلة. ثلاثة أيام،
قالوا لي... وماذا وجدت عندما استيقظت؟
لم يكن رجلاً، وإنما شخصاً آخر يقف ويراقبني.

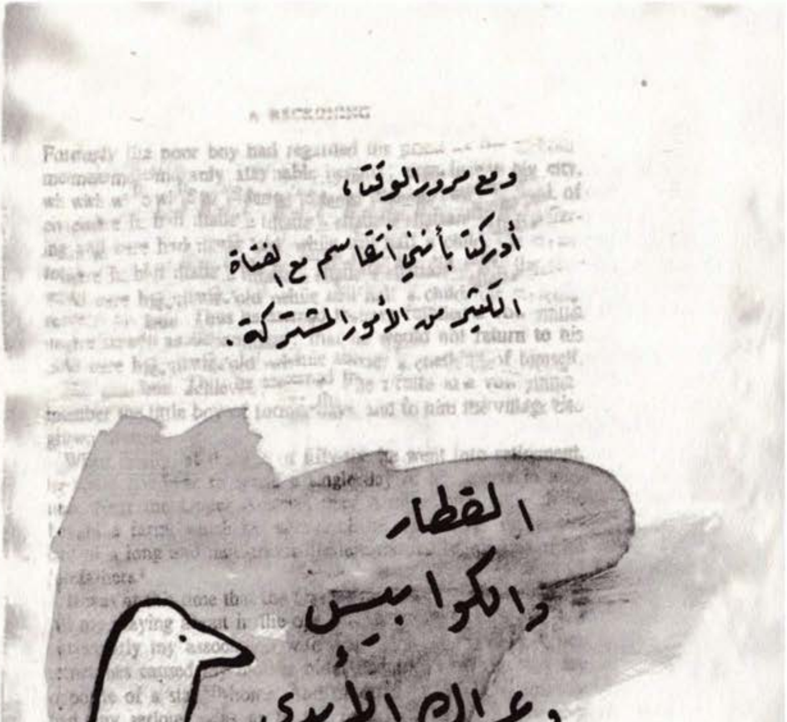
ومع مرور الوقت،
أدركت بأنني أتقاسم مع الفتاة
الكثير من الأمور المشتركة.
القطار
والكوابيس
وعراك الأيدي

MEIN KAMPF
ولكنه
هناك شيء
غريبا واحد.
فالفتاة تقول
إنني أشبه شيئا آخر.
358

أعيش الآن في قبو.

والكوابيس ما تزال تعيش في أحلامي.

وفي إحدى الليالي، بعد الكابوس المعتاد،

وقف ظل فوق رأسي.

وقال صوتها: "أخبرني بماذا تحلم"

وفعلت كما طلبت.

وفي المقابل،
شرحتا لي عن مكنونات كوابيسها .

أعتقد الآن بأننا أصبحنا
أصدقاء، هذه الفتاة وأنا.
وفي عيد ميلادها، كانت
هي من قدمت لي هدية.

جعلتني أفهم أنه أفضل
مراقب عرفته في حياتي،
لم يكن رجلاً على الإطلاق...

MEIN KAMPF
ذو قيمة
ذو قيمة
ذو قيمة
ذو قيمة
ضوء النهار
ماء
حركة
ضوء النهار
ضوء النهار

في أواخر شهر شباط / فبراير، عندما استيقظت ليزيل في الساعات الأولى من الصباح، دخل شخص إلى غرفة نومها. شكله يُشبه شكل ماكس، وكان أقرب ما يمكن إلى ظل صامت.

بحثت ليزيل في الظلام، وأمكنها فقط أن تشعر بغموض بالرجل القادم نحوها.

«مرحباً؟».

لكن لم يأتها أي رد.

لم يكن هناك سوى صوت قدميه الذي يُقارب الصمت، وهو يقترب من السرير ويضع الصفحات على الأرض، بجانب خُفّها. أصدرت الصفحات صوتاً خفيفاً فقط. عندما وضعها على الأرض.

«مرحباً؟».

هذه المرة كان هناك رد.

لم تتأكد من بالضبط من أين جاءت الكلمات. المهم أنها وصلت إليها. وصلت وركعت بجانب سريرها.

«هدية عيد ميلاد متأخرة. انظري إليها في الصباح. تصبحين على خير».

لفترة من الوقت، انجرفت داخل وخارج النوم، ولم تعد متأكدة فيما إذا حلمت بالحضور المبهم لماكس.

في الصباح، عندما استيقظت واستدارت في سريرها، رأت الصفحات موضوعة على الأرض. مدّت يدها، وحملتها، مستمعة إلى الورق وهو يضج بين يديها في هدوء الصباح الباكر.

[طوال عمري، وأنا أخاف من الرجال الذين يقفون....]

وهي تُقلبها، بدت الصفحات صاخبة، كموسيقى مرافقة للقصّة المكتوبة.

[ثلاثة أيام قالوا لي... وماذا وجدتُ عندما استيقظتُ؟]

كانت الصفحات الممحوة من كتاب (كفاحي) مخنوقة تحت ثقل الطلاء.

[جعلتني أفهم أن أفضل مراقب عرفتهُ في حياتي...]

قرأت ليزيل هدية ماكس فانديبورغ ثلاث مرات، ولاحظت في كل مرّة خطأً أو كلمة كتبت بفرشاة مختلفة. عند الانتهاء من قراءة الهدية للمرة الثالثة، خرجت بأقصى قدر من الهدوء من سريرها، وسارت نحو غرفة ماما وبابا. وجدت المساحة المخصصة لماكس بجوار النار فارغة.

وهي تُفكر في الأمر، أدركت أنه من المناسب، أو حتى من الأفضل أن تشكره في المكان الذي تم فيه صنع الصفحات.

نزلت درجات القبو. ورأت صورة وهمية مؤطّرة تتسرّب إلى الجدار – سر مبتسم هادئ.

ما كان في الحقيقة لا يزيد على بضعة أمتار، بدا بالنسبة إليها مسافة طويلة للوصول إلى الأوراق المكدّسة وعلب الطلاء التي تحمي ماكس فانديبورغ. أزالت الأوراق الأقرب إلى الجدار إلى أن شكّلت ممراً صغيراً تنظر من خلاله.

أول جزء رأته منه هو كتفه، ومن خلال الفجوة الضيقة، مدّت يدها ببطء وبصعوبة إلى أن استراحت على كتفه. بدت ملابسه باردة. ولم يستيقظ.

شعرت بتنفسه وكتفه يتحرك صعوداً وهبوطاً برفق كبير. شاهدته لفترة من الزمن. ثم جلست واستندت إلى الجدار.

يبدو أن الهواء الناعس قد أثّر فيها أخيراً.

بشكل رائع، حمل الحائط الكلمات التي تدرّب عليها ماكس بجانب

الدرج: كانت ارتجالية، وطفولية، وحلوة، كما لو أنها تُهدهد لنوم اليهودي المختبئ والفتاة التي وضعت يدها برفق على كتفه.

تنفسّت الألمانية واليهودي معاً في تلك الغرفة.

بجانب الجدار، جلس كتاب (المراقب) بخدر ورضا، مثل نقش جميل على قدم ليزيل ميمنجر.

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الفصل الخامس

(رجل الصافرة)

بطولة:

كتاب عائم - المقامرون - شبح صغير - قصَّتا شعر- شباب رودي - الفاشلون والرسومات - رجل الصافرة وزوج من الأحذية - ثلاثة تصرفات غبية - وصبي خائف مع ساقين متجمدتين

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الكتاب العائم

(الجزء الأول)

طفا كتاب على نهر أمبر، بينما قفز صبي في النهر ليمسكه ويأتي به محمولاً في يده اليمنى. ابتسم ابتسامة عريضة. وقف والمياه الجليدية تصل إلى خاصرته، إنها مياه شهر كانون الأول/ ديسمبر.

«ما رأيكِ في قبلة، أيتها الخنزيرة؟»، قال.

الهواء من حولهما كان بارداً، وجميلاً، ورائعاً. طبعاً ناهيكم عن الآلام المبرّحة للماء، التي تزداد بدءاً من أصابع قدميه ووصولاً إلى وركيه.

ما رأيكِ في قبلة؟

ما رأيكِ في قبلة؟

يا لرودي المسكين!

إعلان صغير حول رودي شتاينر

لم يستحق أن يموت بالطريقة التي مات فيها.

سارقة الكتب

عندما ترون الحواف القذرة للورق التي ما تزال عالقة على أصابعه. وترون الشعر الأشقر يرتجف. فإنكم ستستنتجون، وبشكل استباقي، كما كنتُ لأفعل أنا، بأن رودي مات في اليوم نفسه، من انخفاض حرارة الجسم. إلا أنه لم يفعل. ذكريات مثل تلك تُذكّرني فقط بأنه لم يكن يستحق المصير الذي لاقاه بعد أقل بعد عامين.

من عدّة نواحي، كان أخذي لصبي مثل رودي، بمثابة السرقة - ففيه الكثير من الحياة، والكثير من الأمور للعيش من أجلها- ولكن، بطريقة ما، أنا على يقين بأنه أحبَّ أن يرى الركام المخيف، وتورّم السماء في ليلة موته. كان ليبكي ويستدير ويبتسم لو أنه رأى فقط سارقة الكتب وهي مرمية على يديها وركبتيها، ثكلى بجانب جسده الميت. لأسعده أن يشهد تقبيلها لفمه المغبر، الذي قتلته القنابل.

نعم أعرف ذلك.

في ظلمة قلبي المظلم المنابض، أعرف بأنه كان سيُحب كل هذا، ولأقصى درجة.

هل ترون؟

حتى الموت له قلب.

المقامرون

(نرد ذو سبعة أوجه)

بالطبع، أنا أتصرّف بفظاظة. فأنا أفسد النهاية، ليس فقط نهاية الكتاب برمّته، وإنما هذا الجزء الخاص منه أيضاً. ها قد أعلمتُكم مسبقاً بحدثين اثنين، وذلك لأنني لستُ مهتماً بزيادة الغموض. فالغموض يُضجرني، ويُشعرني بالملل. فأنا أعلم ما حدث وها أنتم تعلمون بذلك الآن أيضاً. ولكن المكائد التي توصلنا إلى هذه النتيجة هي التي تُقلقني، وتُحيّرني، وتثير اهتمامي ودهشتي.

هناك الكثير من الأشياء للتفكير فيها.

هناك قصّة كبيرة.

بالتأكيد، هناك كتاب يحمل عنوان (رجل الصافرة)، والذي يتعيّن علينا حقاً مناقشته، جنباً إلى جنب مع الكيفية التي أصبح فيها عائماً فوق نهر أمبر في وقت يقرب من عيد الميلاد في عام 1941.

علينا مناقشة كل هذه الأمور أولاً، ألا توافقونني الرأي؟

لقد اتفقنا إذاً.

سارقة الكتب

سنُناقشها، وبالتفصيل.

بدأ الأمر كله بالمقامرة: راهنوا على إخفاء يهودي، وهذه هي الحياة التي ستحصلون عليها. وإليكم كيف تبدو.

قصّة الشعر: منتصف نيسان / أبريل 1941

على الأقل، بدأت الحياة تشبه الحياة الطبيعية بشكل أكبر. حيث عاد هانز وروزا هوبرمان لجدالهما المعتاد في غرفة المعيشة، ولو بشكل أكثر هدوءاً مما سبق. وليزيل هي كعادتها، المتفرجة الصامتة.

أصل الجدال يعود إلى الليلة السابقة، حيث جلس هانز وماكس في القبو مع علب الطلاء والكلمات والأوراق القديمة، وسأل ماكس عمّا إذا كان في مقدور روزا أن تقص شعره في وقتٍ ما. قائلاً: «إنه يدخلُ في عيني»، ورد عليه هانز: «سأرى ما يمكنني القيام به».

وفي اليوم التالي، انهمكت روزا بالبحث بحماس بين أدراجها، وهي ترمي بكلماتها نحو بابا مع بقية الخردة. «أين هو ذلك المقص اللعين؟».

- أليس في ذلك الدرج السفلي؟

- لقد بحثتُ فيه مسبقاً.

- ربما لم تلاحظيه.

- هل أبدو لكَ عمياء؟

رفعت رأسها وصرخت. «ليزيل!»

«أنا هنا».

رعد هانز: «اللعنة، يا امرأة، لقد أصبتني بالصمم، لمَ لا تخفضين صوتكِ!»

«اصمت، أيها الخنزير!». تابعت روزا البحث وخاطبت الفتاة. «ليزيل، أين المقص؟» ولم تكن لدى ليزيل أيضاً أدنى فكرة عن مكانه.

سارقة الكتب

- أيتها الخنزيرة، ليست هناك أية فائدة تُرجى منكِ، أليس كذلك؟

- اتركيها خارج الموضوع.

احتدم الجدال وتبادل الكلمات ذهاباً وإياباً، بين المرأة المخيفة والرجل ذي العينين الفضيتين، إلى أن أغلقت روزا الدرج. «ربما كنتُ سأرتكب الكثير من الأخطاء لو قصصتُ له شعره، على أي حال».

«أخطاء؟» بدا بابا مستعداً لتمزيق شعره في تلك المرحلة، إلا أن صوته استحال إلى همس مسموع بالكاد. «من بحق الجحيم سيراه؟» وتحرّك ليتحدث مرّة أخرى، إلا أن ذهنه تشتّت عندما رأي ماكس فاندينبورغ بمظهره الريشي، واقفاً بأدب وإحراج في الممر. حمل مقصّه الخاص، وتقدّم إلى الأمام، وسلّمه ليس إلى هانز أو روزا، وإنما إلى الفتاة البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة. كانت الخيار الأكثر هدوءاً. ارتجف فمه للحظة قبل أن يقول: «هل لكِ أن تفعلي ذلك؟».

أخذت ليزيل المقص وفتحته. كان صدئاً وبراقاً في مناطق مختلفة. استدارت نحو بابا، وعندما هزّ رأسه موافقاً، تبعت ماكس وصولاً الى القبو.

جلس اليهودي على علبة الطلاء. ولف ورقة صغيرة حول كتفيه. «ارتكبي قدر ما تشائين من الأخطاء»، قال لها.

وقف بابا على الدرج.

رفعت ليزيل أولى خصلات شعر ماكس فاندينبورغ.

وهي تقص خصل الريش، استغربت من صوت المقص. فلم يكن صوت مقص عادي، بل بدا وكأن المقصّ يُطحن في كل مرّة تقصّ فيها خصلة شعر.

عندما أنجزت المهمة، بدا الشعر كثيفاً قليلاً في بضع أماكن، وملتوياً قليلاً في أخرى، صعدت من القبو، وهي تحمل خصلات الشعر بين يديها،

سارقة الكتب

ووضعتها في الموقد. أشعلت عود ثقاب وشاهدت الكومة وهي تنكمش وتغرق، بلون برتقالي وأحمر.

مرّة أخرى، وقف ماكس في الممر، هذه المرة في أعلى درجات القبو. «شكراً يا ليزيل». كان صوته متماسكاً وأجشَّ، ويُخفي ابتسامة مخفية.

نطق بذلك، وسرعان ما اختفى مرّة أخرى، عائداً إلى مخبئه.

الصحيفة: بداية شهر أيّار / مايو

«هناك يهودي في قبوي».

«هناك يهودي. في قبوي».

وهي تجلس على أرضية مكتبة رئيس البلدية التي تغصّ بالكتب، سمعت ليزيل ميمنجر تلك الكلمات. كيس الغسيل مستقر إلى جانبها، والشكل الشبحي لزوجة رئيس البلدية جالس إلى المكتب. أما ليزيل فكانت تقرأ كتاب (رجل الصافرة) الموضوع أمامها، وقد وصلت إلى الصفحتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين. رفعت بصرها، وتخيلت نفسها تمشي إلى المرأة الشبح، وتُبعد بلطف بعضاً من خصلات شعرها المنفوش، لتهمس في أذنها:

«هناك يهودي في قبوي».

ارتجف الكتاب في حضنها، واستقرّ السر في فمها، مرتاحاً.

«عليّ أن أعود إلى المنزل»، هذه المرة، تكلّمت بالفعل، ويداها ترتجفان. وعلى الرغم من أثر أشعة الشمس في البعيد، إلا أن نسيماً لطيفاً عبر من خلال النافذة المفتوحة، مقروناً بالمطر الذي دخل مثل نشارة الخشب.

عندما أعادت ليزيل الكتاب إلى مكانه، تقدّمت المرأة إليها. وهذا

سارقة الكتب

ما اعتادت على فعله دوماً عندما تُشارف زيارة ليزيل على نهايتها. بدت الحلقات اللطيفة للتجاعيد الحزينة أكبر وهي تقترب منها لتسترجع الكتاب.

عرضت على الفتاة أخذه.

إلا أن ليزيل خجلت.

«لا»، قالت: «شكراً لكِ. لديّ ما يكفي من الكتب في المنزل. ربما في وقت آخر. أنا أُعيد قراءة شيء آخر مع بابا. كما تعلمين، ذلك الذي سرقته من النار في تلك الليلة».

أومأت زوجة رئيس البلدية. إذا كانت هناك سمة أكيدة تُميّز ليزيل ميمنجر، فهي أن سرقتها لم تكن بلا مبرر. فهي تسرق الكتب على أساس حاجتها فقط. وحالياً، لديها ما يكفي. فقد قرأت كتاب (**رجال الطين**) أربع مرات حتى الآن، وهي تستمتع بإعادة قراءة كتاب (**اللامبالاة**). وكذلك اعتادت في كل ليلة قبل النوم، أن تتصفّح كتاب (**دليل حفّار القبور**)، الذي يضم في داخله صفحات (**المراقب**). اعتادت أن تقرأ الكلمات وتلمس الصور، وتُقلّب الصفحات الصاخبة، ببطء.

«وداعاً، سيدة هيرمان».

خرَجت من المكتبة، ومشت عبر الردهة خارجة من المدخل الهائل. وكما هي عادتها دائماً، فقد وقفت لفترة من الوقت على الدرجات، وهي تنظر نحو بلدة مولشينغ تحتها. تغطّت البلدة من بعد ظهر ذلك اليوم بضباب أصفر، ربّت على أسطح المنازل وكأنها حيوانات أليفة، وملأ الشوارع مثل بخار الحمام.

عندما نزلت إلى شارع ميونخ، تحرّكت سارقة الكتب بين الرجال والنساء الذين يحملون المظلات - مرتدية المطر على كتفيها- وشقّت طريقها من دون أي خجل وهي تتنقل من سلة مهملات إلى أخرى، بانتظام.

«ها قد وجدتُها!».

ضحكت في وجه الغيوم النحاسية، بسعادة واحتفال قبل أن تمدّ يدها وتأخذ الصحيفة المهترئة. على الرغم من أن الصفحات الأمامية والخلفية قد تغطّت بالحبر الأسود نتيجة المطر، إلا أنها مع ذلك طوتها بدقة ودسّتها تحت ذراعها. تلك كانت عادتها في كل يوم خميس على مدى الأشهر القليلة الماضية.

يوم الخميس هو اليوم الوحيد الذي بقي الآن لتُسلّم فيه ليزيل ميمنجر وتستلم الغسيل، حيث تحصل من خلاله على القليل من الأرباح والمنافع. فشعور النصر، الذي تشعر به في كل مرّة تجد فيها صحيفة مولشينغ اكسبرس، أو أي منشور آخر، لن يضعف أبداً. فأن تجد صحيفة، فهو يوم جيد، وأن تكون الكلمات المتقاطعة فيها غير محلولة فهو يوم عظيم. حيث تعود بسرعة إلى البيت، وتُغلق الباب خلفها، وتُنزِل الصحيفة إلى ماكس فاندينبورغ.

«الكلمات المتقاطعة؟» يسأل.

- فارغة.

- ممتاز!

يبتسم اليهودي وهو يقبل منها الهدية الورقية، ويبدأ القراءة تحت الضوء الشحيح في القبو. في كثير من الأحيان، تبقى ليزيل لمشاهدته وهو يركّز على قراءة الصحيفة، ويُكمل الكلمات المتقاطعة، ومن ثم يُعيد قراءتها، من الصفحة الأولى وحتى الأخيرة.

مع ارتفاع درجة حرارة الطقس، بقي ماكس في القبو طوال الوقت. خلال النهار، تُرك باب القبو مفتوحاً للسماح بخيط صغير من ضوء النهار بالوصول إليه من الممر، الذي لم يفض فعلياً بأشعة الشمس، ولكن في

بعض الحالات، لا بدّ لكم من أخذ ما يمكنكم الحصول عليه. الضوء الشحيح أفضل من لا شيء، كما أنهم بحاجة إلى التوفير، صحيح أن الكيروسين لم يصل بعد إلى مستوى متدنٍ بشكل خطير، ولكن من الأفضل الحفاظ على استخدامه ضمن الحدود الدنيا الممكنة.

اعتادت ليزيل الجلوس على بعض الأوراق لتقرأ، في حين يُنجز ماكس تلك الكلمات المتقاطعة. جلسا متباعدين بضعة أمتار، ومن النادر جداً أن يتبادلا الحديث، ولم يكن هناك في الواقع سوى ضجيج تقليب الصفحات. في كثير من الأحيان، تركت كتبها لماكس ليقرأها بينما تكون هي في المدرسة. جمعت الموسيقى بين هانز هوبرمان وإيريك فاندينبورغ، أما ما جمع ماكس وليزيل معاً هو الكلمات.

- مرحباً ماكس!

- مرحباً ليزيل!

ويكتفيان بالجلوس والقراءة.

في بعض الأحيان، تجلس ليزيل وتراقبه. وقد قرّرت أن أفضل توصيف له هو صورة للتركيز الباهت، ببشرته ذات اللون البيجي، وعينيه الغائمتين، وتنفسه الذي يُشبه تنفس الهارب. بدا يائساً بلا أي صوت. حركة صدره صعوداً ونزولاً هي فقط ما كشف عن وجود الحياة فيه.

في كثير من الأحيان، أغلقت ليزيل عينيها وطلبت من ماكس أن يختبرها في الكلمات التي تُخطئ في تهجئتها باستمرار، ودائماً ما تُطلق الشتائم عندما تُخطئ بها مجدداً. ومن ثم تقف وتكتب تلك الكلمات على الحائط، في أي مكان، وتعيد تكرارها أكثر من عشر مرات. معاً، يستنشق ماكس فاندينبورغ وليزيل ميمنجر رائحة أبخرة الطلاء والاسمنت.

- وداعاً ماكس!

سارقة الكتب

- وداعاً ليزيل!

في سريرها، كانت تستلقي مستيقظة، وتتخيله في القبو. وفي رؤى ما قبل النوم، تخيّلته دوماً نائماً وهو يرتدي ملابسه بالكامل، بما في ذلك حذاؤه، متأهباً في حال اضطر إلى الفرار مرّة أخرى. حيث ينام وإحدى عينيه مفتوحة.

خبيرة أحوال الطقس: منتصف شهر أيار/ مايو

فتحت ليزيل الباب وفمها في آن معاً.

ففي شارع هيمل، كان فريقها قد هزم فريق رودي بنتيجة 6-1، محققاً انتصاراً كبيراً. وها قد اندفعت نحو المطبخ، لتخبر ماما وبابا بكل شيء عن الهدف الذي سجّلته. ثم هرعت إلى القبو لتصف ما حدث بأدق التفاصيل لماكس، الذي أنزل صحيفته واستمع باهتمام، وضحك مع الفتاة.

عندما اكتملت قصّة الهدف، ساد صمت لبضع دقائق، إلى أن رفع ماكس نظره إليها ببطء. «هل يمكن لكِ أن تُسديني خدمة يا ليزيل؟».

مندفعة بحماس انتصارها في شارع هيمل، قفزت الفتاة من على الأوراق. ومع أنها لم تقل شيئاً، إلا أن حركتها قد أظهرت بوضوح نيتها فعل ما يريده بالضبط.

«لقد أخبرتني كل شيء عن الهدف»، قال: «إلا أنني لا أعرف أي نوع من الأيام هو اليوم. لا أعرف ما إذا سجلتِ هدفكِ تحت أشعة الشمس، أم إذا غطّت الغيوم كل شيء». مرّت يده على شعره القصير، وناشدت عيناه الغائمتان أبسط الأشياء. «هل يمكن لكِ أن تصعدي لتتأملي الطقس ومن ثم تعودي لتصفي لي كيف يبدو؟».

بالطبع، أسرعت ليزيل إلى أعلى الدرج. وقفت على بعد بضعة أقدام من

سارقة الكتب

الباب الذي يحمل البصاق المعتاد، واستدارت على الفور، لمراقبة السماء.

عندما عادت إلى القبو، قالت له.

«السماء زرقاء اليوم يا ماكس، وهناك سحابة طويلة كبيرة، ممتدة، مثل حبل. وفي نهايته، تقبع الشمس مثل ثقب أصفر...».

عرف ماكس، في تلك اللحظة، أن الأطفال فقط هم القادرون على إعطائه تقريراً مشابهاً عن أحوال الطقس. على الحائط، رسم حبلاً طويلاً معقوداً بإحكام وفي نهايته شمس تقطر باللون الأصفر، كما لو أنه يُمكن للمرء أن يغوص فيها. ورسم على السحابة التي أخذت شكل حبل، شخصيتين - فتاة نحيلة ويهودي يذوي - كانا يمشيان، وأيديهما ممدودة على جانبيهما ليتوازنا فوق الحبل، في طريقهما نحو الشمس.

تحت الصورة، كُتبت العبارة التالية.

الجدار - الكلمات التي كتبها ماكس فانديبورغ

كان ذلك يوم اثنين، وقد سارا معاً، على حبل مشدود، نحو الشمس.

الملاكم: نهاية شهر أيار / مايو

بالنسبة إلى ماكس فانديبورغ، لم يكن أمامه سوى الاسمنت البارد والكثير من الوقت لقضائه معه.

مرّت الدقائق قاسية.

والساعات بمثابة عقاب.

وقفت فوقه، في كل لحظات استيقاظه، يد الوقت، ولم تتردد في هزّه مبتسمة، لتسمح له بالبقاء على قيد الحياة. يا له من خُبث كبير في أن تسمح لشيء بالاستمرار في العيش!

سارقة الكتب

على الأقل مرّة واحدة في اليوم، اعتاد هانز هوبرمان النزول إلى القبو وتبادل الحديث مع ماكس. أما روزا، فمن شأنها أن تجلب أحياناً بعض فتات الخبز. ولكن فقط عندما تنزل ليزيل، يُصبح ماكس مهتماً أكثر بالحياة مجدداً. في البداية، حاول المقاومة، ولكن الأمر استحال أكثر صعوبة مع كل يوم تأتي فيه الفتاة حاملة تقريراً جديداً عن الطقس تخبره فيه إما عن السماء الزرقاء الصافية، أو الغيوم المتكدّسة، أو الشمس التي تتخللّ كل شيء.

عندما يبقى وحيداً، فالشعور الأكثر قوة الذي يطغى عليه هو التخفي. جميع ملابسه رمادية - سواء كانت هكذا منذ البداية أم لا - بِدءاً من سرواله، مروراً بكنزته الصوفية، ووصولاً إلى سترته البالية التي تتقاطر منه الآن مثل الماء. وكثيراً ما تفحّص فيما إذا كان جلده يتساقط، فقد شعر كما لو أنه يذوي.

ما يحتاج إليه هو سلسلة من المشاريع الجديدة. الأول هو ممارسة التمارين الرياضية: ركّز بداية على تمارين الضغط، حيث يستلقي ومعدته موازية لأرضية القبو الباردة، ثم يرفع نفسه. شعَر وكأن ذراعيه ستنفلتان عند كوعيه، وتخيّل قلبه يندفع منه ويسقط على الأرض بشكل يُرثى له. عندما كان مراهقاً في شتوتغارت، أمكَنه أن يمارس هذا التمرين حتى خمسين مرّة. أما الآن، في سن الرابعة والعشرين، وبوزن أخف بنحو سبعة كيلوغرامات من وزنه المعتاد، استطاع بالكاد القيام بالتمرين عشر مرّات. بعد أسبوع، أصبح قادراً على استكمال ثلاث مجموعات، تتألف كل منها من ست عشرة مرّة من تمرين الضغط واثنتين وعشرين مرّة من تمرين المعدة. عندما ينتهي، اعتاد أن يُسند ظهره لجدار القبو مع أصدقائه من علب الطلاء، ويشعر بنبضه وهو يضج في أسنانه. بدت عضلاته رخوة مثل الكعك.

تساءل في بعض الأحيان، عمّا إذا كانت هذه التمارين تستحق كل هذا العناء. أحياناً، وبعد أن يهدأ نبض قلبه، ويعود جسده طبيعياً مرّة أخرى، كان يطفئ المصباح ويقف في ظلام القبو.

صحيح أنه في الرابعة والعشرين من عمره، إلا أنه ما يزال قادراً على التخيّل.

«في الزاوية الزرقاء»، علّق بهدوء، «لدينا بطل العالم، تحفة العرق الآري – الفوهرر». تنفّس واستدار. «وفي الزاوية الحمراء، لدينا اليهودي، المنافس الذي يحمل وجه الفأر– ماكس فاندينبورغ». من حوله، تجسّد كل ذلك وانبعث إلى الحياة.

تسلّط ضوء أبيض على حلبة الملاكمة ووقفت الحشود صاخبة من حولها– إنه الصوت السحري لعدد هائل من الأشخاص الذي يتحدثون دفعة واحدة. كيف يمكن لكل شخص هناك أن يجد كل هذا الكلام لقوله في الوقت نفسه؟ الحلبة نفسها بدت مثالية. قماش مثالي، وحبال جميلة. وقد ضجّت الغرفة برائحة السجائر والبيرة.

قُطرياً عبر الحلبة، وقف أدولف هتلر في الزاوية مع الفريق المرافق له. برزت ساقاه من تحت رداء أحمر وأبيض يحمل صليباً معقوفاً على ظهره. شاربه ملتصق بوجهه. وقد همس مدربه، غوبلز، بضع كلمات في أذنه. بدأ بالوثب، من قدم إلى قدم، وابتسم. انفرجت ابتسامته أكثر عندما عدّد مُذيع الحلبة قائمة طويلة بإنجازاته، والتي هلّل لها الحشد بشكل صاخب. «لا يُهزم!» أعلن مدير الحلبة. «المنتصر على العديد من اليهود، وأي تهديد آخر للمثالية الألمانية! إنه الفوهرر»، اختتم، «نُحيّيك!» وبالنسبة إلى الحشد، فقد أعمتهم الفوضى والحماس.

بعد ذلك، عندما استقر الجميع، جاء المنافس.

تأرجّح مدير الحلبة نحو ماكس، الذي وقف وحده في زاوية المنافس. بلا رداء. بلا حاشية. مجرّد شاب يهودي وحيد برائحة نفس كريهة، وصدر عار، ويدين وقدمين متعبتين. بالطبع، شورته كان رمادي اللون. وهو أيضاً بدأ بالوثب على قدميه بالتناوب، ولكن في الحدود الدنيا فقط للحفاظ على طاقته. وخاصة أنه تدرّب كثيراً في الصالة الرياضية للمحافظة على وزنه.

«المنافس!» قال مدير الحلبة. «إنه...»، وتوقّف قليلاً ليثير فضول الجماهير، «يحمل دماً يهودياً». أرغى الجمهور وأزبد، مثل غول بشري.

«وهو يزن...».

لم تُسمع بقية الحديث. فقد طغى عليه سيل من الشتائم والسباب المُنهال من المدرجات. شاهد ماكس الخصم وهو يخلع رداءه ويتقدّم إلى وسط الحلبة لسماع القواعد ومصافحة منافسه.

«نهارك سعيد، سيد هتلر»، قال ماكس، إلا أن الفوهرر اكتفى بإظهار أسنانه الصفراء فقط، ومن ثم غطاها مرّة أخرى بشفتيه.

«أيها السادة»، قال حكم شجاع يرتدي سروالاً أسودَ وقميصاً أزرقَ، وربطة عنق. «أولاً وقبل كل شيء، نُريد نزالاً نظيفاً وجيداً». توجّه بحديثه إلى الفوهرر الآن. «إلا، بالطبع، في حال بدأتَ تُظهر علامات الخسارة يا سيد هتلر. فإذا حدث هذا، سأكون على أتم الاستعداد لغض الطرف عن أية تكتيكات لا قانونية قد تقوم بها لطحن هذه القذارة اليهودية». هزّ رأسه بمجاملة كبيرة. «هل هذا واضح؟».

عندها نطق الفوهرر بكلماته الأولى «وضوح الشمس».

أما ماكس، فقد وجّه إليه الحكم تحذيراً. «أما بالنسبة إليكَ، أيها الصبي اليهودي، فلو كنتُ مكانكَ لانتبهت بدقة إلى خطواتي. بدقة كبيرة حقاً». ومن ثم طُلب من كليهما العودة كلٌّ إلى زاويته الخاصة.

سارقة الكتب

وتبع ذلك هدوء قصير.

الجرس.

أولاً، اندفع الفوهرر، بساقيه الغريبتين وجسده الضئيل، وبدأ بكيل اللكمات بقوة إلى وجه ماكس. اهتز الحشد، وصوت الجرس يصدح في آذانهم، وابتسامات الرضى تثب فوق حبال الحلبة. أنفاس هتلر الحارة تبخّرت من فمه وهو يُكدّس اللكمات على وجه ماكس: على الشفتين، والأنف، والذقن - وماكس ما يزال متقوقعاً في زاويته. حيث رفع يديه أمام وجهه لحمايته، وسرعان ما استهدف الفوهرر أضلاعه وكليتيه ورئتيه. أوه، العينان، عينا الفوهرر. كانتا بلون بني لذيذ، وتُشبهان عيني اليهودي. بدا التصميم والعزم واضحين فيهما لدرجة أن ماكس تسمّر للحظة عندما لمحهما بين ستار قفازي الفوهرر.

كانت هناك جولة واحدة فقط، وقد دامت لساعات، من دون أن يتغير شيء في معظمها.

الفوهرر منكب على ضرب اليهودي الذي استحال إلى كيس ملاكمة.

والدم اليهودي أصبح متناثراً في كل مكان.

مثل غيوم تُمطر مطراً أحمرَ على القماش الأبيض تحت أقدامهما.

في نهاية المطاف، بدأت ركبتا ماكس بالتداعي، وأنّت عظام خده بصمت. ما زال وجه الفوهرر المبتهج يقترب وينتصر، إلى أن انهار اليهودي المنكسر المتألم إلى الأرض.

أولاً، الهدير.

ومن ثم، الصمت.

بدأ الحكم بالعد، وبرز سنه الذهبي وكمية كبيرة من شعر الأنف.

ببطء، نهض ماكس فاندينبورغ، اليهودي، على قدميه، واستقام واقفاً.

صوته متردد وهو يحمل دعوة. «هيا، أيها الفوهرر»، قال، وهذه المرة، عندما اندفع أدولف هتلر نحو نظيره اليهودي، تنحّى ماكس جانباً ودفعه إلى الزاوية. لكمه سبع مرات، مستهدفاً في كل منها شيئاً واحداً فقط.

الشارب.

مع اللكمة السابعة، أخفق. فذقن الفوهرر هي التي تلقّت الضربة. عندها، اندفع الفوهرر على الحبال وراءه وارتد نحو الأمام، هابطاً على ركبتيه. هذه المرة، لم يكن هناك عدّ. انكمش الحكم في الزاوية. وغرق الجمهور في صمت الموتى، قبل أن يعاودوا احتساء جعتهم. وهو على ركبتيه، ذاق الفوهرر طعم دمه وقوّم شعره، من اليمين نحو اليسار. عندما وقف على قدميه، ابتهج الحشد الذي يضم ألفاً من أشد المعجبين بالفوهرر، اندفع إلى الأمام وقام بشيء غريب جداً: أدار ظهره لليهودي ونزع القفازين من يديه.

اندهش الحشد.

«إنه يستسلم»، همس أحدهم، ولكن في غضون لحظات، وقف أدولف هتلر على الحبال، وبدأ يخاطب الحشد.

«أيها الألمان»، قال، «يمكنكم أن تلاحظوا شيئاً ما هنا هذه الليلة، أليس كذلك؟» بصدره العاري، وعينيه المنتصرتين، أشار إلى ماكس. «يمكنكم أن تلاحظوا أن ما نواجهه هو شيء أكثر شراً وقوة بكثير مما كنا نتخيل. هل تدركون ذلك؟». أجابوا: «نعم أيها الفوهرر».

«هل يمكنكم أن تروا أن هذا العدو قد وجد طرقه الخاصة – طرقه الدنيئة – للنيل من صمودنا، وأنه من الواضح بأنني لا أستطيع الوقوف هنا وحدي ومحاربته؟» بدت كلماته مرئية، تتساقط من فمه مثل المجوهرات. «انظروا اليه! انظروا إليه جيداً». نظروا إلى ماكس فاندينبورغ المغطى

سارقة الكتب

بالدماء. «بينما نحن نتكلم، فإنه يُحيك مؤامرته للوصول إلى حيّكم. إنه يعيش بالقرب منكم. إنه، وعائلته، يتفشّون بينكم، وعلى وشك أن يقضوا عليكم. إنه..»، ألقى هتلر نظرة اشمئزاز تجاه ماكس. «...سيتملككم عمّا قريب، حتى لا يعود فقط المحاسب في متجر بقالتكم، بل ذلك المتفاخر الذي يكتفي بالجلوس لتدخين غليونه، وقبض الأموال. قبل أن تدركوا ذلك، ستصبحون عمالاً لديه، وبالحد الأدنى من الأجور، في حين يصبح هو عاجزاً تقريباً عن المشي من ثقل النقود في جيوبه. هل ستقفون هناك ببساطة وتسمحون له بالقيام بذلك؟ هل ستقفون مكتوفي الأيدي، كما فعل زعماؤكم في الماضي، عندما أعطوا أرضكم للغرباء، عندما باعوا بلدكم مقابل حفنة توقيعات؟ هل ستقفون هناك، عاجزين؟ أم»، وصعد حبلاً آخر أعلى، «ستنضمون إليّ هنا، في هذه الحلبة؟»

ارتجف ماكس. واستولى الرعب على أحشائه.

أنهاه أدولف بالضربة القاضية. «هل ستنضمون إليّ هنا لنتمكن من هزيمة هذا العدو معاً؟».

في قبو المنزل رقم 33 في شارع هيمل، شعر ماكس فانديبورغ بضربات قبضات شعب بأكمله. واحداً تلو الآخر صعدوا إلى الحلبة وضربوه. جعلوه ينزف. وتركوه يعاني. الملايين منهم، إلى أن تمالك نفسه أخيراً، ووقف على قدميه...

شاهد الشخص التالي يتسلق عبر الحبال، كانت فتاة. وهي تقطع الحلبة ببطء، لاحظ دمعة تنهمر على خدها الأيسر. كانت تحمل في يدها اليمنى صحيفة.

«الكلمات المتقاطعة»، قالت بلطف، «إنها فارغة»، وقدّمتها إليه.

الظلام.

سارقة الكتب

لا شيء الآن سوى الظلام.
القبو فقط. اليهودي فقط.

الحلم الجديد: بعد بضع ليال

من بعد ظهر أحد الأيام، نزلت ليزيل درجات القبو. بينما يمارس ماكس تمارين الضغط المعتادة.

شاهدته لبعض الوقت، من دون علمه، وعندما نزلت وجلست معه، وقف واسند ظهره إلى الجدار. «هل أخبرتكِ»، سألها، «بأن حلماً جديداً بدأ يراودني في الآونة الأخيرة؟».

تحرّكت ليزيل قليلاً، لرؤية وجهه.

«إلا أنني أحلم به عندما أكون مستيقظاً». وتحرّك نحو مصباح الكيروسين الخافت. «أحياناً أُطفئ الضوء. وأقف هنا منتظراً».

«منتظراً ماذا؟».

صححها ماكس: «ليس ماذا. بل مَن».

لبضع لحظات، لم تقل ليزيل شيئاً. فتلك من إحدى المحادثات التي تتطلب بعض الوقت ليتبادل الطرفان الحديث. « تنتظر مَن؟».

لم يتحرك ماكس. «الفوهرر». بدا جوابه بدهياً. «لهذا أتدرّب».

«هل تعني تمارين الضغط؟».

«هذا صحيح». مشى إلى الدرج الاسمنتي. «كل ليلة، أنتظر في الظلام، وينزل الفوهرر هذه الدرجات. نُمضي ساعات ونحن نتقاتل، أنا وهو». وقفت ليزيل الآن. «ومَن يفوز؟» في البداية، كان وشك أن يُجيب بأن أياً منهما لم يفز، إلا أنه لاحظ بعد ذلك علب الطلاء، والأوراق المستهلكة، والكومة المتزايدة من الصحف في محيط رؤيته. شاهد الكلمات، والغيمة الطويلة، والأرقام على الحائط. وقال: «أنا».

سارقة الكتب

بدا المشهد كما لو أنه بسط راحة يدها، وأودع فيها الكلمات، وأطبقها مرّة أخرى.

تحت الأرض، في ميونخ - ألمانيا، وقف شخصان في قبو وتحدثا. يبدو هذا السطر وكأنه بداية نكتة:

«هناك يهودي وألمانية يقفان في قبو...»

ومع ذلك، فتلك لم تكن نكتة.

الرسامون: أوائل شهر حزيران / يونيو

مشروع آخر من مشاريع ماكس كان يتمحور حول ما تبقى من كتاب (كفاحي). حيث أزال كل صفحة بلطف من الكتاب ووضعها على الأرض، وطلاها بطبقة من الطلاء. ثم علّقها لتجف، وبدّل بين الغلاف الأمامي والخلفي. عندما نزلت ليزيل في أحد الأيام بعد المدرسة، وجدت ماكس، وروزا، وبابا، يطلون جميعاً الصفحات المختلفة. العديد منها عُلّق بالفعل على الحبل، بطريقة إنجاز كتاب (المراقب) نفسها.

الثلاثة رفعوا نظرهم إليها، وقالوا:

«أهلاً يا ليزيل».

«إليكِ هذه الفرشاة».

«لقد تأخرتِ أيتها الخنزيرة. أين كنتِ حتى الآن؟».

بدأت هي أيضاً بطلاء الصفحات، فكّرت ليزيل في ماكس فاندينبورغ وهو يقاتل الفوهرر، تماماً كما شرح لها.

رؤى القبو ، حزيران / يونيو 1941

اللكمات قوية، والحشد يتسلق خارج الجدران. ماكس والفوهرر

سارقة الكتب

يتقاتلان في سبيل الحياة أو الموت، ويرتد كل منهما من الدرج. هناك دم على شارب الفوهرر، وكذلك على شعره، على الجانب الأيمن من رأسه. «هيا أيها الفوهرر»، يقول اليهودي. ويدعوه إلى التقدّم. «هيا أيها الفوهرر».

عندما تبدّدت الرؤى وأنهت صفحتها الأولى، غمزها بابا. بينما وبّختها ماما لاستهلاكها الكثير من الطلاء. وتفحّص ماكس كل صفحة، وهو يُشاهد ربما في ذهنه ما يُخطط لرسمه عليها. وبعد عدة أشهر، عكف أيضاً على طلاء غلاف الكتاب وأعطاه عنواناً جديداً، تيمّناً بإحدى القصص التي سيكتبها ويرسمها داخله.

بعد ظهر ذلك اليوم، في القبو السري تحت المنزل رقم 33 في شارع هيمل، أعدّ آل هوبرمان، وليزيل ميمنجر وماكس فاندينبورغ، صفحات كتاب (قاطفة الكلمات).

يا له من شعور جيد أن يكون المرء رساماً!

المواجهة: 24 حزيران / يونيو

ثم جاء الوجه السابع للنرد. بعد مرور يومين على غزو ألمانيا لروسيا، وقبل ثلاثة أيام من تحالف بريطانيا والاتحاد السوفييتي.

السابع.

بعد أن ترموا النرد، وتروا وجهه السابع، ستدركون تماماً أن هذا ليس بنرد عادي. قد تدّعون بأنه سوء الطالع، إلا أنكم كنتم تعرفون طوال الوقت بأنه قادم لا محالة. أنتم جلبتموه إلى الغرفة. ويمكن للطاولة الجامدة أن تشم رائحته على أنفاسكم. إنه اليهودي يخرج من جيبكم منذ البداية، ويلطخ ثيابكم، وفي اللحظة التي ترمون فيها النرد، تُدركون على الفور

وجهه السابع - الشيء الوحيد الذي يجد، بطريقة أو بأخرى، وسيلة لإيذائكم. يحط أمامكم، ويحدّق في أعينكم، إنه معجزة وشؤم في آن معاً. وتتابعون أنتم طريقكم بينما يتغذّى هو عليكم.

مجرد سوء طالع.

هذا ما تقولونه.

وليست له أية عواقب.

هذا ما تحملون أنفسكم على تصديقه والاعتقاد به - لأنكم في أعماقكم، تُدركون أن هذه القطعة الصغيرة من الحظ المتقلّب هي إشارة لما هو آت. إذا أخفيتم يهودياً، فستدفعون ثمن ذلك، بطريقة أو بأخرى، لا محالة.

عندما تنظر ليزيل إلى تلك الفترة، ترى أنها ما حدث لم يكن مشكلة كبيرة. ربما لأن أحداثاً أكثر أهمية من ذلك بكثير، قد وقعت في الوقت الذي كتبت فيه قصتها في القبو. وضمن إطار المخطط الكبير للأشياء، فكّرت في أن طرد روزا من قبل رئيس البلدية وزوجته لم يكن حظاً سيئاً على الإطلاق. فهو ليس مرتبطاً على الإطلاق بإخفاء اليهودي. بل كان وثيق الصلة بالسياق الأكبر للحرب. ومع ذلك، فقد بدا كل ما حدث في ذلك الوقت وكأنه عقاب.

في الواقع، كانت البداية قبل أسبوع أو نحو ذلك من يوم 24 حزيران / يونيو. حيث جلبت ليزيل صحيفة إلى ماكس فاندينبورغ كما هي عادتها دوماً. انتشلتها من سلة قمامة قبالة شارع ميونخ ودسّتها تحت إبطها. وبمجرّد أن سلّمتها لماكس وبدأ بقراءاته الأولى لها، نظر إلى ليزيل، وأشار إلى صورة على الصفحة الأولى. «أليس هذا من تقومين بإيصال الغسيل إلى منزله؟».

سارقة الكتب

اقتربت منه ليزيل، التي كانت تكتب على الحائط كلمة «جدال» ست مرات، بجانب الصورة التي رسمها ماكس لغيمة على شكل حبل والشمس التي تقطر باللون الأصفر. أعطاها ماكس الصحيفة، وأكدّت هي كلامه. «إنه هو».

نقلت الصحيفة عن هاينز هيرمان، رئيس البلدية، قوله إنه على الرغم من تطوّر الحرب بشكل إيجابي ورائع، فإنه يتعيّن على شعب مولشينغ، مثل جميع الألمان المسؤولين، اتخاذ الإجراءات الكافية والاستعداد لاحتمالات أوقات أصعب. وصرّح قالاً: «أنتم لا تعرفون أبداً ما يُفكّر فيه أعداؤنا، أو كيف سيحاولون إضعاف عزيمتنا».

بعد أسبوع، أثمرت كلمات رئيس البلدية ثماراً سيئة. فقد ذهبت ليزيل، كما تفعل دوماً، إلى شارع جرانده وقرأت كتاب (رجل الصافرة) على أرضية مكتبة رئيس البلدية. لم تُظهر زوجة رئيس البلدية أية علامات غريبة (أو لنكن صريحين، لم تُظهر علامات غريبة إضافية) حتى حان الوقت للمغادرة.

هذه المرة، عندما عرضت على ليزيل أخذ كتاب (رجل الصافرة)، أصرّت بشكل كبير على الفتاة لتأخذه. «أرجوكِ»، توسّلت إليها تقريباً، وقبضت على الكتاب بشدة: «خذيه. أرجوكِ».

ليزيل، التي أدهشتها غرابة هذه المرأة، لم تتحمّل أن تُخيّب أملها مرّة أخرى. ووجد الكتاب ذو الغلاف الرمادي، والصفحات الصفراء، طريقه إلى يدها. بدأت بالسير في الممر، وعندما أوشكت أن تسأل عن الغسيل، رمقتها زوجة رئيس البلدية بنظرة أخيرة تنمّ عن الحزن المتجسّد في امرأة ملتفة برداء الحمام. مدّت يدها إلى أحد الأدراج وسحبت مظروفاً. صوتها، المتقطع من قلة الاستخدام، نطق الكلمات التالية:

سارقة الكتب

«أنا آسفة. أعطِ هذا المبلغ لوالدتكِ». توقفت ليزيل عن التنفس.

أدركت فجأة كم بدت قدماها ضئيلتين في حذائها. شيء ما أطبق على حلقها. وارتجفت. عندما مدّت يدها أخيراً وأخذت الرسالة، لاحظت صوت الساعة في المكتبة. بتجهم، أدركت أن الساعات لا تُصدر صوتاً يُشبه، حتى عن بعد، صوت - تيك توك -. بل بدا أكثر كصوت مطرقة، تضرب بطريقة منهجية على الأرض. كصوت القبر. ليت قبري جاهزٌ الآن، فكّرت - فقد أرادت ليزيل ميمنجر أن تموت في تلك اللحظة. عندما ألغى الآخرون أعمالهم مع ماما، لم يتسبّب ذلك في ضرر كبير. فهناك دوماً رئيس البلدية، ومكتبته، وعلاقتها مع زوجته. الأمل الأخير قد تبخّر الآن، وهذه المرة، شعرت بالخيانة العظمى.

كيف يمكن لها أن تواجه ماما؟

بالنسبة إلى روزا، فتلك النقود الشحيحة ساعدتها في تلبية بعض الاحتياجات. حفنة إضافية من الدقيق، أو قطعة من الدهن.

تتحرّق إلسا هيرمان الآن للتخلّص منها. واستطاعت ليزيل أن ترى ذلك بشكل ما من خلال الطريقة التي شدّت فيها على ردائها أكثر قليلاً. الحزن جلي على وجهها، ولكن من الواضح أنها أرادت أن ينتهي هذا الوضع. «قولي لأمكِ»، تحدّثت مرّة أخرى، وصوتها يتكيف الآن، مع تحوّل جملة واحدة إلى جملتين، «بأننا آسفون». وبدأت بتوجيه الفتاة نحو الباب.

شعرت ليزيل الآن بالألم في كتفيها، إنه ألم الرفض النهائي.

هل هذا كلُ شيء؟ سألت داخلياً. هل ستطردينني بهذا الشكل؟

ببطء، حملت كيسها الفارغ وتحرّكت نحو الباب. وبمجرد خروجها، واجهت زوجة رئيس البلدية للمرة الثانية والأخيرة في ذلك اليوم. نظرت

سارقة الكتب

إلى عينيها بلمحة كبرياء. «دانكه شُن، شكراً جزيلاً»، قالت. ابتسمت إلسا هيرمان بطريقة منهزمة عديمة الفائدة.

«إذا أردتِ يوماً أن تأتي للقراءة فقط»، كذبت المرأة (أو أن الفتاة، بصدمتها وحزنها قد حكمت على كلامها بأنه كذب)، «فأنتِ موضع ترحيب كبير».

في تلك اللحظة، أدهشها عرض المدخل. فتلك مساحة كبيرة. لماذا يحتاج الناس إلى كل هذه المساحة الكبيرة لعبور الباب؟ لو كان رودي هناك، لدعاها بالحمقاء - فالجواب البدهي هو لإدخال جميع أغراضهم وأشيائهم إلى الداخل.

«وداعاً»، قالت الفتاة. وببطء، أُغلق الباب.

لم تتحرك ليزيل.

لوقت طويل، جلست على الدرجات وشاهدت مولشينغ. لم يكن الطقس دافئاً ولا بارداً، وبدت البلدة واضحة وساكنة، وكأنها في إناء.

فتحت الرسالة. حيث حدّد فيها رئيس البلدية، هاينز هيرمان، بأسلوب دبلوماسي الأسباب التي دعتهما إلى إنهاء خدمات روزا هوبرمان. حيث أوضح أنه سيكون منافقاً إذا حافظ على كمالياته الصغيرة في حين ينصح الآخرين بالتجهز لأوقات أصعب.

وقفت في نهاية المطاف وسارت باتجاه المنزل. ومرّة أخرى، حانت لحظة رد فعلها عندما رأت لافتة متجر الخياط شتاينر في شارع ميونخ. تركها حزنها وغمرها الغضب. «رئيس البلدية النذل»، همست، «وتلك المرأة المثيرة للشفقة». حقيقة قدوم الأوقات الصعبة هي بالتأكيد أفضل سبب للإبقاء على خدمات روزا، ولكن لا، لقد طرداها ببساطة. وفكّرت في أنه يمكن لهما على أي حال إنجاز غسيلهما وكيّه، مثل الأناس العاديين، مثل الفقراء.

سارقة الكتب

في يدها، شددت قبضتها على كتاب (رجل الصافرة).

«إذاً لقد أعطيتني الكتاب»، قالت الفتاة، «بدافع الشفقة - حتى لا تشعري بالسوء...»، وهنا أصبحت حقيقة أنها قد عرضت عليها أخذ الكتاب قبل ذلك اليوم، غير مهمة.

استدارت كما فعلت من قبل، وعادت مرّة أخرى نحو شارع جرانده. كان إغراء الركض هائلاً، لكنها امتنعت عن ذلك حتى يكون لديها ما يكفي من الطاقة لنطق الكلمات.

عندما وصلت، شعرت بخيبة أمل لأن رئيس البلدية نفسه لم يكن هناك. فلم تر سيارته مركونة على جانب الطريق. وربما كان ذلك أمراً جيداً، فلو كانت السيارة أمامها هناك، فلم يكن أحد ليحزر ما قد تفعله بها في هذه اللحظة التي يتصادم فيها الأغنياء وجهاً لوجه مع الفقراء.

صعدت درجتين في وقت واحد. وصلت إلى الباب، ودقّت عليه بقوة كبيرة لدرجة آلمتها. واستمتعت بالشظايا الصغيرة من الألم.

من الواضح أن زوجة رئيس البلدية صُدمت عندما رأتها مرّة أخرى. شعرها المنفوش كان رطباً قليلاً واتسعت تجاعيدها عندما لاحظت الغضب الواضح على وجه ليزيل الشاحب عادة. فغرت فمها، إلا أنها لم تقل شيئاً، الأمر الذي كان ملائماً حقاً، حيث تولّت ليزيل قيادة دفّة الحديث.

«هل تعتقدين»، قالت، «بأنه يمكنكِ إرضائي بهذا الكتاب؟» صوتها، على الرغم من ارتجافه، أطبق على حلق المرأة. والغضب المتلألئ بدا ثقيلاً ومتلفاً للأعصاب، إلا أنها حاولت تمالكت نفسها. لكنها انفعلت إلى درجة أبعد من ذلك، إلى النقطة التي احتاجت فيها إلى مسح الدموع من عينيها. «هل تظنين بأنك إذا أعطيتني هذا الكتاب اللعين فسوف يُصبح كل

شيء على ما يرام عندما أذهب وأقول لأمي بأننا فقدنا للتو آخر زبون لدينا؟ بينما تجلسين أنتِ هنا مرتاحة في قصركِ؟» بدت يدا زوجة رئيس البلدية معلقتين إلى جانبها.

وارتبك وجهها.

ليزيل، مع ذلك، لم تتراجع. بل رشّت كلماتها مباشرة في عيني المرأة.

«أنت وزوجكِ تجلسان هنا». أصبحت الآن حاقدة وشريرة أكثر مما توقّعت.

يا للأذى الذي تُسببه الكلمات!

نعم، إنها وحشية الكلمات.

استدعت هذه الكلمات القاسية من مكان ما لم تعرف بوجوده قبل الآن، وألقتها على إلسا هيرمان.

«لقد حان وقت أن تقومي بنفسك بغسل غسيلك النتن على أي حال. حان الوقت لتواجهي حقيقة أن ابنك قد مات. قُتل! خُنق وقُطّع منذ أكثر من عشرين سنة! أم أنه تجمّد حتى الموت؟ في كلتا الحالتين، لقد مات! لقد مات، ومن المثير للشفقة أن تجلسي هنا مرتجفة في منزلك لتعاني من أجل ما حدث. هل تظنين أنكِ الوحيدة التي تعاني؟».

وعلى الفور.

أصبح شقيقها بجانبها.

همس لها أن تتوقف، إلا أنه ميت أيضاً، ولا يستحق الاستماع إليه.

مات في قطار.

ودفنوه في الثلج.

نظرت ليزيل إليه، إلا أنها لم تستطع أن تتوقف وتكبح جماح هجومها.

ليس بعد.

«هذا الكتاب...»، تابعت كلامها. وقد رمت بالصبي على الدرج، وجعلته يسقط. «أنا لا أريد هذا الكتاب». أصبحت الكلمات أكثر هدوءاً الآن، وإنما بالقوة نفسها. رمت الكتاب عند قدَمي المرأة، وسمعت صوته عندما استقر على الاسمنت.

«لا أريد كتابكِ البائس...».

الآن، قالت كل ما تريد قوله. وصمتت.

أصبح حلقها أجرداً الآن، خالٍ من الكلمات على بعد أميال.

اختفى شقيقها، وهو يحضن ركبته.

بعد صمت ثقيل، تقدّمت زوجة رئيس البلدية إلى الأمام وأخذت الكتاب. بدا وكأنها قد تعرّضت للضرب، وليس من مجرّد رسم ابتسامه هذه المرة. استطاعت ليزيل أن ترى آثار ذلك على وجهها. تسرّب الدم من أنفها ومسح شفتيها، اسودّت عيناها، وتفتّحت جروحها، وارتقت سلسلة من الجروح الدامية إلى سطح جلدها. كل ذلك بسبب الكلمات. بسبب كلمات ليزيل.

بعد أن حملت الكتاب في يدها، بدأت إلسا هيرمان مرّة أخرى الاعتذار مجدداً، إلا أن الجُمل لم تصدر من فمها.

اصفعيني، فكّرت ليزيل. هيا، اصفعيني.

لم تصفعها إلسا هيرمان. اكتفت بالتراجع إلى الوراء، إلى حيث الهواء القبيح لمنزلها الجميل. تُركت ليزيل لوحدها، مرّة أخرى، على الدرج. كانت تخشى أن تستدير لأنها تعرف أنها عندما ستفعل، سترى حُطام الإناء الزجاجي الذي ضم مولشينغ فيما مضى، والذي منحها بعض السعادة.

قرأت الرسالة مرّة أخرى، وعندما أصبحت على مقربة من بوابة

منزل رئيس البلدية، قبضت على الورقة بإحكام وكوّرتها على شكل كرة، استدارت ورمتها على الباب الهائل، كما لو كانت حجراً. ليس لديّ أية فكرة عمّا توقعته سارقة الكتب، إلا أن الكرة الورقية ضربت الباب الخشبي، وارتدت أسفل الدرج، هابطة عند قدميها.

«بالطبع»، قالت، وهي تركلها إلى العشب. «عديمة الفائدة».

هذه المرة، وفي طريقها إلى البيت، تخيّلت مصير تلك الورقة عندما تمطر لاحقاً، أمكنها أن ترى الكلمات تتحلل حرفاً وراء حرف، إلى أن لم يبقَ هناك أي شيء. مجرد ورقة. مجرّد تراب.

في المنزل، عندما دخلت ليزيل من الباب، وجدت روزا في المطبخ. «حسناً؟» سألت. «أين الغسيل؟».

«لا يوجد غسيل اليوم»، جاوبتها ليزيل.

تحرّكت روزا وجلست على طاولة المطبخ. لقد عرفت. فجأة، بدت أكبر سناً بكثير. تخيّلت ليزيل ما ستبدو عليه لو أنها فكّت كعكة شعرها، وأسدلته على كتفيها. منشفة رمادية من الشعر البلاستيكي.

«ماذا فعلتِ هناك، أيتها الخنزيرة الصغيرة؟» قالت الجملة بخدر. لم تستطع حشد سُمها المعتاد.

«إنه خطئي بالكامل»، أجابت ليزيل. «لقد أهنتُ زوجة رئيس البلدية وقلتُ لها أن تتوقف عن البكاء على ابنها الميت. أخبرتُها بأنها مثيرة للشفقة. قلتُ كل ذلك بعد أن طردوكِ من العمل...» مشت نحو الملاعق الخشبية، وأمسكت حفنة منها ووضعتها أمامها. «اختاري».

لمست روزا واحدة والتقطتها، إلا أنها لم تستخدمها. «أنا لا أصدقكِ».

تمزّقت ليزيل بين الحزن والدهشة. في المرة الوحيدة التي أرادت يائسة أن تحصل على عقابها، لم تستطع! «هذا خطئي».

«إنه ليس كذلك»، قالت ماما. وقفت ومسّدت شعر ليزيل الدهني غير المغسول. «أعلم بأنكِ لن تقولي مثل تلك الكلمات».

- لقد قلتُها!

- حسناً، لقد قلتِها.

وهي تغادر المطبخ، سمعت ليزيل صوت إعادة الملاعق الخشبية إلى مكانها في الإناء المعدني الذي يضمها. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى غرفة نومها، رمت روزا بالملاعق كلها، بما فيها الإناء، إلى الأرض.

في وقتٍ لاحق، نزلت ليزيل إلى القبو، حيث يقف ماكس في الظلام، مشغولاً على الأرجح بنزاله مع الفوهرر.

«ماكس؟» وأضاءت ضوءاً خافتاً على - شكل أحمر، يطفو في الزاوية. «هل لكَ أن تعلمني كيفية القيام بتمارين الضغط؟».

علّمها ماكس كيفية القيام بذلك، وفي بعض الأحيان، ساعدها على رفع جذعها. وعلى الرغم من مظهرها النحيل، كانت ليزيل قوية وأمكنها أن تحمل وزنها بشكل جيد. لم تحسب عدد المرات التي مارست فيها ذلك التمرين، ولكن في تلك الليلة، وتحت ضوء القبو المعتم، كانت التمارين التي قامت بها كافية بما يكفي لجعلها تتألم لعدة أيام. حتى عندما نصحها ماكس بأن تتوقف لكونها قامت بالفعل بالكثير، فلم تستمع إليه.

في سريرها، قرأت مع بابا كعادتها. إلا أنه شعر بوجود خطب ما. خلال شهر، كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها ليجلس معها. شعرت بالارتياح، ولو قليلاً. بطريقة ما، يعرف هانز هوبرمان دائماً ما ينبغي قوله، وما هو الوقت المناسب ليكون معها، ومتى يتركها وشأنها. ربما ليزيل هي الشيء الوحيد الذي يُعتبر خبيراً حقيقياً به.

«هل هو الغسيل؟». سألها.

هزّت ليزيل رأسها.

لم يحلق بابا ذقنه منذ بضعة أيام، وبدأ بحكّ شعر وجهه كل دقيقتين أو ثلاث دقائق. بدت عيناه الفضيتان مسطحتين وهادئتين، ودافئتين قليلاً، كما هما دائماً عندما يتعلق الأمر بليزيل.

عندما توقفت القراءة أخيراً، غط بابا في النوم. عندها قالت ليزيل ما أرادت قوله منذ البداية.

«بابا»، همست، «أعتقد بأنني سأذهب إلى الجحيم». شعرت بدفء ساقيها، وببرودة ركبتيها.

تذكرت الليالي التي بلّلت فيها سريرها، وبابا الذي تكفّل بغسل الأغطية وتعليمها الحروف الأبجدية. الآن، صدر صوت تنفّسه عالياً فوق الأغطية، وقبّلت خده الشائك.

«أنتَ في حاجة إلى حلاقة»، قالت.

«لن تذهبي إلى الجحيم»، أجاب بابا.

لبضع لحظات، تأمّلت وجهه. ثم استلقت، وضمته، وغطّا في النوم معاً. صحيح أنهما في ميونخ، إلا أنهما يطوفان الآن في مكان ما على الوجه السابع لنرد ألمانيا.

سارقة الكتب

شباب رودي

في النهاية، تحتّم عليها أن تُعطيها له.
فقد عرف تماماً ماذا يفعل.

صورة رودي شتاينر: تموز / يوليو 1491

خطوط من الطين، تقبض على وجهه. وربطة عنقه مثل بندول ساعة متوقف منذ زمن بعيد.
شعره الليموني أشعث، ووجهه يرتدي ابتسامة حزينة، سخيفة.

وقف على بعد أمتار قليلة من الدرج وتحدث بإيمان كبير، وفرح كبير.

«اكيس إيست شايسه، كل شيء مقرف مثل الغائط»، أعلن.

في النصف الأول من عام 1941، وبينما انهمكت ليزيل في إخفاء ماكس فاندينبورغ، وسرقة الصحف، وإهانة زوجة رئيس البلدية، انخرط رودي في حياة جديدة خاصة به مع تنظيم شبيبة هتلر. منذ بداية شهر شباط/ فبراير، أصبح يعود من الاجتماعات بحالة أسوأ بكثير مما ذهب

سارقة الكتب

إليها. في العديد من رحلات العودة تلك، كان تومي مولر يرافقه وهو في الحالة نفسها. بدا جلياً أن المشكلة تضم ثلاثة عناصر رئيسة.

مشكلة من ثلاثة مستويات

1. أُذنا تومي مولر.
2. فرانز دويتشر – قائد شبيبة هتلر سريع الغضب.
3. عدم قدرة رودي على البقاء بعيداً عن التدخّل في الأشياء.

فقط لو لم يُفقد تومي مولر لمدة سبع ساعات في واحدة من أبرد الأيام في تاريخ ميونخ، قبل ست سنوات. إصابة أذنه وتلف الأعصاب الذي لحق به يتعارض مع نمط مسير شبيبة هتلر، وأؤكد لكم، بأن هذا لم يكن يوماً شيئاً إيجابياً.

في البداية لم تكن المسألة واضحة ومستفزة جداً، ولكن مع تقدّم الأشهر، بدأ تومي يُصبح باستمرار محط غضب قادة شبيبة هتلر، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمسير. هل تذكرون عيد ميلاد هتلر في العام السابق؟ خلال فترة من الزمن، بدأت اعتلالات أذنه تزداد سوءاً. ووصلت إلى درجة عانى فيها تومي من مشاكل حقيقية في السمع. فقد أصبح عاجزاً عن فهم الأوامر التي يصرخ بها القادة على المجموعة في أثناء مسيرهم في الصف.

لا يهم إذا كان ذلك في القاعة أو في الخارج، في الثلج أو الطين أو المطر. الهدف دوماً هو أن يتوقف الجميع في اللحظة نفسها.

«نقرة واحدة!» قيل لهم. «هذا كل ما يريد الفوهرر أن يسمعه. الجميع متحدين. الجميع معاًا!»، ومن ثم يأتي تومي مع وضعه الخاص.

أذنه اليسرى، كما أظن، هي الأكثر اعتلالاً، وعندما تصم الصرخة

المريرة لكلمة (قف!) آذان الجميع، يُتابع تومي مسيره بشكل مسرحي ومضحك. حيث يمكنه بلمحة بصر إفساد ما هو بخلاف ذلك مسير مثالي.

في يوم سبت من بداية شهر تموز / يوليو، بعد الساعة الثالثة والنصف بقليل، وعدّة محاولات فاشلة لضبط تومي، ضاق فرانز دويتشر ذرعاً بهذه الحالة (بالمناسبة، يحمل فرانز اسماً مثالياً لألماني نازي مثالي - حيث أن دويتشر تعني الألماني).

«مولر أيها القرد!»، صاح بشعره الأشقر السميك، وكلماته تتلاعب بوجه تومي، «ما هي مشكلتكَ؟».

نظر تومي بخوف إلى الخلف، إلا أن خده الأيسر ما زال قادراً على الانقباض في التواء بهيج. وبذلك لم يكن يبدو وكأنه يضحك بابتسامة النصر فحسب، وإنما يقبل ما يُقال له بغبطة وسرور. وفي المحصلة، لم يكن فرانز دويتشر ليقبل بأي من هاتين الحالتين. فالعينان الباهتتان لتومي أطاحت بصبره.

«حسناً؟» سأل. «بماذا يمكنكَ أن تدافع عن نفسك؟».

زادت انقباضات وجه تومي، لجهة سرعتها وعمقها.

«هل تسخر مني؟».

«يحيا...»، قال تومي، في محاولة يائسة لكسب بعض الموافقة، لكنه لم يصل إلى حد قول الجزء الثاني «هتلر».

كان ذلك عندما تقدّم رودي إلى الأمام. وواجه فرانز دويتشر. نظر إليه قائلاً: «إنه يعاني من مشكلة، يا سيدي...».

«أستطيع أن أرى ذلك!».

«في أذنيه»، أنهى رودي جملته. «لا يستطيع...»

«حسناً، هذا كل شيء». فرك دويتشر يديه معاً. «أنتما الاثنان - قوما

بالجري ست لفات». أطاعاه، ولكن ليس بالسرعة الكافية. «بسرعة!» طاردهما صوته.

عندما انتهيا من الجري، عوقبا ببعض التدريبات القاسية المتنوعة، التي تشمل النزول إلى الأرض والوقوف بسرعة، وبعد خمس عشرة دقيقة طويلة جداً، أمرهما بأداء التمارين والتمرغ بالأرض لما كان من المفروض أن يكون المرة الأخيرة.

نظر رودي إلى الأرض.

وحملقت في وجهه كرة مشوهة من الطين.

إلى ماذا تنظر؟ بدت وكأنها تسأله.

«انزلا!» أمر فرانز.

بالطبع، قفز رودي متجاوزاً إياها وهبط على بطنه.

«قفا!» ابتسم فرانز. «خطوة واحدة إلى الوراء». فعلا ذلك. «انزلا!».

الرسالة واضحة تماماً، وهذه المرة قبلها رودي. تمرّغ في الطين وحبس أنفاسه، وفي تلك اللحظة، وأذنه على التراب المخضل، انتهت العقوبة.

«فيلين دانك،ماينه هيرين! شكراً جزيلاً، يا سادتي». قال فرانز دويتشر بأدب.

نهض رودي على ركبتيه، ونظّف أذنيه من بعض التراب الذي علق بهما ونظر إلى تومي.

أغلق تومي عينيه، وبدأ وجهه بالانقباض.

عندما عادا إلى شارع هيمل في ذلك اليوم، كانت ليزيل تلعب الحجلة مع بعض الأطفال الأصغر سناً، وهي ما تزال ترتدي زي رابطة الفتيات الألمانيات. من زاوية عينها، رأت شخصين كئيبين يسيران نحوها. ناداها أحدهما.

سارقة الكتب

اجتمعوا على درج منزل آل شتاينر الذي يُشبه علبة الكبريت، وروى لها رودي ما حدث في ذلك اليوم.

بعد عشر دقائق، جلست ليزيل.

بعد إحدى عشرة دقيقة، قال تومي، الذي كان جالساً بجانبها، «كل ما حدث هو بسببي»، إلا أن رودي أومأ له بالرفض، في مكان ما بين الجملة والابتسامة، وهو يزيل قطعة طين بإصبعه. «إنه...» حاول تومي مرّة أخرى، ولكن هذه المرة، كسر رودي الجملة تماماً وأشار إليه.

«تومي، أرجوك». ارتسمت نظرةِ غريبة من الرضا على وجه رودي. لم ترَ ليزيل شخصاً ما بائساً إلى هذه الدرجة، ومع ذلك ينبض بالحياة من كل قلبه. «فقط اجلس هناك ودع وجهك ينقبض، أو شيء من هذا القبيل»، وواصل سرد القصّة.

جال أمامهما ذهاباً وإياباً.

وهو يُصارع ربطة عنقه.

وجه الكلمات نحوها، وهبطت في مكان ما على الدرج.

«دويتشر ذاك»، لخّص بشيء من البهجة. «لقد عاقبنا بشدة، أليس كذلك يا تومي؟».

أومأ تومي، وانقبض وتحدّث، ليس بالضرورة وفق هذا الترتيب. «كل ذلك بسببي».

- تومي، ماذا قلتُ لكَ؟

- متى؟

- الآن! اخرس فقط.

- حاضر يا رودي.

سارقة الكتب

عندما ذهب تومي بائساً إلى المنزل بعد ذلك بقليل، حاول رودي تنفيذ ما بدا أنه تكتيك جديد بارع.

الشفقة.

وهو على الدرج، قام بنفض الطين الذي جفّ على زيّه، ثم نظر إلى ليزيل بحزن.

- ماذا عن ذلك، أيتها الخنزيرة؟

- ماذا عن ماذا؟

- أنتِ تعلمين...

أجابت ليزيل بالطريقة المعتادة.

«خنزير»، ضحكت، وسارت المسافة القصيرة إلى منزلها. الخليط المحزن للطين والشفقة هو شيء، وتقبيل رودي شتاينر هو شيء مختلف تماماً.

ابتسم بحزن على الدرج، وصاح، وهو يمرّر يده عبر شعره. «يوماً ما»، حذّرها. «يوماً ما يا ليزيل!».

في القبو، بعد أكثر من عامين بقليل، تحرّقت ليزيل أحياناً للذهاب إلى المنزل المجاور ورؤيته، حتى ولو كانت تكتب خلال الساعات الأولى من الصباح. وأدركت أيضاً أن تلك الأيام المخضلة بالطين لدى شبيبة هتلر، هي على الأرجح ما غذّت شهيته، وبالتالي، شهيتها لارتكاب جريمة.

في نهاية المطاف، وعلى الرغم من زخات المطر المعتادة، بدأ الصيف يحلّ بشكله الصحيح. ولا بد أن تفاح «كلار» قد بدأ ينضج. وهناك المزيد من السرقة التي يتعيّن القيام بها.

الفاشلون

عندما يتعلق الأمر بالسرقة، اقتنعت ليزيل ورودي بأن السلامة تكمن في العمل مع مجموعة. حيث دعاهما أندي شميكل إلى النهر، لحضور اجتماع. ومن بين جملة أمور أخرى، سيناقش الاجتماع وضع خطة لسرقة الفاكهة.

«هل أنتَ القائد الآن؟» سأل رودي، إلا أن أندي هز رأسه بخيبة أمل. بدا واضحاً أنه يتمنى لو يمتلك المقومات اللازمة.

«لا». كان صوته البارد دافئاً على نحو غير عادي. «هناك شخص آخر».

آرثر بيرغ الجديد

لديه شعر عاصف وعينان غائمتان، وهو من نوع الجانحين الذين ليس لديهم أي سبب آخر للسرقة سوى أنه يستمتع بها.
واسمه فيكتور تشيمل.

خلافاً لمعظم الناس الذين ينخرطون في مختلف فنون السرقة، فلم

يكن ينقص فيكتور تشيمل أي شيء في حياته. عاش في أفضل جزء من بلدة مولشينغ، في فيلا مرتفعة تم تعقيمها عندما طُرد اليهود منها. كان لديه المال، والسجائر.

ولكن ما يريده هو أكثر من ذلك بكثير.

«ليست جريمة أن يرغب المرء فيما هو أكثر»، ادّعى، وهو يستلقي على العشب مع مجموعة الأولاد المتجمعين حوله. «أن نُريد أكثر هو حقنا الأساسي بوصفنا ألمان. ماذا يقول الفوهرر؟» وأجاب هو عن سؤاله. «علينا أن نأخذ ما هو حق لنا!».

في ظاهره، فإن فيكتور هو بشكل واضح النموذج التقليدي للفنان الذي يعيش هراء سن المراهقة. ولكن إلى جانب هذا الوجه، فهو يمتلك أيضاً كاريزما معينة، من نوع «اتبعني».

عندما اقتربت ليزيل ورودي من المجموعة المعسكِرة عند النهر، سمعته يطرح سؤالاً آخراً. «إذاً، أين هما هذين المنحرفين الذين تتفاخرون بهما؟ انها الساعة الرابعة وعشر دقائق». «ليس وفق ساعتي»، قال رودي.

سند فيكتور تشيمل رأسه على كوعه. «أنت لا ترتدي ساعة».

«هل سأكون هنا لو كنت غنياً بما يكفي لامتلاك ساعة؟».

جلس الزعيم الجديد بشكل كامل وابتسم، بأسنانه البيضاء المستقيمة. ثم حوّل تركيزه على الفتاة. «مَن هي هذه العاهرة الصغيرة؟» ليزيل، المعتادة على الإساءة اللفظية، نظرت ببساطة إلى عينيه اللتين يعصف بهما الضباب.

«في العام الماضي»، قالت، «سرقتُ ما لا يقل عن ثلاثمئة تفاحة وعشرات من حبات البطاطس. ليست لديّ مشكلة في تجاوز الأسوار ذات الأسلاك الشائكة، ويمكنني مجاراة أي شخص هنا».

«هل هذا صحيح؟».

«نعم». لم تجبن أو تبتعد. «كل ما أطلبه هو جزء صغير من أي شيء نأخذه. دزينة تفاح هنا أو هناك. بعض البقايا لي ولصديقي».

«حسناً أعتقد أنه من الممكن ترتيب ذلك». أشعل فيكتور سيجارة ورفعها إلى فمه. وبذل جهداً كبيراً لينفث دخانه في وجه ليزيل.

لم تسعل ليزيل.

كانت المجموعة نفسها التي تعاونت في العام السابق، باستثناء الزعيم. تساءلت ليزيل لما لم يتولّى أي من الأولاد الآخرين الزعامة، ولكن، وهي تقلّب نظرها بين الوجوه، أدركت أن أياً منهم لم يكن يمتلك صفات الزعيم. لم تكن لديهم أية مخاوف بشأن السرقة، إلا أنهم منقادون وتابعون بطبيعتهم. وهم يستمتعون بلعب دور الأتباع. أما فيكتور تشيمل فتلذذ بلعب دور القائد، والآمر الناهي. إنه بالفعل صورة مصغرة عن العالم.

للحظة، تاقت ليزيل إلى ظهور آرثر بيرغ. أم يا ترى كان سيسقط هو أيضاً تحت زعامة فيكتور تشيمل؟ لا يهم. أدركت ليزيل فقط أن آرثر بيرغ لا يحمل عِرقاً استبدادياً في جسده، في حين يحمل الزعيم الجديد المئات منها. في العام الماضي، كانت تعرف أنها إذا علقت في شجرة، فإن آرثر سيعود من أجلها، على الرغم من ادعائه خلاف ذلك. أما هذا العام، وعلى سبيل المقارنة، فقد أدركت تماماً بأن فيكتور تشيمل لن يُكلّف نفسه عناء النظر إلى الوراء.

وقف، متفحصاً الصبي الهزيل والفتاة التي تحمل مظهر من يعاني من سوء التغذية. «إذاً، هل تريدان السرقة معي؟»

ماذا لديهما ليخسراه؟ هزا رأسيهما موافقين.

اقترب منهما وأمسك شعر رودي. «أريد أن أسمع ذلك».

«حتماً»، قال رودي، قبل أن يفلته فيكتور.

«وماذا عنكِ؟».

«بالطبع». قالتها ليزيل بسرعة كافية لتجنب المعاملة نفسها.

ابتسم فيكتور، وسحق سيجارته. تنفّس بعمق، وحكّ صدره. «يا سادتي، يا عاهرتي، يبدو لي أن الوقت قد حان للتسوق».

مشت العصابة، وسارت ليزيل ورودي في الخلف، كما فعلا دوماً في الماضي.

«هل استسغتِه؟» همس رودي.

«ماذا عنك؟».

توقّف رودي لحظة. «أعتقد أنه نذل حقيقي».

«وأنا أيضاً أعتقد ذلك».

ابتعدت العصابة عنهما.

«هيا»، قال رودي»، لقد تخلفنا عنهم».

بعد بضعة أميال، وصلوا إلى المزرعة الأولى. ما وجدوه في استقبالهم شكّل صدمة. فالأشجار التي تخيلوا أن ملآ بالفاكهة بدت واهية، وكأنها جريحة، حيث تحمل فقط مجموعة صغيرة من التفاح المعلق ببؤس من كل فرع. المزرعة التالية حملت المظهر نفسه أيضاً. ربما كان موسماً سيئاً، أو ربما لم يكن توقيتهم صحيحاً تماماً.

ومع نهاية فترة ما بعد الظهر، عندما تم تسليم الغنائم، أُعطيت ليزيل ورودي تفاحة صغيرة لكليهما معاً. والحق يقال، فإن المسروقات ضعيفة للغاية، إلا أن فيكتور تشيمل كان أيضاً أكثر تشدداً وديكتاتورية.

«ماذا تسمي هذه؟» سأل رودي، والتفاحة في راحة يده.

سارقة الكتب

لم يُكلف فيكتور نفسه عناء الاستدارة لمواجهته حتى. «ماذا يبدو لك؟».

«تفاحة رديئة واحدة؟».

«إليكَ». وألقى باتجاههما نصف تفاحة مأكولة، وقعت بجانبهما في التراب. «يمكنكَ أخذ هذه أيضاً».

استشاط رودي غضباً. «فليذهب كل هذا إلى الجحيم. لم نمشِ عشرة أميال لنحصل على تفاحة هزيلة ونصف تفاحة، أليس كذلك يا ليزيل؟»

ليزيل لم تجب.

لم يكن لديها الوقت، حيث هجم فيكتور تشيمل على رودي قبل أن تنطق بكلمة. ثبّت بركبتيه ذراعي رودي، في حين التفت يداه حول حلق رودي المسكين. التقط أندي شميكل التفاح بناء على طلب فيكتور.

قالت ليزيل: «أنتَ تؤلمه».

«حقاً»، ابتسم فيكتور مرّة أخرى. وكرهت هي تلك الابتسامة.

«إنه لا يؤلمني»، نطق رودي كلماته بسرعة. أصبح وجهه أحمرَ، وبدأ أنفه ينزف.

بعد لحظة طويلة من الضغط المتزايد، أفلت فيكتور رودي ونهض عنه، وهو يدوس عليه بضع خطوات. قال: «قُم، أيها الصبي»، اختار رودي بحكمة تنفيذ ما قيل له.

اقترب فيكتور منه مرّة أخرى، وواجهه. مسّد ذراع رودي بلطف وابتسم، هامساً: «ما لم تُرد أن أحوّل هذا الدم إلى نافورة، أقترح عليك أن تذهب بعيداً، أيها الصبي الصغير». نظر إلى ليزيل. «وأن تأخذ هذه المومس الصغيرة معك».

لم يتحرك أحد.

سارقة الكتب

«حسناً، ما الذي تنتظره؟».

أمسكت ليزيل يد رودي وغادرا، ولكن ليس قبل أن يلتفت رودي مرّة أخيرة ويبصق بعض الدم واللعاب على قدم فيكتور تشيمل. ما أثار تعليقاً أخيراً.

تهديد صغير من فيكتور تشيمل إلى رودي شتاينر

«سوف تدفع ثمن ذلك لاحقاً، يا صديقي».

يمكنكم قول ما تريدون حول فيكتور تشيمل، إلا أنه بالتأكيد شاب يتحلّى بالصبر والذاكرة الجيدة. وقد استغرقه الأمر نحو خمسة أشهر قبل أن يحوّل تهديده هذا إلى حقيقة واقعية.

سارقة الكتب

رسومات

إذا شرّع صيف عام 1941 يديه لأمثال رودي وليزيل، فإنه تلخّص بالنسبة إلى ماكس فاندينبورغ في الكتابة والرسم. ففي اللحظات الأكثر وحشة التي قضاها في القبو، بدأت الكلمات تتراكم حوله. وسُرعان ما انسكبت الرؤى عليه، وأحياناً عرجت خارجة من يديه. كان لديه ما أسماه مجرّد حفنة صغيرة من الأدوات:

كتاب مدهون.

حفنة من أقلام الرصاص.

ورأس مملوء بالأفكار.

مثل أحجية بسيطة، قام بجمعها معاً.

في الأصل، اعتزم ماكس كتابة قصته الخاصة.

حيث فكّر في الكتابة عن كل ما حدث له - كل ما أوصله إلى قبو في شارع هيمل - لكن لم يكن ذاك هو ما أنتجه عقله في النهاية. بل أفرز منفى ماكس شيئاً آخر تماماً. جاء على شكل مجموعة من الأفكار العشوائية،

سارقة الكتب

التي اختار احتضانها. بدت حقيقية، وأكثر واقعية من الرسائل التي كتبها إلى عائلته وصديقه فالتر كوغلر، مدركاً بشكل تام استحالة إرسالها إليهم أبداً. تحوّلت الصفحات المدنسة لكتاب (كفاحي) إلى سلسلة من الرسومات، صفحة بعد صفحة، والتي لخّصت الأحداث التي بدّلت حياته السابقة بحياة أخرى مختلفة. استغرق بعضها بضع دقائق لإنجازها. في حين استغرقت أخرى ساعات طويلة. في النهاية، قرّر أن يعطي الكتاب إلى ليزيل عندما ينتهي منه، وتُصبح هي كبيرة بما فيه الكفاية، وعندما ينتهي كل هذا الهراء.

منذ اللحظة التي اختبر فيها ملمس أقلام الرصاص على الصفحة الأولى، أبقى الكتاب بقربه في جميع الأوقات. في كثير من الأحيان، كان يبقى بجانبه أو بين أصابعه وهو نائم.

بعد ظهر أحد الأيام، بعد أن أنجز تمارين الضغط والمعدة، استسلم للنوم مسنوداً إلى جدار القبو. وعندما نزلت ليزيل، وجدت الكتاب بجانبه، مائل إلى فخذه. سيطر الفضول على كل تفكيرها. انحنت والتقطته، منتظرة أن يتحرّك ماكس. إلا أنه لم يفعل، فقد كان يُسند رأسه وكتفه إلى الجدار، وبالكاد سمعت صوت أنفاسه، وهي تفتح الكتاب، لتُلقي نظرة خاطفة على بعض الصفحات العشوائية...

إنه ليس الفوهرر - إنه قائد أوركسترا!

سارقة الكتب

سارقة الكتب

خائفة مما رأته، أعادت ليزيل الكتاب إلى مكانه، تماماً كما وجدته.

أفزعها صوت.

«شكراً جزيلاً»، قال. وعندما نظرت متتبعة أثر الصوت إلى وجه صاحبه، ارتسمت علامة صغيرة من الارتياح على شفاه اليهودي.

«يا يسوع المسيح!»، انتفضت ليزيل. «لقد أخفتني يا ماكس».

عاد إلى نومه، خلفها، بينما حملت الفتاة نفس الفكرة وهي تصعد الدرجات.

لقد أخفتني يا ماكس.

(رجل الصافرة) وزوج من الأحذية

استمرت الحياة على المنوال نفسه حتى نهاية الصيف، ولجزء كبير من الخريف. حيث بذل رودي قصارى جهده للاستمرار في شبيبة هتلر. واستمر ماكس بممارسة تمارين الضغط وإنجاز رسوماته. وتابعت ليزيل إحضار الصحف والتدرّب على الكلمات على جدار القبو.

من الجدير بالذكر أيضاً، أن لكل نمط ثابت انحراف صغير واحد على الأقل، ويوماً ما سوف يُبطل هذا النمط نفسه. في هذه الحالة، كان رودي، أو على الأقل، رودي وميدان رياضي مسمّد حديثاً، هو بطل هذا الانحراف الصغير.

في أواخر شهر تشرين الأول / أكتوبر، أخذ كل شيء شكله المعتاد: مشى صبي قذر في شارع هيمل، في حين تتوقع عائلته وصوله في غضون بضع دقائق. سيكذب عليهم قائلاً بأن الجميع في شعبة شبيبة هتلر قد عُوقبوا بتدريبات إضافية في الميدان. وسيتوقع والداه بأن يضحك كعادته على الموضوع، إلا أنهما لا يحصلان على شيء.

فرودي اليوم خال الوفاض من الضحك والكذب.

سارقة الكتب

في يوم الأربعاء هذا، عندما نظرت ليزيل عن كثب، أمكنها رؤية رودي شتاينر وهو عاري الصدر، وغاضب.

«ماذا حدث؟» سألته عندما مرّ بجانبها.

عاد بضع خطوات إلى الوراء، ومدّ القميص إليها. «شُميه»، قال.

- ماذا؟

- هل أنتِ صماء؟ قلتُ لكِ شُميه.

على مضض، انحنت ليزيل وشمّت نفحة من القميص البني. «يا يسوع، ومريم ويوسف! هل هذا...؟».

هزّ الولد رأسه:

- إنه على ذقني أيضاً. ذقني! أنا محظوظ لأنني لم أبتلعه!

- يا يسوع، ومريم ويوسف!

«منذ فترة وجيزة، وُضع سماد في ميدان شبيبة هتلر». واشمأز مرّة أخرى من قميصه. «إنه روث البقر، على ما أظن».

- ذاك الذي اسمه دويتشر - هل عرف أنه هناك؟

- يقول بأنه لم يكن يعرف ذلك. لكنه كان يضحك.

- يا يسوع، ومريم و...

- هل يمكنكِ التوقّف عن قول هذا؟!

ما يحتاجه رودي في هذه المرحلة هو تحقيق انتصار. حيث خسر في نزاله مع فيكتور تشيمل. وواجه المشكلة تلو الأخرى في شعبة شبيبة هتلر. كل ما أراده هو حفنة صغيرة من الانتصار، وكان عازماً على بلوغ هدفه.

واصل سيره إلى المنزل، ولكن عندما وصل إلى الدرج الاسمنتي، غيّر رأيه، وعاد ببطء إلى الفتاة.

قال بحذر وبهدوء. «هل تعرفين ما قد يُخفف عني الآن؟».

انكمشت ليزيل. «إذا كنتَ تعتقد أنني سأقوم بِـ– وأنتَ في هذه الحالة...».

بدت خيبة الأمل واضحة على وجهه. «لا، ليس ذلك». تنهد واقترب أكثر. «شيء آخر». بعد التفكير للحظة، رفع رأسه. «انظري إليَّ. أنا قذر. أنا نتن مثل روث البقر، أو روث الكلاب، أياً كان رأيكِ، وكالمعتاد، أنا جائع تماماً». توقّف قليلاً. «في الحقيقة، أنا أحتاج إلى الفوز، يا ليزيل».

كانت لتقترب منه أكثر لو لا رائحته.

السرقة.

لا بدّ لهما من سرقة شيء ما.

عليهما أن يسرقا شيئاً ما. ليس مهماً ما هو. لا بدّ فقط من سرقته قريباً.

«أنا وأنتِ فقط هذه المرة»، اقترح رودي. «دون تشيمل، أو شميكل. فقط أنا وأنتِ». تحمّست الفتاة لهذا القرار.

بدأت بحك يديها، تسارع نبضها، وابتسم فمها، كل ذلك في الوقت نفسه. «يبدو هذا جيداً».

«لقد اتفقنا إذاً»، وعلى الرغم من أنه حاول بخلاف ذلك، إلا أن رودي لم يستطع كبت الضحكة الغنية بالسماد التي نمت على وجهه. «غداً؟» هزّت ليزيل رأسها موافقة. «غداً».

كانت خطتهما مثالية، باستثناء شيء واحد:

لم تكن لديهما أدنى فكرة من أين سيبدآن.

الفاكهة كانت خارج المعادلة. وكذلك الحال بالنسبة إلى البصل والبطاطس. كما رفضا سلب أوتو ستورم وسلّته المليئة بالمنتجات الزراعية. فالمرّة الأولى كانت غير أخلاقية، أما الثانية فستكون سفالة كاملة، وهذا ما لا يمكن لهما احتماله.

«إذاً، أين نذهب بحق الجحيم؟» سأل رودي.

- كيف لي أن أعرف؟ كانت هذه فكرتكَ، أليس كذلك؟

- هذا لا يعني أنه لا ينبغي لكِ التفكير قليلاً أيضاً. لا أستطيع التفكير في كل شيء.

مكتبة أحمد

- بالكاد يمكنك التفكير في أي شيء...

تجادلا في أثناء سيرهما عبر البلدة. وعلى مشارفها، شاهدا أولى المزارع، والأشجار تقف مثل التماثيل الهزيلة. الأغصان رمادية جرداء سوى من أطرافها الخشنة والسماء الفارغة.

بصق رودي.

سارا عبر مولشينغ، وهما يقدّمان الاقتراح تلو الآخر.

- ماذا عن السيدة ديلر؟

- ماذا عنها؟

- ربما إذا قلنا «يحيا هتلر» ثم سرقنا شيئاً، فسننجو بفعلتنا.

بعد التجوال في شارع ميونخ لمدة ساعة أو نحو ذلك، شارف النهار على نهايته، وكانا على وشك الاستسلام. «لا جدوى مما نفعله»، قال رودي، «حتى أنني الآن أكثر جوعاً من أي وقت مضى. أنا جائع جداً». مشى إحدى عشرة خطوة إضافية قبل أن يتوقّف وينظر إلى الوراء. «ما مشكلتكِ؟» فقد وقفت ليزيل ساكنة تماماً الآن، ولحظة إدراك التصقت على وجهها.

لماذا لم تفكّر في ذلك من قبل؟

«ما قصتكِ؟» نفد صبر رودي. «أيتها الخنزيرة، ما الذي يحدث؟».

في تلك اللحظة بالذات، قدّمت ليزيل قراراً. هل يمكنها حقاً تنفيذ ما

سارقة الكتب

تُفكّر فيه؟ هل يمكنها أن تسعى حقاً إلى الانتقام من شخص بهذا الشكل؟ هل يمكن لها أن تحتقر شخصاً ما لهذا الحد؟

بدأت المشي في الاتجاه المعاكس. وعندما لحق بها رودي، تباطأت قليلاً على أمل أن تتوضّح لها الفكرة أكثر قليلاً. بعد كل شيء، فالشعور بالذنب موجود بالفعل، وهو ما يزال ندياً، والبذرة تتفتّح بالفعل وتستحيل إلى زهرة مظلمة. فكّرت فيما إذا كانت قادرة بالفعل على تحقيق ما تُفكّر به. وعند مفترق طرق، توقفت. «أعرف مكاناً».

عبرا النهر وذهبا إلى أعلى التلة.

في شارع جرانده، تألقت الأبواب الأمامية المطلية بالورنيش، وبدا قرميد السقف مثل الشعر المستعار الممشط إلى حد الكمال. الجدران والنوافذ مشذّبة، والمداخن تنفث حلقات من الدخان.

توقّف رودي. «هل سنذهب إلى بيت رئيس البلدية؟».

أومأت ليزيل، وبكامل الجدية، توقّفت للحظة، ومن ثم نطقت: «لقد طردا أمي».

وبينما هما ينظران إلى المنزل، لم يكفّ رودي عن طرح الأسئلة حول كيفية دخولهما إلى المنزل، إلا أن ليزيل كانت تعرف الجواب بالفعل. «إنني أعرف المكان جيداً»، أجابت. ولكن عندما أصبحا قادرين على رؤية نافذة المكتبة، انتظرتها صدمة غير متوقعة.

النافذة مغلقة.

«إذاً؟» سأل رودي.

استدارت ليزيل ببطء، وسارعت مبتعدة. «ليس اليوم»، قالت.

ضحك رودي.

«كنتُ أعرف ذلك». لحق بها. «كنتُ أعرف ذلك، أيتها الخنزيرة القذرة. فلا يمكن لكِ الدخول إلى هناك حتى لو كان المفتاح معكِ».

«هل لكَ أن تصمت؟» وأسرعت أكثر، متجاهلة تعليق رودي. «علينا فقط أن ننتظر الفرصة المناسبة». داخلياً، استهجنت ليزيل شعورها بنوع من السعادة لمعرفتها بأن النافذة مغلقة. ومن ثم وبّخت نفسها. لماذا يا ليزيل؟ سألت. لماذا انفجرتِ عندما طردا ماما؟ لماذا لا يمكنكِ إبقاء فمكِ الكبير مغلقاً؟ ربما انصلح الآن حال زوجة رئيس البلدية بعد أن صرختِ في وجهها. ربما قوّمت نفسها، واستعادت حياتها الطبيعية. ربما لن تسمح لنفسها بالارتجاف من البرد في ذلك المنزل مرّة أخرى، وستُغلق النافذة إلى الأبد... أيتها الخنزيرة الغبية!

وبعد أسبوع، وخلال زيارتهما الخامسة إلى الجزء العلوي من مولشينغ، كانت هناك.

تنفّست النافذة المفتوحة جرعة من الهواء.

وهذا هو المطلوب تماماً.

توقّف رودي أولاً. وأوقف ليزيل وراءه. «هل تلك النافذة»، همس، «مفتوحة؟» امتد التوق من صوته مثل ساعد لفّ كتف ليزيل.

«بالتأكيد»، أجابت.

وبدأ قلبها يخفق بحرارة.

في كل من زياراتهما السابقة، حيث وجدا النافذة موصدة تماماً، كانت خيبة الأمل التي أصابت ليزيل خارجياً تُخفي راحة قوية داخلية. هل لديها الجرأة للدخول؟ ومن أجل ماذا تماماً ستدخل إلى هناك؟ من أجل رودي؟ للحصول على بعض المواد الغذائية؟

لا، الحقيقة البغيضة هي التالية:

سارقة الكتب

ليست مهتمة بأمر الطعام. أما رودي، ومهما حاولت مقاومة الفكرة، إلا أنه كان في الحقيقة عنصراً ثانوياً في خطتها. هي تسعى وراء الكتاب. (رجل الصافرة). ولن تسمح بأن يُعطى لها من قبل امرأة وحيدة ومثيرة للشفقة. من ناحية أخرى، بدت سرقته أكثر قبولاً بالنسبة إليها. وبمنطق ما غير مألوف، رأت في سرقته نوعاً من حق مشروع لها.

بدأ الضوء يتغير ويأخذ شكل كتل من الظل.

انجذب كلاهما نحو المنزل الفخم، الضخم. وهمسا أفكارهما.

«هل أنتِ جائعة؟» سأل رودي.

أجابت ليزيل. «أنا أتضوّر جوعاً».

– انظري، أُضيء ضوء للتو في الطابق العلوي.

– أرى ذلك.

– هل ما زلتِ جائعة أيتها الخنزيرة؟

ضحكا بعصبية للحظة قبل اقتراح مَن ينبغي أن يدخل ومَن ينبغي أن يقف ويراقب. وبوصفه الذكر في العملية، رأى رودي بوضوح أنه يتعيّن عليه أن يكون المُقتحِم، ولكن كان من الواضح أن ليزيل هي التي تعرف المكان. وقررا أن تدخل هي. فهي تعرف ماذا يوجد على الجانب الآخر من النافذة.

قالت هي ذلك بنفسها: «ينبغي أن أدخل أنا».

أغلقت ليزيل عينيها بإحكام.

أجبرت نفسها على التذكّر، لمشاهدة رؤى عن رئيس البلدية وزوجته. شاهدت صداقتها مع إلسا هيرمان وتأكّدت من طرد مثل هذه الرؤى بعيداً عن ذهنها وتركها جانباً. وفي الحقيقة، فقد نجحت في ذلك، فهي تبغض تلك الرؤى.

استكشفا الشارع وعبرا الفناء بصمت.

ربضا الآن تحت فتحة النافذة في الطابق الأرضي. وبدا صوت تنفسهما مضخّماً.

«هيا»، اقترح رودي، «أعطني حذاءكِ. عليك ألا تصدري أي صوت».

دون شكوى، حلّت ليزيل الأربطة السوداء البالية وتركت حذاءها على الأرض. وقفت، وفتح رودي بلطف النافذة بما يكفي لتمر ليزيل عبرها. بدا الضجيج الناتج كطائرة تُحلّق على ارتفاع منخفض.

رفعت ليزيل نفسها على الحافة وعبَرت من خلال النافذة إلى الداخل. استنتجت أن فكرة خلع حذائها كانت أكثر من رائعة، لأنها هبطت على الأرضية الخشبية بأثقل مما توقّعت. ارتقى الألم الناتج عن الصدمة من باطن قدميها إلى الحواف الداخلية لجوربيها.

الغرفة هي نفسها كما كانت دائماً.

في الضوء الخافت، نفضت ليزيل عنها مشاعر الحنين إلى المكان. تقدّمت أكثر نحو عمق الغرفة، وسمحت لعينيها بالتأقلم مع الضوء الخافت جداً.

«ماذا يحدث؟» همس رودي بحدة من الخارج، لكنها لوحت له بيدها بما معناه: الزم الصمت.

«الطعام»، ذكّرها. «اعثري على الطعام، والسجائر، إن استطعتِ».

كلا الشيئين كانا آخر ما خطر لها في ذهنها في تلك اللحظة. فقد أصبحت في المنزل، بين كتب رئيس البلدية التي تحمل كل لون ووصف، بحروفها الفضية والذهبية. أمكنها أن تشم رائحة الصفحات. وأن تتذوق تقريباً الكلمات المكدسة حولها. أوصلتها قدماها إلى الجدار الأيمن. وهي تعرف تماماً ماذا تريد – الموقع الدقيق لهدفها – ولكنها عندما وصلت إلى

سارقة الكتب

الرف المعتاد لكتاب (**رجل الصافرة**)، لم تجده هناك. بل وجدت فجوة صغيرة مكانه.

سمعت صوت خطوات.

«الضوء!» همس رودي. عبرت الكلمات النافذة المفتوحة. «لقد انطفأ!».

- اللعنة!

- إنهما آتيان.

مرّت لحظة طويلة حينها، إنها أبدية القرار الذي يُتّخذ خلال جزء من الثانية. تفحّصت عيناها الغرفة وأمكنها أن ترى كتاب (**رجل الصافرة**)، وهو يجلس بصبر على مكتب رئيس البلدية.

«أسرعي!»، حذّرها رودي. بهدوء ودقّة، مشت ليزيل، والتقطت الكتاب، وخرجت بحذر. تسلّقت النافذة، وتمكنت من الهبوط على قدميها، حيث شعرت بوخز الألم يتردّد في كاحليها مرّة أخرى.

«هيا»، استعجلها رودي. «اركضي، اركضي. بسرعة!».

بمجرّد أن قطعا الزاوية، توقّفت ليزيل على الطريق الموصل الى النهر وشارع ميونخ، لتستعيد أنفاسها قليلاً. انطوى جسدها على نفسه، وشارف الهواء على التجمّد في فمها. كانت تسمع صوت قلبها وهو ينبض في أذنيها.

اختبر رودي الحالة نفسها.

وعندما نظر إليها، رأى الكتاب تحت ابطها. حاول الكلام. «ما..»، صارع لنطق الكلمات، «..قصّة الكتاب؟».

حلّ الظلام فعلياً الآن. لهثت ليزيل، والهواء يذوب مثل الجليد في حلقها. «هذا كل ما وجدتُه».

لسوء الحظ، أمكَن لرودي أن يشتم الكذبة. واجهها وقال لها ما يشعر بأنه الحقيقة. «أنتِ لم تأتِ من أجل الطعام، أليس كذلك؟ لقد حصلتِ على ما تريدين...».

استقامت ليزيل في وقفتها، واجتاحها الخوف المترافق مع إدراكها لحقيقة أخرى.

حذاؤها.

نظرت إلى قدمي رودي، ثم إلى يديه، وعلى الأرض من حوله.

«ماذا؟» سألها. «ما المشكلة؟».

«أيها الخنزير»، اتهمتْه. «أين حذائي؟» شحب وجه رودي، ما أكّد مخاوفها. «لقد تركتَه عند المنزل، أليس كذلك؟».

بحثَ رودي بيأس حوله، وهو يتمنى، خلافاً للواقع، أن يكون قد جلبه معه. تخيّل نفسه وهو يأخذه ويحمله، متمنياً أن تكون تلك الحقيقية - إلا أن الحذاء، ببساطة، لم يكن هناك. جلسا بالقرب من جدار المنزل رقم 8 في شارع جرانده، غارقين في جريمتهما حتى أنفيهما.

«دوم كوبف! يا لي من أحمق!» وبّخ نفسه، وصفع أذنه. شعر بالعار وهو ينظر إلى المشهد المحزن لجوربي ليزيل. لم يستغرق وقتاً طويلاً لاتخاذ قرار بشأن تصحيح فعلته. قال بكل جدية: «انتظري فقط»، وسارع في العودة إلى مكان الجريمة.

«لا تدعهما يمسكان بكَ»، صرخت ليزيل وراءه، إلا أنه لم يسمعها.

مرّت الدقائق ثقيلة في أثناء غيابه.

اكتملت الظلمة الآن، وأصبحت ليزيل متأكدة تماماً بأن العقاب سيكون على الأرجح بانتظارها عندما تعود إلى المنزل. «أسرع»، تمتمت، إلا أن رودي لم يظهر. تخيّلت صوت صفارات إنذار الشرطة وهي تملأ المكان.

سارقة الكتب

لا شيء حتى الآن.

فقط عندما عادت بجوربيها القذرين، إلى تقاطع الشارعين، رأته. إنه رودي بوجهه المنتصر والمرفوع عالياً، وهو يخطو بثبات نحوها. كشفت أسنانه عن ابتسامة، وتدلى الحذاء من يده. «لقد شارفا على قتلي»، قال، «إلا أنني نجوت». وبمجرّد أن عبرا النهر، سلّم ليزيل حذاءها.

ألقته على الأرض، وجلست بجانبه، وهي تنظر إلى أفضل صديق لها.

«شكراً»، قالت.

انحنى رودي في أداء مسرحي مبالغ به. «إنه من دواعي سروري». وجرّب حظّه هذه المرّة:

- أظن أنه ما من طائل من سؤالي عمّا إذا كنتُ سأحصل على قبلة لقاء ذلك، أليس كذلك؟

- لقاء جلبكَ حذائي الذي تركتَه أنتَ وراءك وهربت؟

- كلامكِ عادل بما فيه الكفاية.

رفع يديه مستسلماً، واستمر في الكلام وهما يسيران. بذلت ليزيل جهداً لتجاهله، وسمعت فقط الجزء الأخير من حديثه. «ربما لن أُريد تقبيلك على أي حال - وخاصة إذا كانت رائحة أنفاسكِ تشبه رائحة حذائكِ».

«أنت تُثير اشمئزازي»، قالت له، متمنية ألا يرى بداية ابتسامة هاربة ارتسمت على ثغرها.

في شارع هيمل، أخذ رودي الكتاب. وتحت ضوء الشارع، قرأ العنوان وتساءل عن محتواه.

حالمة، أجابته ليزيل قائلة: «تدور أحداثه حول قاتل».

- هل هذا كل شيء؟

- هناك أيضاً شرطي يحاول القبض عليه.

أعاد رودي الكتاب إليها. «بالحديث عن ذلك، أعتقد بأننا سنلقى توبيخاً شديداً عندما نعود إلى المنزل. وخاصة أنتِ».

- لماذا أنا؟

- تعرفين... بسبب أمكِ.

«ماذا عنها؟» كانت ليزيل تمارس الحق الصارخ المعتاد لكل شخص ينتمي إلى أسرة. فلا بأس في أن يتذمّر الشخص نفسه وينتقد أفراد أسرته، إلا أنه لن يسمح لأي شخص آخر بفعل المثل. فهنا يظهر الولاء الأُسري. «هل بها خطبٌ ما؟».

تراجع رودي. «عذراً أيتها الخنزيرة. لم أقصد أن أُهينكِ».

حتى مع حلول الليل والظلمة، أمكَن لليزيل أن تلاحظ أن رودي قد بدأ بالفعل ينضج ويكبر. أصبح وجهه أكبر، وشعره الأشقر أصبح أغمق قليلاً. بدا أن معالمه تُغيّر من شكلها. ومع ذلك، فهناك شيء واحد لن يتغير أبداً. فمن المستحيل أن يبقى المرء غاضباً منه لفترة طويلة.

«هل هناك أي شيء جيد لتناوله في منزلكِ الليلة؟»، سأل.

- أشكُّ في ذلك.

- وأنا كذلك. من المؤسف أننا لا نستطيع أكل الكتب. قال آرثر بيرغ شيئاً من هذا القبيل فيما مضى. أتذكرين؟

لبقية الطريق، استمرّا في استذكار حلاوة الأيام الخوالي، بينما تسترق ليزيل النظر، بين الفينة والأخرى، إلى كتاب (رجل الصافرة)، وغلافه الرمادي، والعنوان الأسود المطبوع.

قبل أن يذهبا كلٌّ إلى منزله، توقّف رودي للحظة وقال، «وداعاً أيتها الخنزيرة، وتصبحين على خير، يا سارقة الكتب».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تُكنّى فيها ليزيل بهذا اللقب، ولم تتمكّن من إخفاء حقيقة أنها أحبته كثيراً. صحيح أنها سرقت كتباً فيما مضى، إلا أن الأمر أصبح رسمياً في أواخر شهر تشرين الأول / أكتوبر من عام 1941. في تلك الليلة، أصبحت ليزيل ميمنجر حقاً سارقة الكتب.

ثلاثة أعمال غبية
لرودي شتاينر

رودي شتاينر، عبقرية خالصة

1. سرق أكبر حبة بطاطس من مامر، البقال المحلي.
2. واجه فرانز دويتشر في شارع ميونخ.
3. تغيّب بشكل كامل عن اجتماعات شبيبة هتلر.

المشكلة في أول عمل ارتكبه رودي هي الجشع. وقد وقع ذلك من بعد ظهر يوم كئيب في منتصف شهر تشرين الثاني / نوفمبر من عام 1941.

انسلّ ببراعة تامة بين النساء، اللواتي يحملن قسائمهن، وأجرؤ على قول بأنه نفّذ ذلك، بلمسة من العبقرية الجنائية. فقد مرّ، تقريباً، من دون أن يلاحظه أحد.

بانسلاله بهذا الشكل العبقري، تمكّن من نشل أكبر حبة موجودة في كومة البطاطس تلك، وهي الحبة نفسها التي راقبها العديد من الأشخاص

سارقة الكتب

الواقفين في الدور. كلهم رأوا المشهد الذي تمتد فيه قبضة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً لتُمسك بحبة البطاطس الضخمة. وبالتالي، فقد أنشدت جوقة من النسوة الألمانيات السِمان، اللواتي أشرن بأصابع الاتهام نحو الفاعل، وعلى الفور تقدّم توماس مامر مدافعاً عن ممتلكاته الغالية على قلبه.

«البطاطس!»، قال.

كانت حبة البطاطس ما تزال بين يدي رودي (لم يستطع حملها بيد واحدة فقط)، وتجمهرت النسوة حوله مثل فرقة من المصارعين. تحتّم عليه أن يقول شيئاً ما بسرعة.

«عائلتي». شرح رودي. وانهمر في الوقت الملائم تيار سائل نقي من أنفه، حيث قرّر بحكمة عدم مسحه. «إننا نُشارف على الموت جوعاً. أختي في حاجة إلى معطف جديد. فقد سُرق معطفها».

لم يكن مامر أحمق. وقال، ممسكاً رودي من ياقته: «وهل كنتَ تنوي إلباسها حبة بطاطس؟».

«لا، يا سيدي». نظر إلى عيني محتجِزه، الذي كان رجلاً على شكل برميل، يضم ثقبين صغيرين للنظر من خلالهما. كما بدت أسنانه مكتظة ومتكدّسة في فمه، مثل جمهور كرة القدم. «لقد بادلنا جميع قسائمنا من أجل شراء المعطف قبل ثلاثة أسابيع، وليس لدينا الآن ما نأكله».

حمل البقالُ رودي في يد، وحبة البطاطس في اليد الأخرى. وصرخ لزوجته العبارة المروعة التالية: «اطلبي الشرطة».

«لا»، توسّل رودي، «أرجوك». سيُخبر ليزيل لاحقاً بأنه لم يشعر بأدنى خوف، إلا أن قلبه كاد ينفجر بالتأكيد في تلك اللحظة، أنا متأكد من ذلك. «ليس الشرطة. رجاءً، ليس الشرطة».

سارقة الكتب

«اطلبي الشرطة». بقي مامر ثابتاً في مكانه بينما يُعارك الصبي الهواء.

وقف في دور المشترين من بعد ظهر ذلك اليوم، مُعلّم المدرسة السيد لينك. وهو من معلمي المدرسة الذين لم يكونوا قساوسة أو رهبان. لمحه رودي ونظر في عينيه.

«سيد لينك». كانت تلك فرصته الأخيرة. «سيد لينك، قُل له، أرجوك. أخبره كم أنا فقير».

نظر البقال بعينين مستفسرتين إلى المُعلّم.

تقدّم السيد لينك إلى الأمام وقال: «نعم، يا سيد مامر. هذا الولد فقير ومُعدم. إنه من شارع هيمل». في تلك المرحلة، بدأ الحشد، الذي تغلب عليه النساء، سلسلة من المشاورات والنقاشات، فهنّ يعلمن أن شارع هيمل ليس المكان المثالي في بلدة مولشينغ. فهو معروف بكونه حياً فقيراً نسبياً.

«لديه ثمانية أشقاء وشقيقات».

ثمانية!

اضُطر رودي إلى كبح جماح ابتسامة، فهو لم يكن في مأمن بعد. وعلى الأقل، فإن المُعلّم يكذب من أجله الآن، فقد أضاف بطريقة أو بأخرى ثلاثة أطفال آخرين إلى عائلة شتاينر.

«غالباً ما يأتي إلى المدرسة من دون وجبة إفطار»، وعاد حشد النساء للنقاش مرّة أخرى. حيث أضاف صوتهن نكهةً وجواً جديداً للمكان. «هل يعني هذا أن أسمح له بسرقة البطاطس من بقاليتي؟».

«أكبر واحدة أيضاً!» صرخت إحدى النساء.

«اهدئي يا سيدة ميتزينغ»، حذّرها مامر، وسرعان ما استكانت.

في البداية، انصب كل الاهتمام على رودي، وكيف يمُسكه مامر من

رقبته. ثم انتقل الاهتمام ذهاباً وإياباً، من الصبي إلى البطاطس إلى مامر – مِن أفضلهم إلى أسوئهم مظهراً – وفي الحقيقة، فإن السبب الفعلي وراء قرار البقال في العفو عن رودي، سيبقى مجهولاً إلى الأبد.

هل هي طبيعة الصبي المثيرة للشفقة؟

أم كُرمى للسيد لينك؟

أم الازعاج الذي تسببت به السيدة ميتزينغ؟

أياً كان الأمر، فقد أعاد مامر حبة البطاطس مرّة أخرى إلى الكومة، وجرّ رودي على أرض بقاليته. ودفعه برفسة قوية من جزمته اليمنى، قائلاً: «لا تعد أبداً».

من الخارج، راقب رودي بينما وصل مامر إلى طاولة الاستقبال لخدمة الزبائن، وبيعهم الأطعمة الممزوجة مع السخرية. «أتساءل أية حبة بطاطس ستطلبها أنت!»، قال، وهو يُبقي عيناً مفتوحة على الصبي.

بالنسبة إلى رودي، كان ذلك فشل آخر.

أما العمل الغبي الثاني الذي ارتكبه فهو بالخطورة نفسها، وإنما لأسباب مختلفة. وسوف يُنهي رودي هذه المشادّة بعين زرقاء، وأضلاع متصدعة، وقصّة شعر.

كالعادة في اجتماعات شبيبة هتلر، استمرّ تومي مولر في مواجهة المشاكل، بينما انتظر فرانز دويتشر أن يُظهر رودي أدنى تدخّل، وهو الأمر الذي لم يستغرق وقتاً طويلاً.

بالطبع عوقب رودي وتومي بجلسة تدريبات قاسية وشاملة، بينما ذهب الآخرون إلى الداخل لتعلّم التكتيكات. وهما يركضان في البرد، أمكنهما رؤية الرؤوس والأكتاف الدافئة من خلال النوافذ. حتى عندما انضما إلى بقية المجموعة، لم ينتهِ العقاب تماماً. فعندما اندفع رودي إلى

سارقة الكتب

الزاوية لينفض الطين من كمه عبر النافذة، سأله فرانز السؤال المفضّل لدى شعبة شبيبة هتلر.

«متى وُلد الفوهرر أدولف هتلر؟».

رفع رودي رأسه. «المعذرة؟».

كرّر السؤال، إلا أن رودي شتاينر، الغبي جداً، والذي يعرف جيداً أنه في 20 نيسان / أبريل من عام 1889، أجاب بتاريخ ولادة المسيح، حتى أنه أضاف بيت لحم كمعلومة إضافية.

فرك فرانز يديه معاً.

وهذه دوماً علامة سيئة جداً.

مشى إلى رودي وأمره بالعودة إلى الخارج للركض أكثر في الميدان.

ركض رودي وحده، وبعد كل لفّة، سأله فرانز مرّة أخرى عن تاريخ عيد ميلاد الفوهرر. ركض سبع لفّات قبل أن يجيب الإجابة الصحيحة.

إلا أن المشكلة الرئيسة وقعت بعد أيام قليلة من هذا الاجتماع.

في شارع ميونخ، انتبه رودي إلى أن دويتشر يمشي على الرصيف مع بعض الأصدقاء، وشعر بالحاجة إلى رميه بحجر. قد تتساءلون بالطبع، ما الذي يفكر فيه بحق الجحيم. وربما الجواب هو: لا شيء على الإطلاق. سيقول على الأرجح بأنه كان يمارس حقه المعطى من الله بأن يكون غبياً. إما هذا، أو أن رؤية فرانز دويتشر قد أعطته الرغبة في تدمير نفسه.

صدمت الحجرة المكان المقصود على العمود الفقري، وإن لم تكن بالقوة نفسها التي تمنّاها رودي. استدار فرانز دويتشر وبدا سعيداً بالعثور على رودي واقفاً هناك، مع ليزيل، وتومي، وشقيقة تومي الصغيرة، كريستينا.

«هيا لنركض»، حثّته ليزيل، إلا أن رودي لم يتحرك.

«نحن لسنا في شبيبة هتلر الآن»، أبلغها. وصل الآن الأولاد الأكبر سناً.

وبقيت ليزيل بجانب صديقها، كما فعل تومي ذو الانقباضات، وكريستينا الرقيقة.

«سيد شتاينر»، أعلن فرانز، قبل أن يحمله ويرميه على الرصيف.

عاود رودي الوقوف ثانية، إلا أن ذلك لم يؤدِّ سوى إلى إغضاب دويتشر أكثر، حيث رماه على الأرض للمرة الثانية، وركله بركبته على القفص الصدري.

مرّة أخرى، وقف رودي، وضحك الآن الأطفال الأكبر سناً على صديقهم. لم يكن هذا جيداً بالنسبة إلى رودي. «ألا يمكنكَ جعله يشعر بالألم أكثر؟» قال أطولهم، ذو العينين الزرقاوين والباردتين مثل السماء، وعملت الكلمات مفعول الحافز الذي احتاجه فرانز، والذي قرّر بأن رودي سيضرب الأرض ويبقى مرمياً عليها من دون حول ولا قوة.

تجمهر حشد أكبر حولهم، بينما تأرجح رودي وهو يحاول كيل اللكمات إلى معدة دويتشر، من دون أن يصيبه أبداً. في الوقت نفسه، شعر بحرقة قبضة نارية تنصب على عينه اليسرى، وأصبح مرمياً على الأرض قبل أن يُدرك ذلك حتى. لكمه مرّة أخرى، في المكان نفسه، وأمكنه أن يشعر بالكدمة تستحيل صفراء وزرقاء وسوداء في الوقت نفسه. ثلاث طبقات من الألم المبهج.

احتشد الجمهور المتنامي لإشباع فضولهم، ومعرفة ما إذا كان رودي سيعاود الوقوف مرّة أخرى. لم يفعل. هذه المرة، بقي على الأرض الرطبة الباردة، وهو يشعر ببرودتها تتخلل ملابسه وتنتشر فيها.

الكدمة النارية ما زالت تحرق عينيه، ولم يُلاحظ حتى فوات الأوان بأن فرانز دويتشر قد أصبح فوقه الآن، وهو يحمل سكين جيب جديداً تماماً، وعلى وشك أن يطعنه به.

سارقة الكتب

«لا!» احتجت ليزيل، إلا أن شخصاً طويل القامة أمسكها، وهمس في أذنها. بدت كلماته عميقة وعتيقة.

«لا تقلقي»، أكّد لها. «لن يفعل ذلك. فليست لديه الشجاعة».

كان على خطأ.

انحنى فرانز في وضعية الركوع، مال نحو رودي وهمس في أذنه:

«متى وُلد الفوهرر؟» لفظ كل كلمة بعناية، وألقاها في أذنه. «هيا، رودي، متى وُلد؟ يمكنك أن تقول لي، كل شيء على ما يرام، لا تخف».

ورودي؟

كيف أجاب؟

هل أجاب بحكمة، أم أنه سمح لغبائه بأن يُغرقه أعمق في المستنقع؟

نظر بسعادة إلى العينين الزرقاوين الشاحبتين لفرانز دويتشر وأجاب: «في عيد الفصح».

في بضع ثوان، أطبقت السكين على شعره. كانت تلك هي قصّة الشعر رقم 2 في هذا الجزء من حياة ليزيل. حيث قُص شعر يهودي بمقص صدئ. وحصل أفضل صديق لها على قصّة شعر بسكين لامع. وفي الحقيقة فهي لم تعرف حتى الآن أي شخص دفع نقوداً لقاء قصّ شعره.

أما بالنسبة إلى رودي، فقد خاض في هذا العام حتى الآن العديد من الصعاب: ابتلع الطين، واستحم في السماد، وصُفع على يد مجرم يافع، وهو يتحمّل الآن أسوء شيء، الإذلال العام في شارع ميونخ.

عموماً، قُصَّت أطراف شعره بيسر وسهولة، ولكن مع كل ضربة، كانت هناك دوماً بعض الشعرات التي تمسّكت بالحياة العزيزة، وتم اقتلاعها تماماً. ومع اقتلاع كل شعرة، أغلق رودي عينيه من الألم، وبالطبع ازداد ألم عينه المصابة خلال هذه العملية، وأضلاعه أومضت ألماً.

سارقة الكتب

«العشرين من نيسان / أبريل، عام ألف وثمانمئة وتسعة وثمانين!» ألقى فرانز محاضرته. وعندما قاد شبيبته بعيداً، تفرّق الجمهور، وبقيت ليزيل، وتومي وكريستينا فقط مع صديقهم.

استلقى رودي بهدوء على الأرض، في الرطوبة المتزايدة.

وبهذا نصل إلى العمل الغبي رقم ثلاثة - التغيّب عن اجتماعات شبيبة هتلر.

لم يتوقّف عن الذهاب على الفور، فقط ليُري دويتشر بأنه لم يخف منه، ولكن بعد أسابيع قليلة توقّف رودي تماماً عن الذهاب.

ارتدى زيّه بفخر، وخرج من شارع هيمل واستمر في المشي، وإلى جانبه صديقه المخلص، تومي.

وبدلاً من الذهاب إلى شبيبة هتلر، خرجا من البلدة ومشيا على طول نهر أمبر. قاما برمي الحجارة، والصخور الكبيرة في الماء، من دون أية فائدة. حيث حرص رودي على توسيخ زيه بما فيه الكفاية لخداع والدته، وذلك على الأقل إلى أن وصلت الرسالة الأولى، حيث سمع حينها النداء المخيف من المطبخ.

أولاً، هدّده والداه، ومع ذلك لم يقتنع بالذهاب والحضور.

وثانياً، توسّلا إليه أن يذهب، لكنه رفض.

في نهاية المطاف، كانت فرصة الانضمام إلى شعبة مختلفة هي التي وضعت رودي على المسار الصحيح. وهو محظوظ، لأنه لو لم يُظهر وجهه بسرعة، لدفع آل شتاينر ثمن عدم حضوره. استفسر شقيقه الأكبر كيرت، عمّا إذا يُمكن لرودي أن ينضم إلى شعبة فليجر المتخصّصة في تدريس الطائرات والطيران. حيث اختصوا في الغالب ببناء طائرات نموذجية، ولم يكن هناك من فرانز دويتشر ليُقلق راحته. بالطبع، قبِل رودي الانضمام،

وانضم تومي أيضاً. وتلك كانت المرة الوحيدة في حياة رودي التي أعطى فيها سلوكه الغبي نتائج مفيدة.

في شعبته الجديدة، كلما سُئل السؤال الشهير عن الفوهرر، يبتسم رودي ويجيب، «20 نيسان / أبريل من عام 1889»، ومن ثم يهمس إلى تومي، تاريخاً مختلفاً، مثل عيد ميلاد بيتهوفن، أو موزارت، أو شتراوس. حيث درسا وتعلّما عن حياة المؤلفين الموسيقيين في المدرسة التي تفوّق فيها رودي على الرغم من غبائه الواضح.

telegram @ktabpdf

سارقة الكتب

الكتاب العائم

(الجزء الثاني)

في بداية شهر كانون الأول / ديسمبر، جاء النصر أخيراً إلى رودي شتاينر، وإن لم يكن بطريقة نموذجية.

كان يوماً بارداً، وإنما ساكناً جداً. وشارف الثلج على التساقط.

بعد المدرسة، توقّف رودي وليزيل في متجر أليكس شتاينر، وعندما سارا إلى المنزل، اجتمعا بصديق رودي القديم، فرانز دويتشر، وهو يلف الزاوية. ليزيل، وكما هي عادتها في تلك الأيام، كانت تحمل كتاب (رجل الصافرة)، فقد أحبّت أن تشعر به في يدها، سواء من حيث غلافه السلس أو الحواف الخشنة للورق.

رأته هي أولاً.

«انظر». أشارت، بينما توجّه دويتشر نحوهما مع قائد آخر في شبيبة هتلر.

انكمش رودي على نفسه. وتحسّس عينه المتعافية. «ليس هذه المرة».

سارقة الكتب

تفحّص الشوارع. «إذا ذهبنا باتجاه الكنيسة، يمكننا اتباع النهر والعودة من ذلك الطريق».

دون إضافة أية كلمات أخرى، تبعته ليزيل، وتجنبا بنجاح معذّب رودي، ليصبحا في طريقهما مباشرة نحو معذب آخر.

في البداية، لم يُفكّرا أبداً في الموضوع.

فيمكن لمجموعة تعبُر الجسر وتدخّن السجائر أن تكون أي أحد، لكنها لم تكن كذلك. وقد فات الأوان عندما تعرّف الطرفان على بعضهما البعض.

«أوه، لا، لقد رأونا».

ابتسم فيكتور تشيمل.

وتحدّث بهدوء شديد. وهذا يعني فقط شيئاً واحداً، أنه في أخطر حالاته. «حسناً، حسناً، إنه رودي شتاينر وعاهرته الصغيرة». على نحو سلس جداً، التقى بهما وانتزع كتاب (رجل الصافرة) من يد ليزيل. «ما الذي تقرئينه؟»

«دع هذا الموضوع بيننا». حاول رودي استخدام المنطق معه. «لا علاقة لها بالموضوع. هيا، أعده إليها».

(رجل الصافرة). خاطب ليزيل الآن. «هل هو جيد؟».

تنحنحت قليلاً. «ليس سيئاً». للأسف، فقد فضحت نفسها. حيث بدت عيناها مهتاجتين. وأيقنت اللحظة الدقيقة التي عرف فيها فيكتور تشيمل أن الكتاب بمثابة جائزة قيّمة.

«سأقول لكِ شيئاً»، قال. «يمكنك استرجاعه مقابل خمسين ماركاً».

«خمسون ماركاً!» كان هذا أندي شميكل. «هيا يا فيكتور، يمكنك شراء ألف كتاب بذاك السعر».

«هل طلبتُ منك التحدث؟».

التزم أندي الصمت، وأغلق فمه بإحكام.

حاولت ليزيل ألا تسمح لأي تعبير بالتسلل إلى وجهها. «يمكنك الاحتفاظ به إذاً. لقد قرأتُه بالفعل».

«ماذا يحدث في النهاية؟».

اللعنة!

لم تصل في قراءته إلى هذا الحد بعد.

تردّدت، وأدرك فيكتور تشيمل الحقيقة على الفور.

تدخّل رودي الآن: «هيا، فيكتور، لا تفعل هذا بها. مشكلتك معي أنا. وسأفعل أي شيء تريده». اكتفى فيكتور بدفعه بعيداً، وهو يحمل الكتاب في يده. وصحّحه.

«لا»، قال. «سأفعل أنا أي شيء أريده أنا»، وذهب إلى النهر، يتبعه الجميع، بسرعة تتراوح بين المشي والركض.

احتج البعض، وشجعه البعض الآخر.

حدث ذلك بسرعة، وببساطة. وضم المشهد سؤالاً، وسخرية، وصوتاً ودياً.

«أخبرني» قال فيكتور. «من كان آخر بطل أولمبي في رمي القرص، في برلين؟» استدار لمواجهتهم. وبدأ بتحمية ذراعه. «من كان؟ اللعنة، اسمه على طرف لساني. كان أمريكياً، أليس كذلك؟ اسمه كاربنتر أو شيء من هذا القبيل...».

رودي: «أرجوك!».

مياه النهر تتحرك في مسيرها الطبيعي غير آبهة بما يحدث.

قام فيكتور تشيمل بالدوران.

وانطلق الكتاب من يده بشكل رائع. انفتح ورفرف، وخشخشت الصفحات في الهواء. وبشكل فجائي، توقف وبدا أنه ينجذب نحو الماء. صفّق عندما ضرب السطح وبدأ يطفو نحو المصب.

هز فيكتور رأسه. «لم يكن الارتفاع كافياً. يا لها من رمية سيئة!». ابتسم مرّة أخرى. «إلا أنها جيدة بما يكفي للفوز، صحيح؟».

غادر ليزيل ورودي قبل سماع الضحكات.

نزل رودي إلى ضفة النهر، في محاولة لتحديد موقع الكتاب.

«هل يمكنكَ رؤيته؟». صاحت ليزيل.

وركض رودي.

استمر في السير على حافة المياه، إلى أن رأى موقع الكتاب. «هناك!» توقف، وأشار إلى مكانه. ركض بموازاته، وسرعان ما خلع معطفه وقفز ليخوض النهر حتى منتصفه.

ليزيل، التي تباطأت إلى حد المشي، أمكنها أن تشعر بالآلام الناتجة عن كل خطوة. البرد المؤلم.

عندما أصبحت قريبة بما فيه الكفاية، رأت الكتاب يتحرك متجاوزاً رودي، إلا أنه سرعان ما لحق به. مدّ يده وأمسك ما أصبح الآن كتلة من الورق المشبعة بالماء. «(رجل الصافرة)!» صاح الصبي. كان الكتاب الوحيد العائم على نهر أمبر في ذلك اليوم، إلا أنه شعر مع ذلك بالحاجة إلى الإعلان عن عنوانه.

ملاحظة أخرى مثيرة للاهتمام هي أن رودي لم يحاول مغادرة المياه الباردة المدمرة بمجرد أن حمل الكتاب في يده. بل بقي فيها لدقيقة كاملة

أو نحو ذلك. لم يشرح السبب أبداً لليزيل، ولكنني أعتقد أنها أدركت بشكل جيد بأن الأسباب كانت على شقين.

دوافع رودي شتاينر المتجمدة

1. بعد أشهر من الفشل، كانت هذه اللحظة فرصته الوحيدة للاستمتاع ببعض النصر.

2. موقف الغيرية هذا هو الفرصة الملائمة تماماً ليطلب من ليزيل طلبه المعتاد.

كيف يمكن لها أن ترفضه؟

«ما رأيكِ في قبلة، أيتها الخنزيرة؟».

وقف لبضع لحظات مغموراً بالماء حتى خاصرته قبل أن يتسلّق ويسلّمها الكتاب. التصق سرواله به، ولم يتوقّف عن المشي. وفي الحقيقة، أعتقد بأنه كان خائفاً. رودي شتاينر خائف من قبلة سارقة الكتب. لا بدّ من أنه تاق إليها بشدة. لا بدّ أنه أحبها بشكل لا يصدق. لدرجة أنه لن يطلب قبلة من ثغرها مرّة أخرى، وسوف يذهب إلى قبره من دون أن يحصل عليها.

الفصل السادس

(حامل الأحلام)

بطولة:

مذكرات الموت - رجل الثلج - ثلاث عشرة هدية - الكتاب التالي - كابوس جثة اليهودي - صحيفة سماوية - الزائر - المُبتسم - وقُبلة أخيرة على خدّين مسمومين

سارقة الكتب

سارقة الكتب

مذكّرات الموت: عام 1942

كانت سنة طويلة، فقد عملتُ فيها بشكل مشابه للعام 79[1]، أو العام 1346[2] على سبيل المثال. ودعكم من منجل حصاد الأرواح - اللعنة - فقد كنتُ في حاجة إلى مكنسة أو ممسحة لكنس كل تلك الأرواح. وكنت في حاجة إلى عطلة.

قطعة صغيرة من الحقيقة

أنا لا أحمل منجلاً.
أنا أرتدي فقط رداءً أسود ذا طاقية عندما يكون الطقس بارداً.
وليس لديّ وجه يُشبه الجمجمة، والذي يبدو أنكم تستمتعون بلصقه بي. هل ترغبون في معرفة كيف أبدو حقاً؟ سوف أساعدكم. ابحثوا عن مرآة بينما أكمل سرد قصتي.

---

(1) العام الذي ثار فيه بركان فيزوف ودمر مدينة بومبي الإيطالية. (المترجمة).
(2) العام الذي بدأ فيه اجتياح الطاعون لأوروبا وسبب موت ما لا يقل عن ثلث السكان. سمي الموت العظيم أو الموت الأسود. (المترجمة).

سارقة الكتب

أشعر فعلاً بأنني منغمس في التركيز على نفسي في الوقت الحالي، حيث سأخبركم بكل شيء عني أنا شخصياً، وعن أسفاري، وما رأيتُه في عام 1942. من ناحية أخرى، فأنتم بشر - ويمكنكم بالطبع أن تتفهموا موضوع الهوس الذاتي.

المسألة هي أنه هناك سبب وراء شرحي لما رأيتُ في ذلك الوقت. فالكثير منه يحمل انعكاسات على ليزيل ميمنجر. وقد جلب الحرب أقرب إلى شارع هيمل، وجرّني معه.

كانت هناك بالتأكيد بعض الجولات التي تعيّن عليّ القيام بها في تلك السنة، بدءاً من بولندا، وصولاً إلى روسيا وأفريقيا والعودة مرّة أخرى. قد تجادلونني بأنني أقوم بجولات العمل بغض النظر عن العام، ولكن في بعض الأحيان، يُحبُّ الجنس البشري تصعيد الأمور قليلاً. فهم يزيدون من إنتاج الجثث وأرواحها الهاربة. بضع قنابل عادة ما تقوم بما هو مطلوب. أو بعض غرف الغاز، أو الأداء المتميز لبعض البنادق. وإذا لم يُنهِ أيٌّ منها ما هو مطلوب، فإنه على الأقل يجرّد الناس من أساسيات حياتهم اليومية، بينما أقف أنا شاهداً على المشرّدين والمحطمين في كل مكان. كثيراً ما يسعون ورائي وأنا أتجول في شوارع المدن المدمّرة. يطلبون مني أن آخذهم معي، من دون أن يدركوا مدى انشغالي. «سوف يأتي وقتكم»، أقنعهم، وأحاول ألا أنظر إلى الوراء. في بعض الأحيان أتمنى أن أقول شيئاً من قبيل: «ألا ترون أن لديّ بالفعل الكثير من العمل بين يدي؟». ولكنني لا أفعل. بل أكتفي بالتذمّر داخلياً وأنا أُنفّذ عملي. في بعض السنوات، يُصبح من الصعب إحصاء عدد الجثث والأرواح، فهي تتضاعف باستمرار.

سارقة الكتب

تفقدّ مختصر لطوابير عام 1942

1. اليهود اليائسون: أرواحهم في حضني بينما نجلس على السطح، بجانب المداخن المتوقّدة.

2. الجنود الروس: يأخذون معهم كميات صغيرة فقط من الذخيرة، ويعتمدون على جمع بقية الذخيرة من الجنود الميتين.

3. الجثث الغارقة على ساحل فرنسي، والراسية على الحصى والرمال.

أستطيع أن أتابع، ولكني قررتُ الآن أن ثلاثة أمثلة تعتبر كافية. ثلاثة أمثلة كافية لأن تجعلكم تذوقوا طعم الرماد في فمكم، وهو السِمة التي ميّزت وجودي خلال تلك السنة.

الكثير من البشر.

الكثير من الألوان.

ما زالت نابضة في داخلي، تُضايق ذاكرتي. أراهم في أكوام عالية، كل منهم فوق الآخر. الهواء مثل البلاستيك، والأفق مثل الغراء. هناك سماوات صنعها البشر، وهي مثقوبة ومهترئة، وهناك غيوم ناعمة، ملونة بلون الفحم، وتنبض، مثل قلوب سوداء.

ومن ثم.

هناك الموت.

يشق طريقه عبر كل ذلك.

على السطح: يبدو ثابت الجنان، لا يتزعزع.

وفي العمق: يبدو متوتراً، مقلقلاً، وقلقاً.

بكل صدق (وأنا أعلم أنني أشكو بشكل مفرط الآن)، كنتُ ما أزال

سارقة الكتب

أحاول تجاوز صدمة ما فعله ستالين في روسيا، وما يسمى بالثورة الثانية - حيث قتل شعبه.

ثم جاء هتلر.

يقولون إن الحرب هي أفضل صديق للموت، ولكنني مُلزم بأن أقدّم لكم وجهة نظر مغايرة عن ذلك. بالنسبة إليَّ، الحرب مثل رئيس جديد في العمل، ذاك الذي يتوقع منكم المستحيل. فهو يقف فوق رأسِكم، مكرراً شيئاً واحداً، بشكل مستمر. «أنجزوا المستحيل، أنجزوه». وبالتالي فأنتم تعملون بجد، وتُنجزون العمل. ومع ذلك فإن رئيسكم لا يشكركم على مجهودكم، بل ببساطة يطلب المزيد.

في كثير من الأحيان، أحاول أن أتذكّر القطع المتناثرة من الجَمال التي رأيتها في ذلك الوقت. وأمرّ الآن على مكتبتي الخاصة من القصص.

في الواقع، فسأروي لكم إحداها الآن.

أعتقد أنكم تعرفون نصفها بالفعل، وإذا رافقتموني، فسوف أعرّفكم على بقيتها. سوف أُريكم النصف الثاني لسارقة الكتب.

من دون دراية منها، فإنها لا تنتظر الكثير من الأشياء التي ألمحتُ إليها قبل دقيقة فقط، بل تنتظركم أيضاً.

وهي تحمل بعض الثلج الى قبو، من بين جميع الأماكن.

يمكن ليدين تحملان حفنة من الماء المتجمد أن تجعل أي شخص تقريباً يبتسم، ولكنها عاجزة عن جعله ينسى.

وإليكم قصتها.

رجل الثلج

بالنسبة إلى ليزيل ميمنجر، يُمكن تلخيص المراحل الأولى من عام 1942 كما يلي:

أصبحت في الثالثة عشرة من العمر، وما زال صدرها مسطحاً. لم تختبر الدورة الشهرية بعد. والشاب الذي يعيش في قبوها، أصبح الآن في سريرها.

سؤال وجواب

سؤال: كيف انتهى المطاف بماكس فاندينبورغ في سرير ليزيل؟

جواب: لقد سقط.

تفاوتت الآراء، إلا أن روزا هوبرمان ادّعت أن بذور القصة قد زُرعت في عيد الميلاد من العام السابق. جاء اليوم الرابع والعشرون من شهر كانون الأول / ديسمبر بالجوع والبرد، إلا أن هناك إيجابية كبيرة – فلم يشهدوا أي زيارات مطولة. حيث أن هانز جونيور مشغول بإطلاق النار

سارقة الكتب

على الروس، والمحافظة في الوقت نفسه على إضرابه عن التفاعل العائلي. ولم يكن في استطاعة ترودي سوى أن تزورهم في نهاية الأسبوع السابقة على عيد الميلاد، ولبضع ساعات فقط. حيث اضطرت إلى مرافقة العائلة التي تعمل لديها، في عطلة خاصة بطبقة اجتماعية مختلفة جداً في ألمانيا.

عشية عيد الميلاد، أنزلت ليزيل إلى القبو حفنة من الثلج كهدية لماكس. «أغمض عينيك»، قالت. «ومدّ يديك». وبمجرد نقل الثلج إلى يديه، ارتعش ماكس وضحك، ولم يفتح عينيه. في البداية تذوق بسرعة طعم الثلج، وسمح له بأن يغرق على شفتيه.

«هل هذا تقرير أحوال الطقس لهذا اليوم؟».

وقفت ليزيل بجانبه.

وبلطف، لمست ذراعه.

رفع يديه مرّة أخرى، إلى فمه ليتذوّق المزيد. «شكراً لكِ يا ليزيل».

كانت بداية أعظم عيد ميلاد في أي وقت مضى. القليل من الطعام، ودون هدايا. ولكن هناك رجل ثلج في قبوهم.

بعد أن سلّمت الحفنة الأولى من الثلج، تأكّدت ليزيل من عدم وجود أي أحد آخر في الخارج، ثم شرعت في حمل أكبر قدر ممكن من الدلاء والأواني. ملأتها بتلال من الثلج والجليد الذي غطى القطعة الصغيرة من العالم التي يشغلها شارع هيمل. وعلى الفور، أدخلتها إلى المنزل، ونقلتها إلى القبو.

أولاً، ألقت كرة ثلجية على ماكس، وجاء رده على شكل كرة ثلجية قوية في المعدة. كما تجرّأ ماكس على رمي واحدة على هانز هوبرمان وهو ينزل درجات القبو.

«أيها الشقي!» صرخ بابا. «ليزيل، أعطني بعضاً من هذا الثلج. دلواً كاملاً!». لبضع دقائق، نسوا جميعاً كل ظروف حياتهم. ومن ثم، توقّف الصراخ والصياح، إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة على ضحكاتهم الهاربة. فهم مجرّد بشر، يلعبون بالثلج، في منزل ما.

نظر بابا إلى الأواني المليئة بالثلج. «ماذا سنفعل بالبقية؟»

«رجل ثلج»، أجابت ليزيل. «علينا أن نصنع رجل ثلج». نادى بابا روزا لتكون جزءاً من تسليتهم الجديدة.

صوتها البعيد المعتاد صاح: «ما القصّة الآن، أيها الخنزير؟».

«انزلي إلى هنا، هيا!».

عندما ظهرت، خاطر هانز هوبرمان بحياته ورمى كرة ثلج على زوجته. لم تُصبها، بل تناثرت عندما ضربت الجدار، وأصبح لدى ماما عذر لكيل سيل من الشتائم دفعة واحدة، من دون التوقف لالتقاط أنفاسها. وبمجرّد أن تعافت من الصدمة، نزلت وساعدتهم. حتى أنها جلبت أزراراً للعينين والأنف، وبعض الخيوط لرسم ابتسامة رجل الثلج. كما تدبّرت أمر وشاح وقبعة لما بدا حقاً رجل ثلج قزمي.

«إنه قزم»، قال ماكس.

«ماذا سنفعل عندما يذوب؟». سألت ليزيل.

وجاء جواب روزا. «ستمسحينه أيتها الخنزيرة، وبسرعة».

خالفها بابا الرأي. «لن يذوب». فرك يديه ونفخ فيهما. «فالطقس جليدي هنا».

ومع ذلك فقد ذاب، ولكن في مكان ما من قلب كل واحد منهم، ظل رجل الثلج ذاك قائماً، فقد كان آخر شيء رأوه عشية عيد الميلاد تلك، عندما ذهبوا للنوم أخيراً. حيث تغلغل صوت الأكورديون في آذانهم،

سارقة الكتب

وصورة رجل الثلج في عيونهم. وبالنسبة إلى ليزيل، فقد رافقتها أيضاً الكلمات الأخيرة التي قالها ماكس قبل أن تتركه بجانب النار، وتذهب للنوم.

مباركات عيد الميلاد من ماكس فانديبورغ

«في كثير من الأحيان أتمنى أن ينتهي كل هذا يا ليزيل، ولكن عندها، وبطريقة أو بأخرى، تفعلين شيئاً لا معقولاً مثل النزول إلى القبو حاملة رجل ثلج بين يديكِ».

لسوء الحظ، شهدت تلك الليلة تدهوراً حاداً في صحة ماكس. وكانت العلامات المبكّرة بريئة ونموذجية بما فيه الكفاية: برودة دائمة، يدان جليديتان، رؤى متزايدة لجولات الملاكمة مع الفوهرر. وفقط عندما أصبح عاجزاً عن الشعور بالدفء بعد ممارسة تمارين الضغط والمعدة، بدأ الموضوع يشغله. ومهما جلس على مقربة من النار، فلم يكن قادراً على التعافي ولا بأية درجة. يوماً بعد يوم، بدأ وزنه يذوب. وتداعى نظام تمارينه الرياضية حتى انهار أخيراً، وخدّه ملتصق بأرضية القبو القاسية.

طوال شهر كانون الثاني / يناير، تمكّن من تمالك نفسه، ولكن في أوائل شهر شباط / فبراير، استحال ماكس إلى شكل يدعو فعلاً للقلق. فقد أصبح يُكافح للاستيقاظ قرب النار، وينام حتى وقت متأخر من الصباح، فمه مشوه، وعظام خده أصبحت بارزة. عندما سُئل، أجاب بأنه على ما يرام.

في منتصف شهر شباط / فبراير، وقبل أيام قليلة من عيد ميلاد ليزيل الثالث عشر، اقترب من المدفأة وهو على وشك الانهيار. وشارف تقريباً على السقوط في النار.

سارقة الكتب

«هانز»، همس، وبدا أن وجهه ينكمش. استسلمت ساقاه وضرب رأسه بحقيبة الأكورديون.

في الحال، سقطت ملعقة خشبية في الحساء، ووصلت روزا هوبرمان إلى جانبه. رفعت رأس ماكس وصاحت عبر الغرفة إلى ليزيل. «لا تقفي هكذا! أحضري بطانيات إضافية. وخُذيها إلى سريركِ. وأنتَ!» بابا كان الثاني في مرمى أوامرها. «ساعدني على رفعه وحمله إلى غرفة ليزيل. بسرعة!».

امتقع وجه بابا من الخوف والقلق، الذي تخلل عينيه الرماديتين. حمله بمفرده، فوزن ماكس لم يزد على وزن طفل. «ألا يمكننا وضعه هنا، في سريرنا؟».

فكّرت روزا في ذلك بالفعل. «لا. علينا أن نُبقي هذه الستائر مفتوحة خلال النهار، وإلا سنثير الشكوك».

«معكِ حق». وحمله هانز.

حاملة البطانيات في يدها، شاهدت ليزيل ما حصل.

أقدام مرتخية، وشعر معلّق في الممر، وفردة حذاء واحد معلّقة في إحدى قدميه.

«تحرّكي».

سارت ماما خلفهم، بطريقتها المتبخترة.

بمجرّد أن وُضع في السرير، تكوّمت البطانيات فوقه وأحاطت بجسده.

«ماما؟». لم تستطع ليزيل أن تقول أي شيء آخر.

«ماذا؟». كانت كعكة شعر روزا هوبرمان مشدودة بما فيه الكفاية لتخويفها. ويبدو أنها تصبح مشدودة أكثر كلما كرّرت السؤال. «ماذا يا ليزيل؟».

سارقة الكتب

اقتربت أكثر، خائفة من الجواب. «هل هو على قيد الحياة؟». أومأت الكعكة بالإيجاب.

استدارت روزا، وقالت شيئاً بثقة كبيرة. «اسمعيني الآن يا ليزيل. أنا لم أستضف هذا الرجل في بيتي لأشاهده وهو يموت. هل فهمتِ؟» هزّت ليزيل رأسها موافقة.

«اذهبي الآن».

في الردهة، عانقها بابا.

وكانت في أمسّ الحاجة إليه.

لاحقاً، سمعت هانز وروزا يتحدثان في الليل. جعلتها روزا تنام في غرفتهما، واستلقت بجوار سريرهما، على الأرض، على الفراش الذي جلباه من القبو. (شعرا بالقلق حيال ما إذا كان الفراش يحمل المرض، إلا أنهما استنتجا أن مثل هذه الأفكار لا أساس لها، فما أصاب ماكس لم يكن فيروساً، لذلك حملا الفراش وغيّرا أغطيته).

معتقدة بأن الفتاة قد نامت، أعربت ماما عن أفكارها.

«إنه رجل الثلج اللعين ذاك»، همست. «أراهن بأن مرضه بدأ مع رجل الثلج – واللعب بالثلج في برد القبو الجليدي».

بابا بدا فلسفياً أكثر. «روزا، لقد بدأ مع أدولف». ورفع نفسه. «علينا أن نطمئن عليه».

خلال تلك الليلة، استقبل ماكس سبع زيارات.

سِجل زوّار ماكس فاندينبورغ

هانز هوبرمان: مرّتين

روزا هوبرمان: مرّتين

ليزيل ميمنجر: ثلاث مرّات

سارقة الكتب

في الصباح، جلبت له ليزيل كتاب رسوماته من القبو ووضعته على الطاولة بجانب السرير. شعرت بالذنب لأنها تفقّدت محتوياته في العام السابق، وهذه المرة، أبقت عليه مغلقاً بإحكام، بدافع الاحترام.

عندما جاء بابا، لم تستدر لمواجهته، وإنما تحدثت مواجهة ماكس فاندينبورغ، والحائط. «لماذا أحضرتُ كل ذلك الثلج إلى القبو؟»، سألت، «إنه السبب وراء كل هذا، أليس كذلك يا بابا؟»، قبضت يديها، كما لو أنها ستصلي. «لماذا بنيتُ رجل الثلج ذاك؟».

بابا، كعادته، بدا صلباً ومتماسكاَ. قال: «ليزيل، تحتّم عليكِ القيام بذلك».

لعدّة ساعات، جلست معه وهو يرتجف وينام.

«لا تمت»، همست. «أرجوك، يا ماكس، لا تمت».

كان ماكس رجل الثلج الثاني الذي يذوب ويذوي أمام عينيها، إلا أنه مختلف، عن الأول، فلكما أصبح أبرد، كلما ذاب أكثر.

سارقة الكتب

ثلاث عشرة هدية

إنه مشهد وصول ماكس وهو يتكرّر من جديد.

تحوّل الريش إلى زغب مرّة أخرى. والوجه السلس استحال قاسياً.

والدليل الذي احتاجته كان هناك أمامها، إنه على قيد الحياة.

في الأيام القليلة الأولى، جلست وتحدثت معه. حيث أخبرته في عيد ميلادها، بان كعكة هائلة تنتظر في المطبخ، وتمّنت لو أنه يستيقظ فقط.

لم يكن هناك استيقاظ.

ولم تكن هناك كعكة.

مقتطف من مشهد متأخر من الليل

أدركتُ بعد ذلك بكثير بأنني زرتُ في الواقع المنزل رقم 33 في شارع هيمل في تلك الفترة من الزمن. لا بدّ أن ذلك كان خلال إحدى اللحظات القليلة التي لم تكن فيها الفتاة متواجدة معه هناك، فكل ما رأيتُه هو رجل في سرير. ركعتُ، وجهّزتُ نفسي لأمد يدي عبر

سارقة الكتب

البطانيات. لكن الحياة انبعثت من جديد - كفاح هائل ضد ثقلي. انسحبتُ، ومع وجود الكثير من العمل لإنجازه، كان من الجميل أن أُصدّ في تلك الغرفة الصغيرة المظلمة. حتى أنني أغمضتُ عيني وغرقتُ في حالة موجزة من التأمل والصفاء قبل أن أخرج.

في اليوم الخامس، كانت هناك الكثير من الإثارة عندما فتح ماكس عينيه، ولو لبضع لحظات. فما رآه أولاً (لا أستطيع تخيّل كم بدت مخيفة النسخة المقرّبة عمّا رآه!) هو روزا هوبرمان، وهي تضع ملعقة كبيرة من الحساء في فمه. «ابتلع»، نصحته. «لا تُفكّر. فقط ابتلع». بمجرّد أن انتهت ماما من إطعامه، حاولت ليزيل أن ترى وجهه مرّة أخرى، إلا أن جسد روزا وقف في طريقها. «هل ما زال مستيقظاً؟».

عندما استدارت، لم يكن على روزا الإجابة.

بعد ما يقرب من أسبوع، استيقظ ماكس مرّة ثانية، بينما كانت ليزيل وبابا في الغرفة. بينما راقبا الجسد الواهن في السرير، صدر أنين صغير. قفز بابا من كرسيه.

«انظر»، شهقت ليزيل. «ابقَ مستيقظاً، يا ماكس، ابقَ مستيقظاً».

نظر إليها بإيجاز، ولكن لم يبدُ أنه تعرّف عليها. درستها عيناه كما لو أنها لغز. ثم غاب مرّة أخرى.

«بابا، ماذا حدث؟».

عاد هانز إلى كرسيه.

لاحقاً، اقترح عليها أن تقرأ له. «هيا، ليزيل، لقد أصبحتِ قارئة جيدة في الآونة الأخيرة – مع أن مصدر هذا الكتاب مازال لغزاً لنا جميعاً».

«قلتُ لك يا بابا. أعطتني إياه إحدى الراهبات في المدرسة».

سارقة الكتب

رفع بابا يديه في احتجاج وهمي. «أعرف، أعرف». تنهد، وقال: «فقط...» اختار كلماته تدريجياً.

«احرصي على ألا يُكشف أمركِ». كان هذا كلاماً صدر عن رجل سرق يهودياً.

منذ ذلك اليوم، بدأت ليزيل بقراءة كتاب (رجل الصافرة) بصوت عال لماكس الذي يحتل سريرها. وإحباطها الوحيد يأتي من اضطرارها إلى تخطي فصول كاملة بسبب التصاق العديد من الصفحات ببعضهما البعض. فهي لم تجف جيداً. ومع ذلك، فقد واظبت على قراءته، إلى درجة أنها أنهت ما يقرب من ثلاثة أرباعه. حيث بلغ عدد صفحات الكتاب ثلاثمئة وست وتسعون صفحة.

في العالم الخارجي، كانت ليزيل تهرع مسرعة من المدرسة كل يوم على أمل أن يتحسّن حال ماكس. «هل استيقظ؟ هل تناول الطعام؟».

«اذهبي إلى الخارج»، توسّلت إليها ماما. «ستُسببين لي ثقباً في معدتي مع كل هذا الحديث الذي بلا طائل. هيا. اخرجي والعبي كرة القدم، كُرمى لله».

«حسناً يا ماما». وهي على وشك فتح الباب. «ولكنكِ ستنادين عليّ إذا ما استيقظ، أليس كذلك؟ اختلقي أي عذر. اصرخي وكأنني قد ارتكبتُ شيئاً خاطئاً. كيلي لي الشتائم. والجميع سوف يصدقون ذلك، لا تقلقي».

حتى روزا اضطرت إلى الابتسام أمام هذا الكلام. وضعت يديها على وركيها وأوضحت أن ليزيل لم تصبح كبيرة بما يكفي بعد لتتجنب العقاب بعد حديثها بمثل هذه الطريقة. «وكذلك، سجّلي هدفاً»، هددت، «وإلا لا تعودي إلى المنزل أبداً».

- بالتأكيد، ماما.

سارقة الكتب

- اجعلي ذلك هدفين، أيتها الخنزيرة!

- حاضر ماما.

- وتوقفي عن الرد عليّ!

فكّرت ليزيل قليلاً، ثم انطلقت إلى الشارع الطيني الزلق لملاقاة رودي.

«لقد تأخرتِ أيتها الحمقاء». رحّب بها بطريقته المعتادة وهما يتقاتلان للاستحواذ على الكرة. «أين كنتِ؟».

بعد نصف ساعة، عندما سُحقت الكرة بعد المرور النادر لسيارة على شارع هيمل، وجدت ليزيل هديتها الأولى لماكس فاندينبورغ. بعد الحكم بأنه من غير الممكن إصلاح الكرة، عاد كل الاطفال إلى منازلهم غاضبين، مخلّفين وراءهم الكرة تنقبض على الطريق البارد، المتقرّح. بقيت ليزيل ورودي منكبّان على الذبيحة، التي حملت فجوة في جانبها، مثل الفم.

«هل تُريدها؟». سألت ليزيل.

هزّ رودي كتفيه رافضاً. «ماذا سأفعل بكرة الغائط هذه؟ من غير الممكن نفخ الهواء فيها الآن، أليس كذلك؟».

«هل تُريدها أم لا؟».

«لا شكراً». حرّكها رودي بقدمه بحذر، كما لو كانت حيواناً ميتاً. أو حيواناً قد يكون ميتاً.

وبينما سار باتجاه المنزل، التقطت ليزيل الكرة ووضعتها تحت ابطها. أمكنها أن تسمعه يصيح. «هيا، أيتها الخنزيرة».

انتظرت.

- أيتها الخنزيرة!

أذعنت، وأجابته. «ماذا؟».

سارقة الكتب

- توجد هنا دراجة بلا عجلات أيضاً، إذا كنتِ تريدينها.

- ضع تلك الدراجة في...

من موقعها في الشارع، كان آخر شيء سمعته هو ضحكة ذلك الخنزير، رودي شتاينر.

في المنزل، شقّت طريقها نحو غرفة النوم. أخذت الكرة إلى ماكس ووضعتها عند نهاية السرير.

«أنا آسفة»، قالت، «إنها ليست هدية قيّمة. ولكن عندما تستيقظ، سوف أخبركَ كل شيء عنها. سوف أخبركَ أن عصر هذا اليوم بدا رمادياً بشكل لا يصدق، وأن تلك السيارة التي من دون أضواء، مرّت مباشرة فوق الكرة، حيث خرج الرجل منها وصرخ علينا. وبعدها سألنا عن عنوان يقصده. يا له من وقح!».

استيقظ! أرادت أن تصرخ ذلك.

أو أن تهزّه.

إلا أنها لم تفعل ذلك.

كل ما فعلته ليزيل هو مشاهدة الكرة المتهالكة. وكانت تلك هديتها الأولى من بين العديد غيرها.

الهدايا من رقم 2 حتى رقم 5

شريط واحد، كوز صنوبر واحد.

زر واحد، حجر واحد.

أوحت لها كرة القدم بفكرة.

كلما سارت من وإلى المدرسة الآن، انهمكت ليزيل بالبحث عن

سارقة الكتب

الأشياء المرمية التي قد تكون ذات قيمة بالنسبة إلى رجل يموت. وتساءلت في المقام الأول عن السبب الذي قد يجعل هذه الأشياء البسيطة تصبح مهمة جداً. كيف يمكن لشيء تافه جداً أن يُعطي الراحة لشخص ما؟ شريط في مزراب. كوز صنوبر في الشارع. زر يميل بشكل عرضي على جدار الصف. وحجر مستدير مسطّح من النهر. على أقل تقدير، فقد أظهرت هذه الأشياء أنها تهتم به، وقد تعطيها شيئاً للحديث عنه عندما يستيقظ ماكس.

عندما تُصبح وحدها، اعتادت أن تُجري تلك المحادثات.

«ما كل هذا؟» سيقول ماكس. «ما كل هذه الخردة؟».

«خردة؟» تخيّلت أنها تجلس بجانبه على السرير.

«ماكس، هذه ليست خردة. فهي ما جعلكَ تستيقظ».

الهدايا من رقم 6 حتى رقم 9

ريشة واحدة، صحيفتان،
غلاف مصاصة، وغيمة.

وجدت الريشة الجميلة محاصرة في مفصلات باب الكنيسة في شارع ميونخ. حيث حشرت نفسها محاولة الخروج من سجنها، وأسرعت ليزيل لنجدتها. أصبحت الحواف على الجانب الأيسر مسطحة، إلا أن الجانب الأيمن ذو حواف رقيقة، وأقسام من المثلثات الخشنة المسننة. لم تكن هناك طريقة أخرى لوصفها.

جاءت الصحيفتان من الأعماق الباردة لسلة مهملات (يكفي أن أقول هذا). أما غلاف المصاصة فقد بدا مسطحاً وباهتاً عندما عثرت عليه بالقرب من المدرسة ورفعته إلى الضوء. لاحظت أن يحتوي على كولاج من طبعات الأحذية.

سارقة الكتب

ثم الغيمة.

كيف تُعطي شخصاً قطعة من السماء؟

في أواخر شهر شباط / فبراير، وقفت في شارع ميونخ وشاهدت غيمة عملاقة واحدة تنقض على التلال مثل وحش أبيض. تسلقت الغيمة الجبال. وانخسفت الشمس، ليحل محلها وحش أبيض ذو قلب رمادي يُشاهد البلدة.

«هلا تنظر إلى ذلك؟». قالت لبابا.

رفع هانز رأسه وقال ما شعر بأنه بدهي. «يجب أن تُعطيها لماكس، يا ليزيل. انظري فيما إذا كان في إمكانكِ تركها على الطاولة بجانب السرير، مثل بقية الأشياء الأخرى».

نظرت إليه ليزيل كما لو أنه قد جُن. «كيف؟».

بخفّة، نقر بيده على جمجمتها. «احفظي تفاصيلها. ثم دونيها من أجله».

«... كانت مثل وحش أبيض ضخم»، قالت عندما وقفت لاحقاً بجوار سريره، «جاء من فوق الجبال».

عندما أكملت الجملة بعد إضفاء العديد من التعديلات والإضافات المختلفة، شعرت ليزيل بأنها قد فعلت المطلوب. تخيّلت الغيمة وهي تمر من يدها إلى يده، عبر البطانيات. كتبت رؤيتها الخاصة بتلك الغيمة على قصاصة ورق، ووضعت الحجر فوقها.

الهدايا من رقم 10 حتى رقم 13

لعبة واحدة على شكل جندي.

ورقة شجر عجيبة واحدة.

سارقة الكتب

الانتهاء من قراءة (رجل الصافرة).

بلاطة من الحزن.

وجدت الجندي مدفوناً في التراب، ليس بعيداً عن بيت تومي مولر. كان مخدوشاً ومتهالكاً، أما بالنسبة إلى ليزيل، فهو مثالي، وعلى الرغم من إصابته البالغة، فإنه ما يزال قادراً على الوقوف.

الورقة هي من شجرة القيقب، وقد وجدتها في خزانة أدوات تنظيف المدرسة، بين المكانس والدلاء ومنافض الغبار. وجدت باب الخزانة مفتوحاً قليلاً، والورقة جافة وقاسية، مثل الخبز المحمص، مع خطوط واضحة على سطحها. بطريقة أو بأخرى، وجدت الورقة طريقها نحو ممر المدرسة وإلى تلك الخزانة. مدّت ليزيل يدها وحملتها بين أصابعها.

على عكس الأشياء الأخرى، لم تضع الورقة على الطاولة بجانب السرير. بل علّقتها على الستارة المغلقة، قبل قراءة الصفحات الأربع والثلاثين الأخيرة من كتاب (رجل الصافرة).

لم تتناول العشاء من بعد ظهر ذلك اليوم، كما لم تستخدم المرحاض، ولم تشرب الماء. حيث وعدت نفسها وهي في المدرسة بأنها ستنتهي من قراءة الكتاب اليوم، وسيستمع ماكس فاندينبورغ إليها. وسوف يستيقظ.

جلس بابا على الأرض، في الزاوية، بلا عمل كالمعتاد. لحسن الحظ، فهو سيغادر قريباً إلى حانة نولر بصحبة الأكورديون. ذقنه تستريح على ركبتيه، وهو يستمع إلى الفتاة التي كافح لتعليمها الأبجدية. قرأت ليزيل بفخر، وألقت الكلمات الأخيرة المخيفة من الكتاب على مسمع ماكس فاندينبورغ.

سارقة الكتب

[... كان هواء فيينا يضرب نوافذ القطار في ذلك الصباح. وفي حين سار الناس الغافلون إلى أعمالهم، صفر القاتل بلحنه السعيد. اشترى تذكرته. وتبادل التحيات المهذبة مع زملائه الركاب وقاطع التذاكر. حتى أنه تخلّى عن مقعده لسيدة مسنة، وانشغل في محادثة مهذبة مع مقامر تحدث عن الخيول الأمريكية. في نهاية المطاف، فقد أحبّ رجل الصافرة الثرثرة والكلام. وهكذا فقد تحدّث إلى الناس وخدعهم ليُعجبوا به، ويثقوا به. تحدّث إليهم في أثناء قتلهم وتعذيبهم وطعنهم بالسكاكين. وفقط عندما لا يكون هناك أحد للتحدّث إليه، كان يلجأ إلى الصفير، وهذا هو السبب في أنه يفعل ذلك بعد ارتكاب كل جريمة قتل...

«إذاً أنت تعتقد أن مسار السباق يُناسب الحصان رقم سبعة، أليس كذلك؟»

«بالطبع»، ابتسم المقامر، وقد تأسّست الثقة بينهما بالفعل. «سوف يأتي من الخلف ويقتل الكثير منهم، وينتصر عليهم في السباق!» صرخ بذلك فوق ضجيج القطار.

«إذا كنتَ مصراً»، ابتسم رجل الصافرة، وتساءل متى سيجدون جثة المفتش في سيارة الـ بي إم في الجديدة تلك.]

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!»، لم يستطع هانز تجنّب قول ذلك بنبرة مشكّكة. «هل أعطتكِ راهبة هذا الكتاب؟» وقف، واقترب أكثر، وقبّل جبينها. «وداعاً يا ليزيل، حانة نولر تنتظرني».

- وداعاً يا بابا.

- ليزيل!

تجاهلت النداء.

- تعالي وتناولي بعض الطعام!

هذه المرة أجابت. «أنا قادمة يا ماما». وفي الواقع، فقد قالت تلك الكلمات إلى ماكس وهي تقترب لتضع الكتاب المقروء على الطاولة بجانب السرير، مع كل الأشياء الأخرى. حامت فوقه، ولم تستطع أن تتمالك نفسها. «هيا، ماكس»، همست، وحتى صوت وصول ماما وراءها لم يمنعها من البكاء بصمت، وذرف الدموع المالحة على وجه ماكس فاندينبورغ.

أخذتها ماما.

وضمّتها بين ذراعيها.

«أعرف»، قالت.

كانت تعرف.

سارقة الكتب

هواء نقي، وكابوس قديم، وما العمل بجثة يهودي!

أخبرت ليزيل رودي، وهما يمشيان بمحاذاة نهر أمبر، أنها مهتمة بالحصول على كتاب آخر من منزل رئيس البلدية، فقد أنهت للتو كتاب (رجل الصافرة)، كما قرأت (المراقب) عدّة مرات لماكس وهو في السرير، من دون أن يستغرق ذلك سوى بضع دقائق من القراءة. كما جرّبت أيضاً قراءة كتاب (اللامبالاة)، وحتى كتاب (دليل حفّار القبور)، ولكن أياً منها لم يبدُ ملائماً تماماً. أريد شيئاً جديداً، فكّرت.

- هل قرأتِ الكتاب الأخير؟

- بالطبع فعلتُ.

رمى رودي حجراً في الماء. «هل هو جيد؟».

- بالطبع هو كذلك.

«بالطبع فعلتِ، بالطبع هو كذلك»، قلّدها متهكّماً، وحاول إخراج حجر آخر من الأرض، إلا أنه جرح إصبعه.

سارقة الكتب

- هذا سوف يعلمكَ كيف تسخر مني.

- أيتها الخنزيرة!

عندما يكون آخر رد يقوله شخص ما هو «خنزيرة»، أو «خنزير»، أو «أحمق»، فأنتم تدركون مباشرة أن هذا الشخص قد خسر الجدال.

من حيث السرقة، بدت الظروف مثالية ومواتية من عصر يوم قاتم في أوائل شهر آذار / مارس - لم تتجاوز فيه درجة الحرارة الصفر سوى ببضع درجات - وهي في الحقيقة أكثر إزعاجاً من عشر درجات دون الصفر. مرّ عدد قليل جداً من الناس في الشوارع. والمطر رمادي مثل نجارة قلم رصاص.

«هل سنذهب؟».

«سنذهب على الدراجات»، أجاب رودي. «يمكنكِ استخدام واحدة من عندنا».

في هذه المناسبة، تحمسّ رودي كثيراً لكونه سيلعب دور المقتحم. «اليوم هو دوري»، قال بينما تجمّدت أصابعهما على مقبضي الدراجتين.

فكّرت ليزيل بسرعة. «ربما يجب ألا تدخل أنت يا رودي. هناك أشياء متوزعة في كل مكان. والغرفة مظلمة. ولا بدّ لأحمق مثلك أن يتعثر أو يصطدم بشيء ما».

«شكراً جزيلاً». وهو في هذا المزاج، يُصبح من الصعب احتواء رودي.

- كذلك هناك السقطة من النافذة إلى الأرض. إنها أعمق مما تظن.

- هل تقصدين بأنني لا أستطيع القيام بذلك؟

وقفت ليزيل على الدواسات. «لا أبداً».

عبرا الجسر وصعدا التل إلى شارع جرانده. كانت النافذة مفتوحة.

سارقة الكتب

مثل آخر مرّة، قاما بمسح المنزل للتأكّد من مقدار المخاطرة. أمكنهما رؤية الداخل بشكل ضبابي، حيث يوجد ضوء في القبو، فيما بدا أنه المطبخ على الأرجح. تحرّك ظل هناك ذهاباً وإياباً.

«سوف نحوم حول البناء عدّة مرات»، قال رودي. «من الجيد أننا جئنا على الدراجات، أليس كذلك؟».

- فقط تذكّر أن تعيد دراجتكَ إلى المنزل.

- مضحك جداً، أيتها الخنزيرة. إنها أكبر قليلاً من حذائكِ القذر.

ركبا الدراجة لنحو 15 دقيقة، وزوجة رئيس البلدية ما تزال في القبو. كيف تجرؤ على احتلال المطبخ لكل هذا الوقت! فبالنسبة إلى رودي، لا شك في أن المطبخ هو الهدف الفعلي. حيث سيدخل، ويسرق أكبر قدر يستطيع حمله من الغذاء، عندها إذا، (وفقط إذا)، كان لديه وقت إضافي، سيدسُّ كتاباً في سرواله وهو في طريقه للخروج. وأي كتاب سيفي بالغرض.

ومع ذلك، فإن نقطة ضعف رودي هي نفاد صبره. «بدء الوقت يُصبح متأخراً»، قال، ووجّه دراجته باتجاه طريق العودة. «هل ستأتين؟».

لم تأتِ ليزيل.

ما من داع لاتخاذ أي قرار. فقد ركبت تلك الدراجة الصدئة على طول الطريق إلى هناك، وهي لن تغادر من دون كتاب. ترجّلت عن الدراجة، وتأكّدت من عدم وجود الجيران، ومشت نحو النافذة. تحرّكت بسرعة جيدة من دون أن تبدو على عجلة من أمرها. هذه المرة خلعت حذاءها باستخدام قدميها، من خلال الضغط بأصابع قدميها على كعبيها.

تسلّقت النافذة، ووجدت طريقها إلى الداخل.

هذه المرة، شعرت بأن المسألة أكثر سهولة، ولو بقليل. خلال بضع لحظات ثمينة، جابت الغرفة، وبحثت عن عنوان يشدّها. في ثلاث أو أربع مناسبات، شارفت على أن تمد يدها وتأخذ كتاباً. حتى أنها فكّرت في أخذ أكثر من واحد، إلا أنها لم تُرد أن تخرق ما بدا كأنه نوع من النظام. في الوقت الراهن، كل ما تحتاجه هو كتاب واحد فقط. تمعّنت بالرفوف وانتظرت.

هبط الظلام في الخارج وألقى بظلاله عبر النافذة خلفها. عبقت رائحة الغبار والسرقة. وعندها رأت ما تريد.

كان كتاباً أحمر، مع كتابة سوداء على الجانب. **(حامل الأحلام)**. فكّرت في ماكس فاندينبورغ وأحلامه. الشعور بالذنب. والبقاء على قيد الحياة. كيف ترك عائلته. وقاتل الفوهرر. كما فكّرت في حلمها الخاص - شقيقها، ميتاً على متن القطار، وظهوره على الدرجات قاب قوسين أو أدنى من هذه الغرفة. شاهدت ركبته الدامية عندما دفعته من الدرج.

سحبت الكتاب من الرف، ودسّته تحت إبطها، تسلّقت حافة النافذة وقفزت. كل ذلك بحركة واحدة.

هذه المرة، حمل رودي حذاءها. وجهّز دراجتها. وبمجرّد أن ارتدت الحذاء، سارعا في الفرار.

«يا يسوع، ومريم ويوسف! يا ميمنجر». لم ينادها ميمنجر أبداً من قبل. «أنتِ مجنونة تماماً. هل تعلمين ذلك؟».

وافقته ليزيل وهي تقود دراجتها بسرعة خيالية. «أنا أعلم».

على الجسر، لخّص رودي ما حصل خلال ذلك المساء. «هؤلاء القوم إما مجانين تماماً»، قال، «أو أنهم يحبّون الهواء النقي لدرجة يجازفون فيها بترك النافذة مفتوحة بهذا الشكل».

أو ربما هناك امرأة في شارع جرانده تُبقي نافذة مكتبتها مفتوحة لسبب آخر - ربما هذا مجرّد تفكير ساخر أو متفائل من قبلي، أو كليهما معاً.

وضعت ليزيل كتاب (حامل الأحلام) تحت سترتها وبدأت قراءته في اللحظة التي عادت فيها الى المنزل. جلست على الكرسي الخشبي بجانب سريرها. فتحت الكتاب وهمست.

«إنه كتاب جديد يا ماكس، من أجلكَ فقط». وبدأت القراءة: [الفصل الأول: من المناسب تماماً أن المدينة بأكملها كانت نائمة عندما وُلد حامل الأحلام...]

في كل يوم، قرأت ليزيل فصلين من الكتاب. واحد في الصباح قبل المدرسة، وواحد بمجرّد عودتها إلى المنزل. في بعض الليالي، عندما يجافيها النوم، كانت تقرأ نصف فصل ثالث أيضاً. حيث تغفو مستندة إلى جانب السرير.

أصبحت القراء لماكس شغلها الشاغل.

قرأت (حامل الأحلام) إلى ماكس كما لو أن الكلمات وحدها يمكن أن تُغذيه. في يوم الثلاثاء، شعرّت بأنه يتحرك. أمكنها أن تُقسم بأنه فتح عينيه. ولو أنه فتحهما حقاً، فلم يكن ذلك سوى للحظة فقط - وعلى الأرجح بأن ذلك من محض خيالها، وأمنياتها المتفائلة.

بحلول منتصف آذار / مارس، بدأت الشقوق بالظهور.

روزا هوبرمان - المرأة الجيدة في وقت الأزمات - وصلت إلى نقطة الانهيار من بعد ظهر أحد الأيام في المطبخ. رفعت صوتها، ثم خفضته

سارقة الكتب

بسرعة. توقفت ليزيل عن القراءة وتسللت بهدوء إلى الردهة. وقفت أقرب ما يمكنها، إلا أنها بالكاد فهمت كلمات ماما. وعندما أصبحت قادرة على سماعها، تمنّت لو أنها لم تسمعها، فما سمعته كان مروعاً، وهو الحقيقة الواقعة.

محتويات صوت ماما

ماذا لو لم يستيقظ؟

ماذا لو مات هنا يا هانزي؟

أخبرني. بحق الرب، ماذا سنفعل بالجثة؟ لا يمكننا تركه هنا، ستقتلنا الرائحة... ولا نستطيع حمله من الباب وإخراجه إلى الشارع، أيضاً. لا يمكننا أن نقول فقط، «لن تخمّنوا قط ماذا وجدنا في قبونا هذا الصباح...» سوف يمحوننا عن وجه الأرض إلى الأبد.

كانت محقة تماماً.

فجثة اليهودي هي بالفعل مشكلة كبيرة. وبالتالي يحتاج آل هوبرمان إلى عودة ماكس فاندينبورغ إلى الحياة، ليس فقط من أجله، وإنما من أجلهم أيضاً. حتى بابا، الذي كان دوماً العنصر المهدّئ دوماً، بدأ يشعر بالضغط.

«اسمعي»، بدا صوته هادئاً ولكن ثقيلاً. «حتى لو حدث ذلك – أعني إذا مات – سنحتاج ببساطة لإيجاد وسيلة...». يمكن لليزيل أن تُقسم أنها سمعته يبتلع ريقه. «...عربة الطلاء التي أستخدمها، وبعض الأوراق هنا وهناك...» دخلت ليزيل المطبخ.

«ليس الآن يا ليزيل». كان بابا هو الذي تحدث، على الرغم من أنه لم

ينظر إليها، فهو يراقب وجهه الذي يبدو مشوهاً في ملعقة أمامه. ومرفقاه مدفونان في الطاولة.

لم تتراجع سارقة الكتب. خطت بضع خطوات إضافية وجلست. ربتت بيديها الباردتين على أكمامها وسقطت جملة من فمها. «لم يمت بعد». وقعت الكلمات على الطاولة واستقرّت في الوسط. نظر الثلاثة إلى الكلمات. ولم تجرؤ الآمال على الارتفاع أكثر. لم يمت بعد. لم يمت بعد. روزا هي من تحدثت بعد ذلك.

«من منكم جائع؟».

الوقت الوحيد الذي لم يتسبّب فيه مرض ماكس بالألم والحزن، هو وقت العشاء. لم يكن هناك إنكار لذلك، حيث يجلس ثلاثتهم على طاولة المطبخ ليتناولوا الخبز الاضافي، والحساء أو البطاطس الإضافية التي لن يتناولها ماكس.

فكّر الجميع في ذلك، ولكن لم يتحدث أحد.

في الليل، بعد بضع ساعات فقط، استيقظت ليزيل في ذروة خفقان قلبها. (كانت قد تعلّمت هذا التعبير من «حامل الأحلام»، الذي هو في الأساس على النقيض من كتاب «رجل الصافرة» - كتاب عن طفل لقيط أراد أن يكون قساً). جلست واستنشقت بعمق هواء الليل.

«ليزيل؟» تقلّب بابا في سريره. «ما المشكلة؟».

«لا شيء يا بابا، كل شيء على ما يرام»، ولكن في اللحظة نفسها التي أنهت فيها الجملة، تذكّرت بالضبط ما حدث في كابوسها.

صورة واحدة صغيرة

في معظم الأحيان، الصورة هي نفسها دائماً.

يتحرّك القطار بالسرعة نفسها. من ثم يسعل شقيقها. هذه المرة، مع ذلك، لم تستطع ليزيل أن ترى وجهه يُراقب أرضية القطار. ببطء، تميل نحوه. ويديها ترفع وجهه برفق، من ذقنه، وهناك يتجسّد أمامها الوجه ذو العينين الواسعتين لماكس فاندينبورغ، يحدّق في وجهها. تسقط ريشة إلى الأرض. يُصبح الجسد أكبر الآن، ليتلاءم مع حجم الوجه. ويصرخ القطار.

- ليزيل؟

- قلتُ لك كل شيء على ما يرام.

وهي ترتعش، نهضت من فراشها. يُعميها الخوف، ومشت عبر الممر لتصل إلى ماكس. بعد دقائق من الوقوف بجانبه، عندما تباطأ كل شيء، حاولت تفسير الحلم. هل هو حدس بموت ماكس؟ أو مجرد رد فعل على محادثة بعد الظهر في المطبخ؟ هل حلّ ماكس الآن محل شقيقها؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن لها التخلي عن لحمها ودمها بمثل هذه الطريقة؟ ربما هي رغبة عميقة الجذور في موت ماكس. بعد كل شيء، إذا كان الموت قدَراً محتوماً على فيرنر، شقيقها، فهو قدَرٌ ملائم لهذا اليهودي.

«هل حقاً تعتقدين ذلك؟» همست، واقفة بجانب سريره. «لا»، لم يكن هذا التفكير منطقياً بالنسبة إليها. ظلّ جوابها يطوف في الغرفة بينما تضاءل خدر الظلام لتتوضّح الأشكال المختلفة، الكبيرة والصغيرة، للهدايا المكوّمة على الطاولة بجانب السرير.

«استيقظ»، قالت.

ماكس لم يستيقظ.

ليس قبل ثمانية أيام أخرى.

في المدرسة، طُرق باب الصف.

«تفضّل»، قالت المعلّمة أولندريتش.

فُتح الباب ونظر جميع طلاب الصف متفاجئين عندما وقفت روزا هوبرمان عند مدخل الباب. طفل أو اثنان شهقا عند رؤيتها – امرأة على شكل خزانة صغيرة مع ابتسامة ساخرة يُغطيها أحمر الشفاه، وعينين حارقتين. بدت أسطورية، وهي ترتدي أفضل ملابسها، إلا أن شعرها كان فوضوياً، مثل منشفة من الخيوط البلاستيكية الرمادية.

بدا الخوف جلياً على المعلمة. «سيدة هوبرمان...» بدت حركاتها متشوشة، وجالت بنظرها على الصف والطلاب.

«أين ليزيل؟».

نظرت ليزيل إلى رودي. وقفت، وسارت بسرعة نحو الباب لإنهاء الحرج في أسرع وقت ممكن. أغلقت الباب وراءها، وأصبحت الآن لوحدها، في الممر، مع روزا.

أشاحت روزا نظرها عنها.

«ماذا يا ماما؟».

استدارت. «إياكِ أن تقولي لي «ماذا يا ماما»، أيتها الخنزيرة الصغيرة!» فوجئت ليزيل من حدّة أجابتها. «فرشاة شعري!» قالت ماما، وتلا ذلك موجة من الضحك مرّت من تحت الباب، وسرعان ما اختفت على الفور.

«ماما؟».

بدا وجهها قاسياً، إلا أنه يُخفي ابتسامة. «ماذا بحق الجحيم فعلتِ بفرشاة شعري، أيتها الخنزيرة الغبية، أيتها السارقة الصغيرة؟ قلتُ لكِ مئة مرّة أن تُتركيها ولا تلمسيها، ولكن هل تستمعين إليّ؟ بالطبع لا!».

استمر التقريع لمدة دقيقة أخرى، وليزيل تقدّم اقتراحاً يائساً أو اثنين

حول المكان المحتمل للفرشاة المذكورة. انتهى ذلك فجأة، عندما سحبت روزا ليزيل أقرب إليها، لبضع ثوان فقط. كان من المستحيل تقريباً أن يُسمع همسها، حتى من مثل هذا القرب. «قُلتِ لي أن أصرخ عليكِ. وأنهم جميعاً سيصدّقون ذلك». نظرت، يساراً ويميناً، ومن ثم قالت هامسة: «لقد استيقظ، يا ليزيل. إنه مستيقظ الآن». أخرجت من جيبها لعبة الجندي المخدوشة والمهترئة. «طلب مني أن أعطيكِ هذه. قال إنها المفضلة لديه». أعطتها إياها، وشدّت على ذراعيها بإحكام، وابتسمت. قبل أن تسنح لليزيل فرصة الرد، أنهت روزا الموقف. «حسناً؟ أجيبني! هل لديكِ أية فكرة أخرى عن المكان الذي ربما تركتِ فيه فرشاة شعري اللعينة؟».

إنه على قيد الحياة، فكّرت ليزيل. «... لا، يا ماما. أنا آسفة، ماما، أنا...».

«حسناً، ما نفعكِ إذاً؟» تركتها، أومأت برأسها، ومشت بعيداً.

لبضع لحظات، وقفت ليزيل في الممر الضخم. تفحّصت الجندي في كفها. الغريزة همست لها بأن تركض إلى المنزل على الفور، إلا أن المنطق السليم لم يسمح لها بذلك. بدلاً من ذلك، وضعت الجندي المهترئ في جيبها وعادت إلى الصف.

انتظر الجميع.

«بقرة غبية»، همست.

مرّة أخرى، ضحك الأطفال. أما السيدة أولندريتش فلم تفعل.

«ما كان ذلك؟».

شعرت ليزيل بنشوة غير قابلة للتدمير. «قلتُ»، ابتسمت، «بقرة غبية»، ولم تضطر إلى الانتظار لحظة قبل أن تُوجّه يد المعلمة صفعة إلى خدها.

سارقة الكتب

«لا تتحدثي عن أمكِ بهذه الطريقة»، قالت، ولكن ذلك لم يكن له أدنى تأثير يذكر. اكتفت الفتاة بالوقوف هناك وحاولت إخماد ابتسامتها. بعد كل شيء، يمكنها الآن تقبّل أي عقاب. «عودي إلى مقعدك الآن».

«حاضر سيدة أولندريتش».

بجانبها، تجرّأ رودي على الكلام.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!»، همس، «أستطيع أن أرى يدها على وجهك. يد حمراء كبيرة. وخمسة أصابع!»

«جيد»، قالت ليزيل، لأن ماكس على قيد الحياة.

عندما عادت إلى المنزل بعد ظهر ذاك اليوم، كان يجلس في السرير وكرة القدم التالفة في حضنه. لحيته تحكّه، وعيناه تصارعان للبقاء مفتوحتين. ولاحظت وعاء حساء فارغ بجانب الهدايا.

لم يتبادلا التحيّات.

فقد بدت غير ضرورية.

انفتح الباب، ودخلت الفتاة، وقفت أمامه، ونظرت إلى الوعاء. «هل أجبرتكَ ماما على تناوله؟».

هز رأسه بالإيجاب، بدا راضياً، وتعباً. «إلا أنه جيد جداً، مع ذلك».

«حساء ماما؟ حقاً؟».

لم تكن ابتسامة تلك التي أعطاها. «شكراً لكِ على الهدايا». بل مجرّد انفراج طفيف في فمه. «شكراً لكِ على الغيمة. شرح لي والدك قصّتها».

بعد ساعة، حاولت ليزيل أيضاً قول للحقيقة. «لم نكن نعرف ماذا سنفعل فيما لو متّ يا ماكس. نحن...».

لم يستغرق وقتاً طويلاً ليفهم مقصدها. «أنت تعنين، كيف ستتخلّصون مني؟»

«أنا آسفة».

«لا». لم يشعر بالإهانة. «أنتم محقّون». لعب بضعف بالكرة. «أنتم محقّون في التفكير بهذه الطريقة. في وضعكم، يهودي ميت هو خطير بقدر يهودي حي، إن لم يكن أسوأ».

«كما راودني أيضاً كابوس غريب». وسردت له تفاصيل كابوسها، وهي تحمل لعبة الجندي في قبضتها. كانت على وشك الاعتذار مرّة أخرى عندما تدخّل ماكس.

«ليزيل». جعلها تنظر إليه. «إيّاكِ أن تعتذري لي في أي يوم من الأيام. أنا من ينبغي عليه أن يعتذر منكِ». نظر إلى كل الأشياء التي جلبتها له. «انظري إلى كل هذا. هذه الهدايا». حمل الزر في يده. «قالت روزا بأنكِ كنتِ تقرئين لي مرتين كل يوم، وأحياناً أكثر من ذلك». نظر الآن إلى الستائر كما لو أنه يستطيع أن يرى من خلالها. جلس أعلى قليلاً وتوقّف لقول عشراتٍ من الجمل الصامتة. وجد الخوفُ طريقه إلى وجهه وقدّم اعترافاً للفتاة. «ليزيل؟» وتحرّك قليلاً نحو اليمين. «أنا أخشى»، قال، «من النوم مرّة أخرى».

كانت ليزيل صارمة: «إذاً سأقرأ لكَ. وسوف أصفعكَ إذا بدأت تغفو. سوف أغلق الكتاب وأهزّك إلى أن تستيقظ».

بعد ظهر ذلك اليوم، وفي وقت متأخر من الليل، قرأت ليزيل إلى ماكس فاندينبورغ. جلس في السرير وامتص الكلمات، مستيقظاً هذه المرة، إلى ما بعد الساعة العاشرة بقليل. عندما أخذت ليزيل راحة سريعة، نظرت من وراء الكتاب ووجدت ماكس نائماً. بقلق، نكزته بالكتاب. استيقظ بسرعة. ثم

في المجمل، غفا ثلاث مرّات إضافيات. وأيقظته مرّتين إضافيتين.

على مدى الأيام الأربعة التالية، استيقظ كل صباح في سرير ليزيل، ثم

سارقة الكتب

بجوار الموقد، وفي نهاية المطاف، بحلول منتصف شهر نيسان / أبريل، في القبو. تحسّنت صحته، وحلق لحيته، واستعاد حفنة صغيرة من الوزن.

في عالم ليزيل الداخلي، كانت هناك راحة كبيرة في ذلك الوقت. أما في الخارج، فقد بدأت الأمور تبدو مقلقلة. وفي أواخر شهر آذار / مارس، استُهدف مكان يدعى لوبيك بالقنابل. تلاه كولونيا، وقريباً بعد ذلك، العديد من المدن الألمانية، بما في ذلك ميونخ.

نعم، كان رئيسي في العمل يقف فوق رأسي، ويأمرني:

«أنجز العمل، أنجزه».

القنابل قادمة – وأنا كذلك.

مكتبة أحمد

سارقة الكتب

مذكّرات الموت: كولونيا

الساعات المشؤومة من 30 أيّار/ مايو.

أنا متأكّد من أن ليزيل ميمنجر كانت نائمة بعمق عندما حلّقت أكثر من ألف قاذفة قنابل نحو مكان يُعرف باسم كولن. بالنسبة إليَّ، كانت الحصيلة خمسمئة شخص، أو ما يقرب من ذلك. وخمسون ألفاً آخرون تشرّدوا بلا مأوى حول أكوام من الأنقاض الشبحية، في محاولة لاكتشاف طريقهم، ومعرفة أي من هذا الحطام ينتمي إلى مَن.

خمسمئة روح.

حملتُها بين أصابعي، مثل حقائب. أو على كتفي. الأطفال فقط هم من حملتُهم بين ذراعي.

وعندما انتهيتُ من عملي لذلك اليوم، استحالت السماء صفراء، مثل صحيفة محترقة. إذا ما نظرتُ عن قرب، أمكنني رؤية الكلمات: عناوين التقارير التي تُعلّق على التقدّم المُحرز في الحرب، وهكذا دواليك. كم تمنيتُ لو أسحب تلك الصحيفة السماوية، وأمزقها، وأرميها بعيداً! إلا أن

ذراعيّ تؤلمانني، ولا يمكنني تحمّل أن تحترق أصابعي، فما يزال هناك الكثير من العمل الذي ينبغي لي إنجازه.

وكما تتوقعون، فقد مات الكثيرون على الفور. أما البعض الآخر فقد استغرق وقتاً أطول. كانت هناك العديد من الأماكن للذهاب إليها، وسماوات للقائها، وأرواح لجمعها. عندما عُدتُ إلى كولونيا في وقت لاحق، بعد وقت قصير من زيارة الطائرات، لاحظتُ شيئاً فريداً من نوعه.

كنتُ أحمل روحاً متفحّمة ليافعة، عندما نظرتُ بحزن إلى ما أصبح الآن سماء كبريتية. رأيتُ مجموعة قريبة من فتيات بعمر العشر سنوات. صاحت إحداهن: «ما هذا؟».

امتدت ذراعها وأشار إصبعها إلى شيء أسود، يسقط ببطء من السماء. بدأ كريشة سوداء، تتهادى، وتطوف، أو كقطعة من الرماد. ثم أصبح أكبر حجماً. الفتاة نفسها - صهباء ذات نمش - تحدّثت مرّة أخرى، هذه المرة بشكل أكثر تأكيداً: «ما هذا؟».

«إنها جثة»، اقترحت فتاة أخرى - ذات ضفيرتين من شعرها الأسود المفروق في المنتصف.

«إنها قنبلة أخرى!».

كان الشيء بطيئاً جداً ليكون قنبلة.

وأنا أحمل روح اليافعة التي ما تزال تحترق بخفة بين ذراعي، مشيتُ بضع مئات من الأمتار معهنّ. ومثل الفتيات، ظلّ تركيزي منصباً على السماء. فآخر شيء أردته هو أن أنظر إلى وجه اليافعة بين يدي - كم هي فتاة جميلة، تتمرّغ الآن في الموت، بدلاً من الحياة.

مثل بقيتهنّ، ذُهلتُ عندما صرخ صوت بقوة، كان ذلك أحد الآباء الساخطين وهو يأمر الفتيات بالدخول إلى منازلهن. جاوبته ابنته الصهباء، مذهولة. «ولكن بابا، انظر».

سارقة الكتب

تقدّم الرجل عدّة خطوات صغيرات، وسرعان ما اكتشف ما كان ذلك الشيء. «إنه الوقود».

«ماذا تقصد؟».

«الوقود»، وكرّر. «حاوية الوقود». كان رجلاً أصلع يرتدي بزّة مهترئة. «لقد استهلكوا كل الوقود الموجود في تلك الحاوية وتخلصوا منها. انظرن، هناك واحدة آخر هناك».

«وهناك!».

الفتيات الصغيرات، وكما هو حال الأطفال دوماً، بحثن بشكل محموم عن حاوية وقود فارغة تحوم في طريقها نحو الأرض.

سقطت الحاوية الأولى بهدير أجوف.

«هل يمكننا الاحتفاظ بها يا بابا؟».

«لا». يبدو من الجلي أن هذا الأب قد تعرّض للقصف والصدمة، وهو ليس في مزاج ملائم للمرح. «لا يمكنكنّ الاحتفاظ بها».

«لمَ لا؟».

«سأسأل أبي عمّا إذا كان في إمكاني الاحتفاظ بها»، قالت إحدى الفتيات.

«وأنا أيضاً».

بعيداً قليلاً عن أنقاض كولونيا، جمعت مجموعة من الفتيات الصغيرات حاويات الوقود الفارغة، التي أسقطها العدو. وكالمعتاد، جمعتُ أنا البشر. كنتُ متعباً، ولمّا تنتصف السنة بعد.

سارقة الكتب

الزائر

عُثر على كرة قدم جديدة لأطفال شارع هيمل. هذا خبر سار. أما الخبر المُقلق نوعاً ما فهو أن فرقة من الحزب النازي تتّجه نحوهم.

تقدّم عناصر الفرقة الحزبية على طول الطريق عبر بلدة مولشينغ، وتنقلوا من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى آخر، وتوقّفوا الآن في متجر السيدة ديلر، ليدّخنوا سيجارة سريعة قبل أن يتابعوا أعمالهم.

هناك بالفعل بعض ملاجئ الاحتماء من الغارات الجوية في مولشينغ، ولكن بعد قصف كولونيا، قرّر الحزب النازي ضرورة تأمين المزيد منها، حيث حرص على تفتيش كل منزل لمعرفة ما إذا كان القبو ملائماً بما فيه الكفاية ليُستخدم كملجأ.

من بعيد، شاهد الأطفال عناصر الفرقة الحزبية.

وأمكنهم رؤية دخان سجائرهم.

خرجت ليزيل للتو من منزلها، وسارت نحو رودي وتومي. حيث استرجع هارالد مولنهور الكرة للتو. «ماذا يحدث هناك؟».

وضع رودي يديه في جيبيه. «إنهم عناصر في الحزب». راقب تقدّم

سارقة الكتب

صديقه الذي يحمل الكرة المسترجعة من باحة منزل السيدة هولتزابفيل. «وهم يتفقدون جميع المنازل والشقق السكنية».

على الفور، استولى الجفاف على فم ليزيل. «لماذا؟»

- ألا تعرفين بأي شيء يدور هنا؟ أخبرها يا تومي.

بدا تومي مشوشاً.

- حسناً، أنا لا أعرف أيضاً.

- أنتَ ميؤوس منكَ، أنتما الاثنان لا فائدة منكما. يقولون إنهم يحتاجون إلى المزيد من الملاجئ للاحتماء من الغارات الجوية.

- هل تقصد أنهم يحتاجون إلى الأقبية؟

- لا، إنهم يحتاجون إلى الطوابق العليا، ما رأيكِ! بالطبع أقصد الأقبية. يا يسوع! ليزيل، أنتِ حقاً غبية، أليس كذلك؟

عادت الكرة مرّة أخرى.

«رودي!»

انقض على الكرة، بينما بقيت ليزيل واقفة. كيف يمكن لها أن تعود إلى المنزل من دون أن تُصبح محط الشبهات؟ بدأ الدخان المتصاعد من جانب متجر السيدة ديلر يختفي، وبدأ الحشد الصغير من الرجال بالتفرّق. تولّد الذعر في قلبها بطريقة فظيعة. واستهدف منطقة الحلق والفم. تحوّل الهواء إلى رمال. فكّري، قالت لنفسها. هيا، ليزيل، فكّري، فكّري.

سجّل رودي هدفاً.

وهنأته أصوات بعيدة.

فكّري يا ليزيل - وأخيراً فعلت.

لقد وجدتها! قرّرت، وفكّرت: لا بد لي من أن أبدو حقيقية.

سارقة الكتب

مع تقدّم النازيين في الشارع، وكتابة الأحرف التالية «LSR» على بعض الأبواب، مُرّرت الكرة عالياً إلى أحد الأطفال الأكبر سناً، كلاوس بهريغ.

LSR

بالألمانية Luftschutzraum: وتعني «ملجأ من الغارات الجوية».

استدار الصبي مع الكرة، في اللحظة التي وصلت فيها ليزيل إليه. اصطدما ببعضهما البعض بقوة كبيرة لدرجة أن اللعبة توقفت تلقائياً. تدحرجت الكرة بعيداً، وركض اللاعبون إليها. أمسكت ليزيل ركبتها المخدوشة بيد، ورأسها باليد الأخرى. في حين أمسك كلاوس بهريغ ساقه اليمنى فقط وهو يتألّم ويلعن. «أين هي؟» بصق. «سوف أقتلها!».

لن يكون هناك قتل.

بل أسوأ.

عنصر عطوف في الفرقة الحزبية شاهد الحادث وركض نحو المجموعة. «ماذا يحدث هنا؟» سأل.

«حسناً، إنها مجنونة». وأشار كلاوس إلى ليزيل. اندفع الرجل لمساعدتها على الوقوف. شكّل نَفَسه الذي يعبق برائحة التبغ هضبة أمام وجهها.

«لا أعتقد أنكِ في حالة تسمح لكِ بمواصلة اللعب، يا طفلتي»، قال. «أين تعيشين؟».

«أنا بخير»، أجابت. «حقاً. يمكنني الذهاب بمفردي». فقط ابتعد عني، ابتعد عني! فكّرت.

كان ذلك عندما تدخّل رودي – المُتدخّل الأبدي.

سارقة الكتب

لما لا يمكنه الاهتمام بشؤونه الخاصة وحسب، على سبيل التغيير؟

«حقاً»، قالت ليزيل. «تابعوا اللعب يا رودي. يُمكنني تدّبر أمري بنفسي».

«لا، لا». لن يتزحزح من جانبها. يا لعناده! «لن يستغرقني إيصالكِ سوى دقيقة أو اثنتين».

مرّة أخرى، توجّب عليها أن تُفكّر، ومرة أخرى استطاعت ذلك. حاول رودي حملها، إلا أنها أوقعت نفسها مرّة أخرى على الأرض. «بابا»، قالت. ولاحظت كما تبدو السماء زرقاء تماماً، من دون أية غيمة. «هل يمكنكَ أن تناديه يا رودي؟».

«ابقي هنا». ونادى إلى يمينه: «تومي، راقِبها، حسناً؟ لا تدعها تتحرّك».

وتطوّع تومي للعمل فوراً. «سأراقبها يا رودي». وقف فوق رأسها، ووجهه ينبض كعادته، محاولاً عدم الضحك، بينما أبقت ليزيل عينيها معلقتين على عنصر الحزب.

بعد دقيقة، وقف هانز هوبرمان بهدوء بجانبها.

«أهلاً يا بابا».

خالطت شفتيه ابتسامة تنم عن خيبة أمل. «كنتُ أتساءل متى سيحدث لكِ هذا».

رفعها وساعدها على الوصول إلى المنزل. واصل الأطفال لعبهم، أما العنصر النازي فقد وصل بالفعل إلى باب منزل يبعد بضعة أبواب فقط عن منزل آل هوبرمان.

لم يُجبه أحد.

صاح رودي من بعيد: «هل تحتاج إلى مساعدة، سيد هوبرمان؟»

«لا، لا، يمكنكَ الاستمرار في اللعب، سيد شتاينر». سيد شتاينر! لا يمكنكم إلا أن تُحبوا والد ليزيل.

سارقة الكتب

بمجرّد أن أصبحا في الداخل، بدأت ليزيل بتقديم المعلومات الكاملة إلى هانز، حيث قالت، محاولة أن تجد المنطقة الوسطى بين الصمت واليأس: «بابا».

«لا تتحدثي».

«الحزب»، همست. توقّف بابا. حارب رغبته في فتح الباب والنظر إلى الشارع. «إنهم يتحقّقون من الأقبية لإقامة الملاجئ».

أجلسها. «فتاة ذكية»، قال، ثم نادى روزا.

لديهم دقيقة واحدة للتوصّل إلى خطة. يا لفوضى الأفكار التي احتشدت في رؤوسهم!

«سنقوم بوضعه في غرفة ليزيل»، اقترحت ماما. «تحت السرير».

- هذا كل شيء؟ ماذا لو قرّروا تفتيش غرفنا أيضاً؟

- هل لديكَ خطة أفضل؟

تصحيح: لم تكن لديهم دقيقة.

سبع ضربات متتالية طرقت باب المنزل رقم 33 في شارع هيمل، وفات الأوان لنقل أي أحد إلى أي مكان.

جاء الصوت من وراء الباب: «افتحوا!».

تصارعت خفقات قلوبهم معاً. إنها فوضى الإيقاع. حاولت ليزيل تهدئة خوفها. إلا أن القلب الخائف ليس مبهجاً أبداً.

همست روزا. «يا يسوع، ومريم...».

هذه المرة بابا هو الذي تسلّم زمام القيادة. هرع إلى باب القبو، وألقى بتحذيره الهامس إلى ماكس. وعندما عاد، تحدّث بسرعة وطلاقة. «اسمعاني، ليس هناك وقت للحيل. يمكننا إلهاؤه بمئة طريقة مختلفة ولكن هناك حل واحد فقط». نظر إلى الباب، واستنتج. «لا شيء».

سارقة الكتب

لم يكن هذا هو الجواب الذي أرادت روزا سماعه. اتسعت عيناها.

«لا شيء؟ هل أنتَ مجنون؟».

استؤنف الطرق على الباب.

كان بابا صارماً. «لا شيء. حتى أننا لن ننزل معه إلى القبو - مهما حدث». تباطأ كل شيء.

قبلت روزا بذلك.

منقبضة من الضيق، هزّت رأسها موافقة وشرعت في فتح الباب.

«ليزيل». آلمها صوت بابا المرتبك. «ابقي هادئة فحسب، هل فهمتِ؟».

«أجل يا بابا».

حاولت التركيز على ساقها النازفة.

«آها!».

في الباب، كانت روزا ما تزال تسأل عن سبب هذه الزيارة عندما لاحظ عنصر الحزب ليزيل.

«لاعبة كرة القدم المجنونة!» ابتسم. «كيف هي ركبتكِ؟» عادة، لا تتخيّلون النازيين كأشخاص مرحين جداً، إلا أن هذا الرجل كان كذلك بالتأكيد. دخل إلى المنزل، وقرفص محاولاً معاينة الإصابة.

هل يعلم؟ فكّرت ليزيل. هل يمكنه شم رائحة اليهودي؟

عاد بابا من المغسلة بقطعة قماش مبلّلة ووضعها على ركبة ليزيل. «هل تؤلمكِ؟» فاضت عيناه الفضيتان بالاهتمام والهدوء. ولحسن الحظ فمن الممكن تفسير الخوف المغروس فيهما على أنه قلق على إصابة ليزيل.

نادت روزا عبر المطبخ. «لا يمكن أن تُؤلمها بما فيه الكفاية. ربما سوف يُلقّنها ألمها درساً لن تنساه».

سارقة الكتب

وقف عنصر الحزب وضحك. «لا أعتقد أن هذه الفتاة تتلقّن أية دروس هناك يا سيدة...؟».

«هوبرمان». تلوّى وجه روزا الذي يُشبه الورق المقوى.

«... سيدة هوبرمان – أعتقد أنها هي من تُلقّن الدروس لجميع هؤلاء الصبية». وأعطى ليزيل ابتسامة عريضة «هل أنا على حق، أيتها الشابة؟».

حرّك بابا قطعة القماش على الجرح، وجفلت ليزيل متأوهة بدلاً من الإجابة. هانز هو الذي تحدّث. وتأسّف بهدوء للفتاة.

ساد صمت مزعج بعدها، وتذكّر عنصر الحزب هدفه من الزيارة. «إذا كنتَ لا تمانع»، أوضح، «يتوجّب عليّ تفقّد القبو الخاص بكم، لدقيقة أو اثنتين فقط، لمعرفة ما إذا كان يصلح ليكون ملجأ».

ربّت بابا للمرّة الأخيرة على ركبة ليزيل. «ستظهر كدمة لطيفة هناك أيضاً يا ليزيل». بشكل طبيعي جداً، أجاب الرجل الواقف. «بالتأكيد. إنه الباب الأول على اليمين، واعذرنا على الفوضى».

«لا داعي للقلق – لا يمكن أن يكون أسوأ من بعض الأقبية الأخرى التي رأيتها. هل هذا هو الباب؟».

«تماماً».

الدقائق الثلاث الأطول في تاريخ آل هوبرمان

جلس بابا إلى الطاولة. وقدّمت روزا الصلوات في الزاوية، وهي تتمتم بالكلمات. ليزيل في ذروة اضطرابها وألمها: ركبتها، صدرها، وعضلات ذراعيها. أشكُ في أن أياً منهم امتلك الجرأة للتفكير فيما يمكن فعله في حال تم تعيين القبو كملجأ. ولكن عليهم أولاً النجاة من عملية التفتيش.

سارقة الكتب

استمعوا إلى خطى النازي في القبو. وسمعوا صوت شريط القياس. لم تستطع ليزيل درء فكرة ماكس وهو يجلس تحت الدرجات، متكوماً حول كتاب رسمه الذي يضمّه بقوة إلى صدره.

وقف بابا. راودته فكرة أخرى.

مشى إلى الردهة ونادا. «هل كل شيء على ما يرام هناك؟».

صعد الجواب الدرجات، فوق ماكس فاندينبورغ.

- أحتاجُ لدقيقة أخرى ربما!

- هل ترغبُ في بعض القهوة، أو الشاي؟

- لا، شكراً!

عندما عاد بابا، أمر ليزيل بجلب كتاب، وطلب من روزا البدء بالطهي. فقد قرّر أن آخر شيء ينبغي القيام به هو الجلوس وإظهار القلق. «حسناً، هيا»، قال بصوت عالٍ، «تحرّكي يا ليزيل. لا يهمني إن كانت ركبتكِ تؤلمكِ، فعليكِ إنهاء ذلك الكتاب، كما وعدتني».

حاولت ليزيل تمالك نفسها. «حاضر، بابا».

«حسناً، ماذا تنتظرين؟» تطلّبه الأمر جهداً كبيراً ليغمز لها، وقد شعرت هي بذلك.

في الممر، قاربت أن تصطدم بعنصر الحزب.

«أنتِ في ورطة مع أبيكِ، أليس كذلك؟ لا تهتمي. أنا أتصرّف مثله مع أولادي».

سارا كلٌّ في طريقه، وعندما وصلت ليزيل إلى غرفتها، أغلقت الباب وسقطت على ركبتيها، على الرغم من الألم الإضافي. استمعت أولاً إلى الحكم بأن القبو ضحل جداً، ومن ثم كلمات الوداع، حيث أنه خصّها

سارقة الكتب

بوداع خاص صاح به عبر الممر. «وداعاً يا لاعبة كرة القدم المجنونة!» تذكّرت نفسها. «وداعاً!» وكتاب (حامل الأحلام) يكاد يغلي بين يديها.

وفقاً لبابا، فقد ذابت روزا بجانب الموقد لحظة خروج عنصر الحزب. أخذا ليزيل، ونزلوا إلى القبو، حيث أزالوا الأوراق وعلب الطلاء المكدّسة بشكل جيد. جلس ماكس فاندينبورغ تحت الدرجات، وهو يحمل مقصه الصدئ مثل سكين. العرق يقطر منه، والكلمات تسقط من فمه كأنها جروح.

«لم أكن لأستخدمه»، قال بهدوء. «أنا...» وحمل سلاحه الصدئ، مسطحاً على جبهته. «آسف لأنني عرّضتكم لمثل هذا الموقف».

أشعل بابا سيجارة. وأخذت روزا المقص.

«أنتَ على قيد الحياة»، قالت، «نحن جميعاً كذلك».

فات الآن أوان الاعتذار.

سارقة الكتب

المُبتسم

بعد دقائق، طرق شخص آخر الباب.

«يا إلهي، واحد آخر!».

استؤنف القلق على الفور. وتمّت تغطية ماكس على عجل.

صعدت روزا درجات القبو، وعندما فتحت الباب هذه المرة، لم يكن في الباب نازيون. وإنما رودي شتاينر فقط، الذي وقف هناك، بشعره الأصفر ونيته الحسنة. «جئت فقط للاطمئنان على ليزيل».

عندما سمعت صوته، بدأت ليزيل بصعود الدرج. «يمكنني التعامل مع هذا الزائر».

«إنه خليلها»، قال بابا لعلب الطلاء، ونفث دخانه.

«ليس خليلي»، واجهته ليزيل، لكنها لم تكن غاضبة. فمن المستحيل أن تشعر بأي شيء سلبي بعد حادثة النجاة هذه. «أنا صاعدة فقط لأن ماما ستنادي عليّ في أية ثانية الآن».

«ليزيل!».

سارقة الكتب

كانت تصعد الدرجة الخامسة. «أرأيت؟».

عندما وصلت إلى الباب، بدأ رودي بالتحرك من قدم إلى قدم.

«جئتُ فقط لرؤية –» توقف. «ما هذه الرائحة؟» شم بعمق.

– هل كنتِ تدخنين هناك؟

– أوه. لقد كنتُ أجلس مع بابا.

– هل لديكِ أية سجائر؟ ربما يمكننا بيع بعضها.

لم تكن ليزيل في مزاج ملائم لهذا الكلام. وتحدّثت بهدوء بما فيه الكفاية حتّى لا تسمعها ماما. «أنا لا أسرق من بابا».

– لكنكِ تسرقين من أماكن أخرى معينة.

– تحدّث بصوت أعلى قليلاً، لمَ لا تفعل ذلك؟!

ابتسم رودي.

– هل رأيتِ ما تفعله السرقة؟ أنتِ قلقة تماماً.

– وأنتَ؟ كأنك لم تسرق أي شيء.

– نعم، لكنك تعبقين برائحة السارق، أنتِ تفضحين نفسكِ».

تحمّس رودي حقاً الآن. «قد لا تكون الرائحة التي أشمها رائحة سجائر». اقترب منها وابتسم. «بل هي رائحة مجرمة. عليكِ أن تستحمي». هتف إلى تومي مولر، الواقف بعيداً وراءه. «مهلاً، تومي، يجب أن تأتي وتشم هذه الرائحة!».

«ماذا قلتَ؟» صاح تومي. «لا أستطيع أن أسمعكَ!».

نظر رودي إلى ليزيل وهزّ رأسه: «لا فائدة منه».

بدأت بإغلاق الباب. «اُغرب من هنا، أيها الخنزير، أنتَ آخر شيء أحتاجه الآن».

سعيد بما فعله، انطلق رودي إلى الشارع. وعندما وصل إلى البوابة، وصندوق البريد، تذكّر ما كان يريد التحقّق منه منذ البداية. عاد بضع خطوات. «آكيس جوت، زاومينش؟ هل كل شيء على ما يرام، أيتها الخنزيرة؟ أعني الإصابة التي أُصبتِ بها».

كان ذاك شهر حزيران / يونيو. وكانت تلك ألمانيا. والأمور على شفا الانهيار والاضمحلال.

لم تكن ليزيل على دراية بأي من هذا. فبالنسبة إليها، لم يُكشف أمر اليهودي في قبوها. ولم تختفِ أسرتها الحاضنة عن وجه الأرض، وهي نفسها ساهمت بشكل كبير في كِلا الإنجازين.

«كل شيء على ما يرام»، قالت، وهي لا تقصد الإصابة الناتجة عن لعب كرة القدم.

كانت هي شخصياً على ما يرام.

مذكّرات الموت: الباريسيّون

حلّ الصيف.

بالنسبة إلى سارقة الكتب، يسير كل شيء بسلاسة.

أما بالنسبة إليَّ، فقد تلوّنت السماء بلون اليهود.

عندما انتهت أجسادهم من البحث عن أية ثغرة في الأبواب، ارتقت أرواحهم. خدشت أظافرهم الخشبَ، وفي بعض الحالات، تسمّرت فيه مدفوعة باليأس. تقاطرت أرواحهم نحوي، وتعلّقت بذراعيّ. صعدنا من مرافق الاستحمام[1] هذه، إلى الأسطح، ومنها إلى اتساع الأبدية الأكيد.

استمرّوا بتغذية وجودي، دقيقة بعد دقيقة / وغرفة استحمام بعد أخرى.

لن أنسى أبداً اليوم الأول في آوشفيتز، والمرة الأولى في ماوتهاوزن[2].

---

(1) تم إقناع اليهود بأنه سيتم تعقيمهم وتطهيرهم ضمن مرافق استحمام جماعية، والتي كانت في الحقيقة غرف غاز أُبيدوا فيها بشكل جماعي. (المترجمة)

(2) واحد من أكبر معسكرات الاعتقال النازية، حيث أُجبر اليهود السجناء فيه على العمل كعبيد، في ظل ظروف تسبّبت في موت العديد منهم، وأولئك الذين نجوا =

في ذلك المكان، بدأتُ بلملمتهم من قاع الهاوية العظيمة. حملتُ حطام جثثهم وقلوبهم الجميلة المقتولة. ومع ذلك، فتلك المِيْتة هي أفضل بألف مرّة من المِيْتة بالغاز. أمسكتُ بعضهم، بينما هم في منتصف الطريق نحو القاع - يا للمفارقة - أعتقد بأنني أنقذتهم، فقد حملتُ أرواحهم، فيما تهاوى ما تبقّى من وجودهم - قشرتهم المادية - لينسحق على الأرض. جميعهم خفيفو الوزن، مثل قشر الجوز الفارغ. في تلك الأماكن بدت السماء مدخّنة، تعبق برائحة موقد متفحّم. إلا أنها حافظت، مع ذلك، على برودتها ونأيها عن كل ما يجري.

أرتجفُ عندما أذكر كل ذلك - محاولاً محو إدراكي لما حصل.

أنفخُ الهواء الدافئ في يديّ، عسى أن أبثّ الدفء فيهما، إلا أن تلك مهمة مستحيلة، فالأرواح ما تزال ترتجف.

«الله».

دائماً ما أنطق بهذا الاسم عندما أفكّر بتلك الفترة.

«الله».

وأكرّر اسمه مرتين.

أقوله في محاولة عقيمة للفهم. «ولكن ليس من واجبكَ أن تفهم». أنا من أجيب نفسي. فالله لا يقول شيئاً. هل تظنون أنكم الوحيدون الذين لا يُجيبكم أبداً؟ «واجبكَ هو...» وأتوقّف عن الاستماع لنفسي، لأنني، وبصراحة، أتعبُ من نفسي. فعندما أبدأُ في التفكير على هذا النحو،

= من الأعمال الشاقة، غالباً ما أُجبروا على الاصطفاف على حافة هاوية تُعرف باسم «جدار المظليين» (بالألمانية: Fallschirmspringerwand)، حيث يكون لكل سجين الخيار، تحت تحديد السلاح، إما بأن يتم إطلاق النار عليه أو أن يقوم بدفع السجين الواقف أمامه إلى الهاوية. (المترجمة)

سارقة الكتب

يغزوني وهن شديد، وليس لديّ ترف الانغماس في أي وهن. يتوجّب عليّ الاستمرار، ذلك لأن – وعلى الرغم من أن ما سأقوله لا ينطبق على كل شخص على وجه الأرض، إلا أنه ينطبق على الغالبية العظمى منهم: الموت لا ينتظرُ أحداً، وإن فعل، فإنه عادة لا ينتظر لفترة طويلة جداً.

في 23 حزيران / يونيو من عام 1942، كانت هناك مجموعة من اليهود الفرنسيين في سجن ألماني، على الأراضي البولندية. أول شخص حملتُه كان قريباً من الباب، أما عقله فهو في سباق محموم، سرعان ما تباطأ، وتباطأ، وتباطأ...

أرجوكم صدقوني عندما أقول لكم بأنني حملتُ كل روح في ذلك اليوم كما لو أنها مولودة حديثاً. حتى أنني قبّلتُ بعض الخدود المسمّمة المتعبة. استمعتُ إلى آخر صرخاتهم، وكلماتهم الفرنسية. شاهدتُ رؤاهم عن أحبابهم، وحرّرتُهم من خوفهم.

حملتُهم كلهم بعيداً، وإن كان هناك وقتٌ شعرتُ فيه بأمسّ الحاجة إلى أي نوع من الإلهاء، فهو حتماً خلال تلك الفترة. وفي غِمار الخراب الكامل، نظرتُ إلى العالم فوقي. شاهدتُ السماء وهي تستحيل من اللون الفضي إلى الرمادي، وإلى لون المطر. حتى الغيوم حاولت عبثاً أن تُشيح بنظرها بعيداً.

في بعض الأحيان، تخيّلتُ كيف يبدو كل شيء من فوق تلك الغيوم، مُدركاً من دون أدنى شك أن الشمس شقراء، وأن الفضاء اللامتناهي بمثابة عين زرقاء عملاقة، تُراقب كل شيء.

كانوا فرنسيين، كانوا يهوداً، وكانوا أنتم.

الفصل السابع

(قاموس دودن[1] الكامل)

بطولة:

الشمبانيا والأكورديون - ثلاثية - بعض صفارات الإنذار - سارق السماء - عرض - مسير طويل إلى داخاو - السلام - الأحمق - وبعض الرجال ذوي المعاطف

(1) دودن هو قاموس للغة الألمانية، نُشر لأول مرة من قبل كونراد دودن في عام 1880، ويتم تحديثه بانتظام مع طبعات جديدة تظهر كل أربع أو خمس سنوات. (المترجمة)

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الشمبانيا والأكورديون

في صيف عام 1942، كانت بلدة مولشينغ تستعد لما هو محتوم. صحيح أن هناك أشخاصاً رفضوا التصديق بأن هذه البلدة الصغيرة الواقعة على أطراف ميونخ يمكن أن تصبح هدفاً، إلا أن غالبية السكان أدركوا جيداً بأن الموضوع ليس سوى مسألة وقت. حُدّدت الملاجئ بشكل واضح، وطُليت النوافذ باللون الأسود لكي تكتم الضوء في الليل، وأصبح الجميع يعرفون أين يقع أقرب قبو.

بالنسبة إلى هانز هوبرمان، كان لهذه التطورات العصيبة جانب إيجابي بشكل ما. ففي هذه الأوقات المؤسفة، وجد الحظ الجيد، بطريقة أو بأخرى، طريقه إلى أعمال الدهان. حيث أصبح الناس يتوقون إلى الاستعانة بخدماته. أما مشكلته الوحيدة فهي أن الطلاء الأسود يُمزج عادة مع الألوان الأخرى لإعطائها لوناً أغمق، وبالتالي فقد نفد بسرعة، وأصبح من الصعب العثور عليه. إلا أن هانز كان موهوباً كتاجر جيد، وفي جعبة التاجر الجيد العديد من الحيل. حيث استفاد من غبار الفحم ووضعه في الطلاء، وتقاضى أسعاراً زهيدة في المقابل. وبذلك فقد وضع لمساته على

سارقة الكتب

العديد من المنازل في جميع أنحاء مولشينغ ليحجب ضوء نوافذها عن أعين العدو.

رافقته ليزيل في بعض أيام عمله.

جرّا عربة الدهان في أرجاء البلدة، وتحسّسا الجوع المستشري في بعض شوارعها، وهزا رأسيهما إعجاباً بثراء شوارع أخرى. في كثير من الأحيان، وفي طريق العودة إلى البيت، تندفع نساء لا تحملن سوى أطفالهنّ وفقرهنّ إلى هانز هوبرمان لتتوسّلن إليه أن يدهن نوافذهن.

«سيدة هالا، أنا آسف، ولكن لم يبقَ لديّ طلاء أسود»، اعتاد أن يقول. وبعد أن يمضي قليلاً في طريقه، يرّق قلبه دوماً: «غداً»، يعدهنّ، «سأقوم بدهنها منذ الصباح». وعندما يحلّ صباح اليوم التالي، تجدونه هناك، منشغلاً بدهن تلك النوافذ بلا أي مقابل، أو مقابل قطعة بسكويت أو كوب دافئ من الشاي، وذلك بعد أن يكون قد عمل طوال المساء السابق، لإيجاد طريقة جديدة من أجل تحويل اللون الأزرق أو الأخضر أو البيج إلى اللون الأسود. لم يطلب يوماً منهنّ اتباع حل بديل، وتغطية نوافذهنّ ببطانيات سميكة، لأنه يعلم تماماً أنهن سيُصبحن في أمسّ الحاجة إلى هذه البطانيات عندما يحل الشتاء. كما عُرف عنه أيضاً أنه يقبل بدهن النوافذ مقابل نصف سيجارة، حيث يجلس على الدرج الأمامي للمنزل، ويتشارك السيجارة مع أهل البيت، مستمتعاً بالضحك والدخان المتصاعد من المحادثة، قبل انتقاله إلى المهمة التالية.

عندما حان الوقت للكتابة، أذكر بوضوح ما كتبته ليزيل ميمنجر عن هذا الصيف. صحيح أن الكثير من الكلمات قد تلاشت على مدى العقود، وعانت الورقة من آثار الاحتكاك في جيبي، ولكن من المستحيل أن أنسى العديد من جُملِها.

سارقة الكتب

[شهد ذلك الصيف بداية جديدة، ونهاية جديدة. عندما أنظر إلى تلك الأيام، أتذكّر يديّ الزلقتين الملطختين بالطلاء، وصوت خطوات بابا على شارع ميونخ، وأُدركُ تماماً أن قطعة صغيرة من صيف عام 1942 كانت تخصّ رجلاً واحداً فقط. فمَن غيره سيقوم بأعمال الدهان مقابل نصف سيجارة؟ إنه بابا، وتلك هي طبيعته، وأنا أحبه].

كل يوم، وخلال عملهما معاً، اعتاد هانز أن يروي قِصصه لليزيل. حدّثها عن الحرب العظمى وكيف أسهم خطُه البائس في إنقاذ حياته، واليوم الذي التقى فيه ماما. قال إنها كانت جميلة فيما مضى، وهادئة جداً في حديثها. «من الصعب أن تُصدقي ذلك، أعرف، ولكنه صحيح تماماً». كل يوم روى لها قصّة مختلقة، وغفرت له ليزيل فيما إذا كرّر القصّة نفسها أكثر من مرّة.

في مناسبات أخرى، عندما تغرق في أحلام اليقظة، اعتاد بابا أن يُربّت بريشته بخفة بين عينيها. وفيما إذا أخطأ الحكم وكان هناك الكثير من الطلاء عليها، فسترون مساراً صغيراً من الطلاء يسيل على جانب أنفها. كانت تضحك وتحاول فعل المثل به، إلا أن هانز هوبرمان رجل تصعب مجاراته في العمل. فهناك كان يمتلئ بالحياة بكل معنى الكلمة.

كلما أخذا استراحة، لتناول الطعام أو الشراب، فإنه يغتنم الفرصة ليعزف على الأكورديون، وكان هذا أكثر ما تذكّرته ليزيل. كل صباح، يجرّ بابا عربة الدهان، وتحمل ليزيل الآلة. قال لها هانز مرّة: «أن ننسى الطلاء أفضل من أن ننسى الموسيقى». عندما يتوقّفان لتناول الطعام، اعتاد أن

سارقة الكتب

يَقسم الخبز ويتشاركه معها، مع لمسة من بقايا المربى الذي حصلت عليه الأسرة ببطاقة التموين. أو شريحةِ صغيرة من اللحم. تناولا طعامهما معاً، جالسَين على علب الطلاء، ومع آخر لقمة، اعتاد بابا أن يمسح أصابعه، ويفكّ وثاق الأكورديون.

ثيابه تحمل آثار فتات الخبر، ويداه الملطختان بالدهان، تصلان إلى الأزرار، وتنفخان الحياة في المفاتيح، أو تستقران على علامة موسيقية محدّدة لفترة من الزمن. ذراعاه تمتدان وتضيقان لتُعطيا الآلة الهواء الذي تحتاجه للتنفس.

جلست ليزيل كل يوم ويديها بين ركبتيها، تحت ضوء النهار. لم تكن تريد لأي من تلك الأيام أن تنتهي، ولطالما شاهدت الظلام بخيبة أمل وهو يخطو إلى الأمام.

وفيما يتعلق بالدهان نفسه، ربما كان الجانب الأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة إلى ليزيل هو الخلط. فمثل معظم الناس، افترضت ببساطة أن بابا يجرُّ عربته إلى متجر الدهان أو متجر المعدات ويطلب اللون المناسب ويذهب. لم تُدرك أن معظم الطلاء يكون على شكل كتل، ويأخذ شكل اللبِنة. ومن ثم يتم تمديده بزجاجة شمبانيا فارغة. (زجاجات الشمبانيا، كما أوضح هانز، مثالية للعمل، حيث أن زجاجها أكثر سُمكاً بقليل من زجاجة النبيذ العادية). وبمجرد الانتهاء من ذلك، لا بدّ من إضافة الماء والطبشور والغراء، ناهيكم عن تعقيدات مطابقة اللون المناسب.

العِلم الكامن وراء عمل بابا جلب له مستوى أكبر من الاحترام. من الجيد بالطبع مشاركته الخبز والموسيقى، ولكن من اللطيف أيضاً أن تدرك ليزيل بأنه مخضرم في مهنته. الكفاءة جذابة.

من بعد ظهر أحد الأيام، وبعد بضعة أيام من شرح بابا لعملية الخلط،

سارقة الكتب

عمِلا في أحد المنازل الأكثر ثراء في شرق شارع ميونخ مباشرة. حيث نادى بابا ليزيل لتدخل إلى المنزل في وقت مبكّر من بعد ظهر ذلك اليوم. كانا على وشك الانتقال إلى عمل آخر، عندما سمعت النبرة المختلفة في صوته.

بمجرّد أن أصبحت في الداخل، صحبها والدها إلى المطبخ، حيث تجلس امرأتان ورجل أكبر سناً على كراسٍ أنيقة وجميلة للغاية. ارتدت المرأتان ملابس أنيقة. والرجل كان ذا شعر أبيض وسوالف مثل السياج. رأت ليزيل كؤوساً طويلة على الطاولة، مليئة بسائل فوّار.

«حسناً»، قال الرجل، «بصحتكم».

رفع كأسه، وحثّ الآخرين على فعل المثل.

في حرارة عصر ذلك اليوم الدافئ ذاك، ارتبكت ليزيل من برودة كأسها. نظرت إلى بابا للحصول على موافقته، وهو بدوره ابتسم وقال: «بصحتكِ يا فتاتي». قرعا كأسيهما معاً، وفي اللحظة التي رفعت فيها ليزيل الكأس إلى فمها شعرت بالمذاق الفوّار المفاجئ والحلو للشمبانيا. أجبرها رد فعلها على بصقها مباشرة على وزرة بابا، ومشاهدتها ترغو وتسيل. تبع الموقف ضحكات صدرت عن الجميع، وشجعها هانز على تجربتها مرّة أخرى. هذه المرة، كانت قادرة على ابتلاعها، والتمتع بطعم خرق القواعد. بدا طعمها رائعاً. والفقاعات داعبت لسانها ومعدتها. حتى عندما توجّهت نحو العمل التالي، أمكنها أن تشعر بدفء الشراب السحري في بطنها.

وهو يجرّ العربة، أخبرها بابا بأن هؤلاء الناس قد ادعوا بأنهم لا يملكون المال.

«لذلك طلبتَ الشمبانيا؟».

«لمَ لا؟». نظر إليها، ولم تكن عيناه يوماً بمثل هذا اللون الفضي. «لم

سارقة الكتب

أُرد أن تظني أن زجاجات الشمبانيا تُستخدم فقط لمد الطلاء». وحذرها. «فقط لا تخبري ماما بذلك. اتفقنا؟».

- هل يمكنني أن أقول لماكس؟

- بالتأكيد، يمكنكِ أن تقولي لماكس.

في القبو، عندما كتبت عن حياتها، تعهدت ليزيل بأنها لن تشرب الشمبانيا مرّة أخرى، لأن مذاقها لن يكون يوماً بجودة ذلك المذاق الذي احتسته من عصر يوم دافئ من شهر تموز / يوليو.

والأمر نفسه ينطبق على الأكورديون.

في كثير من الأحيان، أرادت أن تطلب من بابا أن يعلّمها العزف، ولكن شيئاً ما منعها دائماً، بطريقة أو بأخرى. ربما حدس ما أوحى لها بأنها لن تكون يوماً ببراعة هانز هوبرمان. بالطبع، لا يمكن حتى لأعظم عازفي الأكورديون في العالم أن يجاروه. لا يمكن لهم أبداً أن يحملوا التعابير نفسها التي ترتسم على وجه بابا، كما لن تكون هناك سجائر معلّقة على شفاههم - حصلوا عليها مقابل أعمال الدهان - ولن يمكنهم يوماً الضحك على أخطائهم كما يفعل بابا. ليس بالطريقة نفسها أبداً.

كانت تستيقظ أحياناً في ذلك القبو، وصوت الأكورديون يُداعب أذنيها، ومذاق حلاوة حرقة الشمبانيا على لسانها. تُسند في بعض الأحيان، رأسها إلى الجدار، وتتوق لأن تهيم الاصبع الدافئة التي تحمل الطلاء على جانب أنفها مرّة أخرى فحسب، أو لأن ترى يدي بابا الخشنتين.

لو أمكنها أن تعود غافلة مرّة أخرى، أن تشعر بمثل هذا الحب من دون تلك المعرفة، أن تعيش الضحكات وتذوق طعم الخبز الذي لا يحمل سوى رائحة المربى فوقه فقط.

تلك هي أسعد أيام حياتها.

سارقة الكتب

إلا أنها ساحة للقصف.

ولكن لا تخطئوا.

بجرأة وإشراق، ستستمر ثلاثية السعادة خلال الصيف وحتى الخريف.

ومن ثم ستنتهي فجأة، لأن الإشراق قد أظهر الطريق أمام المعاناة.

الأيام الصعبة قادمة، مثل موكب استعراضي.

قاموس دودن: المعنى رقم 1

Zufriedenheit – السعادة: الصفة منها سعيد، وهي تعني الشعور بالرضا والسرور.

كلمات ذات صلة: الفرح، السرور، حسن الحظ، الازدهار.

سارقة الكتب

الثلاثية

ليزيل تعمل، وورودي يركض.

كان يركض في ملعب هوبيرت أوفال، وحول المجمع السكني، وسابَق الجميع تقريباً من أسفل شارع هيمل حتى متجر السيدة ديلر، مُعطياً إياهم أسبقية متنوعة.

في مناسبات قليلة، عندما تنشغل ليزيل بمساعدة ماما في المطبخ، تنظر روزا عبر النافذة وتقول: «ماذا ينوي أن يفعل هذا الخنزير هذه المرّة؟ وهو يركض هنا وهناك».

وتتحرّك ليزيل نحو النافذة. «على الأقل لم يطلِ نفسه باللون الأسود مرّة أخرى».

«حسناً إنه غريب، أليس كذلك؟».

دوافع رودي

جرت العادة في منتصف شهر آب / أغسطس، أن يُقام كرنفال شبيبة هتلر. وفي هذه المرة، فقد عزم رودي على الفوز بأربعة

سارقة الكتب

سباقات: 1500 متر، 400 متر، 200 متر، وبالطبع سباق 100 متر. حيث أحبّ قادته الجُدد في شبيبة هتلر وأراد إرضاءهم، كما أراد أن يُثبتَ لصديقه القديم، فرانز دويتشر، شيئاً أو اثنين.

«أربع ميداليات ذهبية»، قال لليزيل من بعد ظهر أحد الأيام، عندما ركضت معه في ملعب هوبيرت أوفال. «مثل جيسي أوينز في عام 1936».

- أنتَ لستَ مهووساً به، أليس كذلك؟

تناغمت قدما رودي مع تنفسه.

- ليس حقاً، ولكن سيكون من اللطيف أن أُصبح مثله، أليس كذلك؟ وسوف أُري كل هؤلاء الأوباش الذين وصفوني بالمجنون. سوف يرون بأنني لم أكن غبياً جداً في نهاية المطاف.

- ولكن هل يمكنكَ حقاً الفوز بأربعة سباقات؟

تباطأ إلى أن توقف في نهاية المسار، ووضع يديه على وركيه. «عليّ أن أفوز بها».

تدرّب لمدة ستة أسابيع، وعندما حلّ يوم الكرنفال في منتصف شهر آب / أغسطس، سطعت الشمس بلا رحمة في كبد السماء التي خلَت من أية غيمة. واحتشد جمهور من شبيبة هتلر، والأهالي، ووفرة من القادة ذوي القمصان البنية. بدا رودي شتاينر في ذروة استعداده.

«انظري»، أشار. «ذاك هو دويتشر».

على بُعد مجموعات من الحشود، انشغل الألماني الأشقر المُجسِّد لمعايير شبيبة هتلر بإعطاء التعليمات لعضوين من شعبته. كانا يهزّان رأسيهما موافقين، وأحدهما يحمي عينيه من الشمس من خلال وضع يده مثل التحية العسكرية.

«هل تُريد أن تُسلّم عليه؟». سألته ليزيل.

«لا شكراً. سأقوم بذلك لاحقاً». عندما أفوز.

لم ينطق بالكلمتين الأخيرتين، لكنهما كانتا بالتأكيد هناك، في مكان ما بين عيني رودي الزرقاوين ويدي دويتشر الصارمتين.

تضمن الكرنفال مسيرة إلزامية حول الميدان.

وغناء النشيد الوطني.

وتقديم «تحية هتلر».

وبعدها فقط أمكنهم البدء.

عندما تم استدعاء الفئة العمرية التي يُشارك بها رودي من أجل سباق 1500 متر، تمنّت له ليزيل التوفيق بطريقة ألمانية نموذجية.

«فلتكسر عنقكَ وساقكَ، أيها الخنزير!».

تجمّع المتسابقون على الجانب البعيد من الملعب الدائري. تمطمط بعضهم، وحاول بعضهم تصفية ذهنهم، أما الباقي فهم هناك لأنهم أُجبروا على ذلك.

بجانب ليزيل، جلست والدة رودي، باربرا، مع أطفالها الأصغر سناً. «هل ترون رودي؟» سألتهم. «إنه في أقصى اليسار». باربرا شتاينر امرأة لطيفة، تحمل دائماً مظهر المرأة الممشطة حديثاً.

«أين؟». قالت إحدى الفتيات. ربما بتينا، الأصغر سناً.

«لا أستطيع أن أراه على الإطلاق».

«ذاك الأخير. لا، ليس هناك. بل هناك».

في خضم عملية تحديد مكانه، أصدر مسدس الانطلاق دخانه وصوته. واندفع صغار آل شتاينر إلى السياج.

سارقة الكتب

خلال اللفة الأولى، تصدّرت مجموعة من سبعة أولاد الملعب. في الثانية انخفض العدد إلى خمسة، وفي اللفة التالية، إلى أربعة. كان رودي المتسابق الرابع في كل لفة حتى آخر لفة. قال رجل يقف على اليمين بأن الصبي في المرتبة الثانية بدا الأفضل بينهم. كان الأطول. «انتظري»، قال لزوجته المرتبكة. «ما زال أمامه مئتا متر، وسوف يتقدّم عليهم». كان الرجل على خطأ.

أبلغ مسؤول ضخم، يرتدي قميصاً بنياً، المجموعة بأنه لم تبقَ سوى لفة واحدة. وبالنظر إلى سمنته، فمن الواضح أنه لا يعاني من نظام الحصص التموينية التقشفية. عندما أعلن بصوت عال عن اللفة الأخيرة، انطلق صبي كالطلقة متقدّماً على الجميع، لم يكن الصبي الذي في المركز الثاني هو من زاد سرعته، بل الصبي في المركز الرابع. حيث سبق الجميع بنحو مئتي متر.

ركض رودي.

لم ينظر إلى الوراء في أية مرحلة.

مثل حبل مطاط، زاد من سرعته، وأصبح بعيداً عن كل المتسابقين خلفه، إلى أن اختفت تماماً فكرة فوز أي متسابق آخر. تصدّر هو لوحده المسار بينما خاض المتسابقون الثلاثة خلفه قتالاً ضارياً لقنص الفتات واحتلال المراكز الأخرى. في المركز الأول، لم يكن هناك شيء سوى الشعر الأشقر والفضاء، وعندما عَبَر خط النهاية لم يتوقّف، ولم يرفع ذراعه. حتى أنه لم ينحنِ ليلتقط أنفاسه. اكتفى بالمشي مسافة عشرين متر أخرى، ونظر في نهاية المطاف من فوق كتفه ليُشاهد الآخرين يعبرون الخط.

في طريق العودة إلى عائلته، التقى أولاً مع قادته، ومن ثم فرانز دويتشر. هزّا رأسيهما.

سارقة الكتب

- شتاينر.

- دويتشر.

- يبدو أن كل تلك التمرينات والعقوبات التي أنزلتُها بكَ قد آتت أُكلها، أليس كذلك؟

- يبدو كذلك.

لن يبتسم حتى يفوز بالسباقات الأربعة.

نقطة مرجعية

لم يعُد رودي معروفاً بكونه طالب المدرسة المُجد فحسب، بل أصبح موضع تقدير بوصفه رياضياً موهوباً أيضاً.

بالنسبة إلى ليزيل، شاركت في سباق 400 متر. وحلّت بالمرتبة السابعة، ثم في الرابعة في سباق 200 متر. كل ما أمكنها أن تراه أمامها هو ظهور المتسابقات وضفائرهن المتطايرة. في الوثب الطويل، استمتعت بالرمال المتجمعة حول قدميها أكثر من أية مسافة قطعها، ولم يكن رمي الكرة الحديدية أعظم لحظاتها أيضاً. فقد أدركت أن هذا اليوم هو يوم رودي بامتياز.

في اللفة الأخيرة من سباق 400 متر، تقدّم من الخلف وتصدّر وفاز في النهاية، كما فاز بسباق 200 متر بشقّ الأنفس.

«هل بدأتَ تتعب؟» سألته ليزيل. كان ذلك في وقت مبكر من بعد ظهر ذلك اليوم الحماسي.

«بالطبع لا». كان يتنفس بصعوبة ويمدّد ساقيه. «ما الذي تتحدثين عنه، أيتها الخنزيرة؟ وما أدراكِ أنتِ بحق الجحيم؟».

سارقة الكتب

عندما نُودي على المتسابقين ليُشاركوا في السباقات التمهيدية لفئة 100 متر، نهض ببطء على قدميه، واتّبع درب اليافعين نحو المسار. هذه المرة، ذهبت ليزيل في إثره. «مهلاً، رودي». أمسكته من كُمّ قميصه. «حظاً طيباً».

«أنا لستُ متعباً»، قال لها.

«أعرف».

غمزها.

إلا أنه كان متعباً.

في السباق التمهيدي، تباطأ رودي ليحل في المركز الثاني، وبعد عشر دقائق من استكمال السباقات الأخرى، حان موعد السباق النهائي. بدا صبيّان آخران وكأنهما لا يُقهران، وشعرت ليزيل باستحالة فوز رودي بهذا السباق. تومي مولر، الذي حلَ ما قبل الأخير في سباقه، وقف معها عند السياج. «سوف يفوز»، أبلغها.

«أعرف».

لا، لن يفعل.

وعندما وصل المتأهّلون للتصفيات النهائية إلى خط البداية، انحنى رودي إلى ركبتيه وبدأ بحفر ثقوب في الأرض مستخدماً أصابعه. لم يُهدر المسؤول ذو القميص البني أي وقت، وسارع في المشي إليه ليُخبره بالكف عن ذلك. شاهدت ليزيل إصبع المسؤول، وهي تُشير إلى ما فعله رودي، وأمكنها رؤية التراب يسقط على الأرض عندما فرك يديه معاً.

عندما طُلب منهم التقدّم إلى الأمام، شدّت ليزيل قبضتها على السياج. انطلق أحد الصبية بشكل خاطئ، وأُطلق مسدس البداية مرّة ثانية.

كان المشاغب هو رودي. ومرة أخرى، تحدّث المسؤول معه وهزّ الصبي رأسه موافقاً. غلطة أخرى ويُحرم من السباق.

انطلقوا للمرة الثانية، وصبّت ليزيل جُلّ تركيزها على السباق، خلال الثواني القليلة الأولى، لم تستطع أن تُصدق ما تراه. سُجّل انطلاق خاطئ آخر، والرياضي نفسه هو من فعل ذلك. في رأسها، اختلقت سباقاً مثالياً، تخلّف فيه رودي قليلاً، لكنه عاد بقوة للفوز في الأمتار العشرة الأخيرة. لكن ما رأته على أرض الواقع هو حرمان رودي من المشاركة في السباق، حيث أُخرج إلى جانب المسار، وأُجبر على الوقوف هناك، بمفرده، بينما تقدّم بقية الصبية إلى الأمام.

اصطفوا وتسابقوا.

صبي ذو شعر بني صدئ وخطوة كبيرة هو من فاز بفارق لا يقل عن خمسة أمتار.

بقي رودي متسمّراً هناك.

لاحقاً، عندما اكتمل اليوم، وغربت الشمس عن شارع هيمل، جلست ليزيل مع صديقها على الرصيف.

تحدثّا عن كل المواضيع الأخرى، بدءاً من وجه فرانز دويتشر بعد الفوز، وصولاً إلى إحدى الفتيات البالغة من العمر أحد عشر عاماً، والتي أصابتها نوبة غضب بعد خسارتها في لعبة رمي القرص.

قبل أن يعودا كلٌّ إلى منزله، وصل صوت رودي، ليكشف الحقيقة لليزيل - لفترة من الزمن، جلست الحقيقة واستقرّت على كتفها، ولكن بعد بضع أفكار، وجدت طريقها إلى أذنها.

صوت رودي

فعلتُ ذلك عمداً.

سارقة الكتب

عندما سُجّل الاعتراف، سألت ليزيل السؤال الوحيد المنطقي. «ولكن لماذا يا رودي؟ لماذا قمتَ بذلك؟».

وقف واضعاً يده على وركه، ولم يُجب. لم يكن هناك شيء سوى ابتسامة عميقة ومشي بطيء أوصله إلى المنزل. لم يتحدثا أبداً عن ذلك الموضوع مرّة أخرى.

بالنسبة إلى ليزيل، تساءلت في كثير من الأحيان عن الإجابة التي سُيصرّح بها رودي فيما لو أنها حاولت بشكل أكبر إقناعه بقول الحقيقة. ربما أثبتت ثلاث ميداليات ما أراد أن يُثبته، أو ربما خاف من أن يخسر هذا السباق النهائي. في النهاية، التفسير الوحيد الذي سمحت لنفسها بسماعه كان الصوت الداخلي لفتاة في سن المراهقة.

«لأنه ليس جيسي أوينز».

فقط عندما همّت بالمغادرة لاحظت ثلاث ميداليات من الذهب المقلّد موضوعة بجانبها. طرقت على باب آل شتاينر وحملتها أمام وجهها. «لقد نسيتَ هذه».

«لا، لم أفعل». أغلق الباب وأخذت ليزيل الميداليات إلى المنزل. نزلت بها إلى القبو، وأخبرت ماكس عن صديقها، رودي شتاينر.

قالت: «إنه غبي حقاً».

«من الواضح أنه كذلك»، وافق ماكس، إلا أنني أشكُّ في أنه انخدع.

بدأ كلاهما العمل بعد ذلك، ماكس في كتاب رسوماته، وليزيل في قراءة (حامل الأحلام). كانت في المراحل الأخيرة من الرواية، حين بدأ الكاهن الشاب يُشكّك في إيمانه بعد لقائه امرأة غريبة وأنيقة.

عندما وضعته جانباً على حضنها، سألها ماكس متى تعتقد أنها ستنتهي منها.

- بضعة أيام على الأكثر.

- ومن ثم كتاب جديد؟

نظرت سارقة الكتب إلى سقف القبو. «ربما يا ماكس». أغلقت الكتاب وانحنت إلى الوراء. «إذا كنتُ محظوظة».

الكتاب التالي

ليس قاموس دودن، كما قد تتوقّعون.

لا، سيأتي القاموس في نهاية هذه الثلاثية الصغيرة، ولسنا الآن سوى في الجزء الثاني. وهو الجزء الذي تنتهي فيه ليزيل من قراءة كتاب (**حامل الأحلام**)، وتسرق قصّة تحمل عنوان (**أغنية في الظلام**). وكما هو الحال دائماً، فقد أخذته من منزل رئيس البلدية. والفرق الوحيد هو أنها ذهبت إلى ذلك الجزء من البلدة وحدها، ولم يصحبها رودي في ذلك اليوم.

كان صباحاً غنياً بالشمس والغيوم الرقيقة.

وقفت ليزيل في مكتبة رئيس البلدية، والجشع على أصابعها، وعناوين الكتب على شفتيها. هذه المرّة، شعرت براحة سمحت لها بأن تُمرّر أصابعها على طول الرفوف - في استعادة قصيرة لمجريات زيارتها الأصلية إلى الغرفة - وهمست أسماء العديد من العناوين وهي تُمرّر أصابعها عليها.

(**تحت شجرة الكرز**).

(**الملازم العاشر**).

كما هي العادة، فقد أغرتها العديد من العناوين، ولكن بعد البقاء لدقيقة جيدة أو اثنين في الغرفة، استقرّت على سرقة كتاب (**أغنية في الظلام**)، على

الأرجح لأن الكتاب أخضر اللون، ولأنها لم تمتلك حتى الآن كتاباً بهذا اللون. الكتابة المحفورة على الغلاف هي بلون أبيض، وهناك شارة صغيرة تفصل بين العنوان واسم المؤلف. حملته وخرجت من النافذة، وهي تقول شكراً في طريقها للخروج.

شعرت بغياب رودي إلى درجة كبيرة، ولكن في ذلك الصباح تحديداً، ولسبب ما، كانت سارقة الكتب أكثر سعادة لوحدها. باشرت على الفور قراءة الكتاب بجوار نهر أمبر، بعيداً بما فيه الكفاية عن المقر المعتاد لفيكتور تشيمل والعصابة السابقة لآرثر بيرغ. لم يأتِ أحد، ولم يُقاطعها أحد. قرأت ليزيل أربعة فصول قصيرة جداً من كتاب (**أغنية في الظلام**)، وكانت سعيدة.

شعرت بالرضا والسرور المتولّدين عن السرقة الجيدة.

وبعد أسبوع، اكتملت ثلاثية السعادة.

في الأيام الأخيرة من شهر آب / أغسطس، وصلت هدية، أو في الواقع، لوحظت.

في وقت متأخرّ من بعد الظهر، راقبت ليزيل كريستينا مولر وهي تقفز على الحبل في شارع هيمل. انزلق رودي شتاينر وتوقّف أمامها على دراجة شقيقه. «هل لديكِ بعض الوقت؟». سأل.

قالت مستغربة: «لماذا؟».

«أعتقد أنه من الأفضل لكِ أن تأتي». ترك الدراجة وذهب لإحضار الأخرى من المنزل لتركبها ليزيل.

ذهبا إلى شارع جرانده، حيث توقّف رودي وانتظر.

«حسناً»، سألت ليزيل، «ما الأمر؟».

أشار رودي، «دقّقي النظر».

تدريجياً، تحرّكا إلى موقع أفضل، وراء شجرة التنوب الزرقاء. ومن خلال فروعها الشائكة، لاحظت ليزيل النافذة المغلقة، ومن ثم الشيء المسند إلى الزجاج.

«هل هذا...؟».

هزّ رودي رأسه موافقاً.

ناقشا المسألة لعدة دقائق قبل أن يتفقا على ضرورة القيام بتلك الخطوة. من الواضح أنه قد وُضع هناك عمداً، وإن كان فخاً، فالمسألة تستحق المجازفة.

من بين الفروع الجافة، قالت ليزيل: «سارقة الكتب قادرة على فعل ذلك».

أسقطت الدراجة، تفحّصت الشارع، وعبرت الفناء. دُفنت ظلال الغيوم بين العشب الداكن: هل بدت مثل ثقوب يمكن للمرء السقوط فيها، أو بقع من الظلام الدامس تُتيح الاختباء فيها؟ أوحى لها خيالها بالانزلاق على واحدة من تلك الثقوب وصولاً إلى البراثن الشريرة لرئيس البلدية نفسه. ألهتها مثل هذه الأفكار والتخيّلات، ووصلت إلى النافذة بسرعة أكبر مما كانت تتمنى.

ويتكرّر من جديد سيناريو سرقة كتاب (**رجل الصافرة**).

أعصابها مشدودة.

وتيارات صغيرة من العرق تموج تحت إبطيها.

عندما رفعت رأسها، أمكنها قراءة عنوان الكتاب المُسند إلى الزجاج (**قاموس دودن الكامل**). بحذر، استدارت نحو رودي، ونطقت الكلمتين بهدوء. «إنه قاموس». حرّك كتفيه في حيرة من أمره، ورفع ذراعيه تاركاً القرار لها.

أما هي فقد عملت بشكل منهجي، حرّكت شبّاك النافذة صعوداً، وتساءلت كيف سيبدو كل هذا من داخل المنزل. تصوّرت مشهد يدها السارقة، وهي تمتد لترفع النافذة حتى يسقط الكتاب، الذي بدا أن يستسلم ببطء، مثل شجرة تسقط.

حصلت عليه أخيراً.

بالكاد صدر أي اضطراب أو صوت.

وقع الكتاب ببساطة نحوها وأمسكته بيدها الحرة. حتى أنها أغلقت النافذة، بلطف وسلاسة، ثم استدارت ومشت مرّة أخرى عبر حُفر الغيوم.

«رائع»، قال رودي وهو يُعطيها الدراجة.

«شكراً».

تحرّكا نحو الزاوية. لكن ذلك الشعور الغريب راود ليزيل مرّة أخرى. شعور بأن أحداً ما يُراقبها. صوت داخلي حثّها مرتين:

انظري إلى النافذة. انظري إلى النافذة.

مثل حكة تتطلب ظفراً، شعرت برغبة جامحة في التوقّف.

وضعت قدميها على الأرض، واستدارت لمواجهة منزل رئيس البلدية ونافذة المكتبة، وبالفعل رأت ما كانت تنتظره.

بالتأكيد، كان ينبغي لها توقّع حدوث هذا، لكنها لم تتمكن من إخفاء الصدمة التي اشتعلت في داخلها عندما رأت زوجة رئيس البلدية واقفة وراء الزجاج. بدت ضبابية، إلا أنها كانت هناك. شعرها منفوش كما هو دائماً. وعيناها الجريحتان، وفمها، وتعابير وجهها مشدودة لتراقب ما يحدث.

ببطء شديد، رفعت يدها ملوّحة إلى سارقة الكتب الواقفة في الشارع. لوّحت بلا حراك.

في حالة صدمتها، لم تقل ليزيل شيئاً – لرودي، أو لنفسها. تمالكت نفسها فقط ورفعت يدها ملوحة لزوجة رئيس البلدية في النافذة.

قاموس دودن: المعنى رقم 2

Verzeihung – الغفران: التوقّف عن الشعور بالغضب أو الحقد أو الاستياء.

كلمات ذات صلة: الصفح، المسامحة، الرحمة.

في الطريق إلى البيت، توقّفا عند الجسر وتفحّصا الكتاب الأسود الثقيل. وبينما هو يُقلّب الصفحات، وجد رودي رسالة. التقطها ونظر ببطء نحو سارقة الكتب. «إنها تحمل اسمكِ». تمنّت ليزيل لو أنها تستطيع الهرب، مثل النهر الذي لا يعرف السكون.

حملت ليزيل الورقة.

الرسالة

[عزيزتي ليزيل،

أعلمُ بأنكِ ترين بأنني مثيرة للشفقة وبغيضة (ابحثي عن معنى هذه الكلمة إذا كنتُ لا تعرفينها)، ولكن ينبغي أن أقول لكِ بأنني لستُ غبية جداً لدرجة ألا ألاحظ آثار أقدامك في المكتبة. عندما لاحظتُ غياب أول كتاب، ظننتُ أنني غيّرتُ مكانه ببساطة، ولكن بعد ذلك رأيتُ آثار قدمين على الأرض.

وقد جعلني ذلك أبتسم.

في الحقيقة، لقد شعرتُ بالسعادة لأنكِ أخذتِ ما هو حق لكِ.

ثم ارتكبتُ خطأ، حيث ظننتُ بأن تلك هي نهاية المسألة.

عندما عدتِ مرّة أخرى، كان عليّ أن أغضب، إلا أنني لم أكن كذلك. سمعتُ دخولك الأخير، إلا أنني قررتُ أن أتركِكِ وشأنِكِ. فأنتِ لا تأخذين سوى كتاب واحد في كل مرّة، وسوف يستغرق الأمر ألف زيارة حتى تختفي جميعها. أملي الوحيد هو أن تطرقي الباب الأمامي وتدخلي المكتبة بطريقة أكثر تحضراً.

مرّة أخرى، أنا آسفة لأنه لم يعد في إمكاننا الاستعانة بخدمات أمكِ بالتبني.

وأخيراً، آمل أن تجدي هذا القاموس مفيداً وأنتِ تقرئين كتبكِ المسروقة.

مع خالص التقدير،

إلسا هيرمان]

«من الأفضل أن نذهب إلى المنزل»، اقترح رودي، ولكن ليزيل لم تتحرّك.

- هل يمكنكَ الانتظار هنا لمدة عشر دقائق؟

- بالتأكيد.

كافحت ليزيل بالصعود إلى المنزل رقم 8 في شارع جرانده. وقفت على الأرض المألوفة للمدخل الأمامي. الكتاب مع رودي، إلا أنها حملت الرسالة وفركت أصابعها على الورقة المطوية بينما أصبحت خطواتها أثقل. حاولت أربع مرات الطرق على الباب، إلا أنها لم تجرؤ على القيام بذلك. أقصى ما فعلته هو أن تضع قبضتها بلطف على دفء الخشب.

مرّة أخرى، وجدها شقيقها.

من أسفل الدرج، لاحظت أن ركبته تتعافى بشكل جيد، وقال: «هيا يا ليزيل، اطرقي الباب».

وهي تهرب للمرة الثانية في ذلك اليوم، أمكنها أن ترى الشكل البعيد لرودي عند الجسر. مسّدت الرياح شعرها. وداست قدماها على الدواستين.

ليزيل ميمنجر مجرمة.

ولكن ليس لأنها سرقت حفنة من الكتب عبر نافذة مفتوحة.

كان ينبغي لكِ أن تطرقي الباب، فكّرت، وعلى الرغم من الثقل الهائل للشعور بالذنب الذي اكتسحها، إلا أنها شعرت أيضاً بأثر ضعيف لضحكة.

وهي تقود دراجتها، حاولت أن تقول لنفسها شيئاً.

أنتِ لا تستحقين أن تكوني بهذه السعادة يا ليزيل. أنت لا تستحقين ذلك حقاً.

هل يمكن للشخص أن يسرق السعادة؟ أم أنها مجرد خدعة إنسانية شيطانية داخلية أخرى؟

حاولت ليزيل نفض كل أفكارها عنها. عبَرت الجسر وأخبرت رودي أن يُسرع وألا ينسى الكتاب.

ذهبا إلى المنزل على دراجتيهما الصدئتين.

تجوّلا على دراجتيهما على امتداد بضعة أميال، من الصيف وحتى الخريف، ومن الليالي الهادئة إلى التنفّس الصاخب لقصف ميونخ.

صوت صفارات الإنذار

خلال الصيف، كسِب هانز بعض المبالغ الصغيرة من هنا وهناك، وتمكّن من شراء جهاز راديو مستعمل. «بهذه الطريقة»، قال، «يُمكننا أن نسمع متى تبدأ الغارات حتى قبل بدء صفارات الإنذار. فهم يبثّون صوت الوقواق ومن ثم يُعلنون المناطق المعرضة للخطر».

وضعه على طاولة المطبخ وقام بتشغيله. حاولوا أيضاً جعله يعمل في القبو، من أجل ماكس، ولكن لم تحمل مكبرات الصوت هناك سوى أصوات ساكنة ومتقطعة.

في شهر أيلول / سبتمبر، لم يسمعوا الراديو وهم نيام.

إما أن الراديو كان بالفعل نصف معطّل، أو طغى عليه صوت صفارات الإنذار المدّوي.

ربّتت يد بلطف على كتف ليزيل وهي نائمة.

تبع ذلك صوت بابا، بدا خائفاً.

«ليزيل، استيقظي. يجب أن نذهب».

سارقة الكتب

نتيجة الارتباك المتولّد من إيقاظها المفاجئ، بالكاد استطاعت ليزيل فهم تعابير وجه بابا. وكان الشيء الوحيد المرئي حقاً هو صوته.

توقفوا في الممر.

«انتظِرا»، قالت روزا.

وعبر الظلام، هرعوا ثلاثتهم إلى القبو.

المصباح كان مضاءً.

خرج ماكس من وراء علب الطلاء والأوراق المكوّمة. وجهه متعب. علّق ابهاميه بعصبية على سرواله. «حان الوقت للذهاب، أليس كذلك؟»

سار هانز إليه. «نعم، حان الوقت». صافح يده وربّت على ذراعه. «سنراك عندما نعود، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

عانقته روزا، وكذلك ليزيل.

«وداعاً، ماكس».

قبل أسابيع، ناقشوا بالفعل إمكانية بقائهم جميعاً معاً في قبوهم، أو خروج ثلاثتهم إلى الشارع، وتوجههم إلى ملجأ عائلة فيدلر. أقنعهم ماكس بضرورة اتخاذ الخيار الثاني، قائلاً: «لقد قال المسؤول الذي تفحّص القبو بأنه ليس عميقاً بما فيه الكفاية. لقد سبق وأن عرّضتكم لخطر كاف».

أومأ هانز حينها موافقاً. «من المحزن ألا تستطيع مرافقتنا. إنه أمر مخزِ».

«هذا الواقع، وليس باليد حيلة».

في الخارج، صرخت صفارات الإنذار على المنازل، وجاء الناس يتراكضون، ويتدافعون ويتخبّطون وهم يخرجون من منازلهم. وقف الليل

سارقة الكتب

شاهداً. وكذلك وقف الناس ليشاهدوا الليل في المقابل، في محاولة للعثور على الطائرات وهي تجوب السماء.

استحال شارع هيمل إلى موكب من الأشخاص المتشابكين، وهم يتصارعون مع ممتلكاتهم الثمينة. في بعض الحالات كان طفلاً رضيعاً، في أخرى، كومة من ألبومات الصور أو صندوق خشبي. حملت ليزيل كتبها بين ذراعيها وضمّتها إلى صدرها. أما السيدة هولتزابفيل فقد حملت حقيبة سفر ومشت بصعوبة على الرصيف بقدميها ذات الخطوات الصغيرة.

بابا، الذي نسي كل شيء - حتى الأكورديون - هرع الى الوراء وأفلتَ الحقيبة من قبضتها. «يا يسوع، ومريم، ويوسف! ماذا تحملين هنا؟ هل هو سندان الحداد؟»، سارت السيدة هولتزابفيل بجانبه: «إنها الأشياء الضرورية».

يعيش آل فيدلر على بعد ستة منازل. وهي عائلة مكونة من أربعة أفراد، جميعهم ذوو شعر بلون القمح وعيون ألمانية جيدة. والأهم من ذلك، لديهم قبو لطيف، وعميق، انحشر فيه 22 شخصاً، بما في ذلك عائلة شتاينر، والسيدة هولتزابفيل، وبيفيكوس، وشاب، وعائلة تحمل اسم جينسون. من أجل المصلحة العامة، تم الفصل بين روزا هوبرمان والسيدة هولتزابفيل، فالحالات الطارئة تفرض نفسها فوق بعض المناوشات البسيطة.

تدلّى ضوء خفيف من السقف، وبدت الغرفة داكنة وباردة. الجدران الخشنة الناتئة وكزت الناس في ظهورهم وهم يقفون ويتحدثون. وتسرّب الصوت المكتوم لصفارات الإنذار من مكان ما. أمكنهم أن يسمعوا نسخة مشوهة منه، والتي وجدت طريقها إلى الداخل بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من المخاوف الكبيرة المتعلقة بنوعية الملجأ، حيث من المفترض ألا ينفذ إليه أدنى صوت، إلا أنه أمكنهم على الأقل أن يسمعوا صفارات

الإنذار الثلاث التي تُشير إلى نهاية الغارة، وتُبشّر بالسلامة. لم يكونوا في حاجة إلى لوفت شوتسز فارته - مشرف الغارة الجوية، ليُخبرهم بنهاية عذابهم.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يجد رودي ليزيل ويقف بجانبها. كان شعره مشعثاً.

«أليس هذا رائعاً؟».

لم تستطع مقاومة بعض السخرية. «إنه جميل جداً».

«آه، هيا، ليزيل، لا تكوني على هذا النحو. ما هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث، بصرف النظر عن حقيقة هرسنا، أو قلِينا، أو أيا كان ما تفعله القنابل؟».

نظرت ليزيل حولها، متأمّلة الوجوه المرتبكة. وبدأت بتجميع قائمة بالأشخاص الذين يبدون أكثر خوفاً.

قائمة الخوف

1. السيدة هولتزابفيل.
2. السيد فيدلر.
3. الشاب.
4. روزا هوبرمان.

انفرجت عينا السيدة هولتزابفيل على مصراعيهما. جسدها النحيل مشدود الأمام، وفمها أخذ شكل دائرة. أما السيد فيدلر فقد شغَل نفسه بسؤال الناس، مراراً وتكراراً، عن شعورهم. الشاب، رولف شولتز، انطوى على نفسه في الزاوية، وتحدّث بصمت إلى الهواء من حوله، وهو

سارقة الكتب

يوبّخه ويقرّعه – ويداه مغروزتان في جيبيه. اهتزّت روزا في مكانها ذهاباً وإياباً، برقة كبيرة. «ليزيل»، همست، «تعالي إلى هنا». عانقت الفتاة من الخلف، وشدّت قبضتها عليها. غنّت أغنية ولكن بصوت هادئ لدرجة لم تستطع ليزيل فهم كلماتها. وُلدت النغمات على أنفاسها، وماتت على شفتيها. بجانبهما، بقي بابا هادئاً بلا حراك. في لحظة ما، وضع يده الدافئة على رأس ليزيل البارد، كما لو أنه يقول، سوف تعيشين، وكان على حق.

إلى يسارهم، وقف أليكس وباربرا شتاينر مع أصغر أطفالهم، بتينا وإيما. تعلقت الفتاتان بساق أمهما اليمنى. وحملق الصبي الأكبر، كيرت، أمامه في وقفة مثالية لشبيبة هتلر، وهو يمسك بيد كارين، التي بدت صغيرة بالنسبة إلى عمرها – طفلة ذات سبع سنوات. وقد لعبت آنا ماري، البالغة من العمر 10 سنوات، بالسطح المليء بالنتوءات من الجدار الإسمنتي.

على الجانب الآخر من آل شتاينر، جلس بيفيكوس، وعائلة جينسون.

منع بيفيكوس نفسه من الصفير.

ضم السيد جينسون، الملتحي، زوجته بإحكام، بينما تناوب طفليهما على الصمت والكلام. في بعض الأحيان، انتقدا بعضهما البعض، لكنهما حرصا على تفادي المشاكل بمجرّد أن يبدأ الموضوع بالتحوّل إلى جدال حقيقي.

بعد مرور عشر دقائق أو نحو ذلك، كان أكثر ما ميّز القبو هو انعدام الحركة. حيث التحمت الأجساد معاً – فقط أقدامهم غيّرت موقعها أو موضع الضغط عليها. وقد كبّل السكون وجوههم. نظروا إلى بعضهم البعض وانتظروا.

سارقة الكتب

قاموس دودن: المعنى رقم 3

Angst – الخوف: مشاعر مزعجة، وقوية ناجمة عن ترقّب أو إدراك الخطر.

كلمات ذات صلة: الذعر، الرعب، الخشية، الفزع.

في الملاجئ الأخرى، قام الملتجئون بغناء النشيد الوطني (ألمانيا فوق كل شيء)، أو تجادلوا بأنفاسهم الذابلة. لم تحدث مثل هذه الأمور في ملجأ آل فيدلر. في ذلك المكان، لم يكن هناك سوى الخوف والقلق، والأغنية الميتة على شفاه روزا هوبرمان.

قبل أن تُشير صفارات الإنذار إلى نهاية الغارة، انتزع أليكس شتاينر – الرجل ذو الوجه الخشبي المتيبّس – الأطفالَ من جوار قدمي زوجته، ووصل إلى يد ابنه الحرة وأمسكها. أما كيرت، وبجموده وتحديقه اللامتناهي، شددّ قليلاً من قبضته على يد شقيقته. وخلال وقت قصير، أمسك الجميع في القبو بأيدي بعضهم البعض، فوقفت مجموعة من الألمان في دائرة متعرجة. ذابت الأيدي الباردة بين مثيلتها الدافئة، وفي بعض الحالات، نُقل الشعور بنبض إنسان آخر، عبر طبقات من الجلد الشاحب والمتصلّب. بعضهم أغلق عينيه، بانتظار زوالهم النهائي، أو أملهم بوصول إشارة تُبشّر بانتهاء الغارة أخيراً.

هل يستحّقون حقاً مصيراً أفضل من هذا المصير؟

كم هو عدد الذين اضطهدوا الآخرين بكل نشاط، وانتشوا بنظرة هتلر، وكرّروا جمله، وفقراته، ومؤلفاته؟ هل كانت روزا هوبرمان مسؤولة؟ تلك التي تُخفي يهودياً؟ أم هانز؟ هل كانوا جميعاً يستحقون الموت؟ وماذا عن الأطفال؟

سارقة الكتب

الإجابة عن هذه الأسئلة تُثير اهتمامي كثيراً، على الرغم من أنه لا يمكن لي أن أسمح لها بإغوائي. أعلم فقط أن جميع هؤلاء الناس قد شعروا بوجودي في تلك الليلة، باستثناء الأطفال الأصغر سناً. فقد كنتُ الفكرة التي عبرت أذهان الجميع، بينما تخطو قدماي الخياليتان إلى مطبخ هربرت فيدلر، وتعبران الممر، وصولاً إلى ذلك الملجأ المزدحم.

وكما هو الحال غالباً مع البشر، فعندما أقرأ عنهم في كلمات سارقة الكتب، لا بدّ لي من أُشفق عليهم، وإن لم يكن بالقدر نفسه من إشفاقي على أولئك الذين حملتُهم من مختلف معسكرات الاعتقال النازية في ذلك الوقت. بالطبع، استحقّ الألمان في الأقبية الشفقة، ولكن كانت لديهم على الأقل فرصة ما. فذلك القبو لم يكن غرفة استحمام، ولم يتم إرسالهم إلى هناك للاستحمام. بالنسبة إلى هؤلاء الناس، ما تزال الحياة قابلة للتحقّق.

في الدائرة المتعرجة، مرّت الدقائق ثقيلة.

أمسكت ليزيل يد رودي، ويد ماما.

أحزنتها فكرة واحدة فقط.

ماكس.

كيف يمكن لماكس أن ينجو إذا وصلت القنابل إلى شارع هيمل؟

تفحّصت قبو آل فيدلر من حولها. بدا أكثر ثباتاً وعمقاً من قبو منزلها.

بصمت، سألت بابا.

هل تفكّر فيه أيضاً؟

وسواء أدركَ السؤال الصامت أم لا، فقد أعطى الفتاة إيماءة سريعة. بعد بضع دقائق، وصل صوت صفارات الإنذار الثلاث ليُعلن السلام المؤقت.

غرق الأشخاص المكومين في قبو المنزل رقم 45 في شارع هيمل بشعور لا يوصف من الراحة.

البعض أغلقوا عيونهم وفتحوها مرّة أخرى غير مصدّقين.

مُرّرت سيجارة فيما بينهم، وفقط عندما وجدت طريقها إلى شفتي رودي شتاينر، انتزعها والده بعيداً. «هذه ليست لكَ، يا جيسي أوينز».

احتضن الأطفال آباءهم، واستغرقهم الأمر عدّة دقائق لكي يدركوا جميعاً أنهم على قيد الحياة، وأنهم سيبقون على قيد الحياة. بعدها فقط، صعدت أقدامهم الدرجات، وصولاً إلى مطبخ هربرت فيدلر.

في الخارج، عبر موكب من الناس الشارع بصمت. نظر الكثيرون منهم إلى السماء وحمدوا الله على نجاتهم.

عندما وصل آل هوبرمان إلى المنزل، توجّهوا مباشرة إلى القبو، ولكن يبدو أن ماكس ليس هناك. كان المصباح صغيراً وبرتقالياً ولم يتمكّنوا من رؤيته أو سماع صوته.

- ماكس؟

- لقد اختفى.

- ماكس، هل أنتَ هنا؟

- أنا هنا.

ظنّوا في البداية أن الكلمات جاءت من وراء كومة الأوراق وعلب الطلاء، لكن ليزيل رأته أولاً - جالساً أمامهم. وجهه المرهق مموّه بين مواد الرسم والنسيج، وقد أصاب عينيه وشفتيه الذهول.

عندما تحرّكوا، تحدّث مرّة أخرى.

قال: «لم أستطع تمالك نفسي».

سارقة الكتب

روزا هي التي أجابته، وانحنت لتكون على مستوى نظره.

«ما الذي تتحدث عنه، يا ماكس؟».

«أنا...» كافح للرد. «عندما أصبح كل شيء هادئاً، ذهبتُ إلى الممر، كانت الستائر في غرفة المعيشة مفتوحة قليلاً... وأمكنني أن أرى العالم الخارجي. راقبته، لبضع ثوان فقط». في الحقيقة، هو لم يرَ العالم الخارجي منذ ما يزيد على اثنين وعشرين شهراً.

لم يكن هناك غضب أو توبيخ.

بابا هو الذي تحدّث هذه المرة.

«وكيف بدا لكَ؟».

رفع ماكس رأسه بحزن كبير، ودهشة كبيرة. «رأيتُ النجوم»، قال. «وقد أحرقت عينيّ».

أربعتهم.

اثنان واقفان. وآخران جالسان.

كل منهم قد رأى شيئاً أو اثنين في تلك الليلة.

هذا المكان هو القبو الحقيقي. هو الخوف الحقيقي. تمالكَ ماكس نفسه ووقف ليعود إلى ما وراء الأوراق المكدّسة. تمنّى لهم ليلة هانئة، وقرّر ألا يختبئ تحت الدرج، عندما استأذنت ليزيل من ماما، وبقيت معه حتى الصباح. انغمست هي في قراءة كتاب (**أغنية في الظلام**)، وانشغل هو بالرسم والكتابة.

[من نافذة تُطلّ على شارع هيمل]، كتب ماكس، [أضرمت النجومُ النارَ في عينيّ].

سارق السماء

كما اتّضح لاحقاً، لم تكن الغارة الأولى غارة حقيقية أبداً. فلو انتظر الناس رؤية الطائرات، لوقفوا هناك طوال الليل بلا طائل. وهذا يُبرّر حقيقة أن طائر الوقواق لم يزعق من الراديو ليحذرهم. وأفادت صحيفة مولشينغ إكسبريس أن أحد مُشغّلي برج المدفعية المضادة للطائرات قد بالغ قليلاً. على الرغم من أنه قد أقسم بأنه سمع حشرجة الطائرات وشاهدها في الأفق. عندها تصرّف على هذا الأساس، وأرسل الخبر.

«ربما فعل ذلك عن قصد»، قال هانز هوبرمان. «فهل هناك من يرغب في الجلوس في برج مدفعية مضادة للطائرات، وإطلاق النار على طائرات تحمل القنابل؟».

يبدو كلامه منطقياً. واصل ماكس قراءة المقال في القبو، حيث ذُكر أن الرجل ذا المخيّلة الغريبة قد أُقيل من واجبه الأصلي، ومصيره على الأرجح الخدمة في مكان آخر.

«حظاً سعيداً له»، قال ماكس. وبدا أنه تفهّم موقفه، وهو ينتقل إلى حل الكلمات المتقاطعة.

الغارة التالية كانت حقيقية.

في ليلة 19 أيلول / سبتمبر، زعق الوقواق من الراديو، وأعقبه صوت إذاعي رخيم وعميق أدرجَ مولشينغ كهدف محتمل.

مرّة أخرى، تحوّل شارع هيمل إلى سرب من الأشخاص المرتبكين، ومرة أخرى، ترك بابا الأكورديون خلفه. ذكّرته روزا بأخذه، لكنه رفض. «لم آخذه آخر مرّة»، أوضح، «وها قد عِشنا». من الواضح أن الحرب قد أعمت التمييز بين المنطق والخرافات.

تبِعهم هواء غريب الى قبو آل فيدلر. «أعتقدُ بأن الأمر حقيقي هذه الليلة»، علّق السيد فيدلر. وأدرك الأطفال بسرعة أن ذويهم أكثر خوفاً هذه المرة، وتفاعلوا بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها، حيث بدأ أصغرهم بالبكاء والعويل، وبدت الغرفة وكأنها تتأرجح.

حتى من القبو، أمكنهم سماع أصوات القنابل بشكل مبهم. وضغط الهواء يُطبق عليهم كما لو أن السقف سيسحق الأرض. أُخذت قضمة من شوارع مولشينغ الفارغة.

تمسّكت روزا بشراسة بيد ليزيل.

وصوت بكاء الأطفال يصمّ الآذان.

حتى رودي وقف منتصباً تماماً، وتظاهر بعدم المبالاة، وزاد على توتره توتراً. تحاربت الأيدي والأكواع لاحتلال مساحة في القبو. حاول بعض البالغين تهدئة الأطفال. وفشل البعض الآخر في تهدئة أنفسهم.

«أسكِت هذا الطفل!». صرخت السيدة هولتزابفيل، إلا أن جُملتها لم تكن سوى صوت بائس آخر في خضم الفوضى الدافئة للملجأ. انسكبت من عيون الأطفال دموع ممزوجة بالأوساخ. وقُلّبت وطُهيت رائحة التنفس الليلي، والعرق، والملابس المهترئة فيما أصبح الآن مِرجلاً يغصّ بالبشر.

سارقة الكتب

على الرغم من أنهما على مقربة من بعضهما البعض، اضُطرت ليزيل إلى المناداة. «ماما؟»ـ ومرة أخرى. «ماما، أنتِ تسحقين يدي!».

- ماذا؟

- يدي!

أفلتتها روزا. وللحصول على بعض الراحة، ولإسكات ضجيج القبو، فتحت ليزيل إحدى كتبها وبدأت القراءة. كان الكتاب الموجود على رأس كومة الكتب هو (رجل الصافرة)، حيث قرأت بصوت عال لمساعدتها على التركيز. خدّرت الفقرة الافتتاحية أُذنيها.

«ماذا قلتِ؟». هدرت ماما، لكن ليزيل تجاهلتها. وظلّت تُركّز على الصفحة الأولى.

عندما انتقلت إلى الصفحة الثانية، انتبه رودي. وأنصتَ بشكل تام لما تقرأه ليزيل، كما وجّه شقيقه وشقيقاته ليفعلوا الشيء نفسه. اقترب هانز هوبرمان وأنصتَ، وسرعان ما بدأ الهدوء ينزف من خلال القبو المزدحم. بوصولها للصفحة الثالثة، صمتَ الجميع باستثناء ليزيل.

لم تجرؤ على رفع بصرها، إلا أنها شعرت بعيونهم الخائفة المعلّقة عليها وهي تتنفس الكلمات وتنطقها. إنه صوت عزف النغمات في داخلها وهو، كما يُقال، صوت الأكورديون الخاص بكل إنسان.

أثار صوت قلبِ الصفحات حماستهم.

وتابعت ليزيل القراءة.

على مدى عشرين دقيقة على الأقل، تابعت سرد القصّة. هدأ الأطفال الأصغر سناً لجرس صوتها، وتخيّل الجميع رجل الصافرة وهو يفرّ من مسرح الجريمة. إلا أن ليزيل لم تفعل ذلك.

رأت سارقة الكتب ميكانيكا الكلمات فقط - أجسادها التي تقطّعت

بها السبل على الورق، مستسلمة لصوتها. في مكان ما أيضاً، في الفجوات بين نقط النهاية وبدايات الجمل التالية، كان ماكس في رأسها أيضاً. تذكّرت عندما قرأت له وهو مريض. هل هو في القبو؟ تساءلت. أم أنه يسترق النظر إلى السماء مرّة أخرى؟

فكرة جميلة

الأولى سارقة كتب، والآخر سارق السماء.

ترقّب الجميع اهتزاز الأرض.

تلك حقيقة غير قابلة للتغيير، ولكن على الأقل ساعدت فتاة تقرأ كتاباً على صرف انتباههم قليلاً عن تلك الحقيقة المرّة. أحد الصبية الأصغر سناً كان يُفكّر في البكاء مرّة أخرى، إلا أن ليزيل توقفت في تلك اللحظة وقلّدت بابا، أو حتى رودي في هذا الموضوع: غمزته واستأنفت القراءة.

فقط عندما تسرّبت صفارات الإنذار إلى القبو مرّة أخرى قاطعها شخص ما. «نحن آمنون»، قال السيد جينسون.

«صه!» قالت السيدة هولتزابفيل.

رفعت ليزيل نظرها. «لم تبقَ سوى فقرتين حتى نهاية الفصل»، قالت ذلك وواصلت القراءة من دون استعراض أو عجلة إضافية. الكلمات فقط هي ما ملأ المكان.

قاموس دودن: المعنى رقم 4

Wort – كلمة: وحدة لغوية ذات معنى: وعد، أو ملاحظة، أو بيان، أو محادثة قصيرة.

كلمات ذات صلة: مُصطلح، اسم، تعبير.

بدافع الاحترام، أبقى البالغون الجميعَ هادئين، وأنهت ليزيل الفصل الأول من كتاب (رجل الصافرة).

في طريقهم إلى أعلى الدرج، هرع الأطفال مارّين بجانبها، إلا أن العديد من كبار السن - حتى السيدة هولتزابفيل، وبيفيكوس[1] (يا للصدفة العجيبة! بالنظر إلى عنوان الكتاب الذي قرأته لهم) - شكروا الفتاة لإلهائهم عن قلقهم. فعلوا ذلك وهم يخرجون بسرعة من المنزل، لاستكشاف ما إذا كان شارع هيمل قد أُصيب بأي ضرر.

شارع هيمل لم يُمسّ.

علامة الحرب الوحيدة هي سحابة من الغبار المُهاجر من الشرق إلى الغرب. نظرت الغيمة عبر النوافذ، في محاولة لإيجاد وسيلة للدخول، وبينما هي تتكثّف وتنتشر، حوّلت سرب البشر إلى مجرّد أشباح.

لم يعد هناك أشخاص في الشارع.

بل هناك أشباح تحمل حقائبها.

في المنزل، أخبر بابا ماكس بكل ما رآه في الشارع. «ما زال هناك ضباب ورماد - أعتقد أنهم سمحوا لنا بالخروج أبكر من اللازم». نظر إلى روزا. «هل يجب أن أخرج؟ لأرى ما إذا كانوا في حاجة إلى مساعدة في المواقع التي سقطت فيها القنابل؟».

لم يُعجب الموضوع روزا. «لا تكن غبياً»، قالت. «ستختنق بالغبار. لا، لا، أيها الخنزير، ستبقى هنا». وخطرت لها فكرة. نظرت إلى هانز بنظرة جدّية جداً. وفي الواقع، فقد طفح وجهها بالفخر والكبرياء. «ابق هنا وأخبِره عن الفتاة». ارتفع صوتها، قليلاً فقط. «وعن الكتاب».

منحها ماكس بعض الاهتمام الإضافي.

---

(1) اسم لأحد أنواع الطيور.

سارقة الكتب

«كتاب (رجل الصافرة)»، أبلغته روزا. «الفصل الأول». وشرحت له بالضبط ماذا حدث في الملجأ.

وقفت ليزيل في زاوية من القبو، ونظر ماكس إليها وهو يفرك يده على طول فكه. شخصياً، أعتقد أن هذه هيَ اللحظة التي وُلدت فيها فكرة موضوع رسمه التالي.

(قاطفة الكلمات).

تخيّل الفتاة تقرأ في الملجأ. لا بدّ وأنه تخيّلها وهي تسلّم الكلمات حرفياً إلى مَن كانوا موجودين. مع ذلك، وكما هو الحال دائماً، لا بدّ وأنه رأى أيضاً ظل هتلر. ربما سمع بالفعل وقع خطاه القادمة نحو شارع هيمل والقبو.

بعد وقفة طويلة، بدا مستعداً للتحدّث، إلا أن ليزيل سبقته إلى ذلك.

«هل رأيتَ السماء الليلة؟».

«لا». نَظر ماكس إلى الجدار وأشار. وعلى الجدار، شاهدوا جميعاً الكلمات والصورة التي رسمها منذ ما يزيد على سنة – الحبل والشمس التي تقطر باللون الأصفر. «لم أرها سوى في تلك الليلة فقط». بعدها، لم يتحدث أحد. لم يكن هناك سوى الأفكار المتزاحمة.

لا يمكنني التأكّد ممّا جال في فكر ماكس، وهانز، وروزا، إلا أنني أعلم الأفكار التي مرّت في رأس ليزيل ميمنجر، فقد فكّرت أنه فيما لو سقطت القنابل يوماً على شارع هيمل، ففرص ماكس في النجاة ليست فقط أقل بكثير من فرص الآخرين في الحي، إلا أنه أيضاً سيموت وحيداً.

سارقة الكتب

عرض السيدة هولتزابفيل

في الصباح، تفقّدوا الأضرار. لم يُقتل أحد، ولكن تحوّلت كتلتان سكنيتان إلى أهرامات من الأنقاض. واستحال ميدان شبيبة هتلر، الذي مقَته رودي، إلى تجويف هائل، تجمهر نصف سكّان البلدة حوله، وقدّر الناس عمقه، لمقارنته مع عمق ملاجئهم. كما بصق العديد من الفتيان والفتيات فيه.

وقف رودي إلى جانب ليزيل. «يبدو أنهم سيحتاجون إلى تسميده مرّة أخرى».

مرّت الأسابيع القليلة التالية من دون أية غارات، وعادت الحياة إلى طبيعتها تقريباً. ومع ذلك، فهناك لحظتان مهمتان في طريقهما للوقوع.

الأحداث المزدوجة لشهر تشرين الأول / أكتوبر

1. يدا السيدة هولتزابفيل.
2. موكب اليهود.

تجاعيدها مخيفة. وصوتها أقرب إلى الضرب بالعصا.

سارقة الكتب

من حسن الحظ أنهم شاهدوها من نافذة غرفة المعيشة، وهي تأتي باتجاههم، حيث أن ضرباتها القاسية والحاسمة على الباب كفيلة بإثارة الذعر.

سمعت ليزيل الكلمات الوحيدة التي كانت تخشاها.

قالت ماما: «اذهبي وافتحي الباب»، والفتاة، التي تعلم تماماً ما هو في صالحها، نفّذت ما قيل لها.

«هل أملكِ هنا؟». استفسرت السيدة هولتزابفيل. وقفت، بسنواتها الخمسين، أمام الباب، وهي ترمي بنظرها إلى الوراء بين الفينة والأخرى لمراقبة الشارع. «هل أملكِ الخنزيرة هنا اليوم؟».

استدارت ليزيل ونادت ماما.

قاموس دودن: المعنى رقم 5

Gelegenheit – فرصة: مناسبة للتطوّر أو التقدّم.

كلمات ذات صلة: أفق، انفراج، إمكانية.

بسرعة، جاءت روزا. «ماذا تفعلين هنا؟ هل تريدين البصق على أرضية مطبخي الآن أيضاً؟».

لم ترتدع السيدة هولتزابفيل بأدنى درجة. «هل هكذا تستقبلين كلَّ مَن يطرق بابك؟ يا لكِ من سوقية!».

شاهدت ليزيل ما جرى. ومن سوء حظها أنها كانت محشورة بينهما. سحبتها روزا من الطريق. «حسناً، هل ستقولين لماذا أنتِ هنا أم لا؟».

مرّة أخرى، ألقت السيدة هولتزابفيل نظرة إلى الشارع وراءها، ومن ثم التفتت إلى روزا. «لديّ عرض لكِ».

عدّلت ماما من وقفتها. «حقاً؟».

«لا، ليس لكِ». تجاهلت روزا، وحوّلت جُلّ تركيزها الآن إلى ليزيل. «بل لكِ أنتِ».

- حسناً لماذا سألتِ عني إذاً؟

- على الأقل أحتاج إلى إذنكِ.

أوه يا مريم العذراء! فكّرت ليزيل، هذا ما ينقصني. ماذا بحق الجحيم تُريد مني هولتزابفيل؟

«أحببتُ الكتاب الذي قرأتِه في الملجأ».

لا، لن أعطيكِ إياه. صمّمت ليزيل. «حسناً؟».

«كنتُ آمل أن أستمع إلى تتمّته في الملجأ، ولكن يبدو أننا آمنون في الوقت الراهن». شدّت كتفيها وقوّمت من وقفتها الهزيلة. «لذلك أريد منكِ أن تأتي إلى منزلي وتقرئيه لي».

«يا لكِ من وقحة يا هولتزابفيل!». فكّرت روزا فيما إذا كان عليها أن تغضب أم لا. «إذا كنتِ تعتقدين...».

«سأتوقف عن البصق على باب بيتكِ»، قاطعتها. «وسأعطيكِ حصتي التموينية من القهوة».

قرّرت روزا ألا تغضب. «وبعض الطحين؟».

«ماذا أيتها الطمّاعة، هل أنتِ يهودية؟ القهوة فقط. يمكنكِ مبادلة القهوة بالطحين من شخص آخر». إذاً، لقد حُسم الأمر.

من قِبل الجميع، باستثناء الفتاة.

«حسناً إذاً، لقد اتفقنا».

«ماما؟».

«اهدئي أيتها الخنزيرة. اذهبي وأحضري الكتاب». واجهت ماما السيد هولتزابفيل مرّة أخرى. «ما هي الأيام التي تُناسبكِ؟».

«الاثنين والجمعة، في الساعة الرابعة عصراً. واليوم، الآن».

مشت ليزيل المسافة القصيرة إلى مسكن السيدة هولتزابفيل المجاور، والذي يُعتبر انعكاساً مطابقاً لمنزل آل هوبرمان، إلا أنه أكبر قليلاً.

عندما جلست إلى طاولة المطبخ، جلست السيدة هولتزابفيل أمامها مباشرة، مواجهة النافذة. «اقرئي»، قالت.

- الفصل الثاني؟

- لا، الفصل الثامن. بالطبع الفصل الثاني! ابدئي الآن بالقراءة قبل أن أرميكِ خارجاً.

مكتبة أحمد

- حاضر سيدة هولتزابفيل.

- دعيني من قول «حاضر سيدة هولتزابفيل»، واكتفي بفتح الكتاب والقراءة. ليس لدينا اليوم بطوله.

يا إلهي! فكّرت ليزيل. هذا هو عقابي على كل ما سرقته. وأخيراً تلقيتُ جزاء أفعالي.

قرأت لمدة خمس وأربعين دقيقة، وعندما انتهى الفصل، وُضع كيس القهوة على الطاولة.

«شكراً لكِ»، قالت المرأة. «إنها قصّة جيدة». استدارت نحو الموقد وبدأت العمل على تقشير بعض البطاطس. من دون أن تنظر إلى الوراء، قالت: «هل ما زلتِ هنا؟».

فهمت ليزيل أنها إشارة واضحة لها لتذهب. «شكراً جزيلاً، سيدة هولتزابفيل». عندما وصلت إلى الباب، رأت صورة مؤطّرة لشابين في

الزي العسكري، وألقت على الفور تحية «يحيا هتلر»، رافعة ذراعها عالياً في المطبخ.

«نعم». قالت السيدة هولتزابفيل بفخر، وبقلق. اثنان من أبنائها يُقاتلان في روسيا. «يحيا هتلر». وضعت قدر الماء على النار ليغلي، وتحلّت بالكياسة للمشي خطوات قليلة مع ليزيل إلى الباب الأمامي. «أراكِ غداً؟».

اليوم التالي هو يوم الجمعة. «أجل سيدة هولتزابفيل. أراكِ غداً».

حسبت ليزيل أن أمامها أربع جلسات قراءة أخرى مثل هذه مع السيدة هولتزابفيل. وذلك قبل أن يسير اليهود في أسراب عبر بلدة مولشينغ، وهم في طريقهم إلى داخاو، حيث معسكرات الاعتقال.

[هذا يعني أن قراءة الكتاب ستستغرق أسبوعين]، كما سوف تكتب لاحقاً وهي في القبو، [أسبوعين لتغيير العالم، وأربعة عشر يوماً لتدميره.]

مسير طويل إلى داخاو

قال بعض الشهود إن الشاحنة تعطّلت، ولكن يمكنني أن أشهد شخصياً بأن الحال لم يكن كذلك. فقد كنتُ هناك.

في الواقع، لم تقتصر المسألة على شاحنة واحدة، ولا يمكن لثلاث شاحنات أن تتعطّل جميعها في آن واحد.

عندما أوقف الجنود الشاحنات لتبادل بعض المواد الغذائية والسجائر، ولمضايقة حمولتهم من اليهود، انهار أحد السجناء من الجوع والمرض. ليس لديّ أدنى فكرة عن المكان الذي جاءت منه القافلة، ربما يبعد ثلاثة أميال من مولشينغ، ولكن ما زالت أمامهم مسافة طويلة قبل الوصول إلى معسكر الاعتقال في داخاو.

صعدتُ عبر الزجاج الأمامي للشاحنة، رأيتُ الرجل المريض، وقفزتُ إليه. بدت روحه هزيلة. ولحيته كثيفة. صدر وقع خطواتي على الحصى عالياً، وصحيح أن الجنود والسجناء لم يسمعوه، إلا أنهم تحسّسوا رائحة وجودي.

أتذكّر الآن الأمنيات الكثيرة لأولئك المكوّمين في تلك الشاحنة، حيث خاطبتني أصواتهم الداخلية معاتبة:

سارقة الكتب

لماذا أخذته هو وليس أنا؟

والشكر لله في أنني لستُ المسؤول عن الاختيار.

من ناحية أخرى، انشغل الجنود بمناقشة من نوع آخر. سحق القائد سيجارته ووجّه سؤالاً ضبابياً إلى الجنود الآخرين. «متى كانت آخر مرّة أخذنا فيها هذه الفئران لتتنشّق بعض الهواء النقي؟».

ابتلع ملازمه الأول ضحكته. «يمكنهم التمتّع بمثل هذه الرفاهية، أليس كذلك؟».

- حسناً لما لا نمنّ عليهم بذلك؟ لدينا متّسع من الوقت، أليس كذلك؟

- لدينا الوقت الكافي، يا سيدي.

- كما أن الطقس مثالي لمرور موكب، ألا تظن؟

- إنه كذلك يا سيدي.

- إذاً ماذا تنتظر؟

في شارع هيمل، في ذلك الوقت، وصل ضجيج بعيد إلى مسامع ليزيل وهي تلعب كرة القدم. كان هناك صبيّان يتصارعان لاستحواذ الكرة في منتصف الميدان، ولكن توقّف كل شيء عندما سُمع الضجيج. حتى تومي مولر أمكنه أن يسمع ذلك.

«ما هذا؟». سأل من موقعه في المرمى.

تحوّل اهتمام الجميع نحو صوت الأقدام المكبّلة والأصوات الصارمة، وهي تقترب أكثر.

«هل هو قطيع من الأبقار؟». سأل رودي. «لا يمكن أن يكون كذلك. فهذا صوت مختلف تماماً، أليس كذلك؟».

ببطء في البداية، سار أطفال الشارع نحو الصوت المغناطيسي، وصولاً إلى متجر السيدة ديلر. بين الفينة والأخرى، كان يُسمع صراخ إضافي.

سارقة الكتب

في شقة مرتفعة على شارع ميونخ، استطاعت سيدة عجوز ذات صوت منذر بالشؤم، فكَّ رموز المصدر الدقيق للضجيج، وتوضيحه للجميع. حتى من نافذة منزلها المرتفعة، بدا وجهها كعلم أبيض بعيون رطبة وفم مفتوح. شعرها رمادي، وعيناها زرقاوان داكنتان. بدا صوتها مثل شخص ينتحر ويسقط بجلبة عند قدمي ليزيل.

دي يودِن، قالت. «إنهم اليهود».

قاموس دودن: المعنى رقم 6

Elend – البؤس: معاناة كبيرة، تعاسة، وضيق.

كلمات ذات صلة: الكرب، العذاب، اليأس، الشقاء، الأسى.

احتشدت أعداد أكبر من الناس في الشارع، مرّت مجموعة من اليهود والمجرمين الآخرين. ربما حاول النازيون في تلك الفترة الإبقاء على سرّية معسكرات الموت، ولكن في بعض الأحيان، شهد الناس على مجد معسكرات الأعمال الشاقة، مثل معسكر داخاو.

من بعيد، وعلى الجانب الآخر، لاحظت ليزيل الرجل الذي يجرّ عربة الطلاء، وهو يمرّر يده بشكل مضطرب عبر شعره.

«انظر هناك»، قالت لرودي. «إنه بابا».

عبَرا الطريق واتجها نحوه. حاول هانز هوبرمان في البداية أن يُبعدهما عن قساوة المشهد.

«ليزيل»، قال. «ربما...».

ومع ذلك، فقد أدركَ تماماً أن الفتاة مصمّمة على البقاء، وربما ينبغي لها أن ترى مثل هذا البؤس. بين أنسام هواء الخريف، وقف معها. ولم ينطق ببنت شفة.

سارقة الكتب

وقفوا ثلاثتهم معاً في شارع ميونخ، وشاهدوا، بينما تحرّك الآخرون في الأرجاء أمامهم.

شاهدوا اليهود يعبرون الطريق مثل كتالوج من الألوان. لم تكن هذه هي الطريقة التي وصفتهم بها سارقة الكتب، ولكن يمكنني أن أؤكّد لكم أن هذا بالضبط ما كانوا عليه، إلى جانب أن الكثير منهم سوف يموتون. كُلهم يلقون التحية عليّ كما لو كنتُ صديقهم الحقيقي الأخير، بعظامهم النحيلة التي تشبه خيط الدخان، جرّوا أرواحهم خلفهم.

عندما وصلوا بالكامل، ضج الطريق بأصوات أقدامهم المجلجلة. بدت عيونهم هائلة الحجم في جماجمهم الجائعة. والتصقت القذارة والأوساخ بهم كقالب لا مفرّ منه. ترنّحت أقدامهم تحت وقع أيدي الجنود - يركضون لبضع خطوات قاسية من الركض القسري قبل أن يعودوا ببطء إلى المشي المتهالك.

شاهدهم هانز من فوق رؤوس الجماهير المزدحمة. أنا متيقّن من ضخامة التوتر والقلق في عينيه الفضيتين. أما ليزيل فقد نظرت من خلال الثغرات، أو فوق بعض الأكتاف.

وصلتهم الوجوه المتعبة للنساء والرجال المستنزفين، وهي تتوسّل إليهم، لا لتقديم المساعدة - فقد تجاوزوا تلك المرحلة- وإنما للحصول على تفسير. أي شيء لقهر هذا الإرباك.

بالكاد ارتفعت أقدامهم عن الأرض.

خِيطت نجمة داود على قمصانهم، وعلِق البؤس بهم، كما الوشم. نمت عليهم عبارة «لا تنسوا بؤسكم...». كما لو أنها كرمة تُعرّش عليهم.

رافقهم الجنود أيضاً على الطريق، موجّهين لهم الأوامر بالإسراع، والتوقّف عن الأنين. بعض هؤلاء الجنود هم صبية فقط، يحملون الفوهرر في عيونهم.

وهي تشاهد كل هذا، أيقنت ليزيل أن هذه هي أكثر الأرواح بؤساً على وجه الأرض. هذا ما كتبته عنهم. وجوههم تنضح بالعذاب. أكَلهم الجوع وهم يواصلون سيرهم إلى الأمام. بعضهم ينظرون إلى الأرض لتجنّب نظرات الناس على جانبي الطريق. وبعضهم الآخر نظر مناشداً أولئك الذين جاءوا ليشهدوا على ذلّهم، الممهِد لموتهم. آخرون توسّلوا أي أحد ليخطوا إلى الأمام ويحتضنهم ويحنو عليهم.

لم يفعل أحد أي شيء.

وسواء شاهدوا هذا الموكب بفخر أو تكبّر أو عار، لم يتقدّم أحد لمقاطعته. ليس بعد.

أحياناً، يجد رجل أو امرأة - لا، لم يكونوا رجالاً ونساء، مجرّد يهود - وجه ليزيل بين الحشود. ينظرون إليها وهم يحملون هزيمتهم. لم يكن في وسع سارقة الكتب سوى النظر إليهم للحظة يائسة طويلة قبل أن يتابعوا طريقهم مرّة أخرى. لم يكن في إمكانها إلا أن تأمل إدراكهم لعمق الحزن المحفور في وجهها، وأنه حزن حقيقي، وليس شعوراً عابراً.

أنا أرعى واحداً منكم في قبوي! أرادت أن تقول. لقد بنينا رجل ثلج معاً! أهديتُه ثلاث عشرة هدية عندما كان مريضاً!

لم تقل ليزيل شيئاً على الإطلاق.

بماذا سينفعهم كلامها؟

أدركت كم هي بلا قيمة بالنسبة إلى هؤلاء الناس. لم يكن في الإمكان إنقاذهم، وخلال بضع دقائق، سترى ما سيحدث لأولئك الذين قد يحاولون مساعدتهم.

في فجوة صغيرة في الموكب، برز رجل أكبر سناً من الآخرين.

لحيته طويلة وملابسه ممزقة.

حملت عيناه لون الألم والعذاب. وعلى الرغم من نحوله الشديد، إلا أنه كان ثقيلاً جداً لتحمله ساقاه.

سقط على الأرض عدّة مرات.

وتمرّغ وجهه في تراب الطريق.

في كل مرّة، وقف جندي فوقه، وصاح: «شتيه آوف، قِف».

استجمع الرجل قواه ووقف على ركبتيه مصارعاً لاستكمال طريقه. مشى أخيراً.

كلّما لحق بآخر الموكب، فإنه سرعان ما يفقد عزمه ويتعثّر مرّة أخرى، مرتمياً على الأرض. يوجد خلفه المزيد من تعيسي الحظ - الذين يتّسعون في شاحنة كاملة - ولا بّد لهم من أن يتجاوزه ويدوسوه بأقدامهم.

الألم في ذراعيه لا يطاق، وهما تهتزان، محاولتان رفع ثقل جسده. تراختا لأكثر من مرّة قبل أن يقف ويخطو مجموعة أخرى من الخطوات.

كان ميتاً.

كان الرجل ميتاً.

أعطوه خمس دقائق أخرى فقط، وسوف يقع بالتأكيد في مزراب ألماني ويموت. جميعهم سيتركونه يموت، وسيقفون جميعاً لمشاهدة ذلك يحدث.

ثم يأتي إنسان واحد.

هانز هوبرمان.

حدث كل ذلك بسزعة.

اليد التي أمسكت بحزم يد ليزيل، تركتها فجأة، بينما كافح الرجل للخروج من صفوف الحشود، شعرت بيدها المتروكة تصفع وركها.

مدّ بابا يده إلى عربة الطلاء وسحب شيئاً.

شق طريقه عبر الحشد، ووصل إلى الطريق.

وقف اليهودي أمامه، وتوقّع حفنة أخرى من السخرية والتهكّم، إلا أنه شاهد، على مرأى من الجميع، هانز هوبرمان وهو يمدّ يده ويقدّم له قطعة من الخبز، مثل السحر.

عندما وصلت إلى يده، انهار اليهودي. سقط على ركبتيه وأمسك بساقي بابا. دفن وجهه بينهما وشكره.

شاهدت ليزيل.

والدموع في عينيها، رأت الرجل يندفع إلى الأمام، ويدفع بابا إلى الخلف أكثر، ليصل إلى كاحليه ويبكي عليهما.

مرّ يهود آخرون، وكلهم شاهدوا هذه المعجزة الصغيرة غير المجدية. تدفقوا، مثل مياه بشرية. في ذلك اليوم، سيصل عدد قليل منهم فقط إلى المحيط. وسيتم تسليمهم قبعة بيضاء. بسرعة البرق، اندفع جندي إلى مسرح الجريمة. نظر إلى الرجل الراكع عند قدمي بابا، ونظر إلى الحشد. بعد التفكير لبرهة، أخذ السوط من حزامه وبدأ.

جُلد اليهودي ست مرات. على ظهره، ورأسه، وساقيه. «أيها القذر! أيها الخنزير!» وانسكب الدم من أذنه.

ثم جاء دور بابا.

يد جديدة أمسكت بيد ليزيل الآن. نظرت برعب إلى الشخص الوقف بجانبها، ابتلع رودي شتاينر ريقه، بينما جُلد هانز هوبرمان في الشارع. الصوت وحده كان كافياً لإيقاع الألم بها، وتوقّعت أن تظهر الشقوق على جسد بابا. جُلد أربع مرات قبل أن يسقط هو أيضاً على الأرض.

وقف اليهودي المُسن على قدميه للمرة الأخيرة واستمر في المشي.

سارقة الكتب

نظر بإيجاز إلى المشهد خلفه، وألقى نظرة حزينة أخيرة على الرجل الذي أصبح هو نفسه راكعاً الآن، وظهره يلتهب بأربعة خطوط من النار، وركبتاه تؤلماه من ثقل جسده على حصى الطريق. على الأقل، سيموت الرجل العجوز مثل إنسان.

أو على الأقل سيموت وهو يحمل فكرة أنه إنسان.

هل تسألونني عن رأيي بالموضوع؟

لستُ متأكداً من صواب كل هذا.

عندما شقّت ليزيل ورودي طريقهما عبر الحشد ليساعدا هانز على الوقوف على قدميه، كانت هناك الكثير من الأصوات، والكلمات، وأشعة الشمس. هذه هي الطريقة التي تذكّرت فيها ليزيل ذلك اليوم. الضوء يتألق على الطريق والكلمات مثل الأمواج، التي تتكسّر على ظهرها. فقط عندما ابتعدوا ثلاثتهم لاحظوا الخبز المتروك على الشارع.

عندما حاول رودي التقاطه، خطفه يهودي عابر من يده، وتقاتل اثنان آخران معه لأخذه - ومن ثم تابعوا طريقهم نحو داخاو.

ظهرت العينان الفضيتان بعد ذلك.

قلب الحشد عربة الطلاء، وتتدفق مهدوراً على الشارع.

دعوه مُحبّ اليهود.

آخرون بقوا صامتين، وساعدوه على العودة إلى بر الأمان.

انحنى هانز هوبرمان إلى الأمام، ويداه ممدودتان ومسنودتان إلى جدار أحد المنازل. بدا مصعوقاً مما حدث له.

ارتسمت في رأسه صورة سريعة ومؤلمة.

القبو في المنزل رقم 33 على شارع هيمل.

أفكار مرعبة طغت على تفكيره وهو يُكافح لالتقاط أنفاسه.

سوف يأتون الآن. سوف يأتون.

أيها المسيح، أيها المسيح المصلوب!

نظر إلى الفتاة وأغلق عينيه.

«هل تتألم يا بابا؟».

وحصلت على سؤال بدلاً من الجواب.

«فيمَ كنتُ أفكر؟» أغلق عينيه بشدّة وفتحهما مرّة أخرى. تجعّدت ملابسه. وانتشر الطلاء، والدم، وفتات الخبز على يديه. كم يختلف هذا عن خبز الصيف الذي تقاسمه مع ليزيل! «يا إلهي، ليزيل، ماذا فعلتُ؟».

نعم.

يجب أن أتفق معه.

ماذا فعل بابا؟

السلام

بعد الساعة الحادية عشرة مساءً من الليلة نفسها، سار ماكس فاندينبورغ في شارع هيمل مع حقيبة مليئة بالأطعمة والملابس الدافئة. الهواء الألماني ملأ رئتيه. وتلألأت النجوم الصفراء. عندما وصل إلى متجر السيدة ديلر، ألقى نظرة أخيرة على المنزل رقم ثلاثة وثلاثين. لم يتمكّن من رؤية الشخص الواقف في نافذة المطبخ، إلا أنها رأته. لوّحت له، لكنه لم يلوّح لها.

ما زالت ليزيل تشعر بدفء فمه على جبينها، وتشم رائحة أنفاسه المودّعة.

«تركتُ شيئاً لكِ»، قال، «ولكنكِ لن تحصلي عليه إلى أن تُصبحي مستعدّة».

غادر.

«ماكس؟».

لكنه لم يعد.

خرج من غرفتها وأغلق الباب بصمت.

سارقة الكتب

ساد همس في الممر.

ومن ثم ذهب.

عندما وصلت إلى المطبخ، رأت ماما وبابا يقفان بجسديهما المقوسان، ووجههما المتجهمان. وقفا على هذا النحو لمدة ثلاثين ثانية أبدية.

قاموس دودن: المعنى رقم 7

Schweigen – الصمت: غياب الصوت أو الضجيج.

كلمات ذات صلة: الهدوء، السكينة، السلام.

كم هو مثالي!

السلام.

في مكان ما بالقرب من ميونخ، شقّ يهودي ألماني طريقه عبر الظلام. بعد أن اتفق على ترتيبات للقاء هانز هوبرمان في غضون أربعة أيام (بالطبع في حال لم يُكشف أمره، ويُؤخذ بعيداً). وصل إلى مكان بعيد على امتداد نهر أمبر، حيث يميل جسر مكسور بين النهر والأشجار.

لكنه لن يبقى هناك لفترة تزيد على بضع دقائق.

الشيء الوحيد الذي عثر عليه بابا، عندما وصل بعد أربعة أيام إلى مكان اللقاء المنشود، هي ملاحظة موضوعة تحت صخرة، عند قاعدة شجرة. لم تُوجّه إلى أحد ولم تحتوِ سوى جملة واحدة.

الكلمات الأخيرة لماكس فاندينبورغ

لقد فعلتَ ما يكفي.

الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أصبح المنزل رقم 33 في شارع هيمل

سارقة الكتب

مكاناً يسوده الصمت. بدا من الواضح أن قاموس دودن مخطئ تماماً وبشكل كلّي، وخاصة في موضوع الكلمات ذات الصلة.

فالصمت لم يكن هدوءاً، أو سكينةً، أو سلاماً.

سارقة الكتب

الأحمق والرجال ذوو المعاطف

في ليلة الموكب، جلس الأحمق في المطبخ، يشرب مرارة قهوة السيدة هولتزابفيل وهو يتشوّق لإشعال سيجارته. انتظر مجيء البوليس السري النازي، والجنود، والشرطة - أي أحد - ليأخذوه بعيداً، كما شعر بأنه يستحق. أمرته روزا بأن يأتي إلى الفراش. وتلكّأت الفتاة في الممر. أرسلهما كلاهما بعيداً، وقضى الساعات حتى الصباح ورأسه بين يديه، منتظراً.

لم يأتِ شيء.

كل دقيقة حملت معها الضوضاء المتوقعة للطرق على الباب والكلمات المرعدة.

لم يأتوا.

الصوت الوحيد كان صوته هو.

«ماذا فعلتُ؟». همس مرّة أخرى.

«يا إلهي، كم أنا بحاجة إلى سيجارة!»، أجاب. استُنفدت أعصابه بشكل كامل.

سمعت ليزيل الجُمل المتكرّرة عدة مرات، وكابرت كثيراً لكي تبقى عند الباب. تاقت إلى مواساته، لكنها لم ترَ في حياتها رجلاً مدّمراً لهذه الدرجة. لم يكن هناك أي عزاء في تلك الليلة. فماكس قد ذهب، وهانز هوبرمان هو المُلام على ذلك.

لا يوجد أي شيء.

أخذت خزائن المطبخ شكل الذنب، وعبقت يداه بذكرى ما فعل. لا بدّ من أنهما تتعرّقان، فكّرت ليزيل، فيداها كانتا غارقتين حتى المعصمين.

في غرفتها، رفعت صلواتها للرب.

ركعت وأراحت يديها وساعديها على الفراش. «أرجوكَ يا الله، اسمح ببقاء ماكس على قيد الحياة. أتضرّع إليك يا الله...» ركعت حتى نال الألم من ركبتيها، وقدميها.

عندما لاحت خيوط الصباح الأولى، استيقظت وذهبت إلى المطبخ. وجدت بابا نائماً ورأسه مُسند إلى الطاولة، حيث استقر بعض اللعاب في زاوية فمه. طغت رائحة القهوة على المكان، وصورة التعاطف الغبي الذي أظهره هانز هوبرمان ما تزال في الهواء، مثل رقم أو عنوان، كرّره عدّة مرات وسيلتصق بذاكرته إلى الأبد.

فشلت في محاولتها الأولى لإيقاظه، ولكن عندما هزّت كتفه للمرة الثانية رفع رأسه عن الطاولة بسرعة مفاجئة.

- هل هم هنا؟

- لا، بابا، هذه أنا فقط.

صبّ ما تبقى من القهوة في فنجانه. ارتفعت تفاحة آدم في حلقه وغرقت. «مِن المفترض أن يأتوا. لماذا لم يأتوا يا ليزيل؟». ازداد شعوره بالذنب.

سارقة الكتب

من المفترض أن يأتوا ويجتاحوا المنزل، بحثاً عن أي دليل على محبة اليهود أو الخيانة، ولكن يبدو أن ماكس قد غادر من دون أي سبب أو مبرّر. كان من الممكن أن يكون نائماً الآن في القبو، أو يرسم في كتابه.

- كيف لكَ أن تعرفَ بأنهم لن يأتوا يا بابا؟

- لم يجدر بي أن أُعطي الرجل بعض الخبز. لكنني لم أكن أفكّر.

- بابا، لم ترتكب أي خطأ.

- أنا لا أصدقكِ.

وقف وخرج من باب المطبخ، تركه مفتوحاً. وليزداد الطين بلّة، كان ذلك الصباح صباحاً جميلاً.

عندما انقضت أربعة أيام، سار بابا على طول نهر أمبر. أحضر الملاحظة الصغيرة ووضعها على طاولة المطبخ.

مرّ أسبوع آخر، وبقي هانز هوبرمان في انتظار عقابه. تحوّلت آثار الجلد على ظهره إلى ندوب، وقضى معظم وقته في التجوّل في مولشينغ. بصقت السيدة ديلر على قدميه. بينما وفت السيدة هولتزابفيل بوعدها، وكفّت عن البصق على باب هوبرمان. ولكن ها هنا السيدة ديلر، وهي تقوم بالمهمة على أكمل وجه: «كنتُ أعرفُ ذلك،» لعنته. «أيها القذر المُحبُّ لليهود!».

كان يتابع سيره ذاهلاً عمّا حوله، وغالباً ما تجتمع به ليزيل بالقرب من نهر أمبر، عند الجسر، حيث تراه واضعاً ذراعيه على الحاجز وحانياً جسده على الحافة. الأطفال على الدراجات يهرعون متجاوزينه، أو يركضون بأصواتهم عالية وأقدامهم التي تدبّ على الجسر الخشبي. لم يُحركه أي من هذا، ولا قيد أنملة.

Nachtrauern – الندم: الحزن المفعم بالتوق، أو خيبة الأمل، أو الخسارة.

كلمات ذات صلة: الأسف، التوبة، الندب، الأسى.

«هل ترينه؟» سألها من بعد ظهر أحد الأيام، عندما انحنت معه فوق سور الجسر. «في الماء هناك؟».

لم يكن النهر يتدفق بسرعة كبيرة. وعلى التموجات البطيئة، أمكّن لليزيل أن ترى ملامح وجه ماكس فاندينبورغ. رأت شعره الريشي وبقية تفاصيله. «اعتاد أن يقاتل الفوهرر في قبونا».

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!». شدّد بابا قبضته على الخشب المتشقق. «كم أنا أحمق!».

لا يا بابا.

أنت مجرّد إنسان.

مرّ هذا الجواب في بالها بعد مرور أكثر من عام، عندما كتبت في القبو أحداث ذلك اليوم، وتمنتّ لو أنها فكّرت بمثل هذا الجواب في ذلك الوقت.

«أنا غبي»، قال هانز هوبرمان لابنته التي يرعاها. «وعاطفي في الوقت نفسه، ما يجعلني أكبر أحمق في العالم. والحقيقة هي أنني أريدهم أن يأتوا إليّ. أي شيء هو أفضل من هذا الانتظار».

احتاج هانز هوبرمان إلى تبرئة. كان بحاجة إلى معرفة أن ماكس فاندينبورغ قد غادر منزله لسبب وجيه.

وأخيراً، بعد ما يقرب من ثلاثة أسابيع من الانتظار، ظنّ أن لحظته قد حانت.

سارقة الكتب

كان الوقت متأخراً.

في طريق عودتها من منزل السيدة هولتزابفيل، رأت ليزيل رجلين يرتديان معاطف سوداء طويلة. ركضت إلى المنزل.

«بابا، بابا!» وشارفت تقريباً على قلب طاولة المطبخ. «بابا، إنهم هنا!».

جاءت ماما أولاً. «ما كُل هذا الصياح، أيتها الخنزيرة؟ مَن جاء إلى هنا؟».

– البوليس السري النازي.

– هانزي!

سمع بالفعل ما قالته، وخرج من المنزل لاستقبالهما. أرادت ليزيل أن تنضم إليه إلا أن روزا منعتها، واكتفتا بالمشاهدة من النافذة.

وقف بابا عند البوابة الأمامية. وبدا التوتّر جلياً على كل ملامحه.

شدّت ماما قبضتها على ذراع ليزيل.

ببساطة، تجاوزه الرجلان.

ألقى بابا نظرة إلى النافذة وراءه، متوتراً وقلقاً، ثم خرج من البوابة. ونادى خلفهما. «مهلاً! أنا هنا. أنتم تبحثون عنّي. أنا أعيش في هذا المنزل».

توقّف الرجلان بمعطفيهما للحظات فقط وتحقّقا مما هو وارد في ملاحظاتهما. «لا، لا»، قال أحدهما، بصوت عميق وضخم. «للأسف، فسنّكَ أكبر مما نبحث عنه».

واصلا المشي، لكنهما لم يبتعدا كثيراً، فقد توقّفا عند المنزل رقم 35، وعبرا بوابته المفتوحة.

«السيدة شتاينر؟» سألا عندما انفتح الباب.

- نعم، هذا صحيح.

- لقد جئنا للتحدث معكِ.

وقف الرجلان، مثل عمودين ملتفين بمعطفين، عند عتبة المنزل الصغير لآل شتاينر.

لسبب ما، فقد جاءا من أجل الصبي.

أراد الرجلان رودي.

الفصل الثامن

(قاطفة الكلمات)

بطولة:

الدومينو والظلام - تخيّل رودي وهو عارٍ - العقاب - زوجة حافظ الوعد - جامع الجثث - آكِلوا الخبز - شمعة في الأشجار - كتاب رسومات مخفي - ومجموعة بزّات المؤمِن بالفوضى

سارقة الكتب

telegram @ktabpdf

سارقة الكتب

الدومينو والظلام

على حد تعبير شقيقات رودي الأصغر سناً، جلس وحشان في المطبخ. أصواتهما عبّرت الباب، بينما كان ثلاثة من أطفال شتاينر يلعبون بأحجار الدومينو على الجانب الآخر. واستمع الثلاثة الباقون إلى الراديو في غرفة النوم، غافلين عمّا يحدث. أمل رودي ألا يكون لهذا علاقة بما حدث في المدرسة في الأسبوع السابق. وهو شيء رفض أن يُخبر ليزيل عنه ولم يتحدث بخصوصه في المنزل.

بعد ظهر رمادي، ومكتب مدرسة صغير

وقف ثلاثة صبية على صف واحد. وفُحصت سِجلاتهم وأجسادهم بدقة.

عندما أُنجزت لعبة الدومينو للمرة الرابعة، بدأ رودي بترتيبها في خطوط، وفق أنماط امتدّت على أرضية غرفة المعيشة. وكما هي عادته، فقد ترك أيضاً بعض الثغرات، في حال تدخّل إصبع مارق لأحد الأشقاء، وهو الأمر الذي يحدث عادة.

سارقة الكتب

- هل يمكنني هدمها يا رودي؟

- لا.

- ماذا عني؟

- لا، ليس مسموحاً لأحد بهدمها.

صنع ثلاث تشكيلات منفصلة تُوصل جميعها إلى برج الدومينو المتربّع في الوسط. معاً، سيشاهدون تساقط كل ما تم تخطيطه بدقة، وسوف يبتسمون جميعاً، مبهورين بجمال الدمار.

الآن، أصبحت الأصوات القادمة من المطبخ أعلى، وكل صوت يرتفع ليُسكتَ الأصوات الأخرى. حاربت جمل مختلفة للاستحواذ على الاهتمام، إلى أن تدخّل شخص واحد كان صامتاً في السابق.

«لا»، قالت، وكرّرت ذلك. «لا». حتى عندما استأنف البقية جدالهم، سكتوا مرّة أخرى بفعل الصوت نفسه، إلا أنه اكتسب الآن زخماً أكبر. «أرجوكم»، توسّلت باربرا شتاينر. «اتركوا ابني وشأنه».

«هل يمكننا أن نُضيء شمعة يا رودي؟».

كان ذلك شيئاً اعتاد والدهم على القيام بهم معهم. حيث يُطفئ الضوء ليشاهدوا تساقط أحجار الدومينو على ضوء الشموع. حينها يبدو الحدث، بطريقة أو بأخرى، أكثر بهاءً، ويتحوّل إلى مشهد عظيم.

شعر بألم ساقيه، ومن ثم قال: «سأبحثُ عن عود ثقاب».

كان مفتاح الضوء عند الباب.

بهدوء، سار نحوه، حاملاً علبة الثقاب في يد، والشمعة في الأخرى.

من الجانب الآخر، سمع الرجال الثلاثة والمرأة يتناقشون. «لقد حصل على أفضل الدرجات في الصف»، قال أحد الوحشين. بصوت

عميق وقاس. «ناهيكِ عن قدراته الرياضية». اللعنة، لماذا كسب كل تلك السباقات في الكرنفال؟

دويتشر.

اللعنة على فرانز دويتشر!

عندها فهم ماذا يحدث.

لم يكن هذا خطأ فرانز دويتشر، وإنما خطأه هو وحده. فقد أراد أن يُري معذّبه ما هو قادر على فعله، إلا أنه أراد أيضاً أن يُثبتَ نفسه للجميع. والآن، وصل هؤلاء «الجميع» إلى مطبخ بيته.

أضاء الشمعة وأطفأ الضوء.

- هل أنتم مستعدون؟

«لكنني سمعتُ بما يحدث هناك». كان ذلك الصوت الخشبي المميز لوالده.

- هيا، رودي، بسرعة.

- نعم، ولكن عليكَ أن تستوعب يا سيد شتاينر، أن هذا كله يخدم غرضاً أكبر. فكّر في الفرص التي يمكن أن يحصل عليها ابنكَ. هذا امتياز حقيقي.

- رودي، إن الشمعة تقطر.

أومأ لهم بأن يصبروا، وانتظر مرّة أخرى جواب أليكس شتاينر. والذي جاء على النحو التالي:

«عن أي امتيازات تتحدّث؟ هل تعني الركض حافي القدمين في الثلوج؟ والقفز من منصات بعلو عشرة أمتار إلى المياه؟».

ألصق رودي أذنه بالباب الآن. وذاب الشمع على يده.

سارقة الكتب

«كُل هذا محض شائعات». كان لدى الصوت القاحل العميق، جواب لكل شيء. «مدرستنا هي من أرقى المدارس على الإطلاق. وهي أفضل من المدارس العالمية. إننا نُنشئ نخبة من المواطنين الألمان...».

لم يعد في وسع رودي الاستماع أكثر من ذلك.

كشط الشمع عن يده، وابتعد عن الضوء الضيق الذي عبر من شِق الباب. وعندما جلس أخيراً، انطفأ اللهب، وتدفق الظلام. الضوء الوحيد المتاح هو الخيط الهارب من شِق الباب.

أشعل عود ثقاب آخر وأضاء الشمعة. عبَق أنفه بالرائحة الجميلة للنار والكربون.

ضرب رودي وشقيقاته أحجار الدومينو من جهات مختلفة وشاهدوها تتساقط إلى أن خرّ البرج في الوسط على ركبتيه. وابتهجت الفتيات.

وصل كيرت، شقيقه الأكبر، إلى الغرفة.

وقال: «تبدو الأحجار مثل الجثث».

«ماذا؟».

نظر رودي إلى الوجه المظلم، لكن كيرت لم يُجب. لاحظ الجدال المتصاعد من المطبخ. «ماذا يحدث هناك؟».

وأجابته إحدى الفتيات، الأصغر بينهم، بتينا - والتي تبلغ من العمر خمس سنوات. «هناك وحشان،» قالت. «وقد جاءا لأخذ رودي».

مرّة أخرى، يُثبت الطفل البشري المقدار الكبير من الفطنة التي يتحلى بها.

لاحقاً، عندما غادر الرجلان بمعاطفهما منزل آل شتاينر، وجد الصبيان - أحدهما في السابعة عشرة من عمره، والآخر في الرابعة عشرة - الشجاعة لمواجهة المطبخ.

وقفا في المدخل. وألقى الضوء بعقابه على عينيهما.

كيرت هو من تحدث أولاً. «هل سيأخذونه؟».

ذراعا الأم كانا ممدودين على الطاولة. وباطنا كفيها يواجهان السقف.

رفع أليكس شتاينر رأسه.

بدا ثقيلاً.

حمل وجهه تعبيراً حاداً، وقاطعاً.

مسح بيده المتخشبة وجهه، وبذل عدّة محاولات للتحدّث.

«بابا؟».

لم يقترب رودي من والده أكثر من ذلك.

بل جلس إلى طاولة المطبخ وأمسك بيد والدته.

لم يكشف أليكس وباربرا شتاينر عن تفاصيل ما قيل بينما كانت أحجار الدومينو تتساقط مثل الجثث في غرفة المعيشة. فقط لو استمرّ رودي في الإصغاء عبر الباب، لبضع دقائق أخرى فقط...

قال لنفسه خلال الأسابيع التالية - أو في الواقع، أنّب نفسه - أنه لو استمع لبقية المحادثة في تلك الليلة، لدخل المطبخ في وقت أبكر من ذلك بكثير.

«سأذهب»، كان ليقول لهم. «من فضلكم، خذوني، أنا مستعد الآن».

لو تدخّل حينها، فربما غيّر ذلك كل شيء.

الاحتمالات الثلاثة

1. لم يكن أليكس شتاينر ليعاني العقاب نفسه الذي وقع على هانز هوبرمان.

سارقة الكتب

2. لذهب رودي بعيداً إلى المدرسة.

3. وربما فقط، لكان بقي على قيد الحياة.

غير أن قسوة القدر لم تسمح لرودي شتاينر بالدخول إلى المطبخ في الوقت المناسب.

عاد إلى شقيقاته وأحجار الدومينو.

وجلس معهنّ.

لن يذهب رودي شتاينر إلى أي مكان.

سارقة الكتب

التفكير في رودي عارياً

هناك امرأة.

واقفة في الزاوية.

إنها صاحبة الضفيرة الأكثر سُمكاً التي رآها في حياته. حيث تتدلى على ظهرها، وتحوم أحياناً فوق ثدييها الضخمين مثل حيوان أليف مُتخم. في الواقع، كل شيء فيها ضخم: شفتاها، ساقاها، وأسنانها. أما صوتها فهو عريض ومباشر. لم يكن لديها وقت لتضيعه. «كوم»، أمرته. «تعال، وقِفْ هنا».

الطبيب، على سبيل المقارنة، يُشبه قارضاً أصلع. فهو صغير الحجم ورشيق، يملأ مكتب المدرسة بحركاته وسلوكياته الغريبة والاحترافية في الوقت نفسه. في ذلك اليوم، كان مصاباً بالزكام.

من بين الصِبية الثلاثة، بدا من الصعب تحديد أيهم الأكثر تردّداً في خلع ملابسه عندما أُمر بذلك. نقّل الأول نظره من شخص لآخر، من المعلّم المتقدّم في السن إلى الممرضة العملاقة والطبيب الضئيل الحجم. نظر الصبي الذي في الوسط إلى قدميه فقط، أما الآخر الواقف في أقصى

سارقة الكتب

اليسار فقد شكر الرب لأنه في مكتب المدرسة وليس في زقاق مظلم. قرّر رودي بينه وبين نفسه أن الممرضة، ولا ريب، تبعثُ على الخوف.

«مَن منكم سيكون الأول؟». سألت.

المعلم المشرف، السيد هيكنستالر، تطوّع للإجابة. بدا كبزّة سوداء أكثر منه كرجل. وجهه عبارة عن شارب فقط. تفحّص الصِبية، وجاء اختياره سريعاً.

«شفارتز».

خلع يورغن شفارتز تعيس الحظ زيّه بارتباك كبير. وقف مرتدياً حذاءه وسرواله الداخلي فقط. وارتسمت مناشدة لا طائل منها على وجهه الألماني.

«ماذا تنتظر؟» سأله السيد هيكنستالر. «اخلع حذاءك؟» خلع حذاءه مع الجوربين أيضاً.

«أوند دي أونترهوزن»، قالت الممرضة. «والسروال الداخلي».

بدأ كلٌّ من رودي والصبي الآخر، أولاف شبيغل، بخلع ملابسهما الآن أيضاً، لكنهما لم يكونا أبداً بدرجة ارتباك يورغن شفارتز نفسها، الذي بدأ يرتجف الآن. يورغن يصغر الصبيين الآخرين بسنة، إلا أنه أطول منهما. خلع سرواله الداخلي، ووقف بمنتهى الذّل في المكتب الصغير البارد. انحط احترامه لذاته حتى وصل إلى كاحليه.

تفحّصته الممرضة باهتمام، وهي تلفّ ذراعيها فوق صدرها المُدمِّر.

أمر هيكنستالر الصبيين الآخرين بالتحرك.

حكّ الطبيب فروة رأسه وسعل. فزكامه يكاد أن يقتله.

فُحص الفتيان الثلاثة العراة وهم يقفون على الأرضية الباردة.

سارقة الكتب

غطّوا أعضاءهم التناسلية بأيديهم وبدأوا يرتجفون مثل مستقبلهم الضبابي.

بين سعال الطبيب ولهاثه، وجه الأوامر لهم ليفحصهم.

«شهيق». عطسة.

«زفير». عطسة أخرى.

«مدّوا أيديكم الآن». سعلة. «قلتُ لكم مدّوا أيديكم». وموجة رهيبة من السعال.

كما يفعل البشر عادة، نظر الصبية باستمرار إلى بعضهم البعض بحثاً عن أية علامة تدل على التعاطف المتبادل. لم يكن هناك شيء. بشقّ الأنفس، رفع الثلاثة أيديهم عن قضبانهم ومدّوا أيديهم. لم يشعر رودي بأنه جزء من عِرق متفوق على غيره من الأعراق.

«نحن ننجح تدريجياً»، أعلمت الممرضةُ المعلم، «في خلق مستقبل جديد لهذه الأمة. والنتيجة ستكون فئة جديدة من الألمان المتقدمين والمتطورين جسدياً وعقلياً. فئة الضباط».

لسوء الحظ، لم تدُم خطبتها طويلاً، حيث انطوى الطبيب على نفسه وسَعل بكل ما أوتي من قوة على الملابس المهجورة. تراكمت الدموع في عينيه، ولم يكن في وسع رودي سوى أن يتساءل.

مستقبل جديد؟ مثله؟

كان حكيماً لدرجة ألا ينطق بما جال في رأسه.

انتهى الفحص وتمكّن رودي من أداء تحية «يحيا هتلر» للمرة الأولى وهو عارٍ. وبتفكير منحرف بشكل ما، اعترف بأنه لم يشعر بذاك السوء.

سُمح للصبية المجرّدين من ملابسهم أن يُعاودوا ارتداءها مرّة أخرى.

سارقة الكتب

وهم خارجين من المكتب، أمكنهم سماع المناقشة التي دارت على شرفهم.

«إنهم أكبر قليلاً من المعتاد»، قال الطبيب، «إلا أنني أفكّر في اثنين منهم على الأقل».

وافقته الممرضة. «الأول والثالث».

وقف الصبية الثلاثة في الخارج.

الأول والثالث.

«الأول هو أنتَ، شفارتز،» قال رودي. ومن ثم استجوب أولاف شبيغل. «من هو الثالث؟».

قام شبيغل بعدّة حسابات. هل عنَت الثالث في الصف أو الثالث في الفحص؟ لا يهم. فهو يعرف ما يُريد أن يؤمن به. «إنها تقصدكَ أنتَ، على ما أعتقد».

«شبيغل أيها القذر، بل هي تقصدكَ أنتَ».

ضمانة صغيرة

عرف الرجلان ذوا المعطفين مَن كان هو الثالث.

في اليوم التالي لزيارتهما إلى شارع هيمل، جلس رودي على الدرج الأمامي مع ليزيل وربط عناصر الملحمة كلّها مع بعضها البعض، حتى أدقّ التفاصيل. استسلم واعترف أمامها بما حدث في ذلك اليوم في المدرسة عندما تم إخراجه من الصف. ضحكا قليلاً عندما أخبرها عن الممرضة الضخمة، والنظرة التي لوّنت وجه يورغن شفارتز. إلا أن القصّة في معظمها تبعث على القلق، وخاصة فيما يتعلق بالأصوات التي تعالت في المطبخ وأحجار الدومينو الميتة.

سارقة الكتب

لعدّة أيام، لم تستطع ليزيل أن تُبعد عن رأسها فكرة واحدة، وهي فحص الصِبية الثلاثة، أو لتكون صادقة حقاً، رودي بالتحديد.

كانت تستلقي في السرير، وتشتاق لماكس، متسائلة أين هو، ومتضرّعة أن يكون على قيد الحياة، ولكن في مكان ما، واقفاً بين كل ذلك، كان رودي.

متوهجاً في الظلام، وعارياً تماماً.

شعرت بفزع كبير من تلك الرؤية، وخاصة اللحظة التي أُجبر فيها على رفع يديه. كانت فكرة مُقلقة على أقل تقدير، ولكن لسبب ما، لم تستطع أن تكفّ عن التفكير فيها.

العقاب

لم يكن العقاب مشمولاً في البطاقات التموينية الخاصة بألمانيا النازية، ولكن على الرغم من ذلك فقد حصل الجميع على حصّتهم منه. بالنسبة إلى البعض كان الموت في بلد أجنبي خلال الحرب. أما الآخرون فقد عانوا من الفقر وعقدة الذنب بعد انتهاء الحرب واكتشاف موت ستة ملايين يهودي في جميع أنحاء أوروبا. لا بدّ من أن الكثيرين قد رأوا عقابهم مقبلاً نحوهم، ولكن نسبة صغيرة فقط رحّبت به. ومن بين هذه القلّة القليلة، كان هانز هوبرمان.

لا يجوز للألماني أن يساعد يهودياً في الشارع.

ولا ينبغي له أن يُخبّئ واحداً في قبوه.

في البداية، جاء عقابه على شكل عذاب الضمير. فحماقته التي أوصلته إلى التخلي عن ماكس فانديبورغ لم ترحمه. وهنا أمكن لليزيل أن ترى عقاب هانز جالساً بجانب صحنه وهو يتجاهل عشاءه، أو واقفاً معه على الجسر فوق نهر أمبر. لم يعد يعزف الأكورديون. وبدا تفاؤل عينيه الفضيتين جريحاً بلا حراك. كان ذلك سيئاً بما فيه الكفاية، إلا أنه ليس سوى البداية فقط.

سارقة الكتب

في يوم أربعاء من أوائل شهر تشرين الثاني / نوفمبر، وصل عقابه الحقيقي عبر صندوق البريد. ظاهرياً، بدا أنه خبر سار.

ورقة في المطبخ

[يُسعدنا أن نُحيطكم علماً بأن طلبكم للانضمام إلى الحزب النازي قد تمّت الموافقة عليه أخيراً...]

«الحزب النازي؟» سألت روزا. «اعتقدتُ بأنهم لا يريدونكَ بين صفوفهم».

«هم كذلك بالفعل».

جلس بابا وقرأ الرسالة مرّة أخرى.

لم يتم إبعاد هانز هوبرمان نتيجة اتهامه بالخيانة أو مساعدة اليهود أو أي شيء من هذا القبيل. بل على العكس من ذلك، تمّت مكافأته، على الأقل من وجهة نظر بعض الأشخاص الذين يرون في الانضمام إلى الحزب شرفاً عظيماً. كيف هذا؟

«لا بدّ أن يكون هناك ما هو أكثر من ذلك».

وبالفعل هناك ما هو أكثر.

في يوم الجمعة، وصل خطاب يقول بأن على هانز هوبرمان الالتحاق بالجيش الألماني. وخلُص الخطاب إلى أن عضواً في الحزب النازي سيكون سعيداً بأداء واجبه في المجهود الحربي. وإذا لم يكن كذلك، فستكون هناك عواقب بالتأكيد.

في ذلك اليوم، عادت ليزيل من نشاطها المعتاد في القراءة للسيدة هولتزابفيل. كان المطبخ يعبق ببخار الحساء وتجهّم وجهَي هانز وروزا

سارقة الكتب

هوبرمان. وجدت بابا جالساً، بينما وقفت ماما خلفه عندما بدأ الحساء يحترق.

«يا إلهي، أرجوك لا ترسلني إلى روسيا!»، قال بابا.

– ماما، الحساء يحترق.

– ماذا؟

سارعت ليزيل وأزالت قِدر الحساء عن الموقد. «الحساء». عندما أنقذته بنجاح، استدارت ورأت والديها وقد استحالا إلى شبحين. «بابا، ما المشكلة؟».

سلّمها الرسالة. ارتجفت يداها وهي تُتابع قراءة ما ورد فيها، والكلمات التي انغرزت بقوة في قلب الورقة.

محتويات ما رسمته مخيلة ليزيل ميمنجر

في المطبخ المتهاوي بفعل قذيفة مدمرة، في مكان ما بالقرب من الموقد، هناك صورة متخيّلة لآلة كاتبة وحيدة، ومنهكة. إنها تقبع في غرفة بعيدة، شبه فارغة. وقد تلاشت مفاتيحها. ورقة فارغة تنتظر بصبر في مكانها المفترض. وترتاح الآلة قليلاً تحت تأثير نسيم النافذة، حيث شارفت استراحتها القصيرة على الانتهاء تقريباً. عند الباب، تقف كومة من الورق التي يصل علوها إلى طول إنسان. وتبدو كما لو أنها تستمتع بتدخين سيجارة.

في الحقيقة، لم ترَ ليزيل الآلة الكاتبة إلا في وقت لاحِق، عندما بدأت الكتابة. وتساءلت عند عدد الرسائل المشابهة التي أُرسلت كعقاب لأمثال هانز هوبرمان وأليكس شتاينر في ألمانيا – إلى أولئك الذين ساعدوا مَن هم بلا حول ولا قوة، وإلى أولئك الذين رفضوا التخلّي عن أبنائهم.

سارقة الكتب

كُل هذا هو دليل على التدهور المتزايد للجيش الألماني.

فهم يخسرون في روسيا.

ومُدنهم تُقصف الواحدة تلو الأخرى.

هناك حاجة إلى مزيد من الناس، وهم في حاجة إلى طرائق مختلفة لتجنيدهم، وفي معظم الحالات تُعطى أسوأ الوظائف إلى أسوأ الناس.

بينما تتفحّص عيناها الورقة، أمكن لليزيل أن ترى الطاولة الخشبية عبر ثقوب الأحرف المغروزة في الورقة. انعجنت كلمات مثل «إلزامي»، و «واجب» في الصفحة. راودتها رغبة قوية في التقيؤ. «ما هذا؟».

جاءت إجابة هادئة من بابا. «ظننتُ بأنني علمتكِ القراءة يا طفلتي». لم يتكلّم بغضب، أو سخرية. بل بدا صوته أجوف يتناسب مع وجهه الشبحي.

نظرت ليزيل إلى ماما الآن.

تحت عينها اليمنى ارتسمت تجعيدة عميقة، وفي غضون دقيقة، انهار وجه روزا. ليس نحو المركز، ولكن إلى جهة اليمين. انعقد أسفل خدها على شكل قوس ينتهي عند ذقنها.

بعد مرور عشرين دقيقة: فتاة في شارع هيمل

«السماء لطيفة اليوم، يا ماكس. الغيوم ناعمة جداً وحزينة، و...»

أشاحت بنظرها بعيداً وصالبت ذراعيها. فكّرت في حقيقة ذهاب بابا إلى الحرب، وشدّت سترتها عليها.

«الطقس بارد يا ماكس. إنه بارد جداً...».

بعد مرور خمسة أيام، عندما واصلت ليزيل عادتها في تأمل الطقس، لم تسنح لها فرصة لرؤية السماء.

سارقة الكتب

ففي المنزل المجاور، جلست باربرا شتاينر على الدرج الأمامي وشعرها ممشّط بأناقة كما هي عادتها. كانت تدخّن سيجارة وترتجف. قرّرت ليزيل الذهاب إليها، إلا أنها توقّفت عندما رأت كيرت يخرج ويجلس مع والدته.

رآها كيرت، ونادى عليها: «تعالي يا ليزيل. سيخرج رودي قريباً».

بعد توقف قصير، واصلت سيرها نحو الدرج.

وواصلت باربرا التدخين.

تدلّى الرماد من عُقب سيجارتها.

أخذها كيرت، نفض عنها الرماد، استنشقها، ومن ثم أعادها.

عندما انتهت السيجارة أخيراً، رفعت أم رودي نظرها. ومرّرت يدها عبر شعرها المُرتب.

«والدنا ذاهب أيضاً»، قال كيرت.

ساد الصمت.

باستثناء صوت مجموعة من الأطفال الذي يلعبون الكرة بالقرب من متجر السيدة ديلر.

«عندما يأتون ويطلبون أخذ أحد أطفالك»، أوضحت باربرا شتاينر من دون أن توجّه حديثها إلى أحد على وجه الخصوص، «فمن المفترض أن يقول المرء نعم موافقون».

زوجة حافظ الوعد

القبو: الساعة التاسعة صباحاً

ستّ ساعات حتى الوداع:
«لقد عزفتُ يا ليزيل على أكورديون شخص آخر».
أغلق عينيه: «وجلبتُ الإحباط والحزن لكل من سمعني».

باستثناء كأس الشمبانيا الذي احتساه في الصيف الماضي، لم يحتسِ هانز هوبرمان قطرة من الكحول على مدى عشر سنوات. ثم جاءت الليلة السابقة على مغادرته للتدريب.

ذهب إلى حانة نولر مع أليكس شتاينر في فترة ما بعد الظهر، وبقيا حتى وقت متأخر من الليل. تجاهل كِلا الرجلان تحذيرات زوجتيهما، وشربا حتى الثمالة. شجعهم على ذلك أن مالك حانة نولر، ديتر فيستهايمر، منحهما مشروبات مجانية.

على ما يبدو، دُعي هانز – عندما كان ما يزال صاحياً – إلى المسرح ليعزف الأكورديون. وقد عزف أغنية «الأحد الكئيب» السيئة السمعة

سارقة الكتب

- والمعروفة أيضاً باسم أغنية الانتحار المجريّة[1] - حيث أثار موجة من الأحزان التي تشتهر بها الأغنية، جالباً الإحباط لكل من في الحانة. تخيلت ليزيل المشهد والصوت. الأفواه التي تغصّ بالطعام. زجاجات البيرة الفارغة الملطخة بالرغوة. أصوات التنهدات. انتهاء الأغنية. تصفيق الحضور، وهتافهم بأفواههم المليئة بالبيرة.

عندما تمكّنا أخيراً من إيجاد طريقهما إلى منزليهما، لم يستطع هانز فتح الباب بمفتاحه. ولذلك فقط طرق الباب. مراراً وتكراراً. «روزا!».

كان ذلك الباب الخطأ.

لم تشعر السيدة هولتزابفيل بسعادة غامرة لرؤيته.

«أيها الخنزير! أنت تقف أمام البيت الخطأ». رمت بالكلمات من خلال ثقب المفتاح. «اذهب إلى المنزل المجاور، أيها الخنزير الغبي».

- شكراً، سيدة هولتزابفيل.

- أنت تعرفُ ما عليك فعله بشكرِك أيها الأحمق.

- عفواً؟

- فقط اذهب الى منزلك.

- شكراً، سيدة هولتزابفيل.

---

(1) Gloomy Sunday: أغنية شعبية من تأليف عازف البيانو والملحن المجري ريزو سيريس، نُشرت في عام 1933. حملت كلمات الأغنية الأصلية عنوان (العالم يُشارف على الانتهاء The world is ending) وهي تصف اليأس الناجم عن الحرب. بعدها جاء الشاعر لازلو جافور وكتب كلماته الخاصة للأغنية، بعنوان (الأحد الحزين Sad Sunday)، حيث يُريد بطل الأغنية الانتحار بعد وفاة حبيبته. أصبحت الكلمات الجديدة أكثر شعبية من القديمة بكثير. سُجّلت الأغنية لأول مرة باللغة الهنغارية من قبل بال كالمار في عام 1935. وهناك عدّة أقاويل تدّعي انتحار العديد من الأشخاص في أثناء الاستماع إلى هذه الأغنية. (المترجمة)

سارقة الكتب

- ألم أقل لكَ منذ برهة ما عليكَ فعله بشكركَ؟

- هل قلتِ لي حقاً؟

(بالطبع، استنتجت ليزيل هذا الحوار بالاستناد إلى محادثة أجرتها مع هانز في قبو منزلهم، وأخرى جرت خلال جلسة قراءة في مطبخ امرأة مسنة سيئة الطباع).

- اذهب من هنا، هيا!

عندما عاد إلى البيت في النهاية، لم يذهب بابا إلى فراشه، وإنما إلى غرفة ليزيل. وقف مخموراً في المدخل وراقبها وهي نائمة. استيقظت وظنّت على الفور بأنه ماكس.

«هل هذا أنتَ؟». سألت.

«لا»، قال، وهو يعرف تماماً ما تُفكّر فيه. «إنه أنا، بابا».

خرج من الغرفة وسمعت خطاه وهي تجد طريقها نحو القبو.

في غرفة المعيشة، صدح شخير روزا بحماس.

نحو الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، أُعطيت ليزيل في المطبخ أمراً مباشراً من روزا. «أعطني ذلك الدلو».

ملأته بالماء البارد ونزلت به الى قبو. تبعتها ليزيل، في محاولة عبثية لمنعها. «ماما، لا يمكنكِ القيام بذلك!».

«حقاً؟» واجهتها لفترة وجيزة على الدرج. «هل فاتني شيء، أيتها الخنزيرة؟ هل أصبحتِ أنتِ من تُعطين الأوامر هنا الآن؟» وقفتا كلاهما ساكنتين تماماً.

لم يصدر أي جواب عن الفتاة.

«جيد، فأنا لا أعتقد ذلك أيضاً».

أكملتا نزول الدرج، ووجدتا هانز ملقىً على ظهره، بين سرير من الأوراق المكدّسة. فقد شَعَر بأنه لا يستحق النوم على فراش ماكس. «الآن، دعينا نرى... » رفعت روزا الدلو، «... ما إذا كان على قيد الحياة».

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!».

أخذت المياه التي انسكبت على جسده شكلاً بيضوياً، بدءاً من منتصف صدره، وصولاً إلى رأسه. اندفع شعره إلى جانب واحد. حتى رموشه غرقت في الماء. «لماذا فعلتِ هذا؟».

- أيها السكّير العجوز!

- يا يسوع...

ارتفع البخار بشكل غريب من ملابسه. بدا سُكره جلياً، متكوماً فوق كتفيه مثل كيس من الإسمنت الرطب.

نقلت روزا الدلو من يدها اليسرى إلى اليمنى. «من حسن حظّكَ أنك ذاهب إلى الحرب»، قالت، وهي ترفع إصبعها في الهواء، من دون أن تخشى التلويح به. «وإلا لكنتُ قتلتكَ بنفسي. أنتَ تدرك ذلك، أليس كذلك؟».

أخرج بابا تياراً من الماء من حلقه. «هل كان عليكِ القيام بذلك؟».

«نعم. كان عليّ». وبدأت بصعود الدرجات. «إن لم تصعد في غضون خمس دقائق، فستحصل على دلو آخر».

بقيت ليزيل في القبو مع بابا. شغلت نفسها بمسح المياه ببعض الورق.

تحدّث بابا، بعد أن أمسك ذراع ليزيل بيده الرطبة وجعلها تتوقّف: «ليزيل؟» لاحقها وجهه. «هل تعتقدين بأنه على قيد الحياة؟».

جلست ليزيل.

صالبت ساقيها.

سارقة الكتب

وغرقت الورقة الرطبة على ركبتها.

- آمل ذلك يا بابا.

شعرت بالغباء لقول مثل هذا الجواب البدهي جداً، ولكن لم يبدُ أن أمامها خيارات أخرى.

وبهدف أن تقول شيئاً ذا قيمة، ولصرف انتباههما عن الأفكار المرتبطة بماكس، جلست القرفصاء وغمست إصبعها في بركة صغيرة من الماء المتجمّع على الأرض. «صباح الخير يا بابا». وفي المقابل غمزها هانز.

إلا أنها لم تكن الغمزة المعتادة، بل بدت ثقيلة وخرقاء. نسخة خاصة بمرحلة ما بعد ماكس، أو نسخة ما بعد السُكر. جلس وأخبرها عن الأكورديون في الليلة السابقة، وعمّا جرى مع السيدة هولتزابفيل.

المطبخ: الساعة الواحدة بعد الظهر

ساعتان حتى الوداع: «لا تذهب يا بابا. أرجوك».
يدها، التي تحمل الملعقة، ترتجف. «أولاً، خسرنا ماكس. لا أستطيع أن أخسركَ أنتَ الآن أيضاً». في المقابل، غرس الرجل السكّير مرفقيه في الطاولة وغطّى عينه اليمنى.
«أنتِ نصف امرأة الآن يا ليزيل». أراد أن ينكسر، إلا أنه قاوم ذلك، وتجاوزه. «اعتني بماما، هل ستقومين بذلك؟» لم يكن في مقدور الفتاة سوى أن تهز رأسها قليلاً فقط، في إشارة إلى موافقتها.
«أجل يا بابا».

غادر شارع هيمل مرتدياً سُكره وبزّة رسمية.

لن يغادر ألِيكس شتاينر بيته وأهله إلا بعد أربعة أيام أخرى. حيث حضر إلى منزل آل هوبرمان قبل ساعة من موعد مغادرة هانز إلى المحطة،

وتمنّى له كل الخير. كما رافقته عائلة شتاينر بأكملها، وصافحوا جميعاً يد هانز. احتضنته باربرا، وقبّلت كلا خديه. «عُد إلينا حياً».

«نعم يا باربرا»، قالها بثقة كاملة. «بالطبع سأفعل». حتى أنه تمكّن من إيجاد ضحكة ليرسمها على وجهه. «إنها مجرّد حرب فحسب. وكما تعلمين، فقد نجوتُ من أخرى قبلها».

عندما ساروا في شارع هيمل، خرجت المرأة الهزيلة من الباب المجاور، ووقفت على الرصيف.

- وداعاً يا سيدة هولتزابفيل. تقبّلي اعتذاري عن الليلة الماضية.

«وداعاً يا هانز، أيها الخنزير السكّير»، إلا أنها عرضت عليه إعلاناً بالصداقة أيضاً. «عُد إلى المنزل قريباً».

- أجل يا سيدة هولتزابفيل. شكراً لكِ.

حتى أنها مازحته قليلاً أيضاً:

- أنت تعرف ما عليكَ فعله بشكركَ.

عند الزاوية، ومن نافذة متجرها، راقبت السيدة ديلر المشهد بموقف دفاعي، بينما مرّت ليزيل ممسكة يد بابا. بقيت متعلقة بها على طول طريق شارع ميونخ، وصولاً إلى محطة القطار، حيث كان القطار هناك بالفعل.

وقفوا على المنصة.

عانقته روزا أولاً.

دون البوح بأية كلمة.

دفنت رأسها بقوة في صدره، ثم ابتعدت.

بعدها جاء دور الفتاة.

«بابا؟».

سارقة الكتب

لا شيء، لا جواب.

لا تذهب يا بابا. فقط لا تذهب. دعهم يأتون إليك. ولكن لا تذهب، أرجوك لا تذهب.

«بابا؟».

محطة القطار: الساعة الثالثة بعد الظهر

لم تبقَ أية ساعة، ولا أية دقيقة - فقد حان وقت الوداع: عانقها.
أراد أن يقول شيئاً، أي شيء. وأخيراً قال وهو يضمّها. «هل لكِ أن تهتمي بالأكورديون يا ليزيل؟ قررتُ ألا آخذه معي».
الآن وجد شيئاً يعنيه حقاً. «وإذا وقعت المزيد من الغارات، استمرّي في القراءة في الملجأ».
«حاضر يا بابا». حدّقت في نسيج بدلته على بُعد مليمتر من عينيها.
وقالت: «هل ستعزف لنا معزوفة عندما تعود إلى المنزل؟»

ابتسم هانز هوبرمان في وجه ابنته، وأعلن القطار أنه أصبح جاهزاً للمغادرة. مدّ يده وداعب بلطف وجهها. «أعدكِ»، قال، وذهب في طريقه نحو عربة القطار.

تبادلوا النظر إلى بعضهم البعض بينما تحرّك القطار.

لوّحت ليزيل وروزا.

أصبح هانز هوبرمان أصغر وأصغر، ولم تمسك يده الآن سوى الفراغ.

على المنصة، اختفى الناس من حولهما، حتى لم يبقَ أي شخص آخر. لم يكن هناك سوى المرأة التي تأخذ شكل الخزانة وفتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً.

سارقة الكتب

في الأسابيع القليلة التالية، وبينما انشغل هانز هوبرمان وأليكس شتاينر في معسكرات التدريب السريعة، تغيّر وجه شارع هيمل. لم يعد رودي هو نفسه - لم يعد يتحدث كما هي عادته. ماما أيضاً لم تعد هي نفسها - فقد توقّفت عن التوبيخ والتعنيف. وليزيل شعرت أيضاً بالآثار التي خلفّها كُل هذا الغياب. لم تعد لديها الرغبة في سرقة الكتب، مهما حاولت إقناع نفسها بأن ذلك سيبهجها ويُدخل الفرحة إلى قلبها.

بعد مرور أحد عشر يوماً على غياب أليكس شتاينر، قرّر رودي أنه قد نال كفايته. هرع عبر البوابة وطرق على باب ليزيل.

- هل ستأتين؟

- أجل.

لم تهتم إلى أين سيذهب أو ما كان يعتزم القيام به، إلا أنه لن يذهب بدونها. سارا في شارع هيمل، وقطعا شارع ميونخ إلى أن أصبحا خارج مولشينغ تماماً. بعد ساعة تقريباً، طرحت ليزيل السؤال المهم، بعد أن اكتفت حتى ذلك الحين بالنظر إلى وجه رودي الحازم، أو تفحص ذراعيه المتيبستين ويديه المقبوضتين في جيبيه.

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- أليس الجواب واضحاً؟

كافحت لمواكبة خطواته. «حسناً، لأكون صادقة معكَ - لا ليس حقاً».

- سأذهب للعثور عليه.

- هل تقصد أباك؟

«نعم». فكّر في ذلك. «في الواقع لا. أعتقد بأنني ذاهب لأجد الفوهرر».

ومشى بخطى أسرع. «لماذا؟».

توقّف رودي. «لأنني أريد أن أقتله». حتى انه استدار على الفور، ليُجابه بقية العالم. «هل سمعتم ذلك، أيها الأوغاد؟» صاح: «أريد أن قتل الفوهرر!».

استأنفا سيرهما، وسارا بضعة أميال أخرى أو نحو ذلك. عندها شعرت ليزيل بالرغبة في العودة. «سوف يحل الظلام قريباً، يا رودي».

تابع سيره. «وماذا يعني ذلك؟».

«سأعود».

توقّف رودي ونظر إليها الآن كما لو أنها قد خانته وطعنته في ظهره. «هذا صحيح، يا سارقة الكتب. اتركيني الآن. أراهن أنه لو كان هناك كتاب رديء في نهاية هذا الطريق لكنتِ تابعتِ المسير. أليس كذلك؟».

لفترة من الوقت، لم يتكلّم أي منهما، ولكن سرعان ما وجدت ليزيل الجرأة على الكلام. «هل تعتقد أنك الوحيد، أيها الخنزير؟» وابتعدت عنه. «أنت لم تخسر سوى والدكَ فقط...».

«ماذا يعني ذلك؟».

استغرقت ليزيل لحظة لتُحصي كل أولئك الذي خسرتهم.

أمها. شقيقها. ماكس فاندينبورغ. هانز هوبرمان. خسرتهم جميعاً. هذا إلى جانب حقيقة أنها لم تعرف يوماً أباها الحقيقي.

«هذا يعني»، قالت، «أنني ذاهبة إلى المنزل».

سارت لوحدها لمدة خمسة عشر دقيقة، وحتى عندما وصل رودي إلى جانبها بأنفاسه اللاهثة وخديه المتعرقين، لم ينطق بكلمة أخرى لأكثر من ساعة. سارا إلى المنزل جنباً إلى جنب بأقدامهما المتألمة وقلبيهما المتعبين.

ضمّ كتاب (أغنية في الظلام) فصلاً حمل عنوان (قلوب متعبة). نذرت

فتاة رومانسية نفسها للزواج من شاب هرب فيما بعد مع صديقتها المقرّبة. كانت ليزيل على يقين من أنه الفصل الحادي عشر. حيث تقول الفتاة: «قلبي متعب جداً»، وهي تجلس في كنيسة، وتكتبُ مذكراتها.

لا، فكّرت ليزيل وهي تسير. قلبي هو المتعب.

في الحقيقة، لا ينبغي لقلب يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً أن يشعر بكل هذا الحزن.

عندما وصلا إلى أطراف بلدة مولشينغ، نطقت ليزيل أخيراً ببعض الكلمات، عندما رأت ملعب هوبيرت أوفال. «هل تذكر عندما تسابقنا هناك يا رودي؟».

- بالطبع. كنتُ أفكّر في ذلك أيضاً - وكيف وقعنا نحن الاثنان.

- قلتَ حينها بأنك مُغطى بالغائط.

«لم يكن سوى طين». لم يعد في إمكانه كبتُ حماسته الآن. «في الحقيقة، تغطيتُ بالغائط عندما كنتُ في ميدان شبيبة هتلر. لقد بدأتِ تخلطين الأمور أيتها الخنزيرة».

- أنا لا أخلط شيئاً على الإطلاق. أنا أقول لكَ ما قلته أنتَ فقط. وفي المحصلة، فإن ما يقوله المرء، وما يحدث على أرض الواقع هما عادة شيآن منفصلان تماماً يا رودي، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بكَ. تحسّن الوضع بينهما الآن.

عندما عادا إلى شارع ميونخ مرّة أخرى، نظر رودي إلى نافذة متجر والده. قبل مغادرته، ناقش أليكس وباربرا ما إذا كان ينبغي لهما ترك المتجر مفتوحاً في غيابه. وقرّرا عكس ذلك، وخصوصاً وأن العمل قد أصبح قليلاً في الآونة الأخيرة على أي حال، وهناك تهديد جزئي بأن يواجهوا بعض المضايقات من قبل أعضاء الحزب، فالأعمال التجارية لم تسِر يوماً على

نحو جيد بالنسبة إلى أولئك المحرّضين ضد الحزب. ومن المفترض أن يكفي الراتب الذي سيحصل عليه من الجيش لتغطية حاجاتهم.

البزّات الرسمية معلقة ودمى العرض تقف بشكل مثير للسخرية. «أعتقدُ بأن ذلك قد بدأ يُحبّكَ»، قالت ليزيل بعد فترة من الوقت، في محاولة لإخباره بأن الوقت قد حان للمضي في طريقهما.

في شارع هيمل، وقفت روزا هوبرمان وباربرا شتاينر معاً على الرصيف.

«أوه، يا مريم!»، قالت ليزيل. «هل تبدوان قلقتين؟».

«تبدوان غاضبتين».

عندما وصلا أخيراً، جوبها بالكثير من الأسئلة، من نوع: «أين كنتما أنتما الاثنان بحق الجحيم؟»، إلا أن الغضب سُرعان ما أفسح المجال للشعور بالراحة لعودتهما.

مع ذلك، تابعت باربرا الاستجواب: «حسناً، تحدّث يا رودي؟».

أجابت ليزيل بالنيابة عنه. «كان يقتل الفوهرر»، قالت. وحاول رودي أن يظهر بمظهر السعيد حقاً لمدة دقيقة كاملة في محاولة لإرضائها.

«وداعاً يا ليزيل».

بعد عدّة ساعات، تعالى صوت ضجيج من غرفة المعيشة، ووصل إلى ليزيل في سريرها. استيقظت وبقيت ساكنة، وهي تفكّر في الأشباح، وبابا، والمتسللين، وماكس. سمعت صوت فتح وجر، تلاه صمت غامض. الصمت هو دائماً الإغراء الأكبر.

لا تتحركّي.

راودتها تلك الفكرة عدّة مرات، لكنها - على ما يبدو - لم تقتنع بها بما فيه الكفاية.

سارقة الكتب

لامست قدماها الأرض.

ومرّ الهواء عبر أكمام بيجامتها.

سارت عبر ظلام الممر باتجاه الصمت الذي كان صاخباً قبل قليل – نحو خيط ضوء القمر الذي يقطع غرفة المعيشة. توقفت، وشعرت بعُري كاحليها وأصابع قدميها. شاهدت بصمت المشهد المتجسّد أمامها.

استغرق الأمر وقتاً أطول مما توقعت لكي تتأقلم عيناها مع الظلمة، وعندما تأقلمتا أخيراً، لم يكن هناك مجال لإنكار حقيقة أن روزا هوبرمان تجلس على حافة السرير وأكورديون زوجها معلّق إلى صدرها. حامت أصابعها فوق المفاتيح للحظة. ومن ثم سكنت. لم تعد تتحرك. ولم تبدُ بأنها تتنفس.

اندفع المشهد بقوة نحو الفتاة الواقفة في الممر.

لوحة مرسومة

روزا مع الأكورديون.

ضوء القمر والظلام.

أبعاد اللوحة: 5' 1" × الأكورديون × الصمت.

بقيت ليزيل متسمّرة مكانها.

مرّت عدّة دقائق. الرغبة في سماع العزف على الأكورديون أنهكت قوى سارقة الكتب. في النهاية، لم تصدُر عن الأكورديون أية نغمة، فأصابع روزا لم تلامس المفاتيح قط. ولم يصدر أي تنفّس عن المنفاخ. لم يكن هناك سوى ضوء القمر الذي يُشبه شَعراً طويلاً مرخياً على الستارة، وروزا.

بقي الأكورديون معلقاً على صدرها. عندما حنت رأسها، غرق إلى

حضنها. شاهدت ليزيل ذلك، وأدركت أن ماما سوف تتجول في الأيام القليلة القادمة وهي تحمل آثار الأكورديون على جسدها. كما اعترفت أيضاً بجمال المشهد الذي تراه حالياً، واختارت عدم إزعاجه.

عادت إلى الفراش ونامت وهي تستذكر ماما وموسيقاها الصامتة. في وقت لاحق، عندما استفاقت من كابوسها المعتاد، وتسلّلت مرّة أخرى إلى الممر، رأت أن روزا ما تزال هناك، محتضنة الأكورديون.

مثل المرساة، سحبها إلى الأمام، وغرق جسدها.

بدت ميتة.

لا يمكن لها أن تتنفس بهذا الشكل، فكّرت ليزيل، وعندما اقتربت أكثر، استطاعت أن تسمع ذلك.

استأنفت ماما شخيرها مرّة أخرى.

من يحتاج إلى الأكورديون، فكّرت، عندما يملك المرء رئتين مثل هاتين؟

في نهاية المطاف، عندما عادت ليزيل إلى فراشها، لم تفارقها صورة روزا هوبرمان والأكورديون. وظلّت عينا سارقة الكتب مفتوحتين، بانتظار اختناق النوم.

جامع الجثث

لم يُرسل هانز هوبرمان ولا أليكس شتاينر للقتال. حيث أُرسل أليكس الى النمسا للخدمة في مستشفى تابع للجيش على أطراف فيينا. ونظراً لخبرته في الخياطة، فقد كُلّف بوظيفة تشبه على الأقل مهنته. حيث تأتي حمولات من الزي الرسمي والجوارب والقمصان بشكل أسبوعي، ويقوم هو بإصلاح ما يلزم إصلاحه، حتى لو كانت النتيجة فقط استخدامها كملابس داخلية للجنود البائسين في روسيا.

أما هانز، فمن المفارقة أنه أُرسل أولاً إلى شتوتغارت، وبعد ذلك إلى إيسن. حيث كُلّف بأكثر عمل مكروه على الجبهة الداخلية، وهو العمل مع LSE.

تفسير لا بدّ منه

LSE

– Luftwaffen Sondereinheit

وحدة القوات الجوية الخاصة.

سارقة الكتب

تقتضي مهمة وحدة القوات الجوية الخاصة البقاء فوق الأرض خلال الغارات الجوية لإخماد الحرائق وتدعيم جدران المباني وإنقاذ أي شخص محاصر خلال الغارة. وكما سيكتشف هانز قريباً، فهناك أيضاً تعريف بديل لهذا الاختصار. حيث شرح له رجال الوحدة خلال يومه الأول أن الاختصار يعني حقاً: لايِشن زامِلِراين هايت أي جامعو الجثث.

عندما وصل، تساءل هانز عمّا ارتكبه هؤلاء الرجال ليستحقوا مثل هذه المهمة، وتساءلوا هم بدورهم عما فعله هو. سأله قائدهم، الرقيب بوريس شيبر، على الفور. وعندما شرح هانز حادثة الخبز، واليهود، والسوط، صدرت عن الرقيب ذي الوجه المستدير ضحكة قصيرة. «أنت محظوظ لبقائكِ على قيد الحياة». عيناه مستديرتان أيضاً، واعتاد أن يمسحهما باستمرار. كانتا تحكّانه لأنهما متعبتين أو مليئتين بالدخان والغبار. «تذكّر فقط أن العدو هنا ليس أمامك».

أوشك هانز على طرح السؤال البدهي عندما وصله صوت من الخلف - الوجه المرتبط به يعود لشاب نحيل ذي ابتسامة ساخرة - إنه رينهولد زوكر. «معنا»، قال، «فإن العدو ليس فوق التل أو في أي اتجاه محدد. إنه في كل مكان». وعاد إلى التركيز على الرسالة التي يكتبها. «سوف ترى».

خلال فوضى الأشهر القليلة التالية، سيكون مصير رينهولد زوكر الموت. وسوف يقتله مقعد هانز هوبرمان.

مع وصول الحرب إلى ألمانيا بوتيرة متزايدة، تعلّم هانز أن كل مناوبة من مناوباته تبدأ بالطريقة نفسها. حيث يجتمع الرجال في الشاحنة لإطلاعهم على ما تم قصفه خلال فترة استراحتهم، والمناطق التي من المرجّح أن تُقصف مرّة أخرى، ومَن سيعمل مع مَن.

حتى عندما لم تكن هناك غارات، تعيّن عليهم إنجاز قدر كبير من

سارقة الكتب

العمل. حيث يعبرون المدن المدمرة، ويقومون بمهمات تنظيفها. في الشاحنة، عادة ما يجتمع اثنا عشر رجلاً متكاسلاً، ينزلون ويهبطون مع العرجات المختلفة للطريق.

منذ البداية، بدا من الواضح أن لكل واحد منهم مقعده الخاص.

مقعد رينهولد زوكر في منتصف الصف الأيسر.

أما مقعد هانز هوبرمان فكان الأخير في الخلف، عند حافة الشاحنة، حيث يمتد إليه ضوء النهار. تعلّم بسرعة أن يحذر من أية قمامة قد يرميها الآخرون من قلب الشاحنة. وخاصة أعقاب السجائر، التي يرمونها مشتعلة باتجاهه وهي في طريقها إلى خارج الشاحنة.

رسالة كاملة إلى العائلة

عزيزتي روزا وليزيل، كل شيء على ما يرام هنا.
آمل أن تكونا على خير ما يرام.
مع الحب، بابا.

في أواخر شهر تشرين الثاني / نوفمبر، ذاق طعم أول غارة فعلية. حيث أحاط الركام بالشاحنة، وانخرطوا في الكثير من الجري والصياح. اشتعلت الحرائق وتكدّست المباني المدمّرة مشكّلة تلالاً لا تنتهي. وقفت قنابل الدخان مثل عيدان الثقاب في الأرض، لتملأ رئتي المدينة.

كان هانز هوبرمان في مجموعة مكوّنة من أربعة أفراد، شكلّوا صفاً. وقف الرقيب بوريس شيبر في المقدمة، وذراعاه متخفيتان في قلب الدخان. خلفه وقف كيسلر، ومن ثم برونيويغ، ومن ثم هوبرمان. حيث يطفئ الرقيب النار، ويحرص الرجلان الآخران على إطفاء الرقيب، ومن باب الحرص فقط، يتواجد هوبرمان لإطفاء ثلاثتهم.

سارقة الكتب

من خلفه، تأوه بناء، وتعثّر خارّاً على الأرض.

سقط على وجهه أولاً، وتوقّف على بعد بضعة أمتار من كعب هانز. فاحت رائحة الاسمنت كما لو أنه جديد، واستحال الجدار إلى مسحوق هرول باتجاههم.

«جوت فيرداِمت! اللعنة يا هوبرمان!» صارع الصوت للخروج من النيران. وأعقبه على الفور ثلاثة رجال ملأ الرماد حلوقهم. حتى عندما ابتعدوا عن مركز الحطام، بدا أن ضباب المبنى المنهار يحاول اللحاق بهم. شعروا به أبيضَ ودافئاً، وهو يزحف وراءهم.

جلسوا قليلاً في وهم السلامة المؤقتة، وكان هناك الكثير من السعال والشتائم. كرّر الرقيب مشاعره السابقة. «اللعنة يا هوبرمان». كشط شفتيه، لتحريرهما. «ما كان ذلك بحق الجحيم؟».

- انهار المبنى فقط، وراءنا تماماً.

- أعرف ذلك. والسؤال هو، كم هو كبير؟ لا بد أنه بعلو عشرة طوابق شاهقة.

- لا يا سيدي، اثنان فقط، كما أعتقد.

«يا يسوع...». وداهمته نوبة سعال. «... ومريم، ويوسف!». انتزع الآن عجينة العرق والغبار من عينيه. «لا يمكننا القيام بالكثير حيال ذلك».

أحد الرجال الآخرين مسح وجهه وقال: «أتمنى فقط، ولو لمرة واحدة، أن أكون هناك عندما يصطدم مبنى بحانة... يا إلهي كم أتحرّق لشرب البيرة!».

انحنى كل منهم إلى الوراء.

أمكنهم جميعاً أن يتذوقوا طعم البيرة المتخيّلة، وهي تُخمد الحرائق المشتعلة في حلوقهم وتخفف الدخان. يا له من حلم جميل! إلا أنه

سارقة الكتب

مستحيل. فقد أدركوا جميعاً أن أية بيرة تتدفق في هذه الشوارع لن تكون بيرة على الإطلاق، وإنما نوعاً من الحليب المخفوق أو العصيدة.

تدثّر الرجال الأربعة بكتل الغبار الرمادية والبيضاء. وعندما وقفوا أخيراً، لاستئناف عملهم، أمكنهم رؤية بقع صغيرة فقط من زيهم الرسمي.

سار الرقيب نحو برونتويغ. وحاول تنظيف زيه بشدة، موجهاً عدّة ضربات نحو الصدر. «هذا أفضل. كان لديك بعض الغبار هناك، يا صديقي». ضحك برونتويغ، واستدار الرقيب إلى أحدث مجنّد لديه. «أنت أولاً هذه المرة يا هوبرمان».

عملوا على إطفاء الحرائق لعدّة ساعات، وحاولوا كل ما في وسعهم لإقناع أحد المباني بالبقاء واقفاً. في بعض الحالات، عندما يتضرّر الجانبان، تبرز الحواف المتبقية مثل المرفقين. وهنا تكمن قوة هانز هوبرمان. حيث استمتع تقريباً بالعثور على عارضة محترقة أو لوح من الاسمنت لتدعيم المرفقين، ومنحهما شيئاً ليستندا عليه.

يداه تطفحان بالشظايا، وأسنانه تُخبئ رواسب الأبنية المتداعية. تغطّت شفتاه بالغبار الرطب الذي أصبح صلباً، ولم يسلم أيٌّ جيب أو خيط أو تجعّد خفي في زيه من الهواء المحمّل بالغبار.

أسوأ جزء من العمل هو الناس.

ففي بعض الأحيان، يظهر شخص يتجوّل ذاهلاً عبر الضباب، من دون أن ينطق بأية كلمة، سوى الصراخ بأسماء الأحبة.

في بعض الأحيان كان ولفغانغ.

«هل رأيتَ ولفغانغ؟».

وتبقى بصماتهم عالقة على سترته.

«ستيفاني!».

«هانزي!».

«غاستل! غاستل شتوبوي!».

ومع هدوء الأوضاع، يتعالى الصراخ بالأسماء عبر الشوارع الممزقة، وينتهي أحياناً باحتضان مليء بالرماد، أو عويل لا ينتهي. حيث يتراكمون، ساعة تلو الأخرى، مثل الأحلام الحلوة والمرّة التي تنتظر أن تتحقّق.

تندمج المخاطر كلها في خطر واحد. الغبار والدخان واللهب. والناس المتضررين. ومثل بقية الرجال في وحدته، سوف يتعيّن على هانز إتقان فن النسيان.

«كيف حالكَ يا هوبرمان؟» سأله الرقيب في إحدى المرات.

النيران قريبة منهما.

هزّ هانز رأسه، بصعوبة.

في منتصف المناوبة، شاهدوا رجلاً مسنّاً يترنّح هائماً على وجهه في الشوارع. وعندما أنهى هانز تدعيم أحد الأبنية، استدار ورآه خلفه، منتظراً دوره بهدوء. جُرح دامٍ غطّى وجهه، مروراً بحلقه ورقبته. كان يرتدي قميصاً أبيضَ ذا ياقة حمراء داكنة، وحمل ساقه كما لو كانت بجانبه.

«هل يمكنكَ تدعيمي الآن، أيها الشاب؟».

حمله هانز وأخرجه من قلب الغبار.

ملاحظة موجزة وحزينة

بينما كان الرجل ما يزال بين يدي هانز هوبرمان، قمتُ بزيارة
إلى هذا الشارع في تلك المدينة الصغيرة.
بدت السماء رمادية وبيضاء بلون حصان أبيض.

سارقة الكتب

فقط عندما وضعه على رقعة من العشب المغطى بشظايا الاسمنت، لاحظ هانز موته.

«ما هذا؟» سأل أحد الرجال.

لم يكن في وسعه سوى أن يُشير فقط.

«أوه». سحبته يد بعيداً. «اعتَد على ذلك يا هوبرمان».

ولتمضية بقية مناوبته، أغرق نفسه في أداء واجباته. وحاول تجاهل الأصوات البعيدة للأشخاص المفجوعين.

بعد مرور ساعتين تقريباً، خرج على عجل من أحد المباني، قبل الرقيب ورجلين آخرين. لم ينظر إلى الأرض وتعثّر. فقط عندما نظر إلى الخلف، ورأى الآخرين ينظرون بكرب إلى ما تعثّر به، حتى أدرك ما كان.

جثة وجهها إلى الأرض.

غارقة في الغبار، ويداها تُغطيّان أذنيها.

إنها جثة صبي، ربما يبلغ من العمر أحد عشر أو اثني عشر عاماً.

مع تقدّمهم في الشارع، وعلى بعد مسافة قريبة، وجدوا امرأة تُنادي باسم رودولف. توجهت نحو الرجال الأربعة بين الضباب. بدا جسدها واهياً يُصارع القلق.

«هل رأيتم ابني؟».

«كم عُمره؟». سأل الرقيب.

«اثنتا عشرة سنة».

يا يسوع! أوه، يا يسوع المصلوب!

فكّروا جميعاً في ذلك، ولم يستطع الرقيب أن يجد القوة ليخبرها، أو ليُشير إلى الطريق.

عندما حاولت المرأة أن تمر من خلالهم وتتابع طريقها، أمسكها بوريس شيبر. «لقد جئنا للتو من هذا الشارع»، أكّد لها. «لن تجديه هناك».

ومع ذلك فقد تمسكّت المرأة المنهكة بخيوط الأمل، حرّرت نفسها، وبدأت تنادي باسمه وهي تهرول. «رودي!».[1]

عندها فكّر هانز هوبرمان في رودي آخر. ذاك الموجود في شارع هيمل. وتضرّع للسماء المحتجبة وراء الغبار بأن يكون رودي آمناً. وبطبيعة الحال، أوصلته أفكاره إلى ليزيل وروزا وآل شتاينر، وماكس.

عندما انضموا إلى بقية الرجال، تمدّد واستلقى على ظهره.

«كيف هو الوضع هناك؟» سأل أحدهم.

كانت رئتا بابا ممتلئتين بالسماء.

بعد مرور بضع ساعات، وعندما انتهى من الاغتسال، وتناول الطعام، وتقيئه، حاول كتابة رسالة مفصّلة، لكن لم يكن في وسعه السيطرة على يديه، مما اضطره إلى جعلها قصيرة. فكّر في أنه سيروي لهم بقية التفاصيل شخصياً، في حال نجا وعاد إلى منزله.

روزا وليزيل الغاليتين، استهلّ رسالته.

استغرقه الأمر عدّة دقائق لكتابة تلك الكلمات.

(1) رودي هو الاسم المختصر لاسم رودولف. (المترجمة)

سارقة الكتب

آكِلو الخبز

كان ذلك عاماً طويلاً ومليئاً بالأحداث في مولشينغ، وها قد شارف أخيراً على نهايته.

قضت ليزيل الأشهر القليلة الأخيرة من عام 1942 غارقة في أفكار حول الرجال الثلاثة اليائسين. وتساءلت أين هم وماذا يفعلون.

بعد ظهر أحد الأيام، أخرجت الأكورديون من حقيبته ولمّعته بقطعة قماش. مرّة واحدة فقط، وقبل أن تُعيده إلى مكانه، نفّذت الخطوة التي عجزت عنها ماما. وضعت إصبعها على مفتاح من المفاتيح وحرّكت المنفاخ بهدوء. روزا محقّة. حيث زادت تلك الخطوة من فراغ الغرفة.

كلّما التقت برودي، سألته عمّا إذا وصلت إليهم أية أخبار من والده. في بعض الأحيان، كان يستغرق في وصف تفصيلي لإحدى رسائل أليكس شتاينر. وبالمقارنة، بدت الرسالة الوحيدة التي بعث بها بابا مخيبة للآمال إلى حد ما.

أخبار ماكس، بالطبع، كانت من محض خيالها فقط.

وبتفاؤل كبير، تصوّرته يسير بمفرده على طريق مهجور. كما تخيّلته في

سارقة الكتب

بعض الأحيان يصل إلى منزل آمن في مكان ما، حيث تكون بطاقة هويته كافية لخداع الشخص المناسب.

تجسّد الرجال الثلاثة أمامها في كل مكان.

رأت بابا واقفاً في نافذة المدرسة. وكثيراً ما جلس معها ماكس بالقرب من المدفأة. أما أليكس شتاينر، فهو يأتي عندما تكون بصحبة رودي، ليُحدّق فيهما عندما يوقفان دراجتيهما في شارع ميونخ ليتأملا متجره.

«انظري إلى تلك البزّات الرسمية»، اعتاد رودي أن يقول لها، ويداه ورأسه ملتصقين بزجاج المتجر. «كُلها مصيرها مكبّ النفايات».

ومن الغريب أن إلهاء ليزيل المفضّل هو السيدة هولتزابفيل. حيث أصبحت جلسات القراءة تُقام في يوم الأربعاء أيضاً، وانتهت من قراءة النسخة المائية المختصرة من كتاب (رجل الصافرة) وباشرت بقراءة كتاب (حامل الأحلام). أحياناً، قدّمت لها المرأة المُسنة الشاي، أو أعدّت بعض الحساء الذي كان أفضل بمراحل من ذلك الذي تُعدّه ماما، فهو أكثر تماسكاً.

وفي الفترة بين شهر تشرين الأول / أكتوبر وشهر كانون الأول / ديسمبر، مرّ في مولشينغ موكب آخر لليهود، وتبِعه واحدٌ آخر. وكما حدث في المرّة السابقة، هرعت ليزيل إلى شارع ميونخ، لترى ما إذا كان ماكس فاندينبورغ بينهم. شعرت بأنها ممزقة بين الرغبة الجليّة في رؤيته – ومعرفة أنه ما زال على قيد الحياة – وبين غيابه الذي يمكن أن يعني عدداً من الأشياء، ومن بينها الحرية.

في منتصف شهر كانون الأول / ديسمبر، مرّت مجموعة صغيرة من اليهود والمجرمين الآخرين في شارع ميونخ مرّة أخرى، في طريقهم إلى داخاو.

كان ذلك الموكب الثالث.

خرج رودي من المنزل رقم 35، ومشى في شارع هيمل مع حقيبة صغيرة ودراجتين اثنتين.

«هل تُريدين اللعب، أيتها الخنزيرة؟».

محتويات حقيبة رودي

ست قطع قديمة من الخبز، مقسمة إلى أرباع.

تحرّكا متقدّمين على الموكب، باتجاه داخاو، وتوقفا عند جانب فارغ من الطريق. أعطى رودي الحقيبة إلى ليزيل.

- خُذي حفنة.

- لا أدري إن كانت هذه فكرة جيدة.

وضع بعض الخبز على راحة يدها. «والدك ظنّ أنها كذلك».

أنّى لها أن تُجادل مثل هذا الكلام؟

شعرت أن هذه الفكرة تستحق المجازفة بعقوبة الجلد من أجل تحقيقها.

«إذا كنا سريعين فلن يمسكوا بنا». بدأ بنشر الخبز على الأرض. «لذلك تحرّكي أيتها الخنزيرة».

لم تستطع ليزيل تمالك نفسها. فقد ارتسم أثر لابتسامة على وجهها عندما وزّعت مع رودي شتاينر، أفضل صديق لها، قطع الخبز على الطريق. عندما انتهيا، أخذا دراجتيهما واختبآ بين أشجار عيد الميلاد.

بدا الطريق بارداً ومستقيماً. ولم يمض وقت طويل حتى جاء الجنود مع اليهود.

بين ظلال الأشجار، تأمّلت ليزيل هذا الصبي الشجاع. كم تغيّرت

سارقة الكتب

الأمور! فقد تحوّل من سارق فاكهة إلى واهبٍ للخبز. بدا شعره الأشقر، وعلى الرغم من الظلام، متوهجاً مثل شمعة. سمعت بطنه يهدر – ومع ذلك فقد فضّل أن يهب الخبز الذي يملكه للآخرين.

هل هذه ألمانيا؟

هل هذه ألمانيا النازية؟

أول جندي مرّ لم يرَ الخبز – فهو لم يكن جائعاً – إلا أن اليهودي الأول رآه.

مدّ يده الخشنة والتقط قطعة ودفعها من دون تفكير إلى فمه.

هل كان هذا ماكس؟ فكرّت ليزيل.

لم تتمكّن من رؤيته بشكل واضح، ولذلك تحرّكت لتحصل على موقع رؤية أفضل.

«مهلاً!» غضب رودي. «لا تتحركي. إذا وجدونا هنا وربطوا بيننا وبين الخبز، فسيُقضى علينا».

استمرّت ليزيل في الحركة.

انحنى المزيد من اليهود ليلتقطوا الخبز من الطريق، ومن موقعها بين الأشجار، تفحّصت سارقة الكتب كل واحد منهم. لم يكن ماكس فاندينبورغ بينهم.

لم تدم راحتها سوى دقائق معدودة.

عندما لاحظ جندي أن أحد السجناء يمد يده إلى الطريق ليأخذ قطعة خبز، أمرَ الجميع بالتوقف. وفُحص الطريق عن كثب. مضغ السجناء الخبز بسرعة وبصمت. وبشكل جماعي ابتلعوا ما في أفواههم.

التقط الجندي بضع قطع، وتفحّص جانبي الطريق. كما نظر السجناء حولهم أيضاً.

«هناك!».

تقدّم أحد الجنود نحو الفتاة الواقفة بمحاذاة شجرة قريبة، ورأى الصبي بعد ذلك. بدأ كلاهما بالركض.

اختارا اتجاهين مختلفين، تحت أغصان الأشجار الباسقة.

- لا تتوقفي عن الركض يا ليزيل!

- وماذا عن الدراجتين؟

- شايس درِاوف! اللعنة عليهما، من يهتم لأمرهما!

ركضا، وبعد مئة متر، أصبحت أنفاس الجنود أكثر قُرباً. شعرت بها تقترب منها، وانتظرت أن تقبض عليها يدٌ ما.

كانت محظوظة.

فلم تحصل سوى على رفسة على مؤخرتها وبضع كلمات. «استمري في الركض أيتها الفتاة الصغيرة، فأنتِ لا تنتمين إلى هنا!» ركضت، ولم تتوقّف إلى أن قطعت ميلاً آخر على الأقل. وقد جرحت الأغصان ذراعيها.

تدحرجت مخاريط الصنوبر عند قدميها، وعشعش طعم إبر عيد الميلاد في رئتيها.

مرّت خمس وأربعون دقيقة قبل أن تعود إلى مكان الجريمة، حيث جلس رودي بجانب الدراجتين الصدئتين. كان قد جمع ما تبقى من الخبز القاسي وهو منشغل الآن في مضغه.

«قلتُ لك ألا تقتربي كثيراً»، قال.

أدارت ظهرها له. «هل ترى آثار قدم هنا؟».

دفتر الرسومات المخفي

قبل أيام قليلة من عيد الميلاد، وقعت غارة أخرى، من دون أن تسقط أية قنابل على بلدة مولشينغ. وذكرت الإذاعة أن معظم القنابل سقطت في الريف المحيط بعيداً عن البلدة المأهولة.

الأكثر أهمية من ذلك هو رد الفعل في ملجأ آل فيدلر. فبمجرد وصول البقية إلى الملجأ، استقر الجميع في أماكنهم وانتظروا. نظر الجميع إليها بترقّب.

وصلها صوت بابا، عال في أذنيها.

«وإذا وقعت المزيد من الغارات، استمرّي في القراءة في الملجأ».

انتظرت ليزيل، فهي بحاجة للتأكّد من أنهم يريدون ذلك فعلاً.

تحدّث رودي نيابة عن الجميع. «اقرئي لنا، أيتها الخنزيرة».

فتحت الكتاب، ومرة أخرى، وجدت الكلمات طريقها لتسود على جميع الحاضرين في الملجأ.

في المنزل، وبمجرّد أن أعطت صفارات الإنذار الإذن للجميع بالعودة

سارقة الكتب

إلى منازلهم، جلست ليزيل في المطبخ مع ماما. بدا القلق بادياً على تعابير روزا هوبرمان، ولم يمض وقت طويل حتى حملت سكيناً وغادرت الغرفة. «تعالي معي».

سارت إلى غرفة المعيشة وأزالت الملاءة من على حافة فراشها. على الجهة الخلفية من الجدار، رأت شقاً مخيطاً بشكل مخفي. ولو لم تعرف روزا بمكانه مسبقاً فمن المحال تقريباً لأي شخص أن يعثر عليه. شقّته روزا بعناية وأدخلت يدها لما يصل إلى نحو طول ذراعها كاملة. عندما سحبتها، كانت تحمل فيها كتاب ماكس فانديبورغ.

«طلب مني إعطاءك هذا عندما تصبحين مستعدة»، قالت. «كنتُ أفكّر في إعطائك إياه في عيد ميلادكِ. ومن ثم قرّرتُ تقديم الموعد إلى عيد الميلاد». وقفت روزا هوبرمان، وارتسمت نظرة غريبة على وجهها. لم تكن تدلّ على الكبرياء، بل ربما هو ثقل استذكار تلك اللحظات الماضية. وقالت: «أعتقد أنكِ كنتِ دائماً مستعدة يا ليزيل. منذ اللحظة التي وصلتِ فيها إلى هنا، وتمسكّتِ بتلك البوابة، كان من المقدّر لكِ أن تحصلي على هذا». انتقل الكتاب من يدها إلى يد ليزيل.

حمل الغلاف العنوان التالي:

قاطفة الكلمات

مجموعة صغيرة من الأفكار الموجّهة إلى ليزيل ميمنجر.

حملته ليزيل بين يديها الناعمتين، وحدّقت فيه. «شكراً ماما».

عانقتها.

شعرت برغبة جامحة في أن تُخبر روزا هوبرمان كم تحبها. ومن المؤسف أنها لم تقل أي شيء.

سارقة الكتب

أرادت أن تقرأ الكتاب في القبو، تكريماً لذكرى الأيام الماضية، إلا أن ماما أقنعتها بخلاف ذلك. «هناك سبب وراء مرض ماكس هناك»، قالت: «ويمكنني أن أقول لكِ شيئاً واحداً أيتها الفتاة، لن أسمح لكِ بأن تمرضي أبداً».

وبالتالي فقد قرأته في المطبخ.

(قاطفة الكلمات).

تصفحّت عدداً لا يُحصى من الرسومات والقصص، والصور ذات الشروحات التوضيحية.

أشياء تصوّر رودي مثلاً على منصة تتويج، وثلاث ميداليات ذهبية تتدّلى حول عنقه. وخُطّت تحت الصورة عبارة [شعر بلون الليمون]. كما وجد رجل الثلج طريقه إلى الرسومات، وكذلك الهدايا الثلاث عشرة، ناهيكم عن سجلات تخصّ ليالٍ لا تحُصى قضاها في القبو، أو بجانب دفء النار.

بالطبع، خبأ الكتاب بين طيّاته العديد من الأفكار، والرسومات، والأحلام المتعلقة بشتوتغارت، وألمانيا، والفوهرر. ذكريات عائلة ماكس كانت حاضرة هناك أيضاً. ففي نهاية المطاف، لم يستطع مقاومة رغبته في تضمينهم والإتيان على ذكرهم، فقد توجّب عليه ذلك.

من ثم، وصلت إلى الصفحة رقم 117، حيث ظهرت قاطفة الكلمات لأول مرّة بين صفحات هذا الكتاب، على شكل حكاية أو قصّة خيالية. لم تكن ليزيل متأكّدة أيهما هي الكلمة الأصح لاستخدامها. حتى بعد مرور عدّة أيام، عندما بحثت عن معنى كِلا المصطلحين في قاموس دودن، لم تستطع التمييز بينهما.

في الصفحة السابقة برزت ملحوظة صغيرة.

سارقة الكتب

ليزيل، دوّنتُ هذه القصّة على عجل. ربما قد كبرتِ على مثل هذه الحكايات، أو ربما لا أحد يكبُر على الاستمتاع بالحكايات. فكرتُ بكِ وبكتبكِ وكلماتكِ، وتداعت هذه القصّة الغريبة إلى رأسي. آمل أن تجدي فيها بعض الفائدة والمتعة.

قلبت الصفحة.

كان يا مكان، في قديم الزمان، وفي سالف العصر والأوان، كان هناك شاب غريب، وضئيل الحجم. اتخذ هذا الشاب ثلاثة قرارات مهمة بخصوص حياته:

- أن يفرق شعره من الجانب المعاكس للجميع.
- أن يعتمر شارباً صغيراً غريباً.
- أن يحكم يوماً ما العالم بأسره.

لبعض الوقت، تسكّع الشاب هنا وهناك، وهو يفكّر، ويخطط، ويحدّد الكيفية التي سيجعل من خلالها العالم أجمع خاضعاً لسيطرته. ثم في أحد الأيام، خطرت له الخطة المثالية. فقد رأى أماً تؤنّب طفلها الصغير مطولاً لدرجة أنه شرع في البكاء أخيراً. ولكن على مدى بضع دقائق قليلة، تحدّثت إليه بهدوء شديد، إلى أن هدأ وابتسم.

هرع الشاب إلى المرأة وعانقها. "الكلمات!"، قال ذلك وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

- ماذا؟

لكنه لم يجبها.

فقد تركها على الفور.

نعم، قرّر الفوهرر بأنه سيحكم العالم بالكلمات. قال "لن أطلق النار أبداً"، مضيفاً، "لن أضطر إلى فعل ذلك". ومع ذلك، ولكي ننصف الرجل، فهو لم يكن أحمق أو غبياً على الإطلاق. حيث تقوم خطته الهجومية الأولى على زرع أكبر قدر ممكن من الكلمات في أكثر عدد ممكن من المناطق في وطنه.

زرعها ليلاً ونهاراً، واعتنى بها.

شاهدها وهي تنمو، إلى أن ارتفعت أخيراً غابات واسعة من الكلمات في جميع أنحاء ألمانيا.

واستحالت إلى دولة من الأفكار المزروعة.

خلال الفترة التي نمت فيها الكلمات، زرع الفوهرر الشاب أيضاً بذوراً لخلق رموز، وهي في طريقها لأن تُزهر بشكل كامل.

حان الوقت الآن، وأصبح الفوهرر مستعداً.

دعا شعبه إلى رؤية إنجازه المجيد، مستخدماً أرقى وأبشع الكلمات، التي انتقاها بنفسه من غاباته.

وجاء الشعب.

سارقة الكتب

وضعهم جميعاً على حزام ناقل جعلهم يمرّون عبر آلة تسكب في رؤوسهم، وخلال لحظات قليلة، عظات وأفكار عن الحياة. تغلغلت الكلمات فيهم. اختفى الوقت، وأصبحوا الآن يعرفون كل ما يحتاجون إلى معرفته. لقد أصبحوا منومين مغناطيسياً.

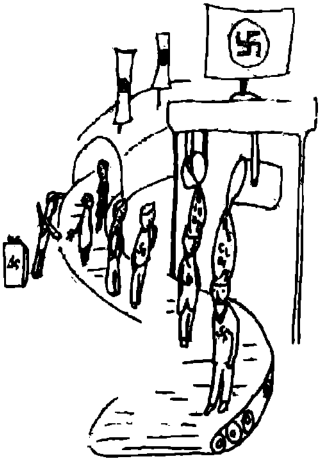

بعد ذلك، تم تزويدهم برموزهم، وكان الجميع سعداء.

سرعان ما ازداد الطلب على الكلمات والرموز إلى درجة أنه مع نمو الغابات، ازدادت الحاجة إلى عدد أكبر من الناس للحفاظ عليها والاعتناء بها. حيث وظّف الفوهرر بعضهم لتسلّق الأشجار، وقطف الكلمات، ورميها إلى أولئك الموجودين في الأسفل. حيث يتم تقديمها مباشرة إلى بقية الشعب، ناهيكم عن أولئك الذين عادوا للاستزادة وتناول المزيد.

وقد أُطلق على أولئك الذين يتسلّقون الأشجار اسم "قاطفي الكلمات".

وأفضل قاطفي الكلمات هم أولئك الذين يفهمون القوة الحقيقية للكلمات، ولديهم القدرة دوماً على التسلّق إلى أعلى علو. ومن بين قاطفي الكلمات المميزين هؤلاء، كانت هناك فتاة صغيرة، ونحيلة. اشتُهرت بأنها الأفضل في منطقتها لأنها تُدرك تماماً مدى عجز الإنسان من دون كلمات. كانت لديها الرغبة، وكانت تتوق إلى الكلمات.

في أحد الأيام، التقت شاباً مُحتقراً من قبل وطنها، على الرغم من أنه وُلد وترعرع فيه. أصبحا صديقين حميمين. وعندما مرض الشاب، سمحت قاطفة الكلمات لدمعة واحدة من دموعها بأن تسقط على وجهه. الدمعة التي قوامها الصداقة —كلمة واحدة— جفّت وأصبحت بذرة. عندما زارت الفتاة الغابة لاحقاً، زرعت تلك البذرة بين الأشجار الأخرى. وحرصت على سقيها قبل وبعد كل مناوبة تقوم بها.

سارقة الكتب

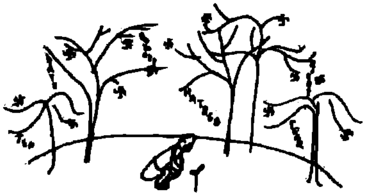

في البداية، لم تُظهر هذه البذرة أية علامة تدلّ على الحياة، ولكن من بعد ظهر أحد الأيام، عندما تفقدتها بعد يوم كامل من قطف الكلمات، برز برعم صغير من الأرض. حدّقت به لفترة طويلة.

نمت الشجرة أسرع من أية شجرة أخرى، إلى أن أصبحت أطول شجرة في الغابة، وجاء الجميع للنظر إليها. تهامسوا بشأنها، وانتظروا... قدوم الفوهرر.

غاضباً، أعلن الفوهرر على الفور أنه سيتم قطع الشجرة. عندها شقّت قاطفة الكلمات طريقها عبر الحشد. وسقطت على يديها وركبتيها، "أرجوك"، صرخت، "لا تأمرهم بقطعها".
ومع ذلك، لم يتأثر الفوهرر بحزنها، فهو لا يستطيع أن يُقدّم استثناءات. جُرّت قاطفة الكلمات بعيداً، واستدار الفوهرر نحو مساعده وأمره: "أحضر فأساً، من فضلك".

في تلك اللحظة، تحرّرت قاطفة الكلمات من قبضة حرّاسها. ركضت، وتسلّقت الشجرة، وحتى عندما ضرب الفوهرر جذع الشجرة بفأسه، واصلت صعودها نحو أعلى الأغصان. استمرّت نداءات الحشد وضربات الفأس في الأسفل. مرّت الغيوم بجانبها مثل وحوش بيضاء ذات قلوب رمادية. خائفة وعنيدة، بقيت قاطفة الكلمات هناك، منتظرة سقوط الشجرة.
إلا أن الشجرة لم تتزعزع.
مرّت عدّة ساعات، ومع ذلك لم يستطع فأس الفوهرر أن يؤثّر أدنى تأثير في جذع الشجرة. في حالة من الانهيار، أمر الفوهرر رجلاً آخر بالاستمرار في محاولة قطع الشجرة.
مرّت الأيام.
واستحالت الأيام إلى أسابيع.
ولم يتمكن مئة وست وتسعون جندياً من إحداث أي تأثير في شجرة قاطفة الكلمات.

سارقة الكتب

"لكن كيف تأكل؟" سأل الناس.
"كيف تنام؟"
ما يجهلونه هو أن قاطفي كلمات آخرين اعتادوا على تزويدها بالمؤن، حيث تنزل الفتاة إلى الأغصان السفلى لأخذها.

أثلجت السماء، وأمطرت، وحلّت الفصول ومرّت.
وبقيت قاطفة الكلمات هناك.
عندما فشل رجل الفأس الأخير في مساعيه، ناداها.
"يا قاطفة الكلمات! يمكنك النزول الآن! فلا يوجد من هو قادر على هزيمة هذه الشجرة!"
قاطفة الكلمات، التي سمعت صوت الرجل البعيد جداً، أجابت هامسة. "لا، شكراً لك". ووصلت الكلمات إليه من خلال الأغصان.

لا أحد يعرف بالضبط كم مرّ من الوقت، ولكن من بعد ظهر أحد الأيام، وصل رجل فأس جديد إلى المدينة. بدت حقيبته ثقيلة جداً بالنسبة إلى حجمه، عيناه متعبتان، وهو يجرّ قدميه جراً من شدّة الإرهاق. "الشجرة"، سأل الناس. "أين هي الشجرة؟"

لحق به حشد من الناس، وعندما وصل، غطّت الغيوم الأغصان العالية. تمكنت قاطفة الكلمات من سماع الناس يتهامسون عن قدوم رجل فأس جديد يسعى إلى وضع حد لاحتجاجها.
قال الناس، "لن تنزل من أجل أي أحد".
لم يعرف الناس مَن هو رجل الفأس الجديد، ولم يُدركوا حقيقة أنه مصمّم على تحقيق غايته، ولا يمكن لأي شيء أن يزعزع عزيمته.
فتح حقيبته وسحب شيئاً أصغر حجماً بكثير من الفأس.

سارقة الكتب

ضحك الناس، "لا يمكنك قطع شجرة مستخدماً مطرقة قديمة!"

لم يستمع الشاب إليهم. وبحث في حقيبته عن بعض المسامير. وضع ثلاثة منها في فمه وحاول ضرب الرابع في الشجرة. كانت الأغصان الأولى مرتفعة للغاية، وقدّر أنه يحتاج إلى أربعة مسامير لاستخدامها كموطئ قدم من أجل الوصول إلى الأغصان.

"انظروا إلى هذا أحمق"، صرخ أحد الرجال المترقبين. "لم يستطع أحد آخر أن..."

وصمتَ الرجل.

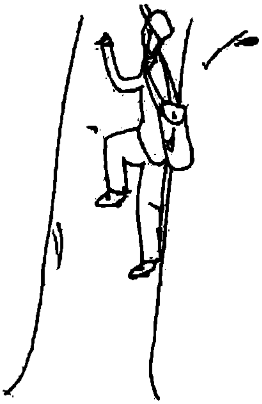

دخل المسمار الأول الشجرة وظل ثابتاً بعد خمس ضربات. ثم دخل الثاني، وبدأ الشاب بالصعود.

بعد صعوده على المسمار الرابع، وصل إلى أحضان الأغصان وتابع طريقه. راودته رغبة في أن يناديها وهو يصعد، إلا أنه قرّر عكس ذلك.

يبدو أن صعوده استمر لأميال. فقد استغرقه الأمر عدّة ساعات للوصول إلى الأغصان الأخيرة، وعندما فعل، وجد قاطفة الكلمات نائمة بين بطانياتها والغيوم.

شاهدها لعدة دقائق.

وقد سخّن دفء الشمس السطح الغائم.

وقد سخّن دفء الشمس السطح الغائم.

مدّ يده، ولمس ذراعها. استيقظت قاطفة الكلمات. فركت عينيها وبعد النظر طويلاً إلى وجهه، تحدّثت.

"هل هذا أنتَ حقاً؟"

هل من حرك أنتَ أخذتُ بذرة هذه الشجرة؟

أومأ الشاب.

ارتعش قلبه وهو يشدّ على الأغصان. "إنه أنا".

معاً، بقيا عند قمة الشجرة. وعندما اختفت الغيوم، أمكنهما أن يشاهدا الغابة بأكملها.

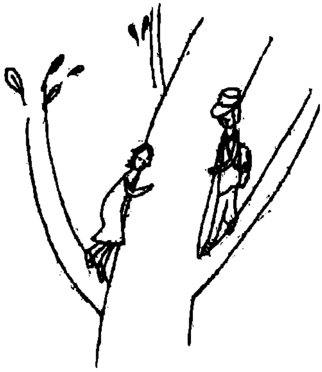

سارقة الكتب

"لن تتوقف هذه الشجرة عن النمو"، قالت الفتاة.
"وكذلك الأمر بالنسبة إلى هذا"، ونظر الشاب إلى الغصن الذي يقبض عليه بيده.
عندما اكتفيا من تأمل الغابة، وتحدثا بما فيه الكفاية، شرعا في النزول من الشجرة، مخلّفين وراءهما البطانيات وما تبقى من طعام.
لم يُصدّق الناس أعينهم، وفي اللحظة التي وطأت فيها قدم الشاب وقاطفة الكلمات وجه الأرض، بدأت الشجرة أخيراً بإظهار ضربات الفأس، حيث برزت الكدمات، والشقوق على الجذع، وبدأت الأرض ترتعش.

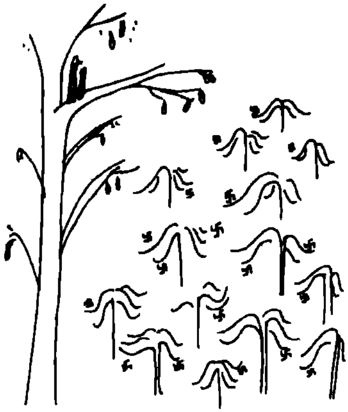

"إنها على وشك السقوط"، صرخت امرأة شابة. "الشجرة، إنها تسقط!"
شجرة قاطفة الكلمات، بكل أميالها وارتفاعها الشاهق، بدأت تسقط ببطء. أصدرت أنيناً عميقاً وهي تجد طريقها نحو الأرض. اهتزّ العالم، وعندما استقر كل شيء أخيراً، امتدت الشجرة بين بقية أشجار الغابة.
تسلّقت قاطفة الكلمات والشاب الجذع الأفقي، وتنقّلا بين أغصان الشجرة الضخمة. عندما نظرا خلفهما، لاحظا أن أغلب المتفرجين قد شرعوا في العودة إلى منازلهم، هناك، في الغابة.
في أثناء سيرهم، توقّفوا عدّة مرات، فقد ظنّوا بأنهم يسمعون أصواتاً وكلمات، هناك وراءهم، فوق شجرة قاطفة الكلمات.

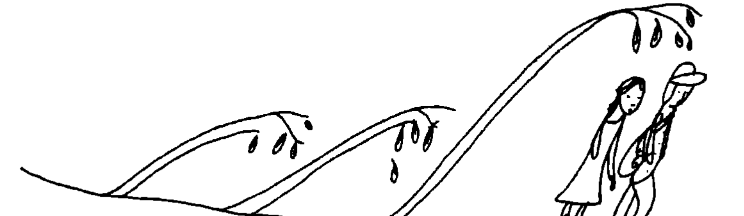

سارقة الكتب

لفترة طويلة، جلست ليزيل على طاولة المطبخ وتساءلت عن مكان ماكس فاندينبورغ، في تلك الغابات هناك. كان الضوء خافتاً من حولها. وغطّت في نوم عميق. لاحقاً، أجبرتها ماما على الذهاب إلى فراشها. ذهبت، وهي تقبض على كتاب رسومات ماكس وتشّده إلى صدرها.

بعد ساعات، عندما استيقظت، جاءت الإجابة على سؤالها. «بالطبع»، همست. «بالطبع، أنا أعرف أين هو»، وعاودت النوم مجدداً، وحلمت بالشجرة.

مجموعة بِزّاث الفوضوي

المنزل رقم 35 في شارع هيمل، 24 كانون الأول / ديسمبر

مع غياب الوالدين، وجّه آل شتاينر دعوة إلى روزا وترودي هويرمان وليزيل لقضاء عيد الميلاد معهم.
عند وصولهنّ، كان رودي ما يزال منشغلاً بتفسير ملابسه. نظر إلى ليزيل واتّسع فمه قليلاً فقط.

مرّت الأيام السابقة على عيد الميلاد في عام 1942 بطيئة وثقيلة ومحمّلة بالثلوج. أعادت ليزيل قراءة كتاب (قاطفة الكلمات) عدّة مرات، بدءاً من القصّة نفسها وصولاً إلى العديد من الرسومات والتعليقات الأخرى التي ضمها الكتاب بين طيّاته. في ليلة عيد الميلاد، اتخذت قراراً يتعلّق برودي، ولن تُبالي بالعقاب الذي سينتظرها نتيجة البقاء خارج المنزل حتى وقت متأخر.

ذهبت إلى جارها قُبيل الظلام، وأخبرته بأنها قد حضّرت هدية له بمناسبة عيد الميلاد.

سارقة الكتب

نظر رودي إلى يديها وتأملها باحثاً عن هديته. «حسناً، أين هي بحق الجحيم؟».

«ما دمتَ تتكلّم بهذه الطريقة فلتنسَ أمر الهدية إذاً».

لكنّ رودي فهم القصّة كلّها. فقد رآها على هذا النحو سابقاً. فضحتها عيناها الخطيرتان وأصابعها المتعرّقة. ورائحة السرقة أحاطت بها من كل جانب، وأمكنه في الواقع أن يُشمّها. «هذه الهدية التي تتحدثين عنها...»، قدّر. «... أنتِ لم تحصلي عليها بعد، أليس كذلك؟».

- لا.

- ولن تشتريها كذلك، صحيح؟

- بالطبع لا. هل تظن أن بحوزتي أي مال؟

في الأثناء، ما زال الثلج يتساقط، وعلى حافة العشب، تشكّل جليد بدا مثل زجاج مكسور. «هل لديكَ المفتاح؟» سألته.

«مفتاح ماذا؟» لكنه لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى فهم ما تعنيه. دخل إلى المنزل وعاد بعد فترة وجيزة. مستخدماً كلمات فيكتور تشيمل، قال: «يبدو لي أن الوقت قد حان للتسوق».

اختفى ضوء النهار بسرعة، وباستثناء الكنيسة، فقد أُغلقت جميع المحال في شارع ميونخ بمناسبة عيد الميلاد. سارت ليزيل على عجل لتواكب خطوات جارها السريعة. وصلا إلى نافذة المحل المنشود. متجر شتاينر للخياطة. حمل الزجاج طبقة رقيقة من الطين والأوساخ التي تراكمت عليه خلال إهماله لأسابيع ممتدة. على الجانب الآخر، وقفت مجموعة دمى العرض مثل الشهود. بدت خطيرة وأنيقة بشكل مثير للإعجاب. ومن الصعب تجاوز الشعور بأنها تُشاهد كل شيء.

مدّ رودي يده إلى جيبه.

سارقة الكتب

في عشية عيد الميلاد تلك، كان والده بالقرب من فيينا.

ولم يظن رودي بأنه سيمانع تعدّيهما الصريح هذا على متجره الحبيب. فقط اقتضت الظروف ذلك.

فتح الباب بيسر وسهولة، ودخلا إلى المتجر. غريزة رودي الأولى دعته إلى الضغط على مفتاح الضوء، إلا أن الكهرباء قد قُطعت بالفعل عن المتجر منذ مدة لا بأس بها.

«هل هناك أية شموع؟».

استاء رودي. «مسؤوليتي تتلخّص في إحضار المفتاح. وهذه بالأساس فكرتكِ أنتِ، وكان عليكِ أن تفكّري في هذا».

في وسط جدالهما، تعثّرت ليزيل بشيء ما موضوع على الأرض. وسقطت وراءها إحدى دمى العرض، التي تمسّكت بذراعها ووقعت فوقها مفككةً إلى قطع. «أبعد هذا الشيء عني!»، استحالت الدمية إلى أربع أجزاء: الجذع، والرأس، والساقين، واليدين. عندما تخلصت منها أخيراً، وقفت ليزيل وقالت: «يا يسوع، ومريم!».

وجد رودي إحدى الذراعين وربّت بها على كتفها. عندما استدارت نحوه بخوف، مدّ اليد البلاستيكية عارضاً صداقته: «يُشرّفني لقائكِ».

لبضع دقائق، تحرّكا ببطء عبر المسارات الضيقة في المتجر. توجّه رودي نحو طاولة استقبال الزبائن. وعندما تعثّر بصندوق فارغ، بدأ يُرغي ويزبد، ثم وجد طريق عودته إلى المدخل. «هذا الوضع مزرٍ حقاً»، قال، «انتظري هنا دقيقة». جلست ليزيل، حاملة بيدها ذراع الدمية، إلى أن عاد رودي يحمل فانوساً مضاءة من الكنيسة.

حلقة من النور أحاطت بوجهه.

– حسناً، أين هي تلك الهدية التي تتفاخرين بها؟ يُستحسن ألا تكون واحدة من هذه الدمى الغريبة.

سارقة الكتب

- قرّب الضوء إلى هنا.

عندما وصل إلى الجزء الأيسر من المتجر، حملت ليزيل الفانوس بيد وقلّبت البزّات الرسمية باليد الأخرى. سحبت واحدة، إلا أنها سُرعان ما استبدلتها بواحدة أخرى. «لا، إنها كبيرة جداً». بعد محاولتين إضافيتين، حملت بزّة زرقاء داكنة ورفعتها أمام وجه رودي شتاينر. «هل تبدو هذه بمقاسكَ؟».

جلست ليزيل في الظلام، بينما قاس رودي البزّة وراء إحدى الستائر، حيث تشكّلت دائرة صغيرة من الضوء، وبرز بوضوح شكل الظل وهو يبدّل ملابسه.

عندما عاد، حمل الفانوس لتستطيع ليزيل رؤية ملابسه. بعد تحريره من الستارة، بدا الضوء مثل عمود يضيء على البزّة الرسمية الأنيقة. كما أضاء أيضاً على القميص القذر تحتها، وحذاء رودي المهترئ.

«حسناً، ما رأيكِ؟». سألها.

واصلت ليزيل تأمّله. تحرّكت حوله، ونطقت أخيراً: «ليس سيئاً».

- ليس سيئاً! أبدو أفضل من ذلك بكثير.

- حذاؤك هو ما يُسيءُ إلى مظهرك. وكذلك وجهكَ.

وضع رودي الفانوس على طاولة الاستقبال وتحرّك نحوها، بغضب وهمي، ولا بدّ لليزيل من أن تعترف بأن عصبية غريبة بدأت تجتاحها. اعتراها شعور مختلط من الراحة وخيبة الأمل عندما شاهدته وهو يتعثّر ويقع على دمية مَرمية.

وهو مُلقى على الأرض، ضحك رودي، ثم أغلق عينيه، وشدّ عليهما بقوة.

هرعت ليزيل إليه وجثمت فوق رأسه.

سارقة الكتب

قبّليه يا ليزيل، قبّليه.

- هل أنتَ بخير يا رودي؟ رودي؟

«أنا أفتقده،» قال الصبي، من دون أن يفتح عينيه.

«فروي فايناختِن! ميلاد مجيد!». أجابته ليزيل. ومن ثم ساعدته على الوقوف، وقوّمت بزّته.

سارقة الكتب

الفصل التاسع

(الإنسان الغريب الأخير)

بطولة:

الإغراء التالي – لاعب الورق – ثلج ستالينغراد – أخٌ لا يشيخ – الحادثة – الطعم المُرّ للأسئلة – صندوق أدوات، نازف، ودُب – طائرة محطمة – ورحلة العودة إلى المنزل

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الإغراء الثالي

هذه المرّة، إنه البسكويت.

على الرغم من أنه قديم.

تُركت بقايا بسكويت عيد الميلاد، على المكتب لمدة أسبوعين على الأقل. أخذت قطع البسكويت شكل حدوة حصان مصغّرة مغطاة بطبقة من السُكّر الناصع البياض. القطع التي في الأسفل التصقت بالصحن. بينما تكدّست القطع الباقية على القمة، مُشكلة تلة صغيرة. أمكنها بالفعل أن تشم رائحتها، وهي تقبض بأصابعها على حافة النافذة. حيث عبقت الغرفة برائحة السُكّر والعجين، وآلاف الصفحات.

لم تجد هناك أية ملاحظة موجّهة لها، إلا أن ليزيل لم تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تُدرك أن إلسا هيرمان وراء ذلك أيضاً. على أي حال، لم تكن ليزيل لتفوّت فرصة أخذ البسكويت. حيث عادت الى الخلف نحو النافذة، وهمست من خلال الفتحة... وما همسته كان اسم رودي.

في ذلك اليوم، ذهبا نحو منزل رئيس البلدية سيراً على الأقدام لأن الطريق زلقة جداً ولا تصلح لركوب الدراجة. وقف الصبي تحت النافذة،

للمراقبة. عندما نادته، برز وجهه المترقّب، وقدّمت له الصحن. في الحقيقة، لم يكن في حاجة إلى الكثير من الإقناع لأخذه.

التصقت عيناه بصحن البسكويت وطرَح جملة من الأسئلة.

- هل هناك أي شيء آخر؟ هل هناك أي حليب؟

- ماذا؟

«حليب»، كرّر بصوت أعلى هذه المرة. ولو أنه أدرك النبرة الحادة في صوت ليزيل، لما كرّر ذلك بالتأكيد.

ظهر وجه سارقة الكتب فوقه مرّة أخرى.

- هل أنت غبي؟ هلّا تركتَني أسرق الكتاب فحسب؟

- بالتأكيد. كل ما أقوله هو...

تحرّكت ليزيل نحو الرف البعيد، خلف المكتب. وجدت بعض الأوراق وقلماً في الدرج العلوي، وبادرت على الفور إلى كتابة عبارة «شكراً لكِ»، وتركتها على المكتب.

على يمينها، برز كتاب مثل عظمة ناتئة. وقد شُحذ شحوبه بالأحرف المظلمة للعنوان. (الإنسان الغريب الأخير). همست بهدوء وهي تحمله من الرف. سقط عنه بعض الغبار.

عند النافذة، وبينما هي على وشك أن تجد طريقها للخروج، انفتح باب المكتبة.

كانت ركبتها فوق حافة النافذة واليد التي تحمل الكتاب المسروق مثبتة على إطار النافذة. عندما واجهت مصدر الصوت، رأت زوجة رئيس البلدية التي ترتدي خفّين وثوبَ حمام جديداً. وقد استقر على جيب الثوب، عند الصدر، صليب معقوف مطرّز.

يبدو أن الدعاية النازية قد وصلت إلى ثوب الحمام.

نظرتا إلى بعضهما البعض.

نظرت ليزيل إلى صدر إلسا هيرمان ورفعت ذراعها.

«يحيا هتلر!».

همّت بالمغادرة، إلا أنها أدركت شيئاً جديداً.

البسكويت.

لا بدّ وأنه موجود هناك منذ أسابيع.

وهذا يعني أحد احتمالين: لو استخدم رئيس البلدية المكتبة، فلا بدّ وأنه رأى البسكويت واستفسر عن سبب وجوده هناك، ولما بقي كلّ هذه الفترة موضوعاً هناك.

أو هناك احتمال منطقي آخر، وبمجرّد إدراكها لهذه الفكرة، طغى على ليزيل تفاؤل غريب: ربما لم تكن هذه مكتبة رئيس البلدية أصلاً، بل هي مكتبة إلسا هيرمان.

لم تعرف لماذا كان ذلك في غاية الأهمية، لكنها استمتعت بحقيقة أن الغرفة المليئة بالكتب تخصّ المرأة. فهي من أدخلتها إلى المكتبة في المقام الأول وأعطتها الفرصة. بدا هذا أفضل. بدا كل شيء متناسباً مع بعضه البعض.

بمجرّد أن بدأت في التحرّك مرّة أخرى، استجمعت كل شيء، وسألت: «هذه مكتبتكِ، أليست كذلك؟».

انقبضت زوجة رئيس البلدية. «اعتدتُ على القراءة هنا، مع ابني. ولكن...».

أمسكت يدِ ليزيل الهواء وراءها. رأت أماً تقرأ على الأرض مع صبي صغير يُشير إلى الصور والكلمات. ثم رأت حرباً عند النافذة. «أعرف».

وجاء سؤال من الخارج.

سارقة الكتب

«ماذا قلتِ؟!».

تكلّمت ليزيل بهمس قاسٍ للصوت خلفها. «اصمت أيها الخنزير، وراقب الشارع». ومن ثم قالت لإلسا هيرمان، ببطء:

- إذاً، كل هذه الكتب...

- أغلبها مُلكي الخاص. بعضها لزوجي، وبعضها كان لابني، كما تعرفين.

شعرت ليزيل بإحراج شديد الآن، واشتعل وجهها. «لطالما اعتقدتُ بأن هذه المكتبة تخصّ رئيس البلدية».

«لماذا؟» بدت المرأة مهتمة بالمحادثة.

لاحظت ليزيل أن هناك أيضاً صليباً معقوفاً على مقدّمة خفّيها. «إنه رئيس البلدية. وظننتُ أنه يقرأ كثيراً».

وضعت زوجة رئيس البلدية يديها في جيبيها الجانبيين. «في الآونة الأخيرة، أنتِ أكثر شخص يستفيد من هذه المكتبة».

«هل قرأتِ هذا؟». ورفعت ليزيل كتاب (**الإنسان الغريب الأخير**).

تفحّصت إلسا العنوان. «أجل قرأتُه».

- هل هو جيد؟

- ليس سيئاً.

شعرت بأن عليها أن تُغادر في تلك اللحظة، كما شعرت كذلك بواجب غريب يدعوها إلى البقاء. حاولت الكلام، إلا أن الكلمات المتاحة كانت كثيرة جداً وسريعة جداً. بذلت عدّة محاولات لنطقها، إلا زوجة رئيس البلدية هي من أخذت زمام المبادرة.

رأت وجه رودي عند النافذة، أو الحقيقة، رأت شعره المتوهج. «أعتقد أنه من الأفضل أن تذهبي، إنه ينتظركِ».

في الطريق إلى البيت، التهما قطع البسكويت.

«هل أنتِ متأكدة من أنه لم يكن هناك أي شيء آخر لأكله؟». قال رودي. «لا بدّ من وجود شيء».

«نحن محظوظون لحصولنا على البسكويت». تفحصت ليزيل الهدية بين يدي رودي. «قُل الحقيقة الآن. هل تناولتَ أياً منها قبل خروجي من هناك؟».

بدا رودي ساخطاً. «مهلاً، مهلاً، أنتِ السارقة هنا، ولستُ أنا».

«لا تمزح معي أيها الخنزير، أستطيع أن أرى بعض السُكّر على جانب فمكَ».

مرتاباً، أمسك رودي الصحن بيد ومسح فمه بالأخرى. «لم أتناول شيئاً، أُقسم لكِ».

تناولا نصف البسكويت قبل أن يصلا إلى الجسر، وتشاركا الباقي مع تومي مولر في شارع هيمل.

عندما انتهوا جميعاً من تناول كل البسكويت، بقيت فكرة واحدة فقط نطقها رودي.

«ماذا سنفعل بالصحن بحق الجحيم؟».

لاعب الورق

في الوقت نفسه الذي انشغلت فيه ليزيل ورودي بتناول البسكويت، استغرق رجال وحدة القوات الجوية الخاصة خلال وقت راحتهم بلعب الورق في بلدة لا تبعد كثيراً عن ايسن. أكملوا للتو رحلة طويلة من شتوتغارت، وهم يقامرون على السجائر، وفي الواقع، فلم يكن رينهولد زوكر سعيداً بالنتائج.

«إنه يغش، أُقسم على ذلك»، تمتم. كانوا في كوخ استخدموه بمثابة ثكنة عسكرية لهم، وهانز هوبرمان قد فاز لتوه للمرة الثالثة على التوالي. رمى زوكر أوراقه أرضاً باشمئزاز، ومشّط شعره الدهني بثلاثة أظافر قذرة.

بضع حقائق عن رينهولد زوكر

شاب في الرابعة والعشرين من عمره. كلما فاز بجولة من الورق، اعتاد أن يتفاخر. يسحب دخان سيجارته ويستنشقه بعمق. «رائحة النصر»، اعتاد أن يقول.

صحيح، هناك شيء آخر لا بدّ لي من قوله: سيموت وفمه مفتوح.

سارقة الكتب

على عكس الشاب إلى يساره، لم يكن هانز هوبرمان يتفاخر عندما يفوز. بل هو سخي بما فيه الكفاية ليُعطي كل زميل واحدة من سجائره ويُشعلها له. الجميع قبلوا هذه المبادرة اللطيفة. ما عدا رينهولد زوكر، الذي أمسكها ورماها فوق كومة أوراق اللعب.

«لستُ في حاجة إلى إحسانكَ أيها الرجل العجوز». وقف وابتعد عنهم.

«ما مشكلته؟». سأل الرقيب، ولم يهتم أحد بما يكفي للرد. رينهولد زوكر مجرد صبي يبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة، عاجز عن لعب الورق لإنقاذ حياته.

لو أنه لم يخسر سجائره أمام هانز هوبرمان، لم يكن ليحتقره. ولو لم يحتقره، ربما لم يكن ليأخذ مكانه بعد بضعة أسابيع على طريق خطرة إلى حد ما.

مقعد واحد، رجلان، جدال قصير، وأنا.

تقتلني أحياناً الطريقة التي يموت فيها الناس.

ثلوج ستالينغراد

في منتصف شهر كانون الثاني / يناير من عام 1943، كان شارع هيمل يعيش في الظلام والبؤس المعتاد. أغلقت ليزيل البوابة ومشت في طريقها نحو باب السيدة هولتزابفيل. طرقته، لكنها فوجئت بالشخص الذي أجابها إلى الباب.

أولى الأفكار التي خطرت لها هي أن الرجل ابنها، لكنه لم يُشبه أياً من الشقيقين الظاهرين في الصورة المؤطّرة بجانب الباب. فقد بدا أكبر بكثير، على الرغم من صعوبة التحقّق من ذلك. وجهه مليء بالشعيرات، وعيناه متألمتان وصاخبتان. برزت يد مضمدة من كُم معطفه عليها بقع من الدم بلون كرزي، تسرّبت عبر اللفافة.

«ربما يجب أن تعودي في وقت لاحق».

حاولت ليزيل أن تنظر وراءه. وكانت على وشك أن تنادي السيدة هولتزابفيل، عندما قاطعها الرجل.

«أيتها الطفلة»، قال. «عودي لاحقاً. سآتي إليكِ وأناديكِ. أين منزلكِ؟».

سارقة الكتب

بعد أكثر من ثلاث ساعات، طُرق باب المنزل رقم 33 في شارع هيمل، ووقف الرجل أمامها. استحالت بقع الدم من لون الكرز إلى لون الخوخ.

«إنها جاهزة لاستقبالكِ الآن».

أمام الباب، وتحت الضوء الرمادي الغامض، لم تستطع ليزيل أن تقاوم رغبتها في سؤال الرجل عمّا حدث ليده. زفر كمية من الهواء عبر أنفه قبل أن يُجيب، وهو ينظر إلى الريح من حوله. «ستالينغراد».

«عفواً؟ لم أسمعكَ».

أجاب مرّة أخرى، بصوت أعلى، وبجملة كاملة هذه المرّة. «ستالينغراد هي ما حدث ليدي. أصابني الرصاص في أضلاعي وقُطعت ثلاثة من أصابعي. هل يُجيب هذا على سؤالكِ؟» وضع يده غير المصابة في جيبه وارتجف في ازدراء للريح الألمانية. «هل تعتقدين أن الجو بارد هنا؟».

لمست ليزيل الجدار إلى جانبها. لم تستطع أن تكذب. «نعم، بالطبع».

ضحك الرجل. «لا يمكنكِ أن تُسمّي هذا برداً». أخرج سيجارة ووضعها في فمه. بيد واحدة، حاول أن يُشعل عود ثقاب. في مثل هذا الطقس البارد، من الصعب إشعال عود ثقاب بكلتا اليدين، ناهيكم عن يد واحدة، فهو أمر مستحيل. أوقع علبة الثقاب، وبدأ بكيل اللعنات.

التقطتها ليزيل.

أخذت سيجارته ووضعتها في فمها. هي أيضاً عجزت عن إشعالها.

«عليكِ أن تستنشقي ذلك»، أوضح الرجل. «في هذا الطقس، لن تَشتعل إلا إذا استنشقتِها بعمق. هل فهمتِ؟».

جرّبت مرّة أخرى، محاولة تذكّر كيف اعتاد بابا فعل ذلك. هذه المرة، امتلأ فمها بالدخان. تسلّق على أسنانها وخدش حلقها، لكنها ضبطت نفسها، ولم تسعل.

«أحسنتِ». عندما أخذ السيجارة وتنفسّها، مدّ يده اليسرى غير المصابة، وعرّف عن نفسه «مايكل هولتزابفيل».

- ليزيل ميمنجر.

- هل ستأتين معي لتقرئي لأمّي؟

وصلت روزا خلفها في تلك اللحظة، واستطاعت ليزيل أن تستشعر مدى صدمتها. «مايكل؟» سألت. «هل هذا أنت؟».

هزّ مايكل هولتزابفيل رأسه موافقاً: «جوتن تاغ، صباح الخير يا سيدة هوبرمان، مرّ وقت طويل مذ رأيتكِ آخر مرّة».

- أنت تبدو...

- أكبر سناً؟

ما زالت روزا في حالة صدمة، إلا أنها تمالكت نفسها. «هل ترغب في الدخول إلى منزلنا؟ أرى أنك التقيتَ بابنتي بالرعاية...» تحشرج صوتها، عندما لاحظت يده الدامية.

«مات شقيقي»، قال مايكل هولتزابفيل، ولم يكن في وسعه أن يلكم الهواء من حوله بطريقة أفضل بقبضته الوحيدة. ترنّحت روزا مصعوقة. بالتأكيد، الحرب تعني الموت، إلا أنها دائماً ما تُزعزع الأرضَ تحت أقدامكم عندما يكون المعنيَّ بالموت شخصٌ مقربٌ، عاش وتنفّس معكم في يوم من الأيام. بالنسبة إلى روزا، فقد شهدت على كلا الصبيين وهما يكبران حولها.

بطريقة أو بأخرى، وجد الشاب الهرم طريقة لسرد ما حدث من دون أن يفقد أعصابه. «كنتُ في أحد المباني التي استخدمناها كمستشفى عندما أحضروه إليها. حصل ذلك قبل أسبوع من عودتي إلى هنا. قضيتُ ثلاثة أيام من ذلك الأسبوع معه وهو يموت...».

«أنا آسفة». لم يبدُ أن الكلمات خرجت من فم روزا. بدا أن شخصاً آخر يقف وراء ليزيل ميمنجر في ذلك المساء، إلا أنها لم تجرؤ على النظر.

«من فضللكِ». أوقفها مايكل. «لا تقولي أي شيء آخر. هل يمكنني اصطحاب الفتاة لتقرأ لأمّي؟ أشكّ في أنها ستسمع ما ستقرأه، إلا أنها أرسلت بطلبها على أي حال».

«نعم، بالطبع».

وصلا إلى منتصف الطريق عندما تذكّر مايكل هولتزابفيل شيئاً وعاد. «روزا؟» مرّت لحظة انتظار قبل أن تُعيد ماما فتح الباب. «سمعتُ أن ابنكِ هناك. في روسيا. صادفتُ شخصاً من مولشينغ وأخبرني بذلك. إلا أنني متأكّد من أنكِ تعرفين ذلك بالفعل».

حاولت روزا أن تُوقفه. هرعت إلى الخارج وأمسكت بُكمّه. «لا، لم أكن أعرف. ترَكَنا في أحد الأيام ولم يعد بعد ذلك. حاولنا العثور عليه، ولكن الكثير من الأحداث قد وقعت منذ ذلك الحين، كان هناك...».

بدا من الواضح أن مايكل هولتزابفيل يُريد الفرار من هذا الموقف. فآخر شيء يريد أن يسمعه هو قصّة مأساوية أخرى. ابتعد قليلاً، وقال: «على حد علمي، فإنه على قيد الحياة». انضم إلى ليزيل عند البوابة، إلا أن الفتاة لم تتحرّك. شاهدت وجه روزا، الذي ارتفع وهبط في اللحظة نفسها.

«ماما؟».

رفعت روزا يدها. «اذهبي».

انتظرت ليزيل.

«قلتُ لكِ اذهبي».

عندما لحقت به، حاول الجندي العائد إجراء محادثة جديدة. لا بدّ وأنه تندّم على ما قاله لروزا، وحاول دفن ندمه تحت بعض الكلمات

الأخرى. رفع يده المضمدة وقال: «ما زلتُ عاجزاً عن إيقاف النزيف». في الواقع، شعرت ليزيل بالسعادة لدخول مطبخ السيدة هولتزابفيل. وسُرعان ما بدأت بالقراءة، ازداد شعورها بالراحة.

جلست السيدة هولتزابفيل وتيارات رطبة تمر عبر وجهها.

مات ابنها.

تلك حقيقة لا شكّ فيها.

إلا أنها لن تعرف حقاً كيف حدث ذلك. بالطبع، أستطيع أن أؤكّد لكم، من دون أدنى شك، أن أحدنا هنا يعرف كامل القصّة، ويبدو دوماً أنني أنا مَن يعرف ماذا يحدث بالفعل عندما يكون هناك ثلوج، وأسلحة، وخليط مرتبك من اللغات البشرية.

عندما أتخيّل مطبخ السيدة هولتزابفيل، كما وصفته كلمات سارقة الكتب، فأنا لا أرى الموقد، أو الملاعق الخشبية، أو مضخة المياه، أو أي شيء من هذا القبيل. فجُلّ ما أراه هو الشتاء الروسي والثلوج المتساقطة من السقف، ومصير الابن الثاني للسيدة هولتزابفيل.

اسمه روبرت، وهذا ما حدث له.

قصّة صغيرة من الحرب

بُترت ساقاه عند الركبتين، ومات تحت عيني شقيقه في مستشفى بارد يعبق برائحة كريهة.

روسيا، 5 كانون الثاني / يناير 1943. يوم جليدي آخر. بين المدينة والثلوج، انتشرت جُثث الروس والألمان في كل مكان. أولئك الذين نجوا، انشغلوا بإطلاق النار أمامهم. تداخلت ثلاث لغات مع بعضها البعض: الروسية، والألمانية، ولغة الرصاص.

في طريقي بين الأرواح المتساقطة، سمعتُ أحد الرجال وهو يقول: «معدتي تحكّني». كرّر ذلك مرات عديدة. وعلى الرغم من صدمته، إلا أنه زحف نحو الأمام، إلى هيئة مظلمة لشخص مشوّه ينزف على الأرض. عندما وصل الجندي ذو المعدة المصابة، أمكنه أن يرى أنه روبرت هولتزابفيل. يداه غارقتان في الدم، وهو يُكدّس الثلج فوق ركبته تماماً، حيث بُترت ساقاه نتيجة الانفجار الأخير. انتشرت أطراف دامية وصراخ أحمر في كل مكان.

وارتفع البخار من الأرض، في مشهد يعبق برائحة الثلوج المتعفنة.

«إنه أنا»، قال الجندي. «أنا بيتر». وجرّ نفسه بضع بوصات أقرب.

«بيتر؟» سأل روبرت، بصوت متلاشٍ. لا بدّ من أنه شعر باقترابي منه.

وكرّر مرّة ثانية. «بيتر؟».

لسبب ما، دائماً ما يطرح الرجال أسئلة يعرفون إجاباتها. ربما لكي يموتوا وهم يشعرون أنهم على حق.

فجأة، بدت الأصوات كلها متشابهة.

انهار روبرت هولتزابفيل إلى جانبه الأيمن، على الأرض الباردة والساخنة في آن معاً.

أنا متأكّد من أنه توقّع أن يلتقي بي هناك في ذلك الوقت.

إلا أنه لم يفعل.

من سوء حظ الشاب الألماني أنني لم آخذه من بعد ظهر ذلك اليوم. حيث تجاوزتُه حاملاً أرواحاً أخرى مسكينة بين ذراعيّ، وعُدتُ في طريقي إلى الروس.

تنقّلت ذهاباً وإياباً.

أشلاء رجال مبعثرة.

أستطيع أن أؤكّد لكم، بأن ما جرى لم يكن رحلة تزلج ممتعة بالنسبة إليَّ.

وكما أخبَر مايكل والدته، مرّت ثلاثة أيام طويلة جداً قبل أن آتي أخيراً للقاء الجندي الذي ترك قدميه وراءه في ستالينغراد. أتيتُ مدعواً إلى المستشفى المؤقت وجزِعتُ للرائحة التي طغت على المكان.

رأيتُ رجلاً ذا ضمادة على يده يُطمئن جندياً مصدوماً عاجزاً عن الكلام: «سوف تعود قريباً إلى المنزل»، طمأنه.

نعم، سيعود، فكرتُ، ولكن ليس إلى المنزل، بل إلى الأبدية.

«سأنتظركَ»، واصل الشقيق محاولته البائسة للتخفيف عن شقيقه. «كنتُ عازماً على العودة في نهاية الأسبوع، إلا أنني سوف أنتظركَ».

في منتصف هذه الجملة، حصدتُ روح روبرت هولتزابفيل.

عادة، عندما أكون في داخل المباني، أحتاج إلى بذل جهد إضافي والنظر من خلال السقف إلى السماء، إلا أنني كنتُ محظوظاً في هذا المبنى بالذات، فقد دُمّر جزء صغير من السقف ويمكنني من خلاله أن أرى السماء مباشرة. على بعد متر واحد، ما زال مايكل هولتزابفيل يتحدث. حاولتُ تجاهله والنظر إلى الفجوة فوقي: بدت السماء بيضاء، ومتغيّرة بسرعة. وكما هو الحال دائماً، فقد بدأت تستحيل إلى ورقة هائلة، ينزف الدم من خلالها، على شكل بقع كبيرة. بدت الغيوم مُتّسخة، مثل آثار أقدام على الثلوج الذائبة.

آثار أقدام مَن؟ ربما قد تطرحون هذا السؤال.

حسناً، وأنا أتساءل مثلكم أيضاً لـمَن تكون آثار الأقدام هذه.

في مطبخ السيدة هولتزابفيل، انشغلت ليزيل بالقراءة. مرّت الصفحات

سارقة الكتب

من دون أن يستمع إليها أحد، وبالنسبة إليَّ، عندما يختفي المشهد الروسي من عينيّ، يرفض الثلج أن يتوقّف عن التساقط من السقف. تغطّى كل شيء بالثلج: الغلاية، والطاولة، والبشر، أيضاً، كلهم مغلّفون ببقع من الثلج المتكوّم على رؤوسهم وأكتافهم.

الأخ يرتجف.

والمرأة تبكي.

والفتاة تُتابع القراءة، فهذا سبب كونها هناك أصلاً. ومن الجيد أن يكون المرء مفيداً، ولو بشيء بسيط، خلال مرحلة ما بعد ثلوج ستالينغراد.

الأخ الذي لا يشيخ

لم تبقَ سوى بضعة أسابيع قبل أن تبلغ ليزيل ميمنجر الرابعة عشرة من عمرها. وما زال بابا بعيداً عنها.

أكملت ثلاث جلسات قراءة أخرى مع امرأة محطمة. وفي العديد من الليالي، شاهدت روزا تجلس حاملة الأكورديون وتتضرّع إلى السماء، وذقنها على قمة المنفاخ.

فكّرت: حان الوقت الآن. السرقة هي جُلّ ما يبهجها ويُدخل السرور إلى قلبها عادة، ولكن في هذا اليوم، فإن ما سيجعلها سعيدة حقاً هو إعادة شيء ما.

مدّت يدها تحت سريرها وسحبت الصحن. سارعت إلى تنظيفه خِلسة في المطبخ، وخرجت أخيراً من المنزل. استمتعت بالسير عبر بلدة مولشينغ. وشعرت بالهواء حاداً وقاسياً، مثل عقوبة يفرضها مُعلّم أو راهبة سادية.

وقعُ أقدامها هو الصوت الوحيد المسموع في شارع ميونخ.

وعندما عبرت النهر، وقفت حزمة عابرة من أشعة الشمس وراء الغيوم.

سارقة الكتب

صعدت درجات المنزل رقم 8 في شارع جرانده، تركت الصحن عند الباب الأمامي قبل أن تطرقه، وفي الوقت الذي فُتح فيه الباب، وصلت الفتاة إلى زاوية الشارع. لم تنظر ليزيل إلى الوراء، لكنها عرفت أنها فيما لو فعلت، لوجدت شقيقها عند أسفل الدرج مرّة أخرى، وقد شُفيت ركبته تماماً.

أمكنها حتى أن تسمع صوته.

«هذا أفضل يا ليزيل».

سكنها حزنٌ عميق عندما أدركت أن شقيقها سيبقى إلى الأبد بعمر الست سنوات، ولكن عندما خطرت لها هذه الفكرة، بذلت جهداً لتبتسم.

بقيت عند نهر أمبر، على الجسر، حيث اعتاد أن يقف بابا ويتكئ.

ابتسمت وابتسمت، وعندما أخرجت كل شيء من أعماقها، سارت إلى المنزل، ولم يعاود شقيقها الظهور في أحلامها مرّة أخرى أبداً. بشكل ما، سوف تفتقده وتشتاق إليه، إلا أنها لن تشتاق يوماً إلى عينيه الميتتين على أرضية القطار، أو صوت السعال الذي قتله.

استلقت سارقة الكتب في سريرها تلك الليلة، وقبل أن تغلق عينيها، جاء الصبي كفرد من مجموعة كاملة اعتادت على زيارتها دوماً في تلك الغرفة. وقف بابا ودعاها نصف امرأة، بينما جلس ماكس في الزاوية ليكتب قصّة (قاطفة الكلمات)، ووقف رودي عارياً عند الباب، وفي بعض الأحيان، وقفت والدتها على منصّة قطار بجانب سريرها. وبعيداً، في الغرفة التي تمتد مثل جسر يصل إلى بلدة مجهول، لعب شقيقها فيرنر بين ثلج المقبرة.

من الردهة المجاورة، ومثل بندول الايقاع، وصل صوت شخير روزا إلى ليزيل التي بقيت مستيقظة، تتذكّر اقتباساً من آخر كتاب قرأته.

(الإنسان الغريب الأخير)، الصفحة رقم 38

انتشر الكثير من الأشخاص في كل مكان من شارع المدينة،
ولكن لم يكن الغريب ليكون أكثر وحدة فيما لو كانت المدينة
خاوية على عروشها.

عندما جاء الصباح، اختفت الرؤى، وأمكنها أن تسمع التلاوة الهادئة للكلمات في غرفة المعيشة. حيث جلست روزا تُصلّي محتضنة الأكورديون.

«دعهم يعودون إلينا أحياء»، كرّرت. «أتوسّل إليك يا إلهي، أرجوك!». حتى التجاعيد حول عينيها بدت متضرّعة.

لا بدّ من أن الأكورديون قد آلمها، إلا أنها بقيت متسمّرة على تلك الحال.

لن تُخبر روزا هانز يوماً عن هذه اللحظات، إلا أن ليزيل آمنت بأن تلك الصلوات هي التي ساعدت بابا على البقاء على قيد الحياة خلال الحادثة التي وقعت لوحدة القوات الجوية الخاصة في إيسن. وإن لم تساعده، فهي بالتأكيد لم تضرّه.

سارقة الكتب

الحادثة

من بعد ظهر ذلك اليوم، ذي الطقس الجميل على نحو مفاجئ، صعد الرجال إلى شاحنتهم كالمعتاد. جلس هانز هوبرمان في مقعده المحدّد. لكنّ رينهولد زوكر وقف فوق رأسه.

«تحرّك من هنا»، قال.

«بيتّه؟عفواً؟» ردّ هانز.

كرّر زوكر، الذي احدودب تحت سقف الشاحنة، «قلتُ لكَ تحرّك من هنا، أيها الأحمق!». وتبعثرت الغابة الدهنية لشعره الأشعث على شكل كتل على جبهته. «سنتبادل المقاعد».

بدا هانز مشوشاً، فمقعده هو المقعد الأخير، وهو على الأرجح الأكثر إزعاجاً بين البقية. فهو الأبرد والأكثر عرضة للهواء. «لماذا؟».

«وما شأنكَ فيما أُقرره؟» بدأ زوكر يفقد صبره. «ربما أريد النزول أولاً لاستخدام المرحاض».

أدركَ هانز بسرعة أن بقية الوحدة تراقب بالفعل هذا النزاع البائس بين رجلين يُفترض أنهما بالغان وعاقلان. لم يُرد أن يخسر الجدال، إلا أنه

سارقة الكتب

لم يُرد أن يبدو تافهاً أيضاً. بالإضافة إلى ذلك، فقد انتهى للتو من وردية مضنية ولم تكن لديه الطاقة للاستمرار في جدال عقيم. محدودباً، تقدّم نحو المقعد الشاغر في منتصف الشاحنة.

«لماذا استسلمتَ لذلك الوغد؟» سأل الرجل بجانبه.

أشعل هانز عود ثقاب وعرض عليه نفخة من السيجارة. «الهواء البارد هناك يشُقّ أذنيّ».

تقدّمت الشاحنة ذات اللون الزيتوني الأخضر في طريقها نحو المعسكر الذي يقع ربما على بعد عشرة أميال. كان برونونيغ يروي نكتة عن نادلة فرنسية عندما ثُقبت العجلة الأمامية اليسرى، وفَقَد السائق السيطرة على الشاحنة التي تشقلبت وتدحرجت عدّة مرات. كال الرجال اللعنات والشتائم بينما هم يُحلّقون بين الهواء، والضوء، والقمامة، والتبغ. في الخارج، تغيّر وجه السماء الزرقاء، مع انقلاب الشاحنة، وتدافُع ركابها بحثاً عن أي شيء ليتمسّكوا به.

عندما توقفت أخيراً، كانوا متكوّمين جميعاً على الجدار الأيمن من الشاحنة، ووجوههم غارقة في الزي الرسمي القذر للشخص الذي بجانب كلٍ منهم. تأكدوا من صحة وسلامة بعضهم البعض، إلى أن بدأ أحد الرجال، إدي ألما، بالصراخ، «أبعدوا هذا الوغد عني!» قالها ثلاث مرات، بسرعة، وهو يحدّق إلى عيني رينهولد زوكر الميتتين.

اضرار حادثة إيسن

حُرق ستة رجال بالسجائر.

كُسرت يدان اثنتان.

كُسرت عدة أصابع.

سارقة الكتب

كُسرت ساق هانز هويرمان.

وكُسرت عنق رينهولد زوكر، حيث تهشّمت تقريباً عند شحمة أذنه.

جرّوا بعضهم بعضاً نحو الخارج، وبقيت الجثة فقط في الشاحنة.

جلس السائق، هلموت بروهمان، على الأرض، ورأسه بين يديه. «العجلة»، أوضح، «لقد انفجرت». جلس بعض الرجال معه مؤكّدين أن ما جرى لم يكن خطأه. ومشى البعض الآخر حاملين سجائرهم، وموجّهين الأسئلة إلى بعضهم البعض حول ما إذا كانت إصاباتهم خطيرة لدرجة إعفائهم من الخدمة. كما تجمّعت مجموعة صغيرة أخرى أمام الشاحنة لتأمّل الجثة.

عند شجرة قريبة، انفتح شريط رقيق من الألم الشديد في ساق هانز هويرمان. «كان يُفترض أن أكون أنا مكانه»، قال.

«ماذا؟» قال الرقيب الواقف عند الشاحنة.

«كان يجلس في مقعدي».

استعاد هلموت بروهمان حواسه وصعد مرّة أخرى إلى حجرة السائق. حاول تشغيل المحرك، لكن لم تصدر عنه أية استجابة. أرسلوا بطلب شاحنة أخرى وسيارة إسعاف. إلا أن سيارة الإسعاف لم تأتِ.

«أنتم تعرفون ماذا يعني ذلك، أليس كذلك؟». قال الرقيب بوريس شيبر.

نعم، إنهم يعرفون.

عندما استأنفوا رحلتهم إلى المعسكر، حاول كل رجل تجنّب النظر إلى رينهولد زوكر ذي الفم المفتوح. «قلتُ لكم بأن علينا قلب وجهه نحو الأسفل»، قال أحدهم. لبضع مرّات، تناسى بعضهم الجثة ببساطة،

سارقة الكتب

وأراحوا أقدامهم عليها. وبمجرّد وصولهم إلى وجهتهم، حاولوا جميعاً التهرّب من مهمة سحب الجسد الميت. عندما تم إنجاز العمل أخيراً، مشى هانز هوبرمان بضع خطوات مختصرة قبل أن يتفجّر الألم في ساقه، ويجبره على الوقوع.

بعد ساعة، فحصه الطبيب، وأخبره بأن ساقه مكسورة بالتأكيد. استمع الرقيب لما قيل، وارتسمت على وجهه نصف ابتسامة.

«حسناً يا هوبرمان. يبدو أنك نجوتَ هذه المرة، وأفلتَّ من الخدمة معنا، أليس كذلك؟». كان يهزّ وجهه المستدير، ويدخّن. وشرح له بالتفصيل ماذا سيحصل بعد ذلك. «عليكَ أن تستريح. وعندما يسألونني عمّا ينبغي فعله بشأنك، سأقول لهم بأنك قمتَ بعمل عظيم...». نفث المزيد من الدخان. «وأعتقد بأنني سوف أخبرهم بأنك لم تعد تصلح للعمل مع وحدة القوات الجوية الخاصة، وينبغي إعادتك إلى ميونخ للعمل في مكتب، أو أي شيء آخر يحتاجون إليه هناك. ما رأيكَ؟».

عاجزاً عن مقاومة إظهار مقدار سعادته التي طفت بين موجات الألم المبرّح، أجاب هانز: «يبدو هذا جيداً يا حضرة الرقيب».

أنهى الرقيب بوريس شيبر سيجارته. «اللعنة، بالطبع يبدو جيداً. أنتَ محظوظ لأنني معجب بكَ يا هوبرمان. أنتَ محظوظ لأنك رجل طيب، وسخيّ في تقديم السجائر».

في الغرفة المجاورة، انشغلت الممرضات بإعداد الجِصّ لتجبير ساق هوبرمان.

سارقة الكتب

طعم الأسئلة المُرّ

بعد مرور أسبوع وبضعة أيّام على عيد ميلاد ليزيل في منتصف شهر شباط / فبراير، حصلت هي وروزا أخيراً على رسالة مفصّلة من هانز هوبرمان. ركضت مسرعة من عند صندوق البريد وقدّمتها إلى ماما. جعلتها روزا تقرأ الرسالة بصوت عال، ولم تتمكّنا من كتم انفعالهما عندما قرأت ليزيل عن ساقه المكسورة، حيث تفاجأت ليزيل إلى درجة أنها قرأت الجملة التالية لنفسها فقط.

«ما القصّة؟» ألحّت روزا. «ماذا أيتها الخنزيرة؟».

رفعت ليزيل نظرها عن الرسالة وصدر صوتها أقرب إلى الصراخ. فقد وفى الرقيب بوعده. «سيعود الى المنزل يا ماما. بابا سيعود إلينا!».

تعانقتا في المطبخ، وسُحقت الرسالة بين جسديهما. فالساق المكسورة هي بلا شك شيء يدعو إلى الاحتفال.

عندما نقلت ليزيل الأخبار إلى المنزل المجاور، غمرت فرحة كبيرة باربرا شتاينر التي ربّتت بحنان على ذراع الفتاة ونادت بقيّة أفراد عائلتها. وفي مطبخ آل شتاينر، طغت السعادة على العائلة احتفالاً بأنباء عودة هانز

سارقة الكتب

هوبرمان إلى أهله. ابتسم رودي وضحك، وأدركت ليزيل أنه حاول على الأقل إظهار فرحه بالأخبار. ومع ذلك، فقد استطاعت أن تشعر أيضاً بالطعم المُرّ للأسئلة الكامنة في فمه.

لماذا هو؟

لماذا هانز هوبرمان وليس أليكس شتاينر؟

وفي الحقيقة، فلديه وجهة نظر في طرح هذين السؤالين.

صندوق أدوات واحد، نازف واحد، ودُب واحد

منذ أن التحق والده بالجيش في شهر أكتوبر / تشرين الأول الماضي، بدأ غضب رودي ينمو ويتصاعد بشكل مطّرد. وكانت أخبار عودة هانز هوبرمان هي كل ما ينقصه ليزداد غضبه وحنقه بضع درجات أخرى. لم يُخبر ليزيل بأي شيء عمّا كان يشعر به، ويدور في خُلده. لم يشكُ من أن الحياة غير عادلة، بل قرّر أن يتصرّف.

حمَل صندوقاً معدنياً في شارع هيمل، عند الوقت المثالي للسرقة: أي في وقت متأخّر من بعد الظهر، عندما يبدأ الظلام بإظهار وجهه.

صندوق ادوات رودي

الصندوق أحمر اللون وبطول علبة أحذية كبيرة.

محتويات الصندوق: سكين جيب صدئة عدد 1

مشعل صغير عدد 1

مطرقة عدد 2 (واحدة متوسطة الحجم، وواحدة صغيرة)

سارقة الكتب

منشفة يد عدد 1

مِفك براغٍ عدد 3 (بأحجام مختلفة)

قناع وجه عدد 1

زوج من الجوارب النظيفة عدد 1

دمية دُب عدد 1

رأته ليزيل من نافذة المطبخ - بخطواته المصمّمة ووجهه الجدي العازم، يُشبه تماماً اليوم الذي ذهب فيه للعثور على والده. أمسك مقبض الصندوق بأكبر قدر ممكن من القوة، وبدت حركاته قاسية ومتشنجة من الغضب.

أسقطت سارقة الكتب المنشفة التي كانت تحملها، واستبدلتها بفكرة واحدة.

إنه ذاهب ليسرق.

خرجت لتُلاقيه.

«رودي، إلى أين أنت ذاهب؟».

استمر رودي بالمشي ببساطة، وتحدّث إلى الهواء البارد أمامه. على مقربة من بناء شقة تومي مولر، قال: «أتعرفين يا ليزيل، كنتُ أفكّر في أنكِ لستِ سارقة على الإطلاق»، ولم يعطها فرصة للرد. «تلك المرأة تسمح لكِ بالدخول. حتى أنها تترك لكِ البسكويت. بحق المسيح! أنا لا أسمّي تلك سرقة. فالسرقة هي ما يفعله الجيش. إنه يسرق والدكِ، ووالدي». ركلَ حجراً أمامه، حيث طار وارتطم بالبوابة. مشى بخطوات أسرع. «كُلّ هؤلاء النازيين الأغنياء هناك، الذي يقطنون في شارع جرانده، وشارع جيلب، وهايده، كُلهم سارقون».

لم تستطع ليزيل أن تُركّز على شيء سوى مجاراة خطواته. كانا قد مرا بالفعل بجانب متجر السيدة ديلر وقطعا مسافة جيدة في شارع ميونخ.

- رودي...

- كيف هو ذلك الشعور، على أي حال؟

- أي شعور؟

- عندما تأخذين واحداً من تلك الكتب؟

في تلك اللحظة، اختارت أن تقطع سيرها وتقف في مكانها. فلو أراد الحصول على إجابة لسؤاله، فعليه أن يعود إليها، وهذا ما فعله. «حسناً؟» ولكن مرّة أخرى، رودي هو من أجاب قبل أن تتمكّن ليزيل من فتح فمها. «إنه شعور جيد، أليس كذلك؟ أن تسرقي شيئاً ما».

حوّلت ليزيل اهتمامها إلى صندوق الأدوات، في محاولة لإبطائه. «ماذا لديكَ هناك؟».

انحنى وفتحه.

كل شيء بدا منطقياً، باستثناء دمية الدب.

مع مواصلتهما السير في طريقهما، شرح رودي مطولاً غرضه من صندوق الأدوات، وماذا سيفعل بكل منها. على سبيل المثال، سيستخدم المطارق لتحطيم النوافذ، وسيلفّها بالمنشفة لكتم الصوت.

«وماذا عن لعبة الدب؟».

إنها لعبة آنا ماري شتاينر، ولم يزد حجمها عن حجم أحد كتب ليزيل. بدا الفراء أشعثَ وبالياً، كما تمّت خياطة العينين والأذنين مراراً وتكراراً لثبيتهم في مكانهم. وعلى الرغم من كل هذا السوء، بدا لطيفاً.

«هذا»، أجاب رودي، «إنه أهم عنصر في الخطة. فإذا دخل طفل وشاهدني أسرق، سأعطيه الدب لتهدئته».

«وما الذي تُخطط لسرقته؟».

قال بشكل منطقي وبسيط بما فيه الكفاية: «المال، الطعام، المجوهرات. كل ما يمكن ليدي الوصول إليه».

مرّت 15 دقيقة قبل أن تشهد ليزيل على الصمت المفاجئ الذي هبط على وجه رودي، وتُدركَ أنه لم يكن ليسرق أي شيء. اختفى حماسه. وعلى الرغم من أنه ما يزال يرى المجد المتخيّل للسرقة، إلا أنها أدركت حقيقة أنه لم يعُد يُصدّق أي شيء يرتبط بذلك المجد الآن. حاول أن يعاود تصديق ذلك، من دون طائل. عظَمته الإجرامية تبخّرت أمام عينيه. ومع تباطؤ خطاهما أمام المنازل، أصبحت راحة ليزيل نقيّة وحزينة داخلها.

وصلا إلى شارع جيلب.

وعلى العموم، بدت المنازل مظلمة وضخمة.

خلع رودي حذاءه وحمله بيده اليسرى. بينما حمل صندوق الأدوات بيمينه.

اختبأ القمر بين الغيوم. مُرسلاً ضوءً باهتاً.

«ماذا أنتظر؟». سأل، إلا أن ليزيل لم تُجبه. مرّة أخرى، فتح رودي فمه، من دون أن تصدر عنه أية كلمات. وضع صندوق الأدوات على الأرض وجلس عليه.

أصبح جورباه باردين ورطبين.

«لحسن الحظ أن هناك زوجاً آخر في صندوق الأدوات»، اقترحت ليزيل، وأمكنها أن ترى كيف يحاول جاهداً قمع ضحكته.

تحرّك رودي قليلاً وأفسح المجال لليزيل كي تجلس.

جلست سارقة الكتب مع أفضل صديق لها على صندوق أدوات مهترئ وأحمر اللون في منتصف الشارع. أسندا ظهريهما إلى بعضهما

البعض، ونظر كل منهما نحو جهة معاكسة. بقيا هناك لفترة لا بأس بها. وعندما وقفا ليعودا إلى المنزل أخيراً، بدّل رودي جوربيه، وقرّر ترك الزوج القديم على الطريق كهدية لشارع جيلب.

الحقيقة المنطوقة حول رودي شتاينر

«أعتقدُ بأنني أُتقن ترك الأشياء ورائي أكثر من سرقتها».

بعد بضعة أسابيع، تبيّن أن صندوق الأدوات مفيد لشيء ما على الأقل. فقد قام رودي بتنظيفه من البراغي والمطارق، واختار بدلاً من ذلك أن يُخزّن فيه العديد من الأشياء الثمينة التي تخصّ آل شتاينر، على سبيل الاستعداد للغارة الجوية التالية. والشيء الوحيد الذي بقي من محتوياته السابقة هو دمية الدب.

في التاسع من شهر آذار/ مارس، عندما دوّى صوت صفارات الإنذار مرّة أخرى في بلدة مولشينغ، خرج رودي من المنزل حاملاً معه صندوقه العزيز.

وبينما هرع أفراد آل شتاينر إلى شارع هيمل، طرق مايكل هولتزابفيل بشكل محموم على باب روزا هوبرمان. وعندما خرجت هي وليزيل، شرح لهما معضلته. «والدتي»، قال، وبقع الدم ما زالت بادية على ضمادته. «إنها ترفض الخروج، وتُصرّ على البقاء في المنزل والجلوس إلى طاولة المطبخ».

وعلى الرغم من مرور أسابيع، إلا أن السيدة هولتزابفيل لم تبدأ بالتعافي من صدمتها بعد. وحتى عندما تزورها ليزيل للقراءة، فإن المرأة تُمضي معظم وقتها محدّقة بالنافذة. أحياناً، تصدُر عنها كلمات هادئة، تكاد لا تُسمع، وانتُزعت كل الوحشية والقسوة من وجهها. عادة مايكل هو

مَن يودّع ليزيل عند الباب أو يعطيها القهوة ويشكرها. ويبدو أن وضعها قد تأزّم حتى وصل إلى هذه الحالة الآن.

تحرّكت روزا للتدخّل على الفور.

اندفعت بسرعة عبر البوابة، ووقفت عند مدخل الباب المفتوح. «هولتزابفيل!» لم يكن هناك سوى صوت صفارات الانذار وروزا. «هولتزابفيل، اخرجي إلى هنا، أيتها الخنزيرة الهرمة البائسة!». لم تكن الدبلوماسية يوماً نقطة قوة روزا هوبرمان. «إذا لم تخرجي فسنموت جميعنا هنا في الشارع!». استدارت ورأت الشخوص العاجزة وراءها. وقد انتهت صفارة الإنذار من العويل لتوها. «ماذا قررتِ الآن؟».

وقف مايكل مشوشاً ومرتبكاً. وضعت ليزيل حقيبة كتبها على الأرض وواجهته. صاحت مع بداية صفارة الإنذار التالية، «هل يمكنني الدخول إليها؟». إلا أنها لم تنتظر جوابه. ركضت على طول الممر القصير متجاوزة ماما.

بدت السيدة هولتزابفيل متيبّسة بجوار الطاولة.

ماذا سأقول؟ فكّرت ليزيل.

كيف يمكنني إقناعها بالتحرّك؟

عندما توقفت صفارات الإنذار لتلتقط نفَساً آخر، سمعت روزا تنادي من الخارج. «اتركيها يا ليزيل، علينا أن نذهب! إذا أرادت الموت، فهذا قرارها...»، استأنفت صفارات الإنذار دويّها، وطغت على صوت روزا المجلجل.

لم يعد هناك الآن سوى الضجيج، وفتاة يافعة، وامرأة متهالكة.

«سيدة هولتزابفيل، أرجوكِ!».

وبشكل شبيه لما حدث في أثناء محادثتها مع إلسا هيرمان في اليوم

سارقة الكتب

الذي أخذت فيه البسكويت، أصبح دفق من الكلمات والجمل في متناول يدها. والفرق الواضح بين الحالتين، أن اليوم يأتي حاملاً معه خطر القنابل، ما يجعل المسألة أكثر إلحاحاً بقليل.

الخيارات

* «سيدة هولتزابفيل، علينا أن نذهب».
* «سيدة هولتزابفيل، سنموت إن بقينا هنا».
* «ما زال لديكِ ابن لتعتني به».
* «الجميع في الخارج ينتظرونكِ».
* «القنابل سوف تُفجّر رأسكِ وتفصله عن بقيّة جسدكِ».
* «إذا لم تأتِ، فسوف أتوقّف عن القراءة لكِ، وهذا يعني بأنكِ ستخسرين صديقتكِ الوحيدة».

قرّرت في نهاية المطاف اعتماد الجملة الأخيرة. أطلقت كلماتها بشكل مباشرة تزامن مع دويّ صفارات الإنذار. كانت يداها مشدودتين على الطاولة.

نظرت المرأة إليها، واتخذت قرارها. لم تتحرك.

تركتها ليزيل وراءها. حيث سحبت نفسها من جوار الطاولة وهرعت خارجة من المنزل.

فتحت روزا البوابة لها وبدأتا الركض إلى ملجأ المنزل رقم 45. بقي مايكل هولتزابفيل في شارع هيمل، وقد تقطعت به السبل، وعجز لسانه عن نطق أي شيء.

«هيا!» حثّته روزا، إلا أن الجندي العائد تردّد. كان على وشك العودة إلى داخل المنزل عندما أداره شيء ما نحو الجهة الأخرى. يده المشوهة

هي الشيء الوحيد الممسك بالبوابة، وبخزي كبير، سحبها بعيداً، ولحق بروزا وليزيل.

جميعهم نظروا خلفهم عدة مرات، ولكن لم يكن هناك أي أثر للسيدة هولتزابفيل.

بدا الشارع واسعاً جداً، وعندما تبخّر صوت صفارات الإنذار الأخيرة في الهواء، تمكّن آخر ثلاثة أشخاص في شارع هيمل من الوصول إلى قبو آل فيدلر.

«ما الذي أخّركم كل هذا الوقت؟». سأل رودي. وهو يحمل صندوق الأدوات.

وضعت ليزيل حقيبة كتبها على الأرض وجلست عليها. «كنا نحاول إقناع السيدة هولتزابفيل بالقدوم».

نظر رودي حوله: «أين هي؟».

«في مطبخ منزلها».

في الزاوية البعيدة من الملجأ، انحشر مايكل مرتجفاً عند الزاوية. «كان عليّ أن أبقى»، قال، «كان عليّ أن أبقى، «كان عليّ أن أبقى...» صوته أقرب إلى الصمت من الكلام، وعيناه أكثر صخباً من أي شيء آخر. كان يضغط بتوتر على يده المصابة، والدم يسري في الضمادة بغزارة.

روزا هي من تدخّلت لإيقافه.

«أرجوك، مايكل، ليس لكَ ذنب في هذا».

لكن ما من شيء يُمكن أن يخفّف عن الشاب الذي لم تعد لديه سوى بضعة أصابع في يده اليمنى.

«هل يمكن لكِ أن تشرحي لي شيئاً»، قال، «لأنني لا أفهم...».

خرّ على الأرض وأسند ظهره إلى الحائط. «قولي لي يا روزا، كيف

سارقة الكتب

يمكنها أن تجلس هناك وهي مستعدة للموت، بينما ما زلتُ أنا راغباً في العيش؟» أصبحت رقعة الدم أكثر سماكة. «لماذا أريد أن أعيش؟ لا ينبغي لي أن أرغب في العيش، إلا أنني مع ذلك أريد أن أعيش».

بكى الشاب بلا هوادة لعدة دقائق، ويد روزا تحنو على كتفه. بقية الموجودين اكتفوا بالمشاهدة فقط. لم يستطع أن يتوقف البكاء حتى عندما فُتح باب القبو وأُغلق، ونزلت السيدة هولتزابفيل إلى الملجأ.

نظر ابنها إليها.

وأفسحت لها روزا المجال لتقترب.

عندما اجتمعا، اعتذر مايكل. «ماما، أنا آسف، كان ينبغي لي أن أبقى معكِ».

لم تسمع السيدة هولتزابفيل ما قاله، اكتفت بالجلوس فقط مع ابنها وحملت يده المضمدة بين يديها. «أنت تنزف مرّة أخرى»، قالت. وأسوة بالجميع، جلسا وانتظرا.

مدّت ليزيل يدها إلى حقيبتها، وتفحّصت كتبها الغالية على قلبها، لتختار منها ما ستقرأه.

قصف ميونخ، 9 و10 آذار/ مارس

مضى الليل طويلاً مع أصوات القنابل والقراءة. جفّ حلقها، إلا أن سارقة الكتب عكفت على قراءة أربع وخمسين صفحة.

نام أغلب الأطفال ولم يسمعوا صفارات الإنذار التي تُبشّر بعودة الأمان. أيقظهم أهلهم أو حملوهم صاعدين بها درجات القبو، إلى عالم الظلام.

بعيداً، اشتعلت الحرائق، حيث انتهيتُ لتوّي من حمل ما يزيد على مئتي روح مقتولة.

وكنتُ في طريقي إلى مولشينغ لحمل واحدة إضافية.

بدا شارع هيمل صافياً.

فقد مرّت ساعات طويلة قبل أن تُطلق صفارات الإنذار معلنة السلامة، وذلك كتدبير احتياطي في حال وقوع تهديد آخر، وللسماح للدخان بأن يجد طريقه نحو الغلاف الجوي.

بتينا شتاينر هي من لاحظت أولاً الحريق الصغير على مقربة من نهر أمبر وعمود الدخان المتصاعد نحو السماء. رفعت الفتاة الصغيرة إصبعها، قائلة: «انظروا».

صحيح أن الفتاة رأت الحريق أولاً، إلا أن رودي هو مَن تفاعل مع المسألة. وفي خضم عجلته، لم تترك قبضته صندوق الأدوات وهو يعدو إلى أسفل شارع هيمل، ماراً ببعض الطرق الجانبية، وصولاً إلى الأشجار. لحقت به ليزيل (بعد أن أعطت كتبها إلى روزا التي عبّرت عن امتعاضها الشديد)، لحقهما بعد ذلك القليل من الأشخاص الذين خرجوا من الملاجئ على طول الطريق.

«رودي، انتظر!».

إلا أن رودي لم ينتظر.

لم ترَ ليزيل سوى صندوق الأدوات، محمولاً بسرعة بين ثغرات الأشجار، بينما يسير رودي في طريقه نحو التوهج الخافت والطائرة الضبابية، التي تعبق بدخان اشتعالها في فسحة قريبة من النهر. حيث حاول الطيّار الهبوط هناك.

على بعد عشرين متراً، توقّف رودي.

سارقة الكتب

عندما وصلتُ بنفسي إلى المكان، لاحظتُ أنه يقف هناك، محاولاً استعادة أنفاسه.

حول الطائرة، تناثرت أغصان الأشجار المبتورة في الظلام مثل وقود للنار. وإلى اليسار، انحفرت ثلاثة أخاديد عميقة في الأرض. غيّر الحطام المعدني الآخذ في البرودة من مفهوم الدقائق والثواني، حتى بدا وكأنه قد مضت عدّة ساعات على وقوف رودي وليزيل هناك. بدأ حشد متزايد يتجمّع خلفهما، واصطدمت أنفاسهم وجملهم بظهر ليزيل.

«حسناً»، قال رودي، «هلّا نذهب لنلقي نظرة؟».

مشى عبر ما تبقى من الأشجار إلى حيث انغرس جسد الطائرة في الأرض، بينما لامست مقدمتها المياه الجارية، والتوى جناحاها وراءها.

تحرّك رودي ببطء، من ذيل الطائرة نحو يمينها.

«هناك زجاج»، قال، «لقد تحطّم الزجاج الأمامي وتناثر في كل مكان».

أخيراً، رأى رودي الجسد الممزّق في قمرة القيادة.

لم يشاهد رودي شتاينر في حياته وجهاً بهذا الشحوب.

«لا تأتِ يا ليزيل»، إلا أن ليزيل اقتربت على الرغم من ذلك.

بالكاد استطاعت رؤية وجه طيّار العدو بين الحطام الكامن في أحضان الأشجار الباسقة والنهر الجاري. أصدرت الطائرة بضع زمجرات، ومالت مقدّمتها من جهة اليسار نحو اليمين. عندها سمعا صوت الطيّار يُتمتم شيئاً لم يفهماه.

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!»، همس رودي. «إنه على قيد الحياة».

اصطدم صندوق الأدوات بجانب الطائرة، جالباً معه صوت رودي ووقع أقدامه وهو يقترب من الطيّار.

سارقة الكتب

اختفى توهج النار وبدا الصباح ساكناً وأسود اللون، لا يحجبه سوى الدخان الذي سيتلاشى قريباً.

أبقى جدار الأشجار لون ميونخ المحترقة بعيداً. أما رودي، فلم تتآلف عيناه مع الظلام فحسب، بل مع وجه الطيّار أيضاً. عيناه بلون بقع القهوة، وقد غطّت جروح بليغة خدّيه وذقنه. أما زيه العسكري المجعّد فقد تكوّم عند صدره بشكل فوضوي.

وعلى الرغم من نصيحة رودي، فقد أصرّت ليزيل على الاقتراب من الطيّار، وأؤكد لكم بأننا تذكّرنا بعضنا البعض في تلك اللحظة بالضبط.

أنا أعرفكِ، فكرتُ.

أذكر قطاراً وصبياً يسعل، وثلجاً، وفتاة مذهولة.

لقد كبرتِ، فكرتُ، إلا أنني ما زلتُ قادراً على تمييزكِ.

لم تتراجع أو تحاول قتالي، لكنني أعرف أن شيئاً ما جعل تلك الفتاة تُدرك بأنني هناك. هل أمكنها أن تشُم رائحة أنفاسي؟ أم تسمع صوت ضربات قلبي الملعونة التي لا تكف عن الدوران، كجريمة استوطنت صدري المُميت! لا أعرف كيف، إلا أنها عرفتني ونظرت مباشرة إلى وجهي من دون أن تُشيح بنظرها بعيداً.

بدأت السماء بالخروج من الظلام الرمادي نحو الضوء، وتحرّكنا نحن الاثنان على وقع واحد. كلانا لاحظنا الصبي وهو يمدّ يده إلى صندوق أدواته باحثاً بين الصور عن لعبة صفراء صغيرة، محشوة.

بعناية، صعد إلى حيث الرجل المحتضر.

ووضع دمية الدب المُبتسم بحذر على كتف الطيّار. بحيث لامست أذنه حلق الطيّار.

تنفسّ الرجل المحتضر رائحة الدب. وقال باللغة الإنجليزية: «شكراً

لكَ». تفتّحت جروحه العميقة عندما تكلّم، وسالت قطرات صغيرة من الدم بشكل متقطع أسفل حلقه.

«ماذا؟» سأله رودي. «فاس هاست دو غيز\اكت، ماذا قلتَ؟».

لسوء الحظ، سبقتُه أنا إلى الجواب، فقد حان الوقت، ووصلتُ بالفعل إلى قمرة القيادة. ببطء خلّصتُ روح الطيّار من زيه العسكري المحشو بجسده الممزق، وأنقذتها من الطائرة المحطمة. غرق الحشد بالصمت بينما وجدتُ طريقي بينهم، وانطلقتُ حراً.

انكسفت السماء فوقي - مجرّد لحظة أخيرة من الظلام - وأقسم بأنني رأيتُ توقيعاً أسودَ على شكل صليب معقوف. تلكّأتُ هناك لفترة.

«يحيا هتلر»، قلتُ أخيراً، عابراً الأشجار، وتاركاً خلفي دمية دب تستريح على كتف الجثة. وروح الطيّار بين ذراعيّ.

ربما يكون من الإنصاف القول إنه طوال سنوات حُكم هتلر، لم يكن أي شخص قادراً على خدمة الفوهرر بوفاء كما فعلتُ أنا. فلا يملك الإنسان قلباً مثل قلبي. فقلب الإنسان يأخذ شكل خط مستقيم، بينما يأخذ قلبي شكل الدائرة، ولديّ قدرة لا نهائية على أن أكون في المكان المناسب في الوقت المناسب. والنتيجة هي أنني دائماً ما أجد البشر في أفضل حالاتهم وأسوئها. أرى قُبحهم وجمالهم، وأتساءل كيف يمكن للكائن نفسه أن يكون هذين النقيضين في آن واحد. ومع ذلك، فهم يمتلكون شيئاً واحداً أحسدهم عليه: لدى البشر - دائماً وأبداً - القدرة على الموت.

رحلة العودة إلى المنزل

كان ذلك زمن النازفين والطائرات المحطمة ودمى الدببة، إلا أن الربع الأول من عام 1943 بدا أنه سينتهي على خير بالنسبة إلى سارقة الكتب.

في بداية شهر نيسان / أبريل، وبجبيرته التي تصل إلى الركبة، استقلّ هانز هوبرمان قطاراً متجهاً نحو ميونخ. فقد أُعطي أسبوعاً للراحة والترفيه في المنزل قبل انضمامه إلى صفوف موظفي ديوان الجيش في المدينة. حيث سيساعد في الأعمال الورقية الخاصة بتنظيم وتنظيف مصانع ميونخ ومنازلها وكنائسها ومستشفياتها. وسنعرف مع الوقت ما إذا كان سيتم إرساله للقيام بأعمال الترميم. حيث يعتمد كل ذلك على حالة ساقه والمدينة.

وصل إلى المنزل مع حلول الظلام. وذلك بعد يوم مما هو متوقّع، حيث تأخّر القطار بسبب الخوف من غارات جوية. وقف عند باب المنزل رقم 33 في شارع هيمل وشدّ قبضته.

قبل أربع سنوات، جُرّت ليزيل ميمنجر عبر ذلك المدخل عندما جاءت هنا لأول مرّة. كما وقف ماكس فاندينبورغ هناك ومفتاح المنزل ينهش يده.

الآن، حان دور هانز هوبرمان. طرق الباب أربع مرات وفتحته سارقة الكتب.

«بابا، بابا!».

لا بدّ من أنها قالتها مئة مرّة وهي تعانقه في المطبخ من دون أن تفارقه للحظة.

لاحقاً، بعد أن تناولوا الطعام، جلسوا إلى طاولة المطبخ حتى وقت متأخّر من الليل، حيث حدّث هانز زوجته وليزيل ميمنجر عن كل شيء. شرح لهما عن وحدة القوات الجوية الخاصة والشوارع المملوءة بالدخان، والأرواح المسكينة الضائعة والتائهة. حدّثهم عن رينهولد زوكر. المسكين، والغبي. استغرقه الأمر ساعات لسرد كامل التفاصيل.

في الواحدة صباحاً، ذهبت ليزيل إلى سريرها وجاء بابا ليجلس معها، كما اعتاد أن يفعل. استيقظت عدّة مرات للتأكّد من أنه موجود هناك بالفعل، واطمأنت لرؤيته بأم عينيها.

مكتبة أحمد

مرّ الليل هادئاً.

شعرت بدفء سريرها ونعومته التي ازدادت مع تنامي شعورها بالرضى.

نعم، تلك ليلة عظيمة بالنسبة إلى ليزيل ميمنجر، وسيستمر الهدوء، والدفء، والنعومة لمدة ثلاثة أشهر أخرى تقريباً.

إلا أن قصّتها تستمر لستة أشهر.

سارقة الكتب

الفصل العاشر

(سارقة الكتب)

بطولة:

نهاية العالم - اليوم الثامن والتسعون - صانع الحرب - طريقة الكلمات - فتاة مشلولة - اعترافات - كتاب إلسا هيرمان الأسود الصغير - بعض طائرات القفص الصدري - ونُدف الثلج المحترقة

سارقة الكتب

نهاية العالم

(الجزء الأول)

كان المطر ينهمر على شارع هيمل عندما انتهى العالم بالنسبة إلى ليزيل ميمنجر.

السماء تقطر.

مثل صنبور يحاول طفلٌ بأقصى قوته إغلاقه من دون أن يتمكن من ذلك تماماً. في البداية كانت قطرات باردة. شعرتُ بها على يديّ وأنا أمشي في منتصف الطريق من جهة متجر السيدة ديلر.

كنتُ أسمعهم فوقي.

نظرتُ عبر السماء المتلبّدة بالغيوم ورأيتُ طائرات معدنية. شاهدتُ بطونها تنفتح لتبصق القنابل بسلاسة. كانت بعيدة عن إصابة أهدافها بطبيعة الحال. وهذا حالها في كثير من الأحيان.

أمل صغير، وحزين

لم يُرد أحد قصف شارع هيمل.

سارقة الكتب

لن يشرع أحدٌ في قصف مكان يحمل اسم الجنة، أليس كذلك؟
أليس كذلك؟

تسابقت القنابل في طريقها إلى الأرض، وسرعان ما ستبدأ الغيوم بالخَبز محوّلة قطرات المطر الباردة إلى رماد. وسيُغرق الثلجُ الساخن الأرضَ.

باختصار، سوّت القنابل شارع هيمل بالأرض.

تناثرت المنازل من طرف الشارع إلى طرفه الآخر. صورة مؤطرة للفوهرر الجاد جداً تحطّمت وتناثرت على الأرض المدمّرة. إلا أنه بقي على الرغم من ذلك مبتسماً، بطريقته الجادة المعتادة. فقد عرف شيئاً لم نعرفه نحن. إلا أنني عرفتُ بدوري شيئاً لم يعرفه هو.

حدث كُل ذلك والناس نيام.

رودي شتاينر نائم. ماما وبابا نائمان. السيدة هولتزابفيل، السيدة ديلر، تومي مولر. كلهم نائمون. كلهم يحتضرون.

شخص واحد فقط نجا.

نجت لأنها كانت جالسة في قبو تقرأ قصّة حياتها الخاصة، وتتحقّق من وجود أية أخطاء. في السابق، أُعلن أن القبو ضحل جداً ليكون ملجأ، ولكن في تلك الليلة، 7 تشرين الأول/ أكتوبر، كان كافياً. انهالت قذائف الدمار بلا هوادة، وبعد ساعات، عندما ساد الصمت الفوضوي الغريب في بلدة مولشينغ، أمكن لوحدة القوات الجوية الخاصة أن تسمع شيئاً. صدى. في الأسفل هناك، في مكان ما، فتاةٌ تدق على علب الطلاء القصديرية بقلم رصاص.

توقفوا جميعاً، أصاخوا السمع، وعندما سمعوا الصوت مرّة أخرى، بدأوا بالحفر.

من يدٍ إلى يد

كتلٌ من الاسمنت وقرميد السقف. قطعة من جدار مرسوم عليها صورة شمس تقطر باللون الأصفر. أكورديون تعيس، يُحدّق من حقيبته المتآكلة.

ألقوا كل ذلك بعيداً.

عندما أُزيلت قطعة أخرى من الجدار المهشّم، رأى أحدهم شعر سارقة الكتب.

لهذا الرجل ضحكة لطيفة للغاية، كما لو أنه يشهد على ولادة مولود جديد. «لا أستطيع أن أصدّق ذلك، إنها على قيد الحياة!».

عمّ فرح كبير بين الرجال المنهكين، إلا أنني لم أستطع أن أشاركهم حماسهم تماماً.

فقبل وقت قصير، حملتُ روح والدها في يد وروح أمّها في اليد الأخرى.

روحان تتّسمان بالنعومة والرقة الفائقة.

على مسافة أبعد، تكدّس جسداهما، مثل البقية. عينا بابا الفضيتان الجميلتان بدأتا تصدآن بالفعل، أما فم ماما المجعّد فكان نصف مفتوح، ليأخذ على الأرجح شكل شخرة غير مكتملة.

سحب المنقذون ليزيل من تحت الركام، وسارعوا لنفض الأنقاض عن ملابسها. «أيتها الفتاة الصغيرة»، قالوا، «انطلقت صفارات الإنذار بعد فوات الأوان. ماذا كنتِ تفعلين في القبو؟ كيف عرفتِ؟».

ما لم يلاحظوه هو أن الفتاة ما تزال تحمل كتاباً بين يديها. وصرخت صرخة مذهلة لا يُصدرها إلا الأحياء فقط.

«بابا!».

كرّرت مرّة ثانية، وقد تغضّن وجهها بصرخة أعلى مسكونة بخوف أكبر. «بابا، بابا!».

مرّت بينهم من يدٍ إلى يد، وهي تصرخ، وتنوح، وتبكي. حتى لو كانت مصابة بأية جروح، فهي غير قادرة على إدراك ذلك الآن. صارعت لتتحرّر من ثقل أيدي المنقذين، وتبحث هنا وهناك عن أحبابها. لم ينقطع صوت ندائها، وبكائها، وعويلها عن التردّد بنبرة أعلى في كل مرّة.

استمرّت في حمل الكتاب، كما لو أنها تتشبثُ يائسة بالكلمات التي أنقذت حياتها.

اليوم الثامن والتسعون

على امتداد سبع وتسعين يوماً بعد عودة هانز هوبرمان في شهر نيسان / أبريل 1943، سار كل شيء على ما يرام. في كثير من المناسبات، استغرق هانز في التفكير في ابنه الذي يُقاتل في ستالينغراد، لكنه أمل في أن يجري بعض من حظه في دماء ابنه.

في الليلة الثالثة بعد وصوله إلى المنزل، عزف هانز الأكورديون في المطبخ. فالوعد وعد. حيث عبق المطبخ بالموسيقى، ورائحة الحساء، وصدى النكات، وضحكة فتاة تبلغ من العمر أربع عشرة سنة.

«أيتها الخنزيرة»، حذّرتها ماما، «كُفّي عن الضحك بصوت عال. نكاته ليست مضحكة لهذه الدرجة. كما أنها قذرة أيضاً...».

بعد أسبوع، استأنف هانز خدمته العسكرية، وسافر إلى المدينة إلى أحد مكاتب الجيش. قال إن هناك إمدادات جيدة من السجائر والغذاء، كما استطاع أحياناً جلب بعض البسكويت أو المربى الإضافي. مرّت تلك الفترة جميلة مثل الأيام الخوالي. وباستثناء وقوع غارة جوية خفيفة في شهر أيّار / مايو، ورؤية أحدهم وهو يُلقي تحية «يحيا هتلر» هنا أو هناك، فقد كان كل شيء على ما يرام بالمجمل.

إلى أن جاء اليوم الثامن والتسعون.

نبوءة امرأة عجوز

في شارع ميونخ، قالت: «يا يسوع، ومريم، ويوسف! أتمنى ألا يجلبوهم للمرور من هنا. هؤلاء اليهود البائسون، إنهم يجلبون سوء الطالع، إنهم فأل سيئ. في كل مرّة أراهم، أنا أعلم أن الدمار سوف يلحق بنا».

إنها المرأة العجوز نفسها التي أعلنت عن مجيء اليهود في المرة الأولى التي رأتهم فيها ليزيل. عن قرب، بدا وجهها مجعّداً، لكنه أبيض مثل الورق. عيناها بلون أزرق داكن يُشبه لون الأوردة. وفي الواقع فقد أصابت نبوءتها عين الصواب.

في قلب الصيف، شهدت مولشينغ نُذر شؤم تدلّ على ما سيقع من ويلات، والتي تحققّت بالفعل على أرض الواقع، كما تفعل دائماً، وهي: النبوءة المفزعة للمرأة العجوز، والجندي الميّت، ومسير اليهود وأصوات سلاسلهم المجلجلة.

الفرق الوحيد في هذه المرة هو أنه قد تم جلبهم من الاتجاه المعاكس. حيث تم نقلهم من معسكر داخاو إلى بلدة نبلينغ المجاورة لتنظيف الشوارع، والقيام بأعمال التنظيف التي رفض الجيش القيام بها. في آخر اليوم، ساروا مرّة أخرى نحو المعسكر، بطيئين، منهكين، ومهزومين.

كعادتها، بحثت ليزيل عن وجه ماكس فاندينبورغ بين الوجوه، وهي تفكّر في احتمال أن ينتهي به المطاف في داخاو، من دون أن يسير بالضرورة عبر مولشينغ مع باقي اليهود. لم يكن بينهم. ليس في هذه المرّة.

أمهلوا القصّة بعض الوقت فقط، فمن بعد ظهر يوم دافئ من شهر

سارقة الكتب

آب / أغسطس، سيسير ماكس بالتأكيد عبر البلدة مع بقية اليهود. إلا أنه، وعلى عكس الآخرين، لن ينظر إلى الطريق باحثاً عن فتات الخبز، ولن ينظر بشكل عشوائي إلى المتفرجين الألمان من أتباع الفوهرر.

حقيقة تخصّ ماكس فاندينبورغ

سيبحث بين الوجوه في شارع ميونخ عن فتاة تسرق الكتب.

في هذا اليوم من شهر تموز / يوليو، أي في اليوم الثامن والتسعين بعد عودة بابا - وفق حسابات ليزيل - وقفت متأملة الكومة المتحركّة من اليهود البائسين - باحثة عن ماكس. وإن لم يساعدها ذلك في أي شيء آخر، فإنه يخفف على الأقل من ألم الاكتفاء بالمشاهدة.

إنها فكرة مرعبة، ستصف ذلك وهي تكتب في قبو منزلها في شارع هيمل، مدركة أنها فكرة صحيحة تماماً. الألم الناجم عن مشاهدتهم. وماذا عن ألمهم هم؟ الألم المرتبط بالأحذية المتعثرة، والعذاب الذي لا حدود له، والبوابات المنيعة للمعسكر؟

مرّوا من هنا مرّتين خلال عشرة أيام، وبعد فترة وجيزة، ثبتَ أن نبوءة المرأة العجوز في شارع ميونخ صحيحة تماماً. فقد وقعت الكارثة، والمعاناة المرتبطة بها. وإن كان أهل مولشينغ سيلومون اليهود ويعتبرون عبورهم بمثابة نذير شؤم أو تحذير لما سيأتي، فعليهم أن يُلقوا باللائمة الكبرى على الفوهرر وسعيه وراء احتلال روسيا، وذلك بوصفه السبب الرئيس للفاجعة التي شهدها شارع هيمل في وقت لاحق من شهر تموز / يوليو، عندما عُثر على جثة جندي ألماني عائد من القتال في روسيا. كان مُعلقاً من إحدى العوارض الخشبية في مصبغة بالقرب من متجر السيدة ديلر، حيث ترك صاحب المصبغة المهمل باب مصبغته مفتوحاً.

بندول بشري آخر.

ساعة أخرى، توقفت.

24 تموز/ يوليو، الساعة 6:03 صباحاً

المصبغة دافئة، والعوارض الخشبية ثابتة، أما مايكل هولتزابفيل، فقد قفز من على الكرسي كما لو أنه يقفز إلى منحدر سحيق.

الكثير من الناس طاردوني وسعوا إلى لقائي في تلك الفترة. كنت أسمعهم ينادون اسمي، ويطلبون مني أن آخذهم معي. كانت هناك نسبة صغيرة من أولئك الذين يناشدونني بإلحاح هامسين بأصواتهم المشدودة.

«خُذني إليك»، اعتادوا أن يقولوا، من دون أن أمتلك وسيلة لردعهم عن تحقيق مبتغاهم. تملكّهم الخوف بلا شك، إلا أنهم لم يخافوا مني، بل من الإخفاق في مسعاهم والاضطرار إلى مواجهة أنفسهم مرّة أخرى، ومواجهة العالم، ومواجهة أمثالكم.

لم يكن هناك شيء يسعني القيام به.

في متناول أيديهم الكثير من الطرق لتحقيق مآربهم، وعندما ينكبّون على تنفيذ مبتغاهم بشكل جيد جداً، ومهما كانت الطريقة التي يختارونها، فلا أكون في موِقف يسمح لي بالرفض.

أدرك مايكل هولتزابفيل تماماً ما هو مُقدِم على فعله.

قتل نفسه بسبب رغبته في العيش.

بالطبع، لم أرَ ليزيل ميمنجر مطلقاً في ذلك اليوم. وكما هو الحال عادة، فقد أقنعتُ نفسي بأنني مشغول جداً ولا يسعني البقاء في شارع هيمل لفترة أطول للاستماع إلى الصراخ والنواح على الأموات. يكفيني

سارقة الكتب

سوءاً أن يُمسك بي الأشخاص بالجرم المشهود، لذلك أخذتُ القرار المعتاد بالخروج نحو الشمس التي تلوّنت بلون الإفطار.

لم أسمع صوت الرجل العجوز عندما وجد الجثة المعلقة، ولا صوت الأقدام التي تهرع في كل مكان، وصوت الشهقات المتجدّدة مع وصول أشخاص آخرين إلى المكان. لم أسمع رجلاً نحيلاً ذا شارب يقول، «يا للعار! عار لعين...».

لم أرَ السيدة هولتزابفيل وهي تفترش شارع هيمل، وذراعاها مفتوحتان، ووجهها يصرخ في يأس التام. لا، لم أرَ أياً من ذلك - إلى أن عُدت بعد بضعة أشهر وقرأتُ كتاباً يحمل عنوان (سارقة الكتب). وقد توضّح لي أن ما قتل مايكل هولتزابفيل في النهاية ليس يده المصابة أو أية إصابة أخرى، بل الذنب المرتبط برغبته في العيش.

في الفترة التي سبقت وفاته، أدركت الفتاة أنه لا ينام، وأن كل ليلة تُشبه السُم بالنسبة إليه. كثيراً ما أتخيله مستلقياً وهو بكامل يقظته، يتعرّق بين أغطية من الثلج، أو يُشاهد رؤى عن ساقَي شقيقه المبتورتين. كتبت ليزيل أنها حدّثته في بعض الأحيان عن شقيقها، كما فعلت سابقاً مع ماكس، ولكن يبدو أن هناك فرقاً شاسعاً بين سعال تتردّد أصداؤه من مسافات بعيدة، وبين ساقين مبتورتين. كيف يمكنكم مواساة رجل رأى مثل هذه الأشياء؟ هل يمكنكم أن تخبروه بأن الفوهرر فخور به، وأن الفوهرر أحبّه لكل ما فعله في ستالينغراد؟ كيف يمكنكم أن تتجرؤوا حتى على النطق بمثل هذا الهراء؟ يمكنكم فقط السماح له بالكلام. والمعضلة، بطبيعة الحال، هي أن هؤلاء الأشخاص يحتفظون بأهم كلماتهم حتى وقت لاحق، عندما يكون البشر المحيطون بهم سيئوا الحظ بما يكفي ليعثروا على جثثهم المتكتمة، مصحوبة بملاحظة، أو جملة، أو سؤال، أو حتى رسالة. وهذا ما جرى في شارع هيمل في شهر تموز / يوليو من عام 1943.

أمّي العزيزة،

هل يمكن لكِ أن تسامحيني يوماً؟ لم أعُد قادراً على احتمال الحياة لفترة أطول. سأذهب للقاء روبرت، ولا يهمني رأي الدين الكاثوليكي اللعين فيما أنا مُقدم على فعله. لا بدّ أن من يكون هناك مكان في الجنة مخصّص لأولئك الذين اختبروا ما اختبرتُه.

بسبب فعلتي هذه، فقد يخطر لكِ بأنني لا أحبُّك، إلا أنني أحبُّك من دون أدنى شك.

ابنكِ مايكل.

طُلب من هانز هوبرمان نقل الأخبار المؤسفة إلى السيدة هولتزابفيل. وقف عند عتبة منزلها، ولا بدّ من أنها استدركت الخبر من تعابير وجهه. مات ابناها الاثنان في غضون ستة أشهر.

وقفت سماء الصباح ملتهبة خلفه، بينما تجاوزته المرأة الهزيلة راكضة نحو الحشد المتجمهر في شارع هيمل. لا بدّ من أنها نطقت اسم مايكل ما لا يقل عن عشرين مرّة. ووفقاً لسارقة الكتب، فقد عانقت السيدة هولتزابفيل الجثة لمدة ساعة تقريباً. عادت بعدها إلى الشمس المُعمية لشارع هيمل، وافترشته بعد أن عجزت عن متابعة المشي.

شاهدها الناس من بعيد، فمثل هذه المشاهد أسهل دوماً من بعيد.

جلس هانز هوبرمان معها.

وضع يده على يدها، وهي تنهار نحو الأرض القاسية.

سمح لصراخها بأن يملأ الشارع.

بعد مرور وقت طويل، سار هانز معها، بحنو كبير، عبر البوابة الأمامية

سارقة الكتب

لمنزلها. وبغض النظر عن عدد المرات التي أحاول أن أرى ذلك المشهد بشكل مختلف، إلا أنني أعاود دوماً رؤيته بشكل واحد...

عندما أتصوّر مشهد تلك المرأة الثكلى، والرجل الطويل القامة ذي العينين الفضيتين، فأنا أرى دوماً الثلج يتساقط في مطبخ المنزل رقم 31 في شارع هيمل.

صانع الحرب

في مشهد طغت عليه الفساتين السوداء، والعيون الباكية، ورائحة نعش صُمّم حديثاً. وقفت ليزيل مثل البقية، على عشب المقبرة. ومن بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، قرأت إلى السيدة هولتزابفيل مقاطع من كتاب (حامل الأحلام)، المفضّل لدى هذه الجارة التعيسة.

كان يوماً حافلاً حقاً، وفق كل المقاييس.

27 تموز/ يوليو 1943

دُفن مايكل هولتزابفيل، وقرأت سارقة الكتب للمرأة المكلومة. قصف الحلفاء مدينة هامبورغ - وهنا أودّ الإشارة إلى أن هذا العالم محظوظ حقاً لامتلاكي لمثل هذه القدرات الخارقة، فأنا خارق إلى حد ما - حيث لا يمكن لأي أحد أن يحمل ما يقرب من 45,000 شخص خلال مثل هذه المدة القصيرة - ولا خلال مليون سنة بشرية.

بحلول ذلك الوقت، بدأ الألمان يدفعون الثمن بشكل جدّي. وبدأت رُكبتا الفوهرر الصغيرتان ترتجفان قليلاً.

ومع ذلك، لا بدّ لي من قول كلمة حق تجاه ذلك الفوهرر. فهو بالتأكيد رجل ذو إرادة حديدية.

لم يُظهر أي تباطؤ من جهة صُنع الحرب، كما لم يكن يُبدي أي تقاعس في إبادة ومعاقبة ما اعتبره طاعون ألمانيا. وفي حين أن معظم معسكرات الاعتقال قد انتشرت في جميع أنحاء أوروبا، إلا بعضها بقي موجوداً في ألمانيا نفسها.

وفي تلك المعسكرات، كان الكثير من اليهود يُجبرون على العمل، والسير لمسافات مهلكة.

وكان ماكس فاندينبورغ واحداً من هؤلاء اليهود.

طريقة الكلمات

حدث ذلك في بلدة صغيرة من معقل هتلر.

حيث ضُخّ دفق متجدّد من المعاناة المتزايدة، ووصلت قطعة صغيرة منه الآن إلى مولشينغ.

أُجبر اليهود على السير بسلاسلهم في طوابير عبر ضواحي ميونخ، وبشكل ما ارتكبت فتاة يافعة ما لا يمكن تصوّره: شقّت طريقها لتنضم إلى حشد اليهود وتسير معهم. وعندما أبعدها الجنود بعيداً ورموها على الأرض، وقفت مرّة أخرى. وواصلت سيرها.

بدا الصباح دافئاً.

يومٌ جميلٌ آخر لمرور موكب اليهود.

شقّ الجنود واليهود طريقهم عبر عدّة بلدات ووصلوا الآن إلى مولشينغ. هذه المرة، هناك دفعة جديدة من اليهود المنهكين الذي يقصدون داخاو سيراً على الأقدام، وربما يعود السبب وراء جلبهم إلى ضرورة القيام بمزيد من العمل في المعسكر، أو إلى حقيقة موت عدد كبير من السجناء، أو لأي سبب آخر.

سارقة الكتب

وكما فعلت دوماً، ركضت ليزيل إلى شارع ميونخ مع بقية المتفرجين الآخرين.

«يحيا هتلر!».

كان في إمكانها سماع صوت الجندي الأول من بداية الطريق، وقد حرصت على إيجاد طريقها عبر الحشد، للقاء الموكب. أدهشها صوت هذا الجندي المتحمّس، فقد جعل من السماء اللامتناهية سقفاً فوق رأسه، ترتد عنه الكلمات مرّة أخرى، لتهبط في مكان ما على حشد من اليهود المتهالكين.

واحداً تلو الآخر، تفحّصت عيونهم الشارع الذي لا يستكين، وعندما وجدت ليزيل نقطة مراقبة جيدة، توقّفت لتتأمل وجوههم. نقلت نظرها بتأنٍّ من وجه إلى وجه، في محاولة لمطابقة هذه الوجوه مع وجه ذلك اليهودي الذي كتب كتابي (المراقب)، و(قاطفة الكلمات).

تذكّرت شعره الريشي.

لا، شعر يُشبه الغصينات الغضة، هذا ما يبدو عليه عندما لا يكون مغسولاً. ابحثي عن شعر يُشبه الغصينات، وعن عينين غائمتين، ولحية.

يا إلهي كم عددهم كبير!

الكثير من العيون المحتضرة والأقدام المجرجرة.

بحثت ليزيل بينهم، وفي الواقع، فلم تكون ملامح الوجه هي ما كشف ماكس فاندينبورغ. بل هي الطريقة التي كان وجهه يتصرف بها - فهو أيضاً يتفحّص الحشد، في تركيز شديد. توقّفت ليزيل عندما وجدت الوجه الوحيد الذي ينظر مباشرة إلى المتفرجين الألمان، متفحصاً إياهم بإصرار، لدرجة أن الأشخاص الواقفين على جانبي سارقة الكتب لاحظوا ذلك وأشاروا إليه.

«إلى ماذا ينظر هذا السافل؟». قال صوت ذكوري إلى جانبها.

تقدّمت سارقة الكتب نحو الطريق.

لم تُشكّل الحركة يوماً مثل هذا العبء، ولم يكن القلب يوماً حازماً وكبيراً في صدر يافع كما هو لدى ليزيل.

تقدّمت نحو الأمام وقالت بهدوء شديد: «إنه يبحث عنّي».

تبخّر صوتها وغاب بعيداً، في داخلها. كان عليها أن تعاود العثور عليه – وتحتّم عليها سبر أغوارها لتستعيد قدرتها على الكلام مرّة أخرى، وتنطق اسمه.

«ماكس».

«أنا هنا يا ماكس!».

كرّرت بصوت أعلى.

«ماكس، أنا هنا!».

سمعها.

ماكس فاندينبورغ، آب / اغسطس 1943

برز شعره مثل الغُصينات، تماماً كما تذكّرته ليزيل، وظهرت عيناه الغائمتان من بين اليهود الآخرين. عندما وصلت نظراته إليها، حملت معها مناشدات لا تنتهي. لحيته غطّت وجهه، وارتعش فمه وهو يقول الكلمة، الاسم، الفتاة.

ليزيل.

أفلتت ليزيل من الحشد ودخلت سيل اليهود، محاولة التغلغل بينهم إلى أن أمسكت ذراعه بيدها اليسرى.

لاقت وجهه أخيراً.

في تلك اللحظة، تعثّرت، وساعدها اليهودي على الوقوف مجدداً. استهلك ذلك كل قوّته.

«أنا هنا يا ماكس»، قالت مرّة أخرى، «أنا هنا».

«لا أستطيع أن أصدق...»، تقاطرت الكلمات من فم ماكس فاندينبورغ. «يا إلهي كم كبرتِ!». تجلّى حزن عميق في عينيه. واحتشدت الدموع فيهما. «ليزيل... أمسكوا بي منذ بضعة أشهر...». أُصيب صوته بالشلل، إلا أنه مع ذلك جرّ نفسه نحوها. «... بينما كنتُ في منتصف الطريق نحو شتوتغارت».

من الداخل، أخذ سيل اليهود شكل كارثة غامضة من الأذرع، والسيقان، والألبسة المهترئة. لم يرها أي جندي حتى الآن، وحذّرها ماكس. «عليكِ أن تتركيني وتنسي أمري يا ليزيل». حتى أنه حاول دفعها بعيداً عنه، إلا أن الفتاة تشبثت به بقوة. ولم تستطع ذراع ماكس الهزيلة أن تؤثّر عليها أو تقاومها، سارت معه، بين القذارة، والجوع، والارتباك.

بعد خط طويل من الخطوات، لاحظها الجندي الأول.

«مهلاً!» صرخ منادياً. وأشار إليها بسوطه. «أيتها الفتاة، ماذا تفعلين؟ اخرجي من هناك».

عندما تجاهلته تماماً، استخدم الجندي ذراعه لفصل الحشد الملتصق. دفعهم جانباً، وسار في طريقه نحوها. لاحقها وهي تحاول عبثاً الصمود، عندها لاحظت تعبيراً قلقاً ومختنقاً ارتسم على وجه ماكس فاندينبورغ. رأته خائفاً في السابق، ولكن ليس بهذا الشكل أبداً.

أخذها الجندي.

قبضت يده بحزم على ملابسها.

سارقة الكتب

شعرت بعظام أصابعه، وبكل مفصل ينخز جلدها. «قلتُ لكِ تحرّكي من هنا!» أمرها، ومن ثم سارع إلى جرّها نحو الجانب، ودفع بها إلى جدار من الألمان المتفرجين. أصبح الطقس أكثر دفئاً. أحرقت الشمس وجهها. سقطت متألمة، إلا أنها وقفت مرّة أخرى. تمالكت نفسها وانتظرت. ومن ثم عاودت الدخول إلى تيار المعذّبين.

هذه المرة، شقّت ليزيل طريقها من خلف ماكس.

رأت أمامها شعره المميز، وكان بمثابة هدف سعت إلى الوصول إليه مرّة أخرى.

هذه المرّة، لم تواصل السير معه، بل توقفت. في مكان ما داخلها نمت أرواح الكلمات، صعدت، ووقفت بجانبها.

«ماكس»، قالت. استدار وأغلق عينيه بإيجاز بينما تابعت الفتاة كلامها. «كان يا مكان، في قديم الزمان، وفي سالف العصر والأوان، كان هناك شاب غريب، وضئيل الحجم»، قالت، وقبضتاها مشدودتان إلى جانبيها. «ولكن كانت هناك قاطفة كلمات أيضاً».

اليهودي السائر في طريقه إلى داخاو توقّف عن المشي.

وقف ساكناً بشكل تام بينما تجاوزه الآخرون من حوله، وتركوه وحيداً تماماً. بدت عيناه مشوشتين وناريّتين. حيث انتقلت الكلمات من الفتاة إلى اليهودي. تسلقّت إليه، وعشعشت فيه.

في المرة التالية التي تحدثت فيها، تعثرت الأسئلة على فم ليزيل. وصارعت الدموع الساخنة لاحتلال مكانها في عينيها، إلا أنها لن تسمح لها بالخروج. فمن الأفضل لها في هذا الموقف أن تقف حازمة وأبيّة. وأن تدع الكلمات تفعل كل شيء. «هل هذا أنتَ حقاً؟»، قالت. «هل من خدّكَ أنتَ أخذتُ بذرة هذه الشجرة؟».

بقي ماكس فاندينبورغ واقفاً.

لم تخذله ركبتاه، ولم يخرّ إلى الأرض.

توقّف الناس واليهود والغيوم. وقفوا كلّهم كشهود.

وهو واقف، نظر ماكس أولاً إلى الفتاة، ثم حدّق مباشرة إلى السماء التي كانت واسعة وزرقاء ورائعة. شعاع كثيف من ضوء الشمس تساقط عشوائياً، بشكل مذهل، على الطريق. التفتت الغيوم لتنظر وراءها وهي تستعدّ مرّة أخرى للتحرّك. «يا له من يوم جميل!»، قال، وتكسّر صوته إلى قطع لا متناهية. إنه يوم عظيم للموت، يوم عظيم للموت بهذا الشكل.

مشت ليزيل إليه. كانت شجاعة بما فيه الكفاية لتمدّ يدها إلى وجهه الملتحي. «هل هذا أنتَ حقاً يا ماكس؟».

يا لهذا اليوم الألماني الرائع، وحشده المتيقّظ!

سمح لفمه بأن يُقبّل كفها. «أجل يا ليزيل، إنه أنا»، وغرس وجهه في يد الفتاة وبكى على أصابعها.

جاء الجنود، وتجمهرت مجموعة صغيرة من اليهود الوقحين الذين أرادوا رؤية نهاية المشهد.

تلقّى الجلدات وهو واقف.

«ماكس»، بكت الفتاة.

وبينما عاود الجنود سحبها بعيداً، نطقت بصمت:

ماكس.

الملاكم اليهودي.

قالت كل ذلك في قلبها.

ماكسي تاكسي. هذا ما اعتاد صديقكَ في شتوتغارت على مناداتكَ به

سارقة الكتب

بينما تقاتل خصومكَ في الشوارع، هل تذكر؟ كان هذا أنتَ - إنك الصبي ذو القبضة الصلبة، هل تذكر عهدكَ بأن يشعر الموت بثقل قبضتكَ على وجهه عندما يأتي إليك. هل تذكر يا ماكس؟ رويتَ لي كلّ هذه التفاصيل. وأنا أذكر كل شيء...

هل تذكرَ رجل الثلج، يا ماكس؟

أتذكره؟

في قبونا؟

أتذكر الغيمة البيضاء ذات القلب الرمادي؟

ما زال الفوهرر ينزل أحياناً إلى قبونا باحثاً عنك لنزالكَ. إنه يفتقدك، ويشتاق إليك. نحن جميعاً نشتاق إليك.

السوط. والسوط. ولا شيء سوى السوط.

استمر السوط بإرسال الجلدة تلو الأخرى من يد الجندي. أصابت الجلدات وجه ماكس، وجرحت ذقنه، ونحتت حلقه.

وقع اليهودي على الأرض، وتحوّل الجندي الآن إلى الفتاة.

فتح فمه. ورأت أسنانه المثالية.

ذكرى مفاجئة تجسّدت أمام عينيها. تذكّرت ذلك اليوم الذي أرادت فيه أن تقوم إلسا هيرمان، أو على الأقل روزا، بصفعها، ولكن أياً منهما لم تفعل ذلك. أما في هذه المناسبة، فلن يَخيب أملها.

حفر السوط في ترقوتها وعلى طول كتفها.

«ليزيل!».

عرفت مَن هو صاحب هذا الصوت.

بينما يلوّح الجندي بالسوط في يده، لمحت ليزيل رودي شتاينر

سارقة الكتب

المفجوع واقفاً بين جماهير المتفرجين. كان يناديها. أمكنها أن ترى وجهه المعذّب وشعره الأصفر. «ليزيل، اخرجي من هناك!».

إلا أن سارقة الكتب لم تخرج.

أغمضت عينيها وتلقّت الضربة اللاذعة التالية، تلتها واحدة أخرى، إلى أن ضرب جسدها الأرض الدافئة، التي بثّت الحرارة في خدّها.

تناهت إلى سمعها كلمات أخرى، صدرت هذ المرة عن الجندي.

«شتيه آوف، هيا!».

لم تكن الجملة موجّهة إلى الفتاة بل إلى اليهودي. حيث استفاض الجندي بعد ذلك في توجيه الأوامر وكيل الشتائم. «هيا انهض أيها القذر، أيها اليهودي الكلب، انهض، انهض...».

استجمع ماكس قواه ونهض على قدميه.

تذكّر تمارينك الرياضية في القبو يا ماكس.

إنه مجرّد تمرين آخر.

تحرّكت قدماه.

جرّهما ومشى.

ترنّحت ساقاه، ومسحت يداه على علامات السوط، لتهدئة وخزها. وعندما حاول أن يبحث مرّة أخرى عن ليزيل، وضع الجندي يديه على كتفي ماكس النازفين ودفعه إلى الأمام.

وصل الصبي إلى ليزيل أخيراً. جثم قربها بساقيه النحيلتين ونادى إلى يساره.

«تومي، تعال إلى هنا وساعدني. علينا أن نحملها. تومي، أسرع! «حمل سارقة الكتب من عند إبطيها. «ليزيل، هيا، علينا أن نبتعد عن الطريق».

عندما استطاعت الوقوف أخيراً، نظرت إلى الألمان المذهولين ذوي

الوجوه المتجمدة والحديدية. سمحت لنفسها بالانهيار عند أقدامهم، حيث اصطدم جانب وجهها بالأرض، وشعرت بألم لا يوصف.

نظرت بعيداً إلى الطريق، وأمكنها أن ترى الساقين الضبابيتين لآخر يهودي يمشي.

شعرت بوجهها يحترق من الألم، كما وخزها ألم في ذراعيها وساقيها - إنه خدر مؤلم ومرهق في آن معاً.

وقفت.

بدأت المشي بشكل مضطرب، ومن ثم ركضت في شارع ميونخ، لتلحق بالخطوات الأخيرة لماكس فانذينبورغ.

«ليزيل، ماذا تفعلين؟!».

أفلتت من قبضة كلمات رودي، وتجاهلت الأشخاص الذين يراقبونها، كان معظمهم صامتين، مثل تماثيل حجرية تحمل قلوباً نابضة، وتتفرّج على المراحل الأخيرة لماراثون طويل. صرخت ليزيل مرّة أخرى، إلا أنه لم يسمعها. غطى شعرها عينيها. «أرجوك، ماكس!».

على بعد ثلاثين متراً، وفي اللحظة التي استدار فيها جندي ليبحث عنها، جُرّت الفتاة إلى الأرض، حيث قبضت عليها يد من الخلف وشدّها صبي إلى الأرض. سقطت على ركبتيها أولاً، وتلقّى الصبي كلّ لكماتها كما لو كانت هدايا جميلة. لم يبادل ضرباتها القاسية ولكماتها المتكرّرة سوى ببعض الأنين المختصر. تقبّل رودي اللعاب والدموع كما لو أنها تلائم وجهه. والأهم من ذلك، استطاع تثبيتها على الأرض.

في شارع ميونخ، تشابك صبي وفتاة.

ملتويان ومتألمان على الطريق.

معاً، شاهدا البشر يختفون، ويذوبون، مثل حبات غبار تتطاير في الهواء الرطب.

سارقة الكتب

اعترافات

عندما ذهب اليهود، تفرّق رودي وليزيل عن بعضهما البعض، ولم تنطق سارقة الكتب ببنت شفة. لم تكن هناك إجابات عن أسئلة رودي.

لم تعد ليزيل إلى المنزل أيضاً. بل مشت بيأس إلى محطة القطار لتنتظر أباها لساعات. في البداية وقف رودي معها، ولكن حيث أنه ما زال أمامهما ما يقرب من نصف يوم قبل أن يحين الوقت المقرّر لوصول هانز، تطوّع رودي لجلب روزا. في طريق العودة، أخبرها بما حدث. وعندما وصلت، لم تسأل الفتاة شيئاً، فقد حلّت اللغز بالفعل. اكتفت بالوقوف إلى جانبها فقط، وأقنعتها في نهاية المطاف بالجلوس. انتظروا كلهم معاً.

عندما عرف بابا بما جرى، رمى حقيبته، وركل هواء محطة القطار بغضب.

لم يأكل أي منهم في تلك الليلة. انكبّت أصابع بابا على الأكورديون، لتقتل الأغنية تلو الأخرى، ومهما حاول جاهداً، بدا من المستحيل أن يعزف هانز أغنية واحدة بشكل صحيح.

لمدة ثلاثة أيام، بقيت سارقة الكتب في سريرها.

في كل صباح ومساء، طرق رودي شتاينر الباب، واستفسر عمّا إذا كانت ما تزال مريضة. إلا أن الفتاة لم تكن مريضة.

في اليوم الرابع، سارت ليزيل إلى منزل جيرانها، وسألت رودي إن كان يودّ الذهاب معها إلى مكان الأشجار، حيث وزّعا الخبز في العام السابق.

«كان عليّ أن أخبركَ في وقت سابق»، قالت.

وكما وعدت، فقد سارا بعيداً في الطريق الموصل إلى داخاو. ووقفا بين الأشجار. حيث تشكّلت أمامهما أشكال طويلة من الضوء والظل.

وانتشرت مخاريط الصنوبر حولهما مثل البسكويت.

شكراً لكَ يا رودي.

على كل شيء. على المساعدة في إزاحتي من الطريق، لإيقافي عن...

إلا أنها لم تقل أياً من ذلك.

استندت يدها على غصن مائل بجانبها. «رودي، إذا أخبرتكَ بشيء، فهل تعدني بألا تقول كلمة منه لأحد؟».

«بالطبع». أمكنه أن يستشعر الجدية في وجه الفتاة، والثقل في صوتها. استند إلى شجرة بجانبها. «ما القصّة؟».

- هل تعدني؟

- لقد وعدتكِ.

- عدني مرّة أخرى. لا يمكنك إخبار والدتكَ أو أخيكَ أو تومي مولر. لا يمكنك إخبار أي أحد.

«أعدكِ». قالها بجدية.

نظرت إلى الأرض، وحاولت عدّة مرات العثور على النقطة الملائمة لتبدأ بسرد القصّة، انهمكت بقراءة الجمل المتخيلة عند قدميها، وربط الكلمات بمخاريط الصنوبر والأغصان المتكسّرة.

سارقة الكتب

«هل تذكرُ عندما أصبتُ وأنا ألعبُ كرة القدم في الشارع؟»، نطقت أخيراً.

استغرقها الأمر نحو ثلاثة أرباع الساعة لشرح حربين، والأكورديون، والملاكم اليهودي، والقبو. من دون أن تنسى شرح ما حدث قبل أيام فقط في شارع ميونخ.

«لهذا خاطرتِ بالاقتراب من موكب اليهود في اليوم الذي وزعنا فيه الخبز على الأرض. كنتِ تُريدين معرفة ما إذا كان موجوداً بينهم»، قال رودي.

- نعم، بالفعل.

- يا أيها المسيح المصلوب!

- نعم.

بدت الأشجار باسقة، مثلثية الشكل، وغارقة في الصمت.

سحبت ليزيل كتاب (**قاطفة الكلمات**) من حقيبتها، وأرت رودي إحدى الصفحات: كانت تحمل رسماً يُظهر صبياً يحمل ثلاث ميداليات معلّقة حول عنقه.

شعر بلون الليمون، قرأ رودي العبارة. ولامس بأصابعه الكلمات. «هل حدّثتِهِ عني؟».

في البداية، لم تستطع ليزيل الكلام، ربما بفعل الصدمة المفاجئة المتولّدة من اكتشافها لمقدار الحُبّ الذي تكنّه له. أم هل أحبّته منذ البداية؟ من المحتمل. شعرت بأنها مقيّدة عن الكلام، وأرادت أن يُقبّلها، أن يجرّها نحوه ويضمها إليه، ويُقبّلها. لا يهم أين: على فمها، أو رقبتها، أو خدّها، فجسدها بأكمله يتحرّق منتظراً.

قبل سنوات، عندما تسابقا في ميدان السباق المُوحل، كان رودي يُشبه

مجموعة عظام مجمّعة على عجل، مع وجه يحمل ابتسامة صخرية خشنة. أما اليوم، فهو بالنسبة إليها مُعطي الخبز ودمى الدببة. وبطل ألعاب القوى في شبيبة هتلر، الحائز على ثلاث ميداليات. إنه أعزّ صديق على قلبها. وأمامه شهر من الزمن قبل أن يموت.

«بالطبع أخبرتُه عنكَ»، قالت ليزيل.

كانت تودّعه من دون أن تعرف ذلك حتى.

سارقة الكتب

كتاب إلسا هيرمان الأسود الصغير

في منتصف شهر آب / أغسطس، ظنّت أنها ستذهب إلى المنزل رقم 8 في شارع جرانده للحصول على العلاج القديم نفسه.

لتبهج نفسها.

أو على الأقل هذا ما اعتقدته.

مرّ النهار حاراً جداً، ولكن من المتوقع أن تتساقط الأمطار في المساء. في الفصل الأخير منه، ضمّ كتاب (**الإنسان الغريب الأخير**) اقتباساً تذكّرته ليزيل وهي تمشي متجاوزة متجر السيدة ديلر.

(الإنسان الغريب الأخير)، الصفحة رقم 211

تُحرّكُ الشمسُ الأرضَ بشكل دائري. ومرّة تلو أخرى، تُحرّكنا مثل الحساء.

استذكرت ليزيل هذا السطر لأن النهار كان حاراً جداً.

في شارع ميونخ، تذكّرت أحداث الأسبوع الفائتة التي وقعت هنا.

سارقة الكتب

تذكّرت اليهود وهم يتقاطرون على الطريق، بسلاسلهم وأرقامهم وآلامهم. وقرّرت أن هناك كلمة مفقودة من اقتباسها.

هذا العالم هو حساء قبيح، فكّرت.

إنه قبيح جداً لدرجة أعجز فيها عن احتماله.

عبرت الجسر فوق نهر أمبر. وانغمست في مشهد المياه المجيدة الزمرّدية الغنية. أمكنها أن ترى الحجارة في قاع النهر وأن تسمع الأغنية المألوفة للمياه. لا يستحق العالم مثل هذا النهر الجميل.

صعدت التل نحو شارع جرانده. بدت المنازل جميلة وكريهة في آن معاً. واستمتعت بالآلام الصغيرة التي تعبر ساقيها ورئتيها. امشِ بشكل أقوى، فكّرت، وبدأت بالارتقاء، مثل وحش يخرج من تحت الرمال. شمّت رائحة عشب الحي. وشعرت به طازجاً وحلواً، بألوانه الخضراء والصفراء. عبرت الفناء من دون أن تُدير رأسها للتحقّق من أعين الجيران، ولم يراودها أدنى ارتياب.

النافذة.

وضعت يديها على الإطار، ورفعت نفسها بخفة.

هبطت بسلاسة كعادتها.

الكتب والصفحات، يا له من مكان سعيد!

سحبت كتاباً من الرّف وجلست لتقرأه على الأرض.

هل هي في المنزل يا تُرى؟ تساءلت، لكنها في الحقيقة لم تهتم مطلقاً بمعرفة الجواب، ومعرفة ما إذا كانت إلسا هيرمان تُقطّع البطاطس في المطبخ، أو هي خارج المنزل في مكتب البريد، أو تقف بقامتها الفارعة مذهولة فوق رأس ليزيل لتتفحّص ما تقرأه.

ببساطة، لم تعد الفتاة تهتم بعد الآن.

سارقة الكتب

ولفترة طويلة، جلست، ورأت.

بعين مفتوحة، وأخرى غارقة في الأحلام، شهدت على احتضار شقيقها وموته. ودّعت أمها وتخيّلتها تنتظر وحيدة مجيء قطار يحملها إلى عالم النسيان. رأت امرأة هزيلة تفترش الشارع، وصراخها يملأ الأفق، إلى أن تلاشى مثل عملة تدور لتتوقف أخيراً بعد فقدها لزخمها. شاهدت شاباً معلّقاً من عنقه على حبل من ثلوج ستالينغراد. شهدت على موت طيّار حربي في علبة معدنية. ورأت رجلاً يهودياً أمضت معه أجمل ذكرياتها، يسير إلى معسكر اعتقال.

شكّلت تلك الصور العالم، وهو يختمر في رأسها بينما تجلس بصحبة الكتب الجميلة وعناوينها المشذّبة، وتنظر إلى الصفحات الممتلئة عن آخرها بالفقرات والكلمات.

أيها الأوغاد، فكّرت. أيها الأوغاد الجميلون!

لا تجعلوني سعيدة. أرجوكم، لا تغروني بالتفكير أن شيئاً جيداً يمكن أن يتأتى من أي من هذا. انظروا إلى كدماتي. انظروا إلى هذا الجرح. هل ترون الجرح في داخلي؟ هل ترونه يكبر ويتّسع أمام أعينكم، ويسحقني من الداخل؟ لا أريد أن آمل بأي شيء بعد الآن. لا أريد أن أُصلّي بأن يكون ماكس آمناً وعلى قيد الحياة، أو أن أتمنى المِثل لأليكس شتاينر.

لأن العالم لا يستحقهما.

مزقت صفحة من الكتاب وعاودت تمزيقها إلى نصفين.

ثم مزّقت فصلاً كاملاً.

وبعد فترة، لم يعد هناك شيء سوى قصاصات من الكلمات المتناثرة حول ساقيها وجسدها. الكلمات. لماذا وُجِدت أصلاً؟ بدونها، لما كان هناك أي من هذا السوء. بدون الكلمات، لما كان الفوهرر شيئاً، ولما كان

هناك سجناء مقيدون، ولا حاجة إلى العزاء، أو التحايل على الكلمات لجعلنا نشعر على نحو أفضل.

ما نفع الكلمات؟

قالت ذلك بصوت مسموع الآن، موجّهة كلامها إلى الغرفة المضاءة بلون برتقالي. «ما نفع الكلمات؟».

وقفت سارقة الكتب وسارت بحذر نحو باب المكتبة. لم تلقَ أدنى ممانعة من الباب. وجدت الممر غارقاً في فراغ خشبي.

«سيدة هيرمان؟».

ارتد السؤال إليها، وحاول الوصول إلى الباب الأمامي. لم يقطع أكثر من منتصف الطريق، حيث هبط بضعف على ألواح الأرضية اللامعة.

«سيدة هيرمان؟».

لم تُستقبل نداءاتها سوى بالصمت، أغرتها فكرة البحث في المطبخ، علّها تعثر على شيء من أجل رودي. إلا أنها امتنعت عن ذلك. لم يبدُ لها من الملائم أن تسرق الطعام من امرأة تركت لها قاموساً عند نافذة مكتبتها. بالإضافة إلى أنها قد أتلفت للتو واحداً من كتبها، صفحة تلو الأخرى، وفصلاً تلو الآخر. بدا لها أنها قد ارتكبت ما يكفي من الضرر حتى الآن.

عاودت ليزيل الدخول إلى المكتبة وفتحت أحد أدراج المكتب. وجلست لتكتب.

الرسالة الأخيرة

عزيزتي السيدة هيرمان،

كما ترين، فقد كنتُ في مكتبتك مرّة أخرى، وأتلفتُ أحد كتبكِ.

كنتُ فقط غاضبة جداً وخائفة وأردتُ أن أقتل الكلمات. لقد سرقتُ منكِ في السابق، أما الآن فقد دمرتُ ما هو ملككِ. آسفة. ولمعاقبة نفسي، أعتقد بأنني سأتوقّف عن المجيء إلى هنا. هل هذه عقوبة على أي حال؟ فأنا أُحبُّ هذا المكان وأكرهه في الوقت نفسه، وذلك لأنه مليء الكلمات.

كنتِ صديقة لي على الرغم من أنني سببتُ لكِ الأذى، وعلى الرغم من أنني لا أُحتمل (بحثتُ عن معنى هذه الكلمة في قاموسكِ) وأعتقد بأنني سوف أتركِكِ وشأنكِ الآن. أنا آسفة على كل شيء.

وشكراً لكِ مرّة اخرى.

ليزيل ميمنجر

تركت رسالتها الموجزة على المكتب وودّعت الغرفة للمرّة الأخيرة، حيث قامت بثلاث لفات حول رفوف المكتبة، ومرّرت يديها على العناوين. وبقدر ما كرهت تلك الكتب، بقدر ما عجزت عن مقاومتها. قصائص من الورق الممزق تناثرت حول كتاب يحمل عنوان **(قواعد تومي هوفمان)**. وفي نسيم النافذة، تطاير بعض منها صعوداً وهبوطاً.

ما زال الضوء برتقالياً إلا أنه لم يعد قوياً كما كان لحظة وصولها. تلمّست يداها الملمس الأخير لإطار النافذة الخشبية، وشعرت بانقضاض تقلّبات معدتها للمرة الأخيرة، وبوخزة الألم الأخيرة في قدميها جرّاء هبوطها على الأرض، بعد خروجها من النافذة.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى أسفل التل وعبرت الجسر، اختفى الضوء البرتقالي. وبدأت الغيوم تتكدّس.

عندما سارت في شارع هيمل، أمكنها أن تشعر بالفعل بقطرات المطر

سارقة الكتب

الأولى. لن أرى إلسا هيرمان مرّة أخرى في حياتي، فكرّت. لكن سارقة الكتب تُجيد قراءة الكتب وإتلافها أكثر مما تُجيد إطلاق الافتراضات.

بعد ثلاثة أيام

طرقت المرأة باب المنزل رقم ثلاثة وثلاثين وانتظرت.

كان من الغريب بالنسبة إلى ليزيل أن تراها من دون رداء الحمام. فستانها صيفي أصفر اللون وذو زخارف حمراء. وهناك جيب يحمل زهرة صغيرة عليه. لا وجود لصليب معقوف هذه المرّة. حذاؤها أسود. لم يسبق لليزيل أن لاحظت ساقي إلسا هيرمان اللتين بدتا مسبوكتين من الخزف.

«سيدة هيرمان، أنا آسفة لما فعلتُه آخر مرّة في مكتبكِ».

أشارت إليها المرأة لتهدأ. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت كتاباً أسودَ صغيراً. لم يضم في صفحاته قصّة، بل أوراقاً مسطّرة. «بما أنكِ لن تقرئي أياً من كُتبي بعد اليوم، فربما قد ترغبين في كتابة واحد بدلاً عن ذلك. رسالتكِ، كانت...». سلّمت الكتاب إلى ليزيل بكلتا يديها. «يمكنكِ بالتأكيد الكتابة، فأنتِ تكتبين بأسلوب جيد جداً». شعرت بثقل وزن الكتاب الذي يُشبه غلافه غلاف كتاب (اللامبالاة). «أرجوكِ»، نصحتها إلسا هيرمان، «لا تُعاقبي نفسكِ، كما قلتِ بأنكِ ستفعلين. لا تكوني مثلي يا ليزيل».

فتحت الفتاة الكتاب وتلمست ملمس الورق. «دانكه شُن، شكراً جزيلاً لكِ يا سيدة هيرمان. يمكنني أن أُعدّ لك بعض القهوة، إذا أردتِ. هلّا تفضلتِ بالدخول؟ أنا وحيدة في المنزل، فماما عند جارتنا السيدة هولتزابفيل».

«هل أدخلُ من الباب أو عبر النافذة؟».

خطر لليزيل أن هذه ربما أكبر ابتسامة سمحت إلسا هيرمان لنفسها بالاستمتاع بها منذ سنوات. «أعتقد أننا سنستخدم الباب». جلستا في المطبخ.

قدّمت لها فنجان قهوة، وخبزاً مع المربى. كافحتا لإيجاد موضوع للحديث عنه، من دون فائدة. اكتفت ليزيل بالإنصات إلى إلسا هيرمان وهي تتناول ما قُدّم لها. ولكن بطريقة أو بأخرى لم يكن ذلك موقفاً مُربكاً. بل كان من الجميل بالنسبة إلى ليزيل أن ترى المرأة تنفخ بلطف على قهوتها لتُبرّدها.

«إذا ما كتبتُ يوماً شيئاً وأنهيتُه»، قالت ليزيل، «فسوف أُقدّمه لكِ لتقرئيه».

«سيكون هذا لطيفاً».

عندما غادرت زوجة رئيس البلدية، راقبتها ليزيل وهي تمشي في شارع هيمل. شاهدت فستانها الأصفر وحذاءها الأسود وساقيها الخزفيتين.

عند صندوق البريد أمام منزل آل هوبرمان، سأل رودي: «هل هذه مَن أظن أنها هي؟».

- أجل إنها هي نفسها.

- أنتِ تمزحين!

- لقد أعطتني هدية.

كما اتضح، فإن إلسا هيرمان لم تُعطِ ليزيل ميمنجر كتاباً فقط في ذلك اليوم. بل أعطتها سبباً لقضاء بعض الوقت في القبو - المكان المفضّل لديها، حيث قضت أجمل أوقاتها، أولاً مع بابا، ومن ثم مع ماكس. أعطتها سبباً لكتابة كلماتها الخاصة، ولتذكيرها بأن الكلمات قد بعثتها إلى الحياة أيضاً.

سارقة الكتب

«لا تُعاقبي نفسكِ»، سمعتها تقول ذلك مرّة أخرى، ولكن سيكون هناك عقاب وألم، وستكون هناك سعادة أيضاً. وهي السعادة المرتبطة بالكتابة.

في الليل، بعد نوم ماما وبابا، تسلّلت ليزيل إلى القبو وأضاءت مصباح الكيروسين. خلال الساعة الأولى، لم تستطع سوى الاكتفاء بتأمّل القلم والورقة. أجبرت نفسها على التذكّر، وكما هي عادتها، ركّزت ولم تُشح بنظرها بعيداً.

«شْرايِبه»، وجّهت الأوامر لنفسها. «اكتبي».

بعد مضيّ أكثر من ساعتين، بدأت ليزيل ميمنجر الكتابة، من دون أن تكون لديها أدنى فكرة كيف ستقوم بذلك بالشكل الصحيح. أنّى لها أن تعرف أن أحداً ما سوف يأخذ قصتها ويحملها معه في كل مكان؟

ما مِن أحد يتوقّع مثل هذه الأشياء.

فهي أمور يعجز المرء عن التخطيط لها.

استخدمت علبة طلاء صغيرة لتكون بمثابة كرسي لها، وأخرى أكبر حجماً لتكون الطاولة. غمست ليزيل قلمها بين ثنايا الصفحة الأولى، حيث كتبت في وسطها ما يلي.

(سارقة الكتب)

قصّة قصيرة بقلم

ليزيل ميمنجر

طائرات القفص الصدري

تسلّل الألم إلى يدها بعد كتابة ثلاث صفحات.

الكلمات ثقيلة جداً، فكّرت. ولكن مع تقدّم الليل، استطاعت إنجاز إحدى عشرة صفحة.

الصفحة الأولى

أحاول تجاهل ذلك، لكنني أعرف أن كل هذ قد بدأ مع القطار والثلوج وسعال شقيقي. سرقتُ أول كتاب لي في ذلك اليوم. كان دليلاً إرشادياً حول حفر القبور... وقد سرقتُه وأنا في طريقي إلى شارع هيمل...

داهمها النوم هناك، على سرير من الأوراق المكوّمة التي كانت فيما مضى تُشكّل جدار الأمان لماكس، أما أوراق قصّتها فتكوّمت على علبة القصدير الأكبر منتظرة ليزيل لتستيقظ. في الصباح، وقفت ماما فوقها، وعيناها المكلورتان تطرحان مليون سؤال.

«ليزيل»، قالت: «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟».

سارقة الكتب

«كنتُ أكتب يا ماما».

«يا يسوع، ومريم، ويوسف!». عاودت روزا صعود الدرجات. «اصعدي إلى فوق خلال خمس دقائق وإلا سيكون دلو الماء في انتظاركِ لإيقاظك. فيرستشت؟ هل فهمتِ؟»

«فهمتُ».

في كل ليلة، وجدت ليزيل طريقها نحو القبو. وأبقت الكتاب معها في جميع الأوقات. كتبت لساعات، محاولة كل ليلة استكمال عشر صفحات من حياتها. أمامها الكثير من التفاصيل للنظر فيها، وأشياء كثيرة معرّضة لخطر النسيان والإهمال. تحلّي بالصبر، قالت لنفسها. ومع تزايد الصفحات، نمت قدرتها على الكتابة أكثر وأكثر. بل حتى أنها قامت بتضمين نسخة من كتابي ماكس (قاطفة الكلمات) و(المراقب)، مع صورهما وكلماتهما، وأشارت إلى الأشكال المختلفة لاستخدامات كتاب (كفاحي). كما لم تنسَ ذكر أولى الرسومات التي شاهدتها في كتاب ماكس أيضاً - وذلك لتسرد القصّة بالضبط كما تذكّرتها.

في بعض الأحيان، كتبت عمّا كان يدور في القبو في أثناء انشغالها بالكتابة. حيث أنهت للتو الكتابة عن اللحظة التي صفعها فيها بابا على درج الكنيسة، وكيف قاما بإلقاء تحية «يحيا هتلر» معاً. رفعت نظرها عن كتابها، ورأت هانز هوبرمان وهو يضع الأكوردیون جانباً، بعد أن عزف لمدة نصف ساعة انهمكت خلالها ليزيل بالكتابة.

الصفحة رقم 42

جلس بابا معي الليلة. أحضر أكورديونه وجلس بالقرب من المكان الذي اعتاد ماكس الجلوس فيه. غالباً ما أنظر إلى أصابعه ووجهه عندما يعزف. وأرى الأكورديون يتنفّس. ألاحظ دوماً الخطوط على

سارقة الكتب

خديه، فهي تبدو مرسومة. ولسبب ما، تراودني دوماً رغبة في البكاء عندما أراها. ليس لأي حزن أو فخر. فأنا فقط أحبُّ الطريقة التي تتحرّك وتتغير فيها. في بعض الأحيان أعتقد أن بابا هو الأكورديون نفسه. وعندما ينظر إليّ ويبتسم ويتنفّس، أسمعُ العلامات الموسيقية.

بعدَ عشر ليال من الكتابة، قُصفت ميونخ مرّة أخرى. ليلتها، غفَت ليزيل في القبو بعد أن وصل مُجمل عدد الصفحات التي كتبتها إلى 102 صفحة. لم تسمع صوت صفارات الإنذار. وكانت تحتضن الكتاب عندما جاء بابا لإيقاظها. «ليزيل، تعالي». حملت ليزيل كتابها (سارقة الكتب) مع بقيّة كتبها الأخرى، وذهبوا جميعاً لإحضار السيدة هولتزابفيل.

الصفحة رقم 175

طفا كتاب على نهر أمبر، بينما قفز صبي في النهر ليمسكه ويأتي به محمولاً في يده اليمنى. ابتسم ابتسامة عريضة. وقف والمياه الجليدية تصل إلى خاصرته، إنها مياه شهر كانون الأول/ ديسمبر.

قال: «ما رأيكِ في قبلة، أيتها الخنزيرة؟».

بحلول الغارة التالية، في 2 تشرين الأول / أكتوبر، انتهت من كتابة قصّتها. ولم تتبقَ سوى بضع صفحات فارغة. عندها، بدأت سارقة الكتب بمرحلة قراءة ما كتبته، لمراجعته وتدقيقه. حيث قسّمت الكتاب إلى عشرة فصول، وأعطت لكل فصل عنوان الكتاب أو القصّة التي تظهر فيه، ووصفت كيف أثّرت هذه الكتب على حياتها.

في كثير من الأحيان، أتساءل ما هي الصفحة التي وصلت إلى قراءتها عندما وصلتُ أنا إلى شارع هيمل، ومشيتُ تحت المطر المنهمر بغزارة،

وذلك بعد خمس ليال من انتهائها من تأليف كتابها. أتساءل ماذا كانت تقرأ عندما سقطت القنبلة الأولى من القفص الصدري للطائرة الحربية.

شخصياً، أُحبُّ أن أتصوّرها تنظر لفترة وجيزة إلى الجدار، حيث رسم ماكس فاندينبورغ غيمته ذات الحبل المشدود، وشمسه التي تقطر باللون الأصفر، والشخوص التي تمشي نحوها. أتخيّلها تعاود النظر إلى الكلمات التي اعتادت التدرّب على كتابتها على الحائط. أرى الفوهرر ينزل درجات القبو وقفازي الملاكمة مربوطين معاً ومعلقين ببساطة حول عنقه. أتخيّلها تقرأ، وتُعيد قراءة جملتها الأخيرة لعدّة ساعات.

(سارقة الكتب) - السطر الأخير

كرهتُ الكلمات وأحببتُها، وآمل أن أكون قد صنعتها بشكل صائب.

في الخارج، أطلق العالم صفاراته، وتلطّخ المطر.

نهاية العالم

(الجزء الثاني)

تلاشت جميع الكلمات تقريباً الآن. فقد بدأ الكتاب الأسود بالتحلّل تحت ثقل أسفاري. ولهذا السبب قررّتُ أن أسرد لكم هذه القصّة، معتمداً على المبدأ التالي: كرّروا شيئاً عدّة مرات وسيلتصق بذاكرتكم إلى الأبد. علاوة على ذلك، ففي إمكاني أن أخبركم بما حدث بعد أن انتهت كلمات سارقة الكتب، وكيف عرفتُ بقصتها في المقام الأول. وإليكم ما حدث.

تصوّروا أنفسكم تسيرون في شارع هيمل في الظلام. شعركم مُبلل وضغط الهواء من حولكم على وشك التغيّر بشكل جذري. القنبلة الأولى ضربت المبنى الذي توجد فيه شقة تومي مولر. كنتُ أركعُ بجانب سريره وأرى وجهه ينتفض ببراءة وهو نائم. بعد ذلك، انتقلتُ إلى شقيقته، حيث تظهر قدما كريستينا من تحت بطانيتها، وهي تطابق آثار قدمي فتاة كانت في الصباح تلعب الحجلة في الشارع. أصابعها صغيرة. أما أمهما فهي تنام على بعد بضعة أقدام، وفي منفضة سجائرها تقبع أربع سجائر مشوهة.

استحال السقف الذي أصبح بلا سقف إلى لون أحمر يُشبه لون موقد مشتعل. شارع هيمل يحترق...

بدأت صفارات الإنذار بالعواء.

«فات الأوان على هذا الآن»، أهمسُ، فقد خُدع الجميع. شنّ الحلفاء غارة مختلقة على ميونخ لتغطية هدفهم الفعلي بقصف شتوتغارت. حيث اضطلعت عشر طائرات فقط بمهمة قصف ميونخ. أوه، كانت هناك تحذيرات بالفعل، ولكنها متأخرة جداً. وإلى مولشينغ، جاءت الطائرات محمّلة بالقنابل.

إحصاء الشوارع

ميونخ، إلنبرغ، يوهانسون، هيمل.
الشارع الرئيس + ثلاثة شوارع إضافية، في الجزء الأكثر فقراً من البلدة.

في غضون بضع دقائق، اختفت كلها.

فُرمت الكنيسة إلى فُتات.

دُمّرت الأرض التي انتصب فيها ماكس فاندينبورغ على قدميه مكابراً.

في المنزل رقم 31 في شارع هيمل، شعرتُ بأن السيدة هولتزابفيل تنتظرني في المطبخ. كأس مكسور كان موضوعاً أمامها، وفي آخر لحظة من يقظتها، بدا وجهها وكأنه يتساءل فقط لماذا بحق الجحيم استغرقتُ كلّ هذا الوقت لآتي إليها.

على النقيض من ذلك، كانت السيدة ديلر تغطُّ في نوم عميق. تحطّمت نظارتها بجانب السرير. طُمست معالم متجرها. تناثرت منضدة استقبال

سارقة الكتب

الزبائن في الشارع. ورُميت الصورة المؤطرة لهتلر من على الجدار وأُلقيت على الأرض، حيث استحال الرجل إلى عجينة من نثرات زجاجية. وفي الحقيقة، فقد دُستُ عليه وأنا في طريقي للخروج.

أما آل فيدلر، فوجدتهم منظمين جداً، كلاً في سريره، راقدين تحت أغطيتهم.

بيفيكوس كان في فراشه والغطاء يصل ليغطي أنفه.

في منزل آل شتاينر، مرّرتُ أصابعي عبر شعر باربرا الجميل الممشط، وسلبتُ النظرة الجدّية من وجه كيرت النائم. واحداً تلو الآخر قبّلتُ الأطفال الأصغر سناً قبلة النوم.

ومن ثم جاء دور رودي.

أوه، يا للمسيح المصلوب! رودي...

كان نائماً في السرير إلى جانب إحدى شقيقاته، إنها بتينا. لا بدّ من أنها ركلته أو وجدت طريقة لتحتل المساحة الأكبر من الفراش، فقد وجدتُه على حافة السرير وذراعه تلفها. الصبي نائم، وشعره الأصفر يُضيء السرير، حملتُه مع بتينا. روحاهما ما تزالان دافئتين في البطانية. وعلى الأقل، فقد ماتا بسرعة. تذكّرتُ بأنه الصبي الذي رأيتُه عند الطائرة، الصبي ذو دمية الدب. مَن سيواسي رودي الآن؟ مَن سيُهدّئ من روعه بينما يُسحب بساط الحياة من تحت قدميه النائمتين؟

ليس هناك أحد سواي.

لستُ ناجحاً جداً في مثل هذه الأمور، أقصد المواساة والسلوى، ولا سيما عندما يكون سرير الميّت دافئاً، ويداي باردتان. حملتُه بهدوء عبر الشارع المدمّر، بعين دامعة وقلبٍ يعبق بالموت. تأمّلتُ روحه للحظة، ورأيتُ صبياً مدهوناً باللون الأسود ينادي اسم جيسي أوينز وهو يقطع

سارقة الكتب

شريطاً وهمياً لخط نهاية وهمي. رأيتُه غارقاً حتى خصره في مياه جليدية محاولاً مطاردة كتاب. رأيتُه مستلقياً في سريره، وهو يتخيّل كيف سيكون مذاق قبلة من جارته المذهلة. لهذا الصبي تأثير قوي عليّ. ففي كل مرّة أتذكّره فيها، أشعر به يدوس على قلبي، ويدفعني إلى البكاء.

وأخيراً، آل هوبرمان.

هانز.

بابا.

بدا طويل القامة في السرير، واستطعتُ أن أرى الفضة عبر جفنيه. روحه مستيقظة لتلاقيني. فذلك النوع من الأرواح يفعل هذا دائماً - إنها الأفضل، إنها الأرواح التي تنهض لتقول لي: «أعرفُ من أنتَ وأنا مستعدة. لا أريد أن أذهب بالطبع، إلا أنني سآتي مع ذلك». هذه الأرواح هي دوماً خفيفة لأن أكثرها قد أُخمدت، ووجدْت طريقها بالفعل إلى أماكن أخرى. كانت هذه الروح تحمل نَفَس الأكورديون، والطعم الغريب لشمبانيا صيفية، وتُتقن فن الحفاظ على الوعد. حملتُه بين ذراعيّ واستراح. شعرتُ برئتيه تتحرقان لسيجارة أخيرة، وأحسستُ بروحه تنجذب بقوة هائلة نحو القبو، حيث تقبع فتاة - ابنته التي تكتب كتاباً هناك في الأسفل، وقد أمِل في أن يقرأه يوماً ما.

ليزيل.

همست روحه الاسم وأنا أحمله. ولكن لم تكن هناك ليزيل في ذلك البيت - ليس بالنسبة إليّ، على أي حال.

بالنسبة إليَّ كانت هناك روزا فقط. نعم، أعتقد حقاً بأنني أخذتها وهي في منتصف شخرة من شخراتها القوية، ففمها كان مفتوحاً، وشفتاها الورديتان الرقيقتان ما تزالان في طور الحركة. لو أنها رأتني، فأنا متأكدٌ

سارقة الكتب

من أنها كانت لتصفني بالخنزير، ولم أكن لأشعر بالامتعاض أو الغضب، فبعد قراءة (سارقة الكتب)، اكتشفتُ بأنها قد وصفت الجميع بالخنازير. وخاصة الأشخاص الذين أحبّتهم. شعرها المتمغط كان مُسدلاً على الوسادة، وجسدها يرتفع مع ضربات قلبها. لا تخطئوا، فالمرأة كانت صاحبة قلب. وقلبها أكبر مما ظن الكثيرون. فقد ضم بين جنباته الكثير من المحبة المخزنة في رفوف مخفية تمتد أميالاً. تذكّروا بأنها المرأة نفسها التي احتضنت الأكورديون في ليلة طويلة مُقمرة غاب فيها هانز. وهي بلا أدنى شك مُطعمة اليهودي الذي حضر إليهم يطلب المساعدة. وهي نفسها التي مدّت ذراعها إلى عمق فراشها لتُقدّم كتاب رسومات إلى فتاة في سن المراهقة.

الحظ الأخير

تنقّلتُ من شارع إلى شارع، وعدتُ من أجل رجل واحد يُدعى شولتز، ويسكن في آخر شارع هيمل.

لم يتمكّن من الصمود داخل منزله المنهار. وأنا أحملُ روحه في شارع هيمل، سمعتُ رجال القوات الجوية الخاصة يصرخون منفعلين.

تشكّل واد صغير بين سلسلة جبال من الأنقاض.

بدت السماء الساخنة حمراء ومتحوّلة. وبدأت شرائط بلون الفلفل تُشكّل دوامة. أصابني الفضول. نعم، نعم، أعرف ما قلتُه لكم في البداية. عادة ما يُوصلني فضولي إلى أن أشهد على نوع محزن من المآسي البشرية. وعلى الرغم من أن المشهد قد حطّم قلبي، إلا أنني كنتُ، وما أزال، سعيداً لأنني كنتُ هناك.

عندما سُحبت من القبو، بدأت بالصراخ والعويل على هانز هوبرمان.

حاول رجال القوات الجوية الخاصة الإبقاء عليها بين أذرعهم المغبرّة، إلا أن سارقة الكتب تمكّنت من الإفلات منهم، فغالباً ما يكون البشر اليائسون قادرين على القيام بذلك.

ركضت من دون أن تُدرك وجهتها، فشارع هيمل لم يعد موجوداً. كل شيء بدا جديداً ومروّعاً. لماذا كانت السماء حمراء اللون؟ كيف يمكن لها أن تُثلج؟ ولماذا أحرقت نُدف الثلج ذراعها؟

تباطأت ليزيل، ومشت مترنّحة محاولة التركيز على ما هو أمامها.

أين هي السيدة ديلر؟ فكّرت. أين؟

هامت على وجهها لفترة قصيرة، قبل أن يُمسك بها الرجل الذي سحبها من تحت الأنقاض. قال لها: «أنتِ في حالة صدمة يا طفلتي. إنها مجرد صدمة، سوف تكونين على ما يرام».

«ماذا حدث؟» سألت ليزيل. «هل ما يزال هذا شارع هيمل؟».

«نعم». تحمل عينا الرجل لون خيبة الأمل. يا تُرى ما الذي شاهده خلال السنوات القليلة الماضية، حتى أصبحت عيناه بهذا الشكل؟ «هذا هو شارع هيمل. لقد تعرّضتم للقصف يا طفلتي. إس توت مير لايد، شاتسي. أنا آسف يا عزيزتي».

هام فم الفتاة تائهاً، وأصبح جسدها ساكناً الآن. نسيت نواحها السابق على هانز هوبرمان. بدا وكأن ذلك قد حدث قبل سنوات خلت - نعم، يمكن للقصف أن يفعل ذلك. قالت: «علينا أن نُحضر بابا، وماما. علينا أن نُخرج ماكس من القبو. وإن لم يكن هناك فسيكون في الردهة، ينظر عبر النافذة. إنه يفعل ذلك في بعض الأحيان عندما تكون هناك غارة - فلا تسنح له الفرصة عادة للنظر إلى السماء، هل تفهمني؟ عليّ أن أُخبره كيف يبدو الطقس الآن. أنا متأكدة من أنه لن يصدقني...».

تلوّى جسدها في تلك اللحظة وانهار، أمسكها رجل القوات الجوية الخاصة وأجلسها بجانبه. «سنقوم بنقلها بعد دقيقة واحدة»، قال للرقيب. نظرت سارقة الكتب إلى ما كان ثقيلاً ومؤلماً في يدها.

الكتاب.

الكلمات.

أصابعها تنزف، تماماً كما كانت يوم وصلت إلى هنا للمرّة الأولى.

ساعدها رجل القوات الجوية الخاصة على النهوض وبدأ يقودها بعيداً. رأت ملعقة خشبية تحترق. وتجاوزها رجل يحمل حقيبة أكورديون محطمة. رأت ليزيل الآلة في داخلها، شاهدت أسنانها البيضاء والمفاتيح السوداء بينها: بدت وكأنها تبتسم. نبّهتها الآلة إلى واقعها الجديد. لقد قُصفنا، فكّرت. استدارت نحو الرجل الذي يسير إلى جانبها وقالت: «هذا أكورديون بابا». وكرّرت مرّة أخرى. «هذا أكورديون بابا».

«لا تقلقي يا فتاتي، أنتِ بأمان، تعالي لنبتعد قليلاً فحسب».

إلا أن ليزيل لم تأتِ.

نظرت إلى حيث أخذ الرجلُ الأكورديون ولحقت به. تحت السماء الحمراء، التي ما تزال ترمي برمادها الجميل، أوقفت عامل القوات الجوية الخاصة طويل القامة، وقالت: «سوف آخذ هذا لو سمحت، إنه يخص أبي». وبهدوء، أخذته من يد الرجل وحملته. في تلك اللحظة رأت الجثة الأولى.

سقطت حقيبة الأكورديون من يديها. ودوّى صوت ارتطامها بالأرض.

رأت على الأرض الجسد الممزق للسيدة هولتزابفيل.

استدارت على عقبها ونظرت أبعد ما تستطيع على طول هذه القناة المدمّرة التي كانت فيما مضى شارع هيمل. رأت رجلين يحملان جثة، وتبعتهما.

عندما رأت بقية الجثث، سعلت ليزيل. استمعت لحديث أحد الرجال وهو يخبر الآخرين بأنهم وجدوا إحدى الجثث مقطعة إلى أشلاء، عند إحدى أشجار القيقب.

أجالت نظرها على الوجوه الممزقة. الشعر الليموني هو أول شيء رأته.

رودي؟، فكّرت.

«رودي؟»، صرخت.

كان ممدداً بشعره الأصفر وعينيه المغلقتين. ركضت سارقة الكتب نحوه، وانهارت عند جسده. أوقعت الكتاب الأسود من يدها. «رودي!»، أجهشت بالبكاء، «استيقظ...» أمسكته من قميصه وهزّته غير مصدقة. «استيقظ، رودي!»، استمرّت السماء بإمطار الرماد الحار، وأمسكت ليزيل بقميص رودي شتاينر. «رودي، أرجوك!». تصارعت الدموع مع وجهها. «رودي، أرجوك، استيقظ، اللعنة، استيقظ، أنا أحبّك. هيا، رودي، هيا، جيسي أوينز، ألا تعرف بأنني أحبّك، استيقظ، استيقظ، استيقظ...» ولكن من دون طائل.

أكوام من الركام أحاطت بها، تلال خرسانية مصطبغة باللون الأحمر. وفتاة جميلة، مضطربة، وباكية تهزّ الموتى.

«هيا، جيسي أوينز...». إلا أن الصبي لم يستيقظ.

سارقة الكتب

غير مصدّقة، دفنت ليزيل رأسها في صدر رودي. احتضنت جسده النحيل، إلى أن اضطرّت أخيراً إلى إعادته بلطف إلى الأرض المذبوحة.

ببطء. ببطء شديد.

«يا إلهي، رودي...».

انحنت عليه، ونظرت إلى وجهه الهامد.

طبعت ليزيل قبلة رقيقة وصادقة على فم أفضل صديق لديها، رودي شتاينر. شعرت بطعمه مترباً وحلواً، وجاءت القُبلة بطعم الندم على القُبل التي لم تتحقّق تحت ظلال الأشجار، وفي توهج فوضى البزّات الرسمية في متجر والده. قبّلته قبلة طويلة وناعمة، وعندما رفعت رأسها، لمست فمه بأصابع يديها المرتجفتين. انحنت عليه مرّة أخرى، وعاودت تقبيله بين أحضان العالم المهدّم لشارع هيمل.

لم تقل له وداعاً، فقد عجزت عن ذلك. وبعد مرور بضع دقائق، استجمعت القوة الكافية لتمزيق نفسها عنه. تُدهشني حقاً قدرة البشر، وقوتهم، حتى عندما تتدفق الدموع على وجوههم، وهم مرتبكون، ويسعلون. وهم يبحثون، ويجدون.

الاكتشاف التالي

جثتا ماما وبابا، متشابكتان في حضن شارع هيمل الغارق في الدمار.

لم تركض ليزيل أو تمشي أو تتحرك على الإطلاق. تفحّصت عيناها الجثث من حولها، وتوقفت بهدوء عندما لاحظت الرجل الطويل القامة والمرأة القصيرة. هذه ماما. وهذا بابا. صعقتها الكلمات.

«إنهما لا يتحركان»، قالت بهدوء. «إنهما لا يتحركان».

سارقة الكتب

أدركتُ في تلك اللحظة أنها لا ترتدي حذاءً. يا له من تفصيل تافه لملاحظته في ذلك الوقت! ربما كنتُ أحاول تجنّب النظر إلى وجهها، لأن سارقة الكتب كانت حقاً في حالة من الفوضى والحزن التي لا طاقة لي على احتمالها. مشت خطوة، وعلى الرغم من أنها لم تُرد أن تمشي أكثر من ذلك، إلا أنها فعلت. ببطء شديد، مشت ليزيل إلى ماما وبابا وجلست بينها. أمسكت بيد ماما وبدأت تتحدث إليها: «هل تذكرين عندما جئتُ إلى هنا يا ماما؟ تمسكّتُ بالبوابة وبكيتُ، وأبيتُ الدخول. هل تذكرين ما قلتِه يومها للجميع في الشارع؟». تهدّج صوتها الآن. «قلتِ لهم: إلى ماذا تنظرون أيها الحمقى؟». لمست معصم أمها. «ماما، أنا أعلم أنكِ... أحببتُ كيف أتيتِ إلى المدرسة لتخبريني بأن ماكس قد استيقظ. هل تعلمين بأنني رأيتكِ تحتضنين أكورديون بابا؟». شدّت قبضتها على اليد المتصلبة. «أتيتُ وشاهدتكِ. كم كنتِ جميلة! اللعنة، كنتِ جميلة جداً يا ماما».

لحظات طويلة من التهرّب

بابا. لم تستطع، ولم تتجرّأ على النظر إلى بابا.
ليس بعد. ليس الآن.

كانت عينا بابا بلون الفضة. لم تحملا لون الموت.

إنه مثل الأكورديون!

وقد ألفى الآن من دون أدنى نَفَس.

بدأت تتأرجح الآن من الأمام إلى الخلف. علامة موسيقية هادئة ومألوفة تاهت في مكان ما على فمها إلى أن استطاعت أخيراً الاستدارة نحو بابا.

في تلك المرحلة، لم أعد أتمالك نفسي. مشيتُ، لرؤيتها بشكل أفضل. عندما رأيتُ وجهها، أدركتُ أن هذا هو الشخص الذي أحبّته أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم. غرق وجهها في تفاصيل وجه الرجل. وتتبّعت أحد الخطوط المحفورة على خده. احتضنها عندما كانت مذعورة في أول يوم لها هنا، وعلّمها كيف تلف السجائر، وقدّم الخبز لرجل محكوم بالموت في شارع ميونخ، وطلب من الفتاة أن تستمر بالقراءة في الملجأ. ربما لو لم يطلب ذلك، لما انتهى بها المطاف وهي تكتب في القبو.

بابا - عازف الأكورديون - وشارع هيمل.

لا يمكن لأحدهم أن يوجد من دون الآخر. من وجهة نظر ليزيل، مجموعهم هو الوطن. نعم، هذا ما يختصره هانز هوبرمان بالنسبة إلى ليزيل ميمنجر.

استدارت وتحدثت إلى رجل القوات الجوية الخاصة.

«من فضلكَ»، قالت: «هل يمكنكَ أن تجلب لي أكورديون بابا؟».

بعد بضع دقائق من الارتباك، أحضر الرجل الحقيبة المتكسّرة. فتحتها ليزيل، وأزالت الآلة المصابة ووضعتها بجانب جسد بابا. «إليكَ يا بابا».

يمكنني أن أصف لكم ما حدث حينها، فهي رؤية شاهدتها في عيني سارقة الكتب بعد سنوات عديدة: عندما ركعت ليزيل بجانب هانز هوبرمان، رأته يقف، ويحمل أكورديونه بين جبال من المنازل المدمّرة، ويعزف عليه كعادته. رأت عينيه الفضيتين، والسيجارة المتراخية على شفتيه. سمعته يُخطئ بالعزف، ويضحك ضحكته الجميلة. تنفّس المنفاخ، وعزف الرجل الطويل القامة من أجل ليزيل ميمنجر للمرّة الأخيرة، بينما خرجت السماء ببطء من عمق الموقد المشتعل.

استمِر في العزف يا بابا.

إلا أنه توقّف.

أسقط الأكورديون وبدأت الصدأ يُصيب عينيه الفضيتين. لم تكن أمامها الآن سوى جثة هامدة ممدّدة على الأرض. رفعته ليزيل وعانقته. وبكت على كتفه.

«وداعاً يا بابا، لقد أنقذتني... لقد علّمتني كيف أقرأ... لا يمكن لأحد أن يعزف مثلكَ... لن أشرب الشمبانيا في حياتي... لا يمكن لأحد أن يعزف مثلك».

ضمّته إليها، وقبّلت كتفه – لم تعد قادرة على احتمال النظر إلى وجهه المحبب بعد الآن. مدّدته على الأرض. وبكت إلى أن انتُزعت بلطف بعيداً.

لاحقاً، تذكّر رجال القوات الجوية الخاصة جلب الأكورديون، ولكن لم يلاحظ أحد الكتاب.

كان هناك الكثير من العمل الذي يتعيّن القيام به، وبالتالي عُومل كتاب (**سارقة الكتب**) مثل الآلاف من الأشياء الأخرى التي تعثّر بها رجال القوات الجوية الخاصة مئة مرّة قبل أن تُجمع من دون إلقاء نظرة عليها، وتُلقى في نهاية المطاف على متن شاحنة لجمع القمامة. بسرعة، وقبل أن تغادر الشاحنة إلى مقصدها، صعدتُ إليها على عجل وأخذتُ الكتاب...

إنه محظوظ لوجودي هناك.

ولكن مَن أخدع هنا؟ فأنا أتواجد في معظم الأماكن لمرّة واحدة على الأقل، وفي عام 1943 كنتُ في كل مكان تقريباً.

الخاتمة

اللون الأخير

بطولة:

الموت وليزيل - بعض الدموع الخشبية - ماكس - ورجل التسليم

سارقة الكتب

سارقة الكتب

الموت وليزيل

مرَّت سنوات عديدة منذ أن حدث كل ذلك، ولكن ما زال هناك الكثير من العمل الذي يتعيّن عليّ القيام به. فأنا أرى العالم كمصنع تُحرّكه الشمس، ويحكمه البشر. بينما أبقى أنا موجوداً دائماً لأحملهم بعيداً.

وفيما يخصّ بقية هذه القصّة، فلن أماطل فيها أكثر من ذلك، لأنني متعبٌ، متعبٌ جداً. سأرويها لكم كما حدثت ودون إطالة قدر استطاعتي.

حقيقة أخيرة

عليّ أن أخبركم بأن سارقة الكتب قد تُوفيت البارحة.

عاشت ليزيل ميمنجر لسنوات عديدة، وتقدّمت بالعمر كثيراً، في مكان بعيد عن مولشينغ ودمار شارع هيمل.

تُوفيت في إحدى ضواحي سيدني. حمل منزلها الرقم خمسة وأربعون – وهو رقم منزل آل فيدلر الذي كان ملجأ لآل هوبرمان في أثناء الغارات. وصلتُ إليها بعد الظهر، والسماء تتألق بأزهى ألوان الأزرق. مثلُ أبيها، وجدتُ روحها جالسة تنتظرني.

في رؤاها الأخيرة، رأت أطفالها الثلاثة، وأحفادها، وزوجها، والقائمة الطويلة من الحيوات التي اندمجت مع حياتها. وأطلّ - مثل الفوانيس المضاءة - كلٌّ من هانز وروزا هوبرمان، وشقيقها، والصبي الذي ظل شعره بلون الليمون إلى الأبد.

بعض الرؤى الأخرى كانت هناك أيضاً.

تعالوا معي وسوف أروي لكم قصّة.

سأريكم شيئاً.

مكتبة أحمد

خشب ما بعد الظهر

عندما أُخلي شارع هيمل، لم يكن أمام ليزيل ميمنجر أي مكان لتذهب إليه. وقد أشار الجميع إليها بوصف الفتاة ذات الأكورديون.

اصطحبها رجال القوات الجوية الخاصة إلى مركز الشرطة، وانشغل رجال الشرطة بمسألة البت بمصيرها، وتقرير ما ينبغي القيام به.

جلست على كرسي قاسٍ جداً. بينما حدّق الأكورديون بها من خلال ثقب في الحقيبة المتهالكة.

استغرق الأمر ثلاث ساعات من الانتظار في مركز الشرطة قبل أن يظهر رئيس البلدية وزوجته ذات الشعر المنفوش. «الجميع يقولون بأن هناك فتاة...»، قالت السيدة، «نجت من قصف شارع هيمل». أشار الشرطي إلى الفتاة.

عرضت إلسا هيرمان حمل حقيبة الأكورديون، إلا أنّ ليزيل قبضت على الحقيبة بحزم وهم ينزلون درجات مركز الشرطة. على بعد بضعة مبان سكنية في شارع ميونخ، شاهدت ليزيل خطاً واضحاً يفصل بين المناطق المقصوفة، وبين تلك المحظوظة.

سارقة الكتب

قاد رئيس البلدية سيارته.

وجلست إلسا مع ليزيل في الخلف.

سمحت الفتاة لإلسا بأن تضم يدها فوق حقيبة الأكورديون المتموضعة بينهما.

كان من السهل ألا تقول شيئاً، إلا أن ليزيل أظهرت رد فعل مغاير عند التعامل مع مصيبتها ودمارها. حيث جلست في إحدى الغرف المذهلة من منزل رئيس البلدية، وتكلّمت مطولاً – مع نفسها – على امتداد شطر طويل من الليل. لم تأكل سوى القليل جداً فقط. والشيء الوحيد الذي لم تفعله مطلقاً هو الاستحمام.

على مدى أربعة أيام، حملت على ثيابها وجسدها بقايا شارع هيمل، ناثرة إياها على سجّاد وأرضية المنزل رقم 8 في شارع جرانده. نامت لساعات طويلة من دون أن تراودها أية أحلام، وفي معظم المناسبات كان استيقاظها مدعاة حزن لها. حيث يختفي كل شيء عندما تنام.

أتى يوم الجنازات، وهي لمّا تستحم بعد. سألتها إلسا هيرمان بأدب ولطف وبشكل مباشر فيما إذا كانت ترغب في ذلك. حيث كانت قد اكتفت قبل ذلك بأن تُريها مكان الحمام وتعطيها منشفة.

الأشخاص الذين حضروا عزاء هانز وروزا هوبرمان تحدثوا دوماً عن الفتاة التي وقفت هناك مرتدية ثوباً جميلاً وطبقة من غبار شارع هيمل. كما سرت إشاعة أيضاً في وقت لاحق من ذلك اليوم، مفادها أن ليزيل ميمنجر قد خاضت بكامل ملابسها في نهر أمبر، وقالت شيئاً غريباً جداً.

شيئاً عن قُبلة.

شيئاً عن خنزيرة.

كم مرّة كان عليها أن تقول وداعاً؟

مرّت أسابيع وشهور، والكثير من الحرب. تذكّرت كتبها في أسوأ لحظات حزنها، واشتاقت على الأخص إلى تلك التي صُنعت خصيصاً من أجلها، وإلى ذلك الكتاب الذي أنقذ حياتها. في صباح أحد الأيام، وفي حالة صدمة متجددة، سارت إلى شارع هيمل للبحث عن كتبها. لكن لم يبقَ هناك شيء. لم تكن هناك أية بوادر تدلّ على التعافي مما حدث. وسيستغرق ذلك عقوداً، سيستغرق حياة طويلة.

أُقيم حفلا تأبين لعائلة شتاينر. الأول فور دفنهم. والثاني بمجرّد عودة أليكس شتاينر، حيث أُعطي إجازة عقب واقعة القصف.

منذ أن وصلته الأخبار، أضنى الهم والتعب أليكس وبراه.

«يا للمسيح المصلوب!»، قال، «ليتني سمحتُ لرودي بالذهاب إلى تلك المدرسة». وفي الواقع، تكمن المصيبة عندما تفترضون بأنكم تنقذون مَن تُحبّون، لتكتشفوا في نهاية المطاف بأنكم قد ساهمتم بقتلهم بشكل ما.

لكن، أنّى له أن يعرف؟

الشيء الوحيد الذي يعرفه حقاً هو أنه مستعد لفعل أي شيء ليكون في شارع هيمل في تلك الليلة، وينجو رودي بدلاً منه.

أخبر ليزيل بذلك وهما جالسان على درجات منزل رقم 8 في شارع جرانده، حيث هرع إلى هناك بعد سماعه بخبر نجاتها.

في ذلك اليوم، بدا أليكس شتاينر مفجوعاً ومحطماً.

أخبرته ليزيل بأنها قبّلت شفتي رودي. أحرجها قول ذلك، إلا أنها اعتقدت بأن أليكس قد يرغب في معرفة ذلك التفصيل. لطالما ذكّرني أليكس بشجر البلوط، وفي ذلك اليوم، انهمرت دموع خشبية على خده، وارتسمت على ثغره ابتسامة بلوطية. كانت السماء – التي شاهدتُها من خلال رؤى ليزيل – رمادية ولامعة، وقد تلوّن بعد ظهر ذلك اليوم بلون الفضة.

ماكس

عندما انتهت الحرب وسلمّ هتلر نفسه إلى ذراعيّ، استأنف أليكس شتاينر العمل في متجره للخياطة. لم يولّد له أدنى دخل يُذكر، إلا أنه شغَل نفسه بالعمل هناك لبضع ساعات كل يوم. كثيراً ما رافقته ليزيل، حيث يُمضيان العديد من الأيام معاً، ويسيران غالباً نحو معسكر داخاو بعد تحريره، فقط ليجدا الأميركيين في انتظارهما - فهم يمنعون أي أحدٍ من الاقتراب من المعسكر.

وأخيراً، في شهر تشرين الأول / أكتوبر من عام 1945، دخل إلى المتجر رجل ذو عينين غائمتين، وشعر ريشي، ووجه حليق نظيف. اقترب من طاولة الاستقبال، وسأل: «هل هناك فتاة هنا تُدعى ليزيل ميمنجر؟».

«نعم، إنها في الخلف»، قال أليكس، الذي أراد أن يعرف معلومات أكثر. «هل لي أن أسأل مَن يسأل عنها؟».

خرجت ليزيل.

تعانقا، وبكيا، وانهارا إلى الأرض.

سارقة الكتب

رجل التسليم

نعم، رأيتُ أشياء كثيرة في هذا العالم. وقفتُ شاهداً على أعظم الكوارث، وعملتُ لصالح أشرّ الأشرار.

ولكن هناك لحظات أخرى.

هناك العديد من القصص (مجرّد حفنة، كما سبق وأشرتُ) التي أسمح لها بأن تُلهيني وأنا أعمل، تماماً كما تفعل الألوان. حيث أجدها في أكثر الأماكن نحساً وأقلها احتمالاً، واحرص على تذكّرها في خضم انشغالي بأداء مهامي وأعمالي. وكتاب (سارقة الكتب) هو إحدى هذه القصص.

عندما سافرتُ إلى سيدني لآخذ ليزيل بعيداً، كنتُ قادراً أخيراً على فعل شيء انتظرتُه لفترة طويلة. أنزلتُها وسرنا معاً على طول شارع أنزاك، بالقرب من ملعب كرة القدم. أخرجتُ كتاباً أسودَ مُترباً من جيبي، وقدّمتُه لها.

دُهشت المرأة العجوز. حملته بين يديها وقالت: «هل هذا حقاً ما أظن أنه هو؟».

أومأتُ موافقاً.

بخوف كبير، فتحت كتاب (سارقة الكتب) وأجالت نظرها على صفحاته. «لا أستطيع أن أصدق...» وعلى الرغم من أن النص قد تلاشى تماماً، إلا أنها استطاعت قراءة الكلمات التي خطّتها هي بنفسها. لمست أصابع روحها القصّة التي كُتبت منذ زمن طويل في قبو يقع في شارع هيمل.

جلست على الرصيف. وجلستُ بجانبها.

«هل قرأته؟». سألتني من دون أن تنظر إليّ. فعيناها مثبتتان على الكلمات.

أومأتُ: «مراتٍ عديدة».

«هل استطعت أن تفهمه؟».

وفي تلك اللحظة، هبط علينا صمت عميق.

مرّت عدّة سيارات، في كلا الاتجاهين، كان سائقوها من أمثال هتلر، وآل هوبرمان، وماكس، والقتلة، والسيدة ديلر، وآل شتاينر...

أردتُ أن أقول أشياء كثيرة لسارقة الكتب، أن أحدّثها عن الجمال والوحشية. ولكن ماذا في وسعي أن أقول لها عن تلك الأمور التي عرفتها واختبرتها بالفعل؟ أردتُ أن أشرح لها بأنني دائماً ما أُبالغ في تقدير الجنس البشري، أو التقليل من شأنه - وبأنني نادراً ما أقدّره حق قدره ببساطة. أردتُ أن أسألها كيف يمكن للشيء نفسه أن يكون قبيحاً جداً وجميلاً جداً في آن معاً، وكيف يمكن لكلماته أن تمتلك هذا القدر من القوة التدميرية والروعة الفائقة في الوقت عينه؟

إلا أنّ شفتيّ لم تنطقا بأيٍّ من هذه الأفكار.

كل ما كنتُ قادراً على فعله هو النظر إلى ليزيل ميمنجر وإخبارها

باليقين الوحيد والحقيقة الوحيدة التي أُدرك كنهها حقاً. قلتُها لسارقة الكتب وها أنا أقولها لكم الآن.

ملاحظة أخيرة من الراوي

أنا مسكون بالبشر.

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك جديد الكتب

سارقة الكتب

ماركوس زوساك (Markus Zusak)

كاتب أسترالي من مواليد عام 1975. صدر له خمسة أعمال، نُشرت أعماله في كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة، وأوروبا، وترجمت إلى أكثر من أربعين لغة. وهو يعيش حالياً في سيدني.

حازت أعماله على عدد كبير من الجوائز، وتصدر كتابه «سارقة الكتب» قائمة الكتب الأفضل مبيعاً في النيويورك تايمز لأكثر من عشر سنوات.

Twitter: @Markus_Zusak

Facebook: /markuszusak

Instagram: @markuszusak

Tumblr: http://www.zusakbooks.com

شاركونا آراءكم عن سارقة الكتب على:

#TheBookTheif

#سارقة_الكتب

سارقة الكتب

داليه مصري

مترجمة سوريَّة من مواليد دمشق عام 1985، حصلتْ على درجة البكالوريوس في اللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة دمشق عام 2006، وهي تعمل منذ ذلك الحين في مجال الترجمة.

لديها العديد من الترجمات في المجال الثقافي، والفني، وفي مجال الدراسات والأعمال، من خلال تعاونها مع عدد من المؤسَّسات والمنظَّمات المحلِّية والعربية والدولية، ولديها كذلك عدد من الترجمات المنشورة بالتعاون مع هيئات عربية، منها على سبيل المثال: هيئة متاحف قطر، ومؤسَّسة الشارقة للفنون، ودائرة الثقافة والإعلام في حكومة الشارقة التي منحتها شهادة تقدير عن مجمل مساهماتها في مجال الترجمة.

سارقة الكتب

فتاة..
عازف أكورديون..
بعض الألمان المتعصبين..
ملاكم..
سرقات متعددة...

هم أبطال قصة احتفظت بها لأعيد سردها مراراً وتكراراً، واحدة من قصص كثيرة تحاول كل منها أن تثبت لي أنكم أنتم، ووجودكم الإنساني، أمر يستحق كل هذا العناء.

إذا كانت لديكم الرغبة في تقصّي تفاصيل هذه القصّة، فتعالوا معي وسوف أروي لكم قصّة.

سأريكم شيئاً...

الموت

مكتبة ٣٢١

ISBN 978-9933-540-53-1
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

سارقة الكتب